

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ

لِلإِمَامِ الْعَلَامَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ حَجَّةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

أَبِي الْوَلِيدِ السَّمْعَانِيِّ

مَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ التَّمِيمِيِّ الْمُرُوزِيِّ السَّافِعِيِّ

(٤٢٦ ~ ٤٨٩)

المجلد الأول

من الفاتحة إلى النساء

تحقيق

أبي تميم ياسر بن إبراهيم

دار الوطن

الرياض - شارع المعذر - ص.ب. : ٣٣١٠

٤٧٩٢٠٤٢ ☎ - فاكس : ٤٧٦٤٦٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع محفوظة
لدار الوطن للنشر

تنبيه : يحظر نسخ أو استعمال أي جزء من أجزاء هذا الكتاب بأي وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية ، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي أو التسجيل على أشرطة أو سواها ، وكذلك حفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر .

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

دار الوطن للنشر-الرياض

هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢- فاكس: ٤٧٤٦٥٩- ص.ب: ٣٣١٠ الرمز البريدي: ١١٤٧١

وقال ابن السمعاني :

هو إمام عصره بلا مدافعة ، وعديم النظر في فنه ، ولا أقدر على أن أصف بعض مناقبه ، وصنف التفسير الحسن المليح الذي استحسنته كل من طالعه .
وقال الذهبي :

الإمام العلامة مفتي خراسان شيخ الشافعية ، تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة ، وكان شوكة في أعين المخالفين ، وحجة لأهل السنة .
وقال السبكي :

الإمام الجليل ، العلم الزاهد الورع ، أحد أئمة الدنيا ، الرفيع القدر ، العظيم المحل ، المشهور الذكر ، أحد من طبق الأرض ذكره ، وعبق الكون نشره .
وقال محب الغافر :

هو وحيد عصره في وقته فضلا ، وطريقة ، وزهدا ، وورعا .
وقال ابن العماد :

وله تفسير جيد حسن

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد

فإن أعظم ما تصرف فيه الأوقات، وينشغل به أهل الهمم العاليات هو القرآن العظيم؛ لأنه كلام الله الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذى أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التى بها صلاح المخلوقات، وهو الصراط المستقيم الذى لا تميل به الأراء، والذكر الحكيم الذى لا تزيع به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملأه الأتقياء.

وقد تجلّى الله تعالى فيه لعباده بصفات الكمال، ونعوت الجلال، فعرفوا أنه منزّه عن المثال، وبرىء من النقائص والعيوب، له كل اسم حسن وكل صفة كمال، وعرفوا أنه أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، وأنه الرزاق ذو القوة المتين. وأن له العزة جميعاً والقوة جميعاً، والجود كله، والإحسان كله، والعلم كله، وأنه فعّال لما يريد وقد أنزل الله كتابه ليعرّف عباده به، وبصراطه الموصل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه. وأنزله لنقرأه تدبراً، ونتأمله تبصراً، وليس ذلك إلا بالإقبال عليه وتفهمه، وتدبر آياته واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه.

ولما كان ذلك لا يتحصل إلا بفهم معنيه ومعرفة غوامض كلماته، وأسباب نزول آياته، والمحكم من الآيات والمتشابه، والإحاطة بالمشهور والشاذ من قراءاته. والسبيل إلى ذلك إنما يكون بالعناية بالكتب التى صنف فى علم التفسير، ومطالعتها ودراستها.

فظهرت أهمية نشر المؤلفات التى عنيت بهذا الفن، وإخراج ما اندثر من كتب التراث التى صنف فى هذا العلم.

وانطلاقاً من هذه المعانى، وتحملًا لجزء يسير من هذه الأمانة نقوم بنشر هذا السفر العظيم النفع، والنفيس فى هذا الفن، ألا وهو كتاب « تفسير القرآن » لأبى المظفر بن السمعانى، رحمه الله. والذى يتميز بسلاسته، وصفاء عقيدته، مما يجعله سهل التناول للطالب المبتدىء، والعالم المنتهى، فنسأل الله - تبارك وتعالى - أن يوفقنا فى إخراجه فى أحسن صورة فهو ولى ذلك والقادر عليه.

ترجمة المصنف (١)

نسبه ومولده:

هو الإمام الجليل العلامة، وحيد عصره، ومفتي خراسان، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن جعفر بن أحمد بن عبد الجبار بن الفضل بن الربيع بن مسلم التميمي المروزي السمعاني.

ولد في مدينة مرو الشاهجان، وأعظم مدن خراسان في ذي الحجة سنة ست وعشرين وأربعمائة هجرياً.

شيوخه وتلامذته:

سمع أباه أبا منصور محمد بن عبد الجبار، وأبا غانم أحمد بن علي الكراعي، وأبا بكر بن عبد الصمد الترابي، وعبد الصمد بن المأمون، وأبا صالح المؤذن، وأبا علي الشافعي، وأبا القاسم الزنجاني، وغيرهم.

وروى عنه أبو بكر محمد، وأبو محمد الحسن، وأبو القاسم أحمد - أولاده، وعمر بن محمد السرخسي، وأبو نصر محمد بن محمد الفاشاني، ومحمد بن أبي بكير السنجي، وإسماعيل بن محمد التيمي، وأبو نصر الغازي، وخلق كثير.

مصنفاته:

له مصنفات كثيرة حسان منها:

١- الأحاديث الألف الحسان

قال عنه أبو سعد بن السمعاني: جمع «الأحاديث الألف الحسان» من مسموعاته عن مائة شيخ، عن كل شيخ عشرة أحاديث.

(١) انظر ترجمته في:

الأنساب (٢٩٩/٣)، المنتظم (١٠٢/٩)، واللباب (١٣٨/٢ - ١٣٩)، ووفيات الأعيان (٢١١/٣)، وسير أعلام النبلاء (١١٤/١٩ - ١١٩)، والعبر (٣٢٦/٣)، وطبقات السبكي (٣٣٥/٥ - ٣٤٦)، والبداية (١٥٣/١٢)، وطبقات المفسرين (٣٣٩/٢ - ٣٤٠)، والرسالة المستطرفة (ص ٤٣)، وشذرات الذهب (٣٩٣/٣ - ٣٩٤)، وهداية العارفين (٤٧٣/٢)، كشف الظنون (٤٤٩/١).

٢- الاصطلام

قال عنه أبو سعد بن السمعاني: المختصر الذي سار في الأفاق والأقطار الملقب بـ «الإصطلام» ورد فيه على أبي زيد الدبوسي، وأجاب على الأسرار التي جمعها.

٣- الأمالي في الحديث.

قال الذهبي: وله الأمالي في الحديث.

قال أبو سعد السمعاني: وأملى المجالس في الحديث، وتكلم على كل حديث بكلام مفيد.

٤- الانتصار بالأثر.

٥- الأوسط في الخلاف.

٦- البرهان:

قال أبو سعد بن السمعاني عنه: وهو قريب من ألف مسألة خلافية.

٧- كتاب التفسير؛ وهو كتابنا هذا:

قال عنه حفيده الحافظ أبو سعد بن السمعاني: صنف التفسير الحسن المليح الذي استحسنته كل من طالعه.

وقال ابن العماد؛ وله تفسير جيد حسن.

٨- الرد على القدريّة.

٩- الطبقات.

قال ابن العماد: وله الطبقات أجاد فيه وأحسن.

١٠- القواطع في أصول الفقه.

قال عنه أبو سعد بن السمعاني: وهو يغني عما صنف في ذلك الفن.

وقال السبكي: ولا أعرف في أصول الفقه أحسن من كتاب «القواطع» ولا أجمع، كما لا أعرف فيه أجل ولا أفحل من «برهان» إمام الحرمين، فبينهما عموم، وخصوص.

١١- منهاج أهل السنة.

ثناء العلماء عليه :

قال حفيده أبو سعد بن السمعاني : « إمام عصره بلا مدافعه، وعديم النظير في فنه، ولا أقدر على أن أصف بعض مناقبه، ومن طالع تصانيفه، وأنصف؛ عرف محله من العلم ».

وقال عبد الغافر في تاريخه : « هو وحيد عصره في وقته، فضلاً وطريقةً، وزهداً وورعاً، من بيت العلم والزهد، تفقه بأبيه، وصار من فحول أهل النظر، وأخذ يطالع كتب الحديث، وحج ورجع وترك طريقته التي ناظر عليها ثلاثين سنة، وتحول شافعيًا ».

وقال إمام الحرمين : « لو كان الفقه ثوباً طاوياً؛ لكان أبو المظفر السمعاني طرازه ».

وقال أبو علي الصفار : « إذا ناظرت أبا المظفر، فكأنني أناظر رجلاً من أئمة التابعين؛ مما أرى عليه من آثار الصالحين ».

وقال الذهبي في السير : « الإمام العلامة، مفتي خراسان شيخ الشافعية، تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة، وكان شوكة في أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة ».

وقال السبكي : « هو الإمام الجليل، العلم الزاهد الورع، أحد أئمة الدنيا، أبو المظفر ابن الإمام أبي منصور بن السمعاني، الرفيع القدر، العظيم المحل، المشهور الذكر، أحد من طبق الأرض ذكره، وعبق الكون نشره ».

وفاته

وكانت وفاته في يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وعاش ثلاثاً وستين سنة؛ رحمه الله.

عقيدته :

وإذا تكلمنا عن عقيدة أبي المظفر السمعاني - رحمة الله - فيجب أن ننوه؛ إلى أن عقيدته، ومباحثه العقائدية؛ هي أهم ما تميز به هذا التفسير، وهو من التفسير القليلة التي اهتمت ببيان عقيدة أهل السنة والجماعة، والرد على أهل البدع والأهواء، ودحض شبهاتهم، وأباطيلهم.

والمطلع فى هذا الكتاب يتجلى له هذا الأمر جيداً، فما من آية من القرآن اتخذها أهل البدع والأهواء دليلاً لنصرة مذهبهم، أو صرفوها عن ظاهرها وأولوها، إلا رأيتهم متصدياً لهم مبطلًا لبدعهم، ومنتصراً لمذهب أهل السنة والجماعة، ومبيناً الحق فى المسألة، وقد أكثر من ذلك على مدار تفسيره كله.

فنجده حين تكلم عن ماهية الإيمان وحقيقته قال :

والإيمان فى الشريعة يشمل على الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان - (٤٣ / ١) .

وهذا هو تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

ورد على من يخرج الاعتقاد من جملة الإيمان؛ حيث قالوا: أنه يكفى فى الحكم بالإيمان لمن نطق وأقر باللسان، كما فى (٤٧ / ١) فقال عند قول الله تعالى: ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ - سورة البقرة - نفى الإيمان عنهم؛ حيث أظهروا الإسلام باللسان، ولم يعتقدوا بالجنان.

وهذا دليل على من يخرج الاعتقاد من جملة الإيمان.

ورد على المرجئة حيث أخرجوا العمل من مسمى الإيمان كما فى (١٥٠ / ١) حيث قال عند قول الله تعالى: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أى: صلاتكم، فجعل الصلاة إيماناً، وهذا دليل على المرجئة، حيث لم يجعلوا الصلاة من الإيمان، وإنما سموا مرجئة لأنهم أخرجوا العمل عن الإيمان.

وكما أنه أحكم تعريف الإيمان، والكلام على أقسامه، ورد على المخالفين لمذهب أهل السنة؛ فقد تكلم عن الكفر، وتعريفه، وبيان أنواعه كما فى (٤٥ / ١ - ٤٦) .

هذا فى بيان مجمل الإيمان، والكفر، ثم فصل ذلك على مدار كتابه وفصل الكلام عن أنواع التوحيد، وأقسامه، كما فى (٥٦ / ١ ، ٥٧) وبين أن الإتيان بتوحيد الربوبية وحده لا يكفى للحكم على الإيمان كما فى (٧١ / ٣) ، (٨٦ / ٣) .

ولما كانت مسائل الأسماء والصفات هى أكثر مسائل الخلاف فى الاعتقاد بين أهل السنة، وأهل الفرق نجد أن المصنف قد عنى بتفصيل هذه المسائل جيداً.

فتراه حين يرد اسم لله - عز وجل - فى أول موضع يتكلم عن معنى هذا الاسم

كما فى (٣٣/١ - ٣٤) فتكلم عن اسم «الرحمن، والرحيم»، و (١/٢٥٧، ٢٩١) عن معنى الحى القيوم، و (٣٦/١ - ٣٧) حيث تكلم عن اسم «مالك، ملك»، و (١/١٦١) عن معنى «الواحد»، و (١/١٤١) عن معنى العزيز، و (٢/٤٥١) حيث تكلم عن معنى «الودود»، و (٣/٤٧) عن معنى «الوكيل»، و (٣/٦٨) عن معنى «اللطف»، و (٣/٨٧) عن معنى «الواحد القهار»، وأفرد فى (١/١٦١) مسألة فيما جاء فى اسم الله الأعظم، وعندما يتكلم عن صفاته - سبحانه وتعالى - نجد أنه قد اهتم ببيان مذهب أهل السنة فى إثباتها، وإمرارها كما جاءت فى القرآن دون تأويل أو تشبيه أو تعطيل، ورد على من فعل ذلك، وخص من بين ذلك مسائل كثر الجدل فيها، وزلت فيها الأقدام مثل:

مسألة الاستواء: فقال فى (٢/٨٦) عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾: أول المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأنشدوا فيه:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

وأما أهل السنة فيتبرءون من هذا التأويل، ويقولون: إن الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف، والإيمان به واجب، كذلك يحكى عن مالك بن أنس، وغيره من السلف أنهم قالوا فى هذه الآية:

الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ولما تكلم عن قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ من سورة «يونس» (٢/٣٦٤) قال: قد بينا مذهب أهل السنة فى الاستواء، وهو أنه، نؤمن به، ونكل علمه إلى الله - تعالى - من غير تأويل ولا تفسير.

وأما المعتزلة فإنهم أولوا الاستواء بالاستيلاء، وهو باطل عند أهل العربية.

وكذا قال عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ من سورة «طه» (٣/٣٢٠): المذهب عند أهل السنة أنه يؤمن به، ولا يُكَيَّف... الخ.

وقال عن إثبات صفة الاستعلاء: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ من سورة النحل: قال بعضهم معناه: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، والقول الثانى - وهو الأصح - أن هذه صفة العلو التى تفرد الله بها، وهو كما وصف به

نفسه من غير تكييف .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ من سورة الأنعام (٩٣/٢) قال: هو صفة الاستعلاء الذى لله - تعالى - الذى يعرفه أهل السنة .

وعن صفة العلم لله - تعالى - قال: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ من سورة النساء (٥٤/١) أى: مع علمه، كما يقال: جاءنى فلان بـسيفه، أى: مع سيفه، وفيه دليل على أن لله علماً، وهو صفته، خلاف قول المعتزلة خذلهم الله .

وعن صفة الكلام: قال عند تفسيره لقوله - تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ من سورة النساء (٥٠٢/١ - ٥٠٣): إنما كلمه بنفسه، من غير واسطة، ولا وحى، وفيه دليل على من قال: إن الله خلق كلاماً فى الشجرة فسمعه.... إلى أن قال:

وهذا مذهب أهل السنة أنه سمع كلام الله حقيقة، بلا كيف .

وقال وائل بن داود: معنى قوله: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ أى: مراراً، وكلاماً بعد كلام .

وعن صفة الإتيان والمجيء لله - تعالى - : فعند تفسيره لقول الله - تعالى - ﴿هل ينظرون إلا أن يأتهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة﴾ من سورة البقرة (٢١٠/١ - ٢١١) قال: والأولى فى هذه الآية، وما يشاكلها أن نؤمن بظاهرة، ونكل علمه إلى الله - تعالى - وننزه الله سبحانه وتعالى - عن سمات الحدث والنقص .

وعن إثبات صفة اليد لله تعالى: قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ من سورة المائدة (٥١/٢ - ٥٢) قال أهل العلم: ليس فى هذا رد على اليهود فى إثباتهم اليد لله - تعالى - وإنما الرد عليهم فى نسبته إلى البخل، وأما اليد فصفة لله - تعالى - بلا كيف، وله يدان، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: كلتا يديه يمين . والله أعلم بكيفية المراد .

وعن إثباته لصفة الوجه لله - تعالى - : قال عند تفسير قوله - تعالى - ﴿ فثم وجه الله ﴾ من سورة البقرة (١ / ١٢٩) : وقد ذكر الله - تعالى - الوجه في كتابه في أحد عشر موضعاً، وهو صفة لله - تعالى - وتفسيره قراءته والإيمان به .

وعند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ من سورة الأنعام (٢ / ١٠٨) .

قال ابن عباس : أى يريدون إياه بالطاعة، ويريدون خالص وجهه، والوجه صفة لله - تعالى - بلا كيف؛ وجه لا كالوجه .

وعند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ من سورة القصص (٤ / ١٤٦) أى : إلا هو، وعن سفيان بن عيينه قال : كل ما وصف الله به نفسه في الكتاب، فتفسيره قراءته، لا تفسير له غيره .

وقد ذكر الله - تعالى - الوجه في أحد عشر موضعاً من القرآن، وقد بينا أنه صفة من صفات الله يؤمن به على ما ذكره الله - تعالى - .

وعن إثبات الرؤية لله تعالى في الآخرة : قال عند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ . (٢ / ١٣٢ - ١٣٣) : استدل بهذه الآية من يعتقد نفى الرؤية، قالوا : لما مُدِحَ بأنه لا تدركه الأبصار فمدحه على الأبد في الدنيا، والآخرة، واعلم أن الرؤية حق على مذهب أهل السنة وقد ورد به القرآن والسنة ... الخ .

وعند تفسيره لقوله : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ من سورة المطففين، قال : وفي الآية دليل على أن المؤمنين يرون الله تعالى، وقد نقل هذا الدليل عن مالك والشافعي، رحمة الله عليهما .

وهكذا لا يمر المصنف، رحمه الله - على آية أو قول لله تعالى يجد فيه مجالاً للرد على أهل البدع، وإبطال قول الملحددين في أسماء الله، وصفاته إلا انتصر لمذهب أهل السنة من سلف هذه الأمة وبين زيغ المبطلين .

وكان كما قال الإمام الذهبي - رحمه الله - : متعصباً لأهل الحديث والسنة والجماعة، وكان شوكة في أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة . وانظر رده على الفرق

الضالة والمخالفة لأهل السنة في هذا التفسير، وقد أكثر من الرد على القدرية كما في (١/٣٦٧، ٣٦٩، ٤٢١، ٤٥١)، (٢/١٥٢ - ١٥٣، ١٩٦) و(٣/٨٣، ٩١، ٩٩ - ١٠٠، ١٣١، ١٧١، ٢٣١) وغير ذلك كثير، وقد صنف في الرد على القدرية كتاباً منفصلاً يزيد على عشرين جزءاً.

وأكثر أيضاً من الرد على المعتزلة، والجهمية، والخوارج، والكرامية، والشيعة، والروافض، ومن قال بتناسخ الأرواح.

كما تجد هذا مبسوطاً في تفسيره، والمقام لا يسمح بالتفصيل أكثر من هذا.

ونختم الكلام على عقيدته - رحمه الله - بذكر ما نقله عنه تلميذه النجيب النابغ، والإمام الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني صاحب كتاب «الترغيب والترهيب»، وكتاب «سير السلف الصالح»، والذي جعل كلام المصنف أصلاً من أصوله في إثبات عقيدة أهل السنة، والرد على المبتدعة، وذلك في كتابه «الحجة في بيان المحجة في شرح عقيدة أهل السنة».

والذي أكثر فيه من النقل عن أبي المظفر السمعاني في العقيدة، والحديث.

فقد نقل عنه في كتابه (١/٣٢٠ - ٣٢٢) ما نصه:

«واعلم أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع، والمأثور تبعاً للمعقول، وأما أهل السنة قالوا: الأصل في الدين الاتباع؛ والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بنى على المعقول لجاز للمؤمنين ألا يقبلوا شيئاً حتى يعقلوا! ونحن إذا تدبرنا عامة ما جاء في أمر الدين من ذكر صفات الله وما تعبد الناس به من اعتقاده، وكذلك ما ظهر بين المسلمين، وتداولوه بينهم، ونقلوه عن سلفهم، إلى أن أسندوه إلى رسول الله ﷺ من ذكر عذاب القبر، وسؤال منكرو ونكير، والحوض، والميزان، والصراط، وصفات الجنة، وصفات النار، وتخليد الفريقين فيهما؛ أمور لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها، والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئاً من أمور الدين، وعقلناه، وفهمناه، فله الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق، ومالم يمكننا إدراكه

وفهمه، ولم تبلغه عقولنا؛ آمنا به، وصدقنا، واعتقدنا أن هذا من قبل ربوبيته، وقدرته، واكتفينا في ذلك بعلمه ومشئته، قال الله - تعالى - ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثم نقول لهذا القائل الذى يقول بُنِيَ ديننا على العقل وأمرنا باتباعه: أخبرنا إذا أتاك أمر من الله يخالف عقلك، فبأيهما تأخذ؟ بالذى تعقل أو بالذى تؤمر؟ فإن قال: بالذى أعقل؛ فقد أخطأ، وترك سبيل الإسلام، وإن قال: آخذ بالذى جاء من عند الله فقد ترك قوله.

وإنما علينا أن نقبل ما عقلناه إيماناً وتصديقاً، ومالم نعقله، قبلناه استسلاماً وتسليماً، وهذا معنى قول القائل من أهل السنة: إن الإسلام فنطرة لا تعبر إلا بالتسليم! فنسأل الله التوفيق فيه، والثبات عليه، وأن يتوفانا على ملة رسول الله ﷺ، بمنه وفضله.

ونقل عنه أيضاً فى الحجة (٢ / ٣٠ - ٣١) فى باب القدر:

قد ذكرنا أن سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من قبل الكتاب والسنة، دون محض القياس ومجرد المعقول فمن عدل عن التوقيف فى هذا الباب ضل وتاه فى بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء النفس، ولا وصل إلى ما يطمئن به القلب، وذلك لأن القدر سر من سر الله وعلم من علمه، ضربت دونه الأستار وكفت عليه الأزرار، واختص الله به علام الغيوب، حجب عن عقول البشر ومعارفهم لما علم من الحكمة، وسبيلنا أن ننتهى إلى ما حد لنا فيه، وألا نتجاوز إلى ما وراءه، فالبحث عنه تكلف، والاقتحام فيه تعمق وتهور.

قال: وجماع هذا الباب أن يعلم أن الله تعالى طوى عن العالم علم ما قضاه وقدره على عباده فلم يطلع عليه نبيا مرسلا، ولا ملكا مقربا؛ لأنه خلقهم ليتعبد لهم ويمتحنهم قال الله - تعالى - ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾^(١)، وقد نقلنا عن على رضى الله عنه: أنه خلقهم ليأمرهم بالعبادة.

فلو كشف لهم عن سر ما قضى وقدر لهم وعليهم فى عواقب أمورهم لا فتنوا، وفتروا عن العمل، واتكلوا على مصير الأمر فى العاقبة فيكون قصاراهم عند ذلك أمن أو قنوط، وفى ذلك بطلان العبادة وسقوط الخوف والرجاء، فلطف الله سبحانه بعباده وحجب عنهم علم القضاء والقدر، وعلقهم بين الخوف، والرجاء، والطمع، والوجل، ليبلو سعيهم واجتهادهم، وليميز الله الخبيث من الطيب، ولله الحجة البالغة. اهـ.

ونقل الأصبهاني أيضا عنه فى الحجة (٢/ ٥١ - ٥٢).

فقد دعا الله الخلق إلى الوحداية والأقدار معاً: فالتوحيد لوحدايته، والتقدير لربوبيته، والإذن قدرته. فكما لا يجوز إبطال وحدايته، كذلك إبطال ربوبيته وقدرته. وهو التقدير والإذن، وكذلك قالوا: كما لا يجوز الركون إلى الدنيا، كذلك لا يجوز إبطالها حتى يكتسب بها النظر إلى التقدير والإذن.

فالأبدان كلها مضطرة إلى الأسباب أبداً، وذلك فى أهل السموات والأرض اضطهرهم الله جميعاً إلى الأسباب وإن تفاوتت وجوهها فى قلتها وكثرتها، وزيادتها ونقصانها.

وأما القلوب فإنها مضطرة إلى مسبب الأسباب وحده، أما ترى أن أهل الدنيا اضطروا إلى الأسباب من الأمكنة، والأغذية، واللباس وسائر ما يرجع إلى معاشهم، فهذا لأبدانهم، واضطرت القلوب إلى أن الله تعالى وحده خالق الدنيا ومالكها، وإن الأسباب عاملة بإذن الله، فما أذن الله - تعالى - لشيء كان من غير سبب، وإذا لم يأذن للسبب لم يعمل.

فالنار بإذنه تُحرق، فإذا أذن لها أن تمتنع من الإحراق امتنعت، كما أذن لنار إبراهيم عليه السلام.

والماء بإذنه يُغرق، فإذا أذن له أن يمتنع من الإغراق امتنع، كما أذن له فى إغراق فرعون وقومه، ومنعه من إغراق موسى وقومه... الخ.

ونقل الأصبهاني عنه أيضا فى الحجة (٢/ ٢١٥ - ٢١٦) قوله فى أخبار الآحاد:

إن الخبر إذا صح عن رسول الله ﷺ ورواه الثقات والأئمة، وأسندوه: خلفهم عن

سلفهم إلى رسول الله ﷺ وتلقته الأمة بالقبول؛ فإنه يوجب العلم فيما سبيله العلم هذا قول عامة أهل الحديث والمتقين من القائمين على السنة، وإنما هذا القول الذى يذكر أن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال، ولا بد من نقله بطريق التواتر لوقوع العلم به شىء اخترعته القدرية والمعتزلة، وكان قصدهم منه رد الأخبار، وتلقفها منهم بعض الفقهاء الذين لم يكن لهم علم فى العلم وقدم ثابت، ولم يقفوا على مقصودهم من هذا القول، ولو أنصفت الفرق من الأمة لأقروا بأن خبر الواحد يوجب العلم، فإنهم تراهم مع اختلافهم فى طرائقهم وعقائدهم يستدل كل فريق منهم على صحة ما يذهب إليه بالخبر الواحد.... الخ.

هذا كان مجمل اعتقاده - رحمه الله - وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - «إن سلف الأمة، وأئمتها كانوا على الإيمان الذى بعث الله به نبيه ﷺ، يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ويقولون: إن القرآن كلام الله تعالى، ويصفون الله بما وصف به نفسه من التكليم، والمناجاة، والمناداة، وما جاءت به السنن، والآثار موافقة لكتاب الله - تعالى -» انظر مجموع الفتاوى (٥١٨/٦).

التوصيف العلمى للنسختين الخطيتين

اعتمدنا فى تحقيقنا لتفسير أبى المظفر السمعانى على نسختين خطيتين، وهما كالآتى:

أولاً: النسخة الأزهرية، وهى نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة بالمكتبة الأزهرية تحت رقم (٢٠٩٥) تفسير، وهى تقع فى مجلدين كبيرين.

فأما المجلد الأول فيقع فى (٢٢٨) ورقة، ويبدأ من تفسير سورة الفاتحة، وينتهى عند تفسير قوله تعالى من سورة الإسراء ﴿... وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾^(١).

والمجلد الثانى يقع فى (٣٢٩) ورقة، يبدأ من تفسير سورة مريم إلى آخر القرآن الكريم.

والنسخة كتبت بخط نسخ معتاد، ولا يعرف تاريخ نسخها، ولا اسم ناسخها. والورقة من وجهين، وعدد أسطر الوجه (٢٥) سطراً، ومتوسط عدد الكلمات فى السطر الواحد (١٦) كلمة.

وقد سقط من النسخة أواخر تفسير سورة الإسراء من قوله: ﴿... وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ إلى آخر السورة، وتفسير سورة الكهف كاملة.

وقد ضبط ناسخها بعض الكلمات بالشكل، وكان إذا أخطأ أو سقط منه شيء يستدركه فى الهامش، ويضع فى آخر علامة «صح». ويضع خطأً فوق الآيات التى يفسرها المصنف، وذلك فى الأغلب من التفسير.

ولكن الناسخ - عفا الله عنه - لم يكن من الحاذقين فى هذا الفن؛ فلقد تحرفت وتصحفت عليه كثير من الكلمات، وقد نبهنا عليها فى الهامش.

كما توجد فى حواشى النسخة تعليقات لبعض المتأخرين، وهى بثلاثة خطوط مختلفة، ولم يذكروا أسماءهم، ولا تاريخ كتابتها.

(١) الإسراء: ٨٥.

ولقد اعتمدنا عليها في عملنا كأصل، لقدم نسخها وقلة أخطائها بالمقارنة بالنسخة الأخرى.

ثانيا: نسخة دار الكتب، وهي نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة بخزانة دار الكتب المصرية، تحت رقم ١٣٦ تفسير، وهي تقع في ثلاثة مجلدات. المجلد الأول ويبدأ من تفسير فاتحة الكتاب وينتهي بنهاية تفسير سورة التوبة، ويقع هذا المجلد في (٢٥٩) ورقة.

والمجلد الثاني: يبدأ بتفسير سورة يونس وينتهي بنهاية تفسير سورة القصص ويقع في (٢٦٢) ورقة.

والمجلد الثالث: يبدأ بتفسير سورة العنكبوت إلى نهاية التفسير ويقع في (٣٣٠) ورقة.

ومقاس الورقة ٢٠ X ٣٠ سم، والورقة من وجهين، وعدد الأسطر في الوجه الواحد ٢٧ سطرا، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (١٢) كلمة.

وقد نسخت سنة (١٢٧١هـ)، ولم يذكر اسم الناسخ.

وكتبت الآيات بالمدااد الأحمر؛ لتمييزها عن كلام المصنف، ووضع في بداية كل مجلد فهرس في جدول وضع فيه أسماء السور وأرقامها وقد سقط من النسخة أيضا نفس السقط من النسخة الأولى.

ولم يكن ناسخ هذه النسخة من الحاذقين في هذا الفن، فلقد تحرفت وتصحفت عليه الكثير من الكلمات وسقطت منه الأسطر والكلمات وكثر ذلك منه في كتابته. وقد نبهنا على بعض ذلك في عملنا، وأعرضنا عن أكثره خشية الإطالة، ولعدم جدواها.

وهذه النسخة غير مأخوذة عن النسخة السالفة يقينا، فلقد جبرنا منها بعض السقط، منها ثلاث ورقات كاملة في تفسير سورة آل عمران، وقد سقطن من النسخة السابقة، وغير ذلك من الأمثلة التي يحدها القارئ بطول الكتاب والله أعلم.

وقد رمزنا لها في عملنا بالرمز «ك».

توثيق نسبة الكتاب لمصنفه

(١) ذكر العلماء أن للسمعاني كتاب التفسير منهم :

حفيده أبو سعد بن السمعاني فذكر أن جده : صنف التفسير .

الذهبي ، وقد نقل ذلك عن حفيده أيضاً : وأن تفسيره ثلاث مجلدات .

ابن كثير قال : وصنف التفسير .

السبكي ، نقل أيضاً عن حفيده : صنف التفسير .

الداودي قال : أن للسمعاني كتاب التفسير ، نقلًا عن حفيده .

ابن العماد قال عنه : وله تفسير جيد حسن .

وغيرهم ، فلا يكاد يترجم أحد له إلا ويذكر أن له كتاب التفسير .

(٢) كتب على غلاف النسختين ؛ تفسير الإمام العلامة السمعاني . وكتب في

أول الكتاب بعد الحمد لله ... قال الشيخ الإمام الأجل الزاهد جمال الأئمة أبو المظفر

منصور بن محمد السمعاني .. وكذلك كان كثيراً ما يذكر : قال أبو المظفر السمعاني

في طيات الكتاب .

كما أن الأسانيد التي يوردها في الكتاب هي عن شيوخه وبعض الأحاديث التي

يوردها في التفسير هي بأسانيدها ومتونها في كتاب الحجة في بيان المحجة ، كما

سيأتي .

(٣) وقفنا على كثير من الأحاديث والآثار والأراء لأبي المظفر السمعاني في كتاب

الحجة في بيان المحجة وهي لتلميذه أبي القاسم الأصبهاني - كما سبق بيان ذلك -

يرويه عن شيخه أبي المظفر هي نفسها في تفسيره وبأسانيده .

ومما سبق يتبين لنا يقيناً أن هذا الكتاب هو لأبي المظفر السمعاني ، والله أعلم .

منهجنا في التحقيق :-

- ١- اعتمدنا في تحقيق الكتاب على نسختين: النسخة الأزهرية، ونسخة دار الكتب المصرية.
- ٢- اتخذنا من نسخة المكتبة الأزهرية أصلاً في ضبط النص، فقمنا بقراءتها قراءة متفحصة، ثم قمنا بنسخها.
- ٣- قمنا بتنظيم النص بما هو متعارف عليه في عصرنا، من صورة الإملاء، ورسم الكلمات، وغيرنا ما اصطلاح عليه النساخ في رسم بعض الكلمات، مثل تسهيل الهمزات، وكحذف الألف الوسطية في كثير من الأسماء مثل «سفين = سفیان»، و«الحرث = الحارث»، وغير ذلك.
- ومثل حذف الهمزة المتطرفة من بعض الكلمات، مثل «السما = السماء»، «وجا = جاء».
- ٤- قمنا بضبط النص ضبطاً صحيحاً، وتقسيم الفقرات، ووضع علامات الترقيم، ولم نتوسع في إيراد الشروح، والتعليقات، واكتفينا بشرح الكلمات الغريبة، وذلك فيما احتجنا إليه في ضبط النص.
- ٥- ومما تجدر الإشارة إليه أن أسلوب المصنف كان يتسم ببعض العجمة، وعدم إحسان الربط بين الجمل، وذلك مثل تذكير المؤنث، أو تأنيث المذكر، أو إهمال الفاء السببية، ورواية الشعر بالمعنى أو ما شابه ذلك.
- ولعل ذلك وقع من قبل النساخ، فإن هناك أخطاء؛ لا نظن أنها وقعت من قبل المصنف - رحمه الله -، بل يغلب على الظن أنها من تصرف النساخ، فقمنا بتغيير ما لا تحتمله العربية، ونبهنا على ذلك في الهامش، - هذا في أول عملنا في الكتاب - فلما رأينا أن ذلك كثر جداً؛ تركنا التنبيه عليه حتى لا نثقل الحواشي، ولا يُملِّ القارئ، مكتفين بالتنبيه على ذلك في المقدمة.
- ٦- قمنا بتخريج الأحاديث المرفوعة مع نقل أقوال أهل العلم فيها ممن أخرجها دون توسع؛ مثل نقل كلام الترمذی، والحاكم، وغيرهما إذا عزونا الحديث إليهم، وما كان من الحديث متفق عليه اكتفينا بالعزو إليهما دون غيرهما.
- ٧- لم نتمد تخريج الموقوفات، والأثار، حيث إن هذا كثير جداً لأن جُلَّ التفسير

يعتمد على نقل أقوال الصحابة، والتابعين في تفسير الآيات، أو ذكر أسباب النزول، أو ما شابه، ولكن ما احتجنا إلى تخريجه، أثناء ضبط المتن، ونحوه ذكرناه.

٨ قمنا بعمل فهرس للأحاديث، والأشعار، والمباحث الفقهية، والعقائدية، حتى يسهل الرجوع إلى موضعها من الكتاب، واستغنيانا عن عمل فهرس للموضوعات، لأننا قمنا بوضع آيات المصحف بأرقامها، وأسماء السور في أعلى الصفحات، مما يستغنى به عن وضع فهرس للموضوعات في آخر كل مجلد.

٩- قمنا بعمل مقدمة للكتاب اشتملت على ترجمة للمصنف وبيان عقيدته واشتملت أيضاً على وصف المخطوطات، وصور بعض الورقات، منها، وتوثيق نسبة الكتاب للمصنف، وذكر منهجنا في التحقيق.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشكر كل من أسهم في إخراج هذا السفر العظيم من إخواننا الباحثين في دارنا؛ دار المشكاة، ونخص بالذكر منهم الأخ الفاضل أبا عبد الله حسين بن عكاشة، والأخ الفاضل الدكتور أشرف بن سعيد، والأخ الفاضل الأستاذ عبد القوي زيد، ونسأل الله العظيم أن يجعل ذلك في ميزان حسناتنا، وأن يجعله خالصاً لوجهه العظيم.

هذا، وما كان من عيب أو خلل فمن أنفسنا والشيطان، وما كان من توفيق فمن الله وحده فله الحمد والشكر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

شوال ١٤١٧ من هجرة المصطفى ﷺ

دار المشكاة

للبحث العلمي

صور للنسختين الخطيتين
اللتين اعتمدنا عليهما
فى
إخراج هذا السفر العظيم

نص الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين، ولا عدوان إلا على الظالمين، اللهم باركْ وَوَفِّقْ.

القول فى تفسير فاتحة الكتاب

قال الشيخ الإمام الأجل الزاهد جمال الأئمة، أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني - رحمه الله تعالى - : اعلم أن لهذه السورة أربعة أسامى : فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والسبع من المثاني، برواية عبد خير، عن علي - رضى الله عنه - . أما فاتحة الكتاب فلأن بها افتتح الكتاب وهو القرآن .

وأما أم القرآن لأنها أصل القرآن، منها بدئ القرآن . وأم الشيء : أصله، ومنه يقال لمكة : أم القرى؛ لأنها أصل البلاد .

وأما السبع المثاني لأنها سبع آيات باتفاق الأئمة؛ إلا فى رواية شاذة أنها ثمان آيات .

وسميت مثاني لأنها تُثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة .

وقال مجاهد : إنما سميت مثاني؛ لأن الله - تعالى - استثنى لها هذه الأمة، كأنه أوحى بها لهم، ولم يعطها أحداً من الأمم .

وأما السبع من المثاني ففيه قولان : أحدهما : أنها سبع آيات مخصوصة من المثاني وهو القرآن، قال الله - تعالى - : ﴿ كتابا متشابها مثاني ﴾ ^(١) .

وإنما سُمى القرآن مثاني؛ لاشتماله على علوم مثناة من الوعد والوعيد، والأمر والنهى، ونحوها .

والثانى : أن السبع من المثاني هو السبع المثاني؛ و« من » فيه للصلة، وإنما نشأ هذا الخلاف من قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ ^(٢) .

ثم اعلم أن هذه السورة مكية على قول ابن عباس، وقال مجاهد : هى مدنية .

وقيل : نزلت مرتين مرة بمكة، ومرة بالمدينة؛ ولذلك سميت مثاني؛ لأنها ثنيت فى التنزيل، وهذه رواية غريبة .

قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من الفاتحة على قول بعض العلماء، وهو مروى عن ابن عباس وأم سلمة.

وليس بآية منها على قول البعض. وهذا مذكور بدليله في الفقه. ثم اعلم أن الباء في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أداة يخفض مابعدھا من الكلام، مثل: من، وعن، وفي، وعلى، وأمثالها.

والمعنى المتعلق بالباء لدلالة الكلام عليه، وتقديره: «أبدأ بسم الله»، أو: «بدأت بسم الله».

وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أصله باسم الله، كقوله: ﴿اقرأ باسم ربك﴾^(١)، وإنما حذف الألف في الكتابة؛ لأنه (لا يظهر)^(٢) في اللفظ.

وقيل: إنما حذفت لكثرة الاستعمال تخفيفاً؛ ولأنه كثر استعمالها؛ فاستخفوا حذفها، بخلاف قوله: ﴿اقرأ باسم ربك﴾^(١)، ونظائره لأن هناك لم يكثر الاستعمال. ثم اختلفوا في اشتقاق الاسم. قال المبرد وجماعة البصريين: الاسم مشتق من السمو، وهو العلو والظهور، فكأنه ظهر على معناه وعلا عليه، وصار معناه تحته.

وقال ثعلب من الكوفيين: هو مشتق من الوسم والسمّة، فكأنه علامة لمعناه. والأول أولى؛ لأن الاسم يصغر على المسمى. ولو كان مشتقاً من السمّة، لكان يصغر على الوسم، كما يقال في الوصل: وُصِّلَ، وفي الوعد: وُعِدَ.

وأما قوله^(٣): ﴿اللَّهُ﴾ - تعالى - فقد اختلفوا فيه، فقال الخليل، وابن كيسان: هو اسم علم خاص لله - تعالى - لا اشتقاق له، وهو كأسماء الأعلام للعباد، مثل:

(١) العلق ١.

(٢) في النسخة «ك»: لا تظهر.

(٣) في «ك»: قول.

زيد، وعمرو، ونحوه. وهو اختيار القفال الشاشي، وجماعة من أهل العلم.

وقال الباقر: هو اسم مشتق، [و] (١) في موضع الاشتقاق قولان: أحدهما: أنه مشتق من قولهم: أَلِهَ إِلَاهَةً، أَى: عَبَدَ عِبَادَةً. وقرأ ابن عباس: «ويزرك وإِلاهتك» (٢) أَى: عبادتك.

ويقال للناسك المتعبد مُتَأَلِّه، ومنه قول القائل:

سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلَّهِ (٣)

أَى: تَعَبَّدَ، فيكون معناه أنه المستحق للعبادة، إليه توجه كل العبادات، وأنه المعبود فلا يعبد غيره.

وقيل: الإله من يكون خالقاً للخلق، رازقاً لهم، مديراً لأُمُورهم، مقتدراً عليهم.

والثاني: أن «الله» أصله إله، وأصل الإله: وِلاه؛ إِلاَّ أن الواو أبدلت بالهمزة. كقولهم: وشاح وإِشاح.

واشتقاقه من الوكِّه، وكأن العباد يولّهون الله، ويفزعون إليه ويتضرعون ويلجأون إليه في الشدائد.

وأما قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر.

وحكى عنه أيضاً أنه قال: «الرحمن»: الرفيق بالعباد، و«الرحيم» العاطف عليهم. ثم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: «الرحمن» غير «الرحيم» ولكل واحد منهما معنى

(١) ليست في الأصل، وك.

(٢) الأعراف: ١٢٧.

(٣) كتب في حاشية الأصل بخط مغاير لخط الناسخ: وأوله: لله دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدْهَى.

غير معنى صاحبه . وقال بعضهم : هما واحد .

فأما من قال : « الرحمن » غير « الرحيم » ، قال : للرحمن معنى العموم ، وللرحيم معنى الخصوص ، فعلى هذا « الرحمن » بمعنى الرازق فى الدنيا ، والرزق على العموم للكافر والمؤمن ، و« الرحيم » بمعنى العافى فى الآخرة ، والعفو فى الآخرة على الخصوص للمؤمنين دون الكافرين . ولذلك قيل فى الدعاء : « يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة »^(١) . « فالرحمن » من تصل رحمته^(٢) إلى الخلق على العموم ، و« الرحيم » من تصل رحمته إلى الخلق على الخصوص ؛ ولذلك يُدعى غير الله رحيماً ، ولا يدعى رحماناً ؛ لأن الله - تعالى - هو الذى تصل رحمته إلى الخلق ، كأنه كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٣) . وأما غير الله قد يخص شيئاً بالرحمة ؛ فيكون بذلك رحيماً .

وأما من قال : إن معناهما واحد ؛ فقد قال قطرب : هما اسمان ، ذكر أحدهما

(١) روى عن ابن مسعود وأبى سعيد الخدرى مرفوعاً : « أن عيسى ابن مريم قال : الرحمن ، رحمن الآخرة والدنيا ، والرحيم رحيم الآخرة . رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٤٣/١) .

وروى أيضاً من حديث عبد الرحمن بن سابط مرفوعاً ولكن لفظه : « ... ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما » . أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٤٤١/١٠) .

وأخرجه الحاكم فى المستدرک (١٥٠/١) ، والبيهقى فى الدلائل (٦/ ١٧١ - ١٧٢) عن أبى بكر الصديق مرفوعاً . وفيه « ... رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما » ..

وقال الحاكم : صحيح وتعقبه الذهبى بأن فى إسناده الحكم بن عبد الله الأيلي ليس بثقة .

وأورده السيوطى فى الدر المنثور (١٥ / ١) وعزاه للبزار والبيهقى فى الدلائل وقال : إسناده ضعيف .

وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٨٩) وقال : رواه البزار ، وفيه الحكم بن عبد الله الأيلي ، وهو متروك .

وفى الباب عن معاذ بن جبل ، وأنس بن مالك وغيرهم . انظر الدر المنثور (٣ / ١٦ - ١٧) .

(٢) زاد فى « الأصل » ، و « ك » : « إليه » قبل كلمة : « رحمته » . وهى زيادة مقحمة .

(٣) الأعراف : ١٥٦ .

تأكيداً للآخر، مثل: لهفان، ولهيف، وندمان، ونديم.

وقال المبرد: (هذا تمام بعد إتمام) ^(١)، وتفضل بعد تفضل، وتطميع لقلوب الراغبين، ووعد لا يخيب آمله، ومعناه: ذو الرحمة، والرحمة [هى] ^(٢) الإنعام والتفضل.

قوله: ﴿الحمد لله﴾ اعلم أن الحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة، ويكون بمعنى التحميد والثناء على الأوصاف المحمودة. يقال: حمدت فلاناً على ما أسدى إلى من النعمة. ويقال: حمدت فلاناً على شجاعته وعلمه. وأما الشكر لا يكون إلا على النعمة؛ فللحمد معنى عامٌ، وللشكر معنى خاصٌ. فكل حامد شاكر، وليس كل شاكر حامداً.

يقال: حمدت فلاناً على شجاعته. ولا يقال: شكرت فلاناً على شجاعته.

ثم اعلم أن حمد الله - تعالى - لنفسه حسن لا كحمد المخلوقين لأنفسهم؛ لأن [حمد] ^(٣) المخلوقين لا يخلو عن نقص؛ فلا يخلو مدحه نفسه عن كذب؛ فيقبح منه أن يمدح نفسه. وأما الله - جل جلاله - برىء عن النقص والعيب؛ فكان مدحه نفسه حسناً.

وقوله: ﴿الحمد لله﴾ هاهنا يحتمل معنيين: الإخبار، والتعليم. أما الإخبار كأنه يخبر أن المستوجب للحمد هو الله، وأن المحامد كلها لله - تعالى -.

وأما التعليم كأنه حمد نفسه وعلم العباد حمده، وتقديره: «قولوا: الحمد لله».

وقوله: ﴿لله﴾ فاللام تكون للإضافة، وتكون للاستحقاق، يقال: أكل للدابة،

(١) كذا فى «ك» ووقع فى «الأصل»: هذا نعام بعد إنعام.

(٢) فى «الأصل، وك»: هو.

(٣) ليست فى «الأصل»، والسياق يقتضيها.

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

والدار لزيد، فاللام هاهنا بمعنى الاستحقاق، كأنه يقول: المستحق للحمد هو الله - تعالى -، وقد فرغنا عن تفسير قوله: ﴿لله﴾.

﴿رب العالمين﴾ وأما الرب يكون بمعنى التربية والإصلاح، ويكون بمعنى المالك. يقال: رب الضيعة يربيها، أى: أتمها وأصلحها. ويقال: رب الدار لمالك الدار. فالرب هاهنا يحمل كلا المعنيين؛ لأن الله - تعالى - مربى العالمين، ومالك العالمين.

وأما ﴿العالمون﴾ قال ابن عباس: هم الجن والإنس. وقال الحسن وقتادة، وأبو عبيدة: هم جميع المخلوقين. وقيل: الأول أولى؛ لأن الخطاب مع المكلفين الذين هم المقصودون بالخلق وهم الجن والإنس. وقيل: الإنس حالم، والجن عالم. والله تعالى - وراء أربع زوايا، فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالم^(١).

وقد فرغنا عن تفسير ﴿الرحمن الرحيم﴾ وإنما ذكره ثانياً لفائدة التوكيد.

قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ يقرأ بقراءتين: «مَالِك، ومَلِك». قال أبو حاتم السجستاني: «مالك» بالالف أولى؛ لأنه أوسع وأجمع، يقال: مالك الدار، ومالك الطير، ومالك العبد، ولا يستعمل منها اسم الملك.

وقال أبو عبيد، والمبرد: «ومَلِك» أولى؛ لأنه أتم، فإن «الملِك»^(٢) يجمع معنى «الملِك»، والمالك لا يجمع معنى الملِك، فإن كل ملك مالك، وليس كل مالك مدكاً، ولأنه أوفق لألفاظ القرآن، مثل قوله - تعالى -: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾^(٣)، وقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾^(٤) ونحو ذلك فمالك: من الملِك والمملكة، ومَلِك من الملِك

(١) هذا مروى عن أبى العالية من قوله، من طريق أبى جعفر الرازى: من الربيع بن أنس عنه كما فى تفسير الطبرى (٤٩/١). قال ابن حبان فى ترجمة الربيع بن أنس من الثقات (٢٢٨/٤): الناس يتفون من حديثه م كان من رواية أبى جعفر عنه. قلت: ومثل هذا لا يثبت إلا بما صح عن النبى ﷺ مفعلاً.

(٢) تكررت من الناسخ فى «الأصل، وك».

(٣) المؤمنون ١١٦.

(٤) غافر ١٦.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

والمملكة، والله - تعالى - مالك، ومملك.

وأما ﴿اليوم﴾ اسم لزمان معلوم، والمراد بيوم الدين: يوم القيامة، ومعناه: يوم الحساب، ويوم الجزاء. وقد يكون الدين بمعنى الطاعة وبمعانشتي، ولكنه هنا على أحد المعنيين. فإن قال قائل: لِمَ خص يوم الدين بالذكر، والله - تعالى - مالك الأيام كلها؟ يقال: إنما خصه لأن الأمر في القيامة يخلص له، كما قال: ﴿والأمر يومئذ لله﴾. وأما في الدنيا للملوك أمر، وللمسلمين أمر، وللأنبياء أمر.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أما قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بمعنى نحن نعبدك، والعبادة: هي الطاعة مع التذلل والخضوع، يقال: طريق مُعَبَّد: أى مذلّل، ومعناه: نعبدك خاضعين.

﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أى: نطلب منك المعونة، فإن قيل: لِمَ قدم ذكر العبادة على الاستعانة؛ والاستعانة تكون قبل العبادة؟ ولمَ ذكر قوله: إِيَّاكَ مرتين، وكان يكفي أن يقول: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَنَسْتَعِينُ؛ فإنه أوجز وأخص؟ يقال: أما الأول فإنما يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل، ونحن بحمد الله نجعل الاستعانة والتوفيق مع الفعل، سواء قرنه به أم أخره جاز.

أو يقال: لأن الاستعانة نوع تَعَبُّدٍ، فكأنه ذكر جملة العبادة، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها.

وأما قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إنما كرره لأنه لو اقتصر على قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَنَسْتَعِينُ؛ ليعلم أنه المعبود، وأنه المستعان، وعلى أن العرب قد تتكلم بمثل هذا، قد يدخل الكلام تجريداً أو تفخيماً وتعظيماً. ولا يعد ذلك عيباً، كما تقول العرب: «هذا المال بين زيد، وبين عمرو»، وإن كان يفيد قولهم: «المال بين زيد، وعمرو». ما يفيد الأول، ولا يعد ذلك عيباً في الكلام؛ بل عد تفخيماً وتجزئاً في الكلام.

قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: أَرْشِدْنَا، وَثَبَّتْنَا.

والهداية في القرآن على معان، فتكون الهداية بمعنى الإلهام، وتكون بمعنى الإرشاد، وتكون بمعنى البيان، وتكون بمعنى الدعاء.

أما الإلهام، قال الله - تعالى - : ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١) أى: أَلْهِم.

وأما الإرشاد، قوله - تعالى - : ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾^(٢).

وأما البيان قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾^(٣) أى: بَيَّنَّا لَهُمْ.

وأما الدعاء، مثل قوله - تعالى - : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٤) أى: دَاعٍ، فهو بمعنى الاسترشاد ها هنا.

فإن قال قائل: أى معنى للاسترشاد، وكل مؤمن مهتد، فما معنى قوله: ﴿اهْدِنَا﴾؟ قلنا: هذا سؤال من يقول بتناهي اللطاف من الله - تعالى - . ومذهب أهل السنة أن اللطاف والهدايات من الله - تعالى - لا تتناهى، فيكون ذلك بمعنى طلب مزيد الهداية، ويكون بمعنى سؤال للتثبيت، اهدنا بمعنى ثبتنا، كما يقال للقائم: «قم حتى أعود إليك». أى: اثبت قائماً.

وأما ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال على، وابن مسعود: هو الإسلام. وقال جابر: هو القرآن.

وأصله في اللغة: هو الطريق الواضح، والإسلام طريق واضح، والقرآن طريق واضح.

(١) طه: ٥٠.

(٢) ص: ٢٢.

(٣) فصلت: ١٧.

(٤) الرعد: ٧.

صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

وقد قال القائل :

أمير المؤمنين على صراطٍ إذا اغْوَجَ المواردُ مستقيمٌ

قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، قد قرأ عمر - رضى الله عنه - : «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين» ولكنه فى الشواذ، والمعروف هو القراءة المعهودة .

وقيل : «الذين أنعمت عليهم» هم الأنبياء . وقيل : كل من ثبته الله على الإيمان من النبيين والمؤمنين كافة .

وقال أبو العالية الرياحى : هم الرسول، وأبو بكر، وعمر .

وأما قوله: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ . آمين . فالمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى .

وروى عن عدى بن حاتم أنه جاء إلى النبى ﷺ ليسلم، وقال : «يا رسول الله، من المغضوب عليهم؟ فقال : اليهود . وقال : فمن الضالون؟ فقال : النصارى . قال عدى : أشهد أنى حنيف مسلم . قال عدى : فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، ويبتسم؛ فرحاً بإسلامى» (١) .

وأما «آمين» فليس من القرآن . والسنة للقارئ أن يقف وقفة، ثم يقول : آمين .

وفيه لغتان : آمين بالمد، وآمين بالقصر . ومعناه : اللهم استجب . وقيل : إنه طابع الدعاء .

(١) أخرجه الترمذى فى السنن بنحوه مطولاً (٥ / ١٨٦ - ١٨٧ / رقم ٢٩٥٣، ٢٩٥٤) وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب . وأحمد فى مسنده (٤ / ٣٧٨ - ٣٧٩) وسعيد بن منصور فى سننه (٢ / ٥٣٧ رقم ١٧٩) وابن جرير فى التفسير (١ / ٦١)، وابن أبى حاتم فى التفسير (١ / ٢٣ رقم ٤٠) . والطبرانى فى الكبير (١٧ / ٩٩ - ١٠٠ رقم ٢٣٧) . وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (١٤ / ١٣٩ - ١٤٠ رقم ٦٢٤٦)، (١٦ / ١٨٣ - ١٨٤ رقم ٧٠٢٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تفسير سورة البقرة

اعلم أن سورة البقرة مدنية باتفاق الأئمة، وحكى عن بعض العلماء أنه قال : يكره تسميتها بسورة البقرة، والأولى أن يقال : السورة التى يذكر فيها البقرة، وكذا فى سائر السور من أمثالها . والأصح أنه يجوز؛ لما روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنهرمى جمرة العقبة من بطن الوادى ثم قال : هذا والله مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة .

وروى عبد الله بن بريدة، عن أبيه، عن النبى ﷺ أنه قال : « تعلموا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة »^(١) أى : السحرة . وفى هذا دليل على فضيلة هذه السورة، وعلى جواز تسميتها سورة البقرة، وسمى بعض المتقدمين هذه السورة : فسطاط القرآن؛ لشرفها وفضلها .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥ / ٣٤٨، ٣٦١) والدارمى (٢ / ٥٤٣ رقم ٣٣٩١)، والحاكم فى المستدرک (١ / ٥٦٠) وقال صحيح على شرط مسلم، وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ١٦٢) : رجاله رجال الصحيح . والحديث رواه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث أبى أمامة (٦ / ١٣٠ رقم ٨٠٤) ولفظه : « اقرأوا ... » .



قوله - تعالى - : ﴿ آَلَمْ ﴾ قال الشعبى وجماعة من المتقدمين، فى هذا وسائر حروف التهجى فى فواتح السور: والفائدة فى أوائل السور لا (يعلم) ^(١) معناها، وهى سر القرآن، ولكل كتاب سر، وسر القرآن حروف التهجى من فواتح السور، والفائدة من ذكرها طلب الإيمان بها، وأن يعلم أنها من عند الله - تعالى - .

وقال غيرهم: هى معلومة المعانى. وقال ابن عباس - رضى الله عنهما -: معنى قوله: ﴿ آَلَمْ ﴾ أنا الله أعلم، وكل حرف يدل على معنى، والألف دليل قوله: «أنا»، واللام دليل قوله: «الله»، والميم دليل قوله: «أعلم».

وكذا قال فى أمثاله، فقال فى ﴿ آَلَمْ ﴾: معناه: أنا الله أعلم وأفصل. وفى ﴿ آَلَمْ ﴾: أنا «الله» أعلم وأرى. وفى ﴿ آَلَمْ ﴾: أنا الله أرى.

قال الزجاج: هذا حسن، وبمثله قالت العرب فى قولها. فإن العرب قد تأتى فى كلامها بحرف وتريد به معنى، كما قال القائل:

قُلْتُ لَهَا قَفِي فَقَالَتْ قَافٌ ^(٢) لَا تَحْسَبِي أَنَا نَسِينَا الْإِجَافُ

ومعنى قولها قاف، أى: وقفت. فدل الحرف على معنى، كذا هذا.

وقال قتادة فى حروف التهجى: إنها اسم للقرآن.

وقال مجاهد: إنها أسماء للسور وقال غيرهم: هو قسم، أقسم الله - تعالى - بهذه الحروف؛ لشرفها وفضلها؛ لأنها مبانى كُتِبَ المنزلة.

قوله - عز وجل - : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، أما قوله: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ أى: هذا الكتاب، كما قال القائل:

(١) فى «ك»: يعرف.

(٢) البيت هكذا مكسور، وفى تفسير الطبرى (٧٠/١): قلنا لها قفى لنا قالت قاف... وجاء فى تفسير القرطبى (١٥١/١) كما فى الأصل.

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

أَقُولُ لَهُ وَالرَّمَحُ يَأْطُرُ مَتْنُهُ تَأَمَّلْ خَفَافاً إِنَّنِي أَنَا ذَلِكَ

[أى] (١): أننى أنا هذا. وقيل: هذا مضمرفيه، ومعناه: هذا ذلك الكتاب الذى وعدتك يا محمد أن أنزله عليك على لسان الذين قبلك، و«هذا» للتقريب و«ذلك» للتبعيد.

فأما ﴿الكتاب﴾ هو القرآن، والكتاب بمعنى المكتوب كما يقال: «ضَرَبَ الأمير» أى: مضروبه.

﴿لاريب فيه﴾ أى: لاشك فيه. فإن قال قائل: كيف أخبر قال: «لاريب فيه» وقد ارتاب فيه كثير من الناس، وخبر الله - تعالى - لا يكون بخلاف مخبره؟ يقال: معناه أنه الحق والصدق لاشك فيه.

وقيل: هو خبر بمعنى النهى، أى: لا ترتابوا فيه.

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والهدى بمعنى الرشد والبيان.

وأما المتقون مأخوذ من الاتقاء والتقوى. وأصله الحجز بين شيئين، ومنه يقال: اتقى بترسه، أى: جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما قصد به من المكروه. وفى الخبر «كنا إذا احمر البأس اتقيناً برسول الله ﷺ» (٢). أى: «اشتدت الحرب» جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو.

فكان المتقى يجعل امثال أمر الله والاجتناب عن نهيه حاجزاً بينه وبين العذاب فيتحرز بطاعة الله عن عقوبة الله.

فإن قال قائل: لم خص المتقين بالذكر وهو هدى لجميع المؤمنين؟ قيل: إنما خصهم بالذكر تشريفاً، أو لأنهم هم المنتفعون بالهدى، حيث نزلوا منزل التقوى دون غيرهم،

(١) فى «الأصل»، و«ك»: إلى.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢/ ١٦٩ - ١٧٠ رقم ١٧٧٦) من حديث البراء بنحوه.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

فلهذا خصهم به .

قوله - تعالى - ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾

قوله: ﴿الذين﴾ نعت المتقين ﴿يؤمنون﴾ من الإيمان . وهو التصديق، قال الله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾^(١) أى: بمصدق لنا .

والإيمان فى الشريعة يشتمل على الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان . وقيل: الإيمان مأخوذ من الأمان، فسمى المؤمن مؤمناً؛ لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله . والله مؤمن؛ لأنه يؤمن العباد من عذابه .

﴿بالغيب﴾ قال ابن عباس: الغيب كل ما أمرت بالإيمان به مما غاب عن بصرك، وذلك مثل الملائكة، والجنة، والنار، والصراط، والميزان، ونحوها .

وقال غيره: الغيب ها هنا هو الله تعالى .

وقال ابن كيسان: أراد به القدر . ﴿يؤمنون بالغيب﴾، أى: بالقدر .

﴿ويقيمون الصلاة﴾ أى: يديمون الصلاة . وحقيقة إقامة الصلاة المحافظة على أدائها بأركانها وسننها وهيئاتها .

فالصلاة فى اللغة: الدعاء، وقد ورد فى الخبر: «من دُعِيَ إِلَى الطَّعَامِ فَلْيَجِبْ، فَإِنْ كَانَ مَفْطَرًا فَلْيَأْكُلْ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ»^(٢) . أى: فليدع . وقد قال الشاعر:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ [قَرُبْتُ] ^(٣) مُرْتَحِلًا يَارَبُّ جَنَّبَ أَبَى الْأَوْصَابِ وَالْوَجَعَا

(١) يوسف: ١٧ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٤/٩ رقم ١٤٣١) وأبو داود (٣٣١/٢ رقم ٢٤٦٠)، وأحمد (٥٠٧/٢)،

والبيهقى فى الكبرى (٢٦٣/٧) من حديث أبى هريرة مرفوعاً بنحوه .

(٣) كذا فى تفسير القرطبى (١٦٤/١)، ووقع فى «الأصل»، و«ك»: عربت، أوله عين .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

عَلَيْكَ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتُ فَاعْتَمِضِي عَيْنًا فَإِنْ بَحَبِ الْمَرْءِ مُضْطَجِعًا (١)

معنى قوله : صليت أى : مثل الذى دعوت .

وقيل : الصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن الناس الدعاء ، وهى فى الشريعة تشتمل على أفعال مخصوصة وعلى الثناء والدعاء .

قوله : ﴿ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفِقُونَ ﴾ أما الرزق اسم لكل ما ينتفع به الخلق ، فيدخل فيه الولد والعبد .

﴿ يَنْفِقُونَ ﴾ من الإنفاق ، وأصله الإخراج ، ومنه نفاق السوق ؛ لأنه تخرج فيه السلعة ويقال : نفقت الدابة إذا خرجت روحها ، فهذه الآية فى المؤمنين من مشركى العرب .

قوله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

وهذه الآية فى المؤمنين من أهل الكتاب ؛ لأنهم هم الذين آمنوا بالقرآن وسائر الكتب قبله ، وقد روى فى حديث صحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من آمن بالكتب المتقدمة وآمن بالقرآن يؤتى أجره مرتين » (٢) . وعليه دل نص القرآن ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ فالآخرة هى دار الآخرة . وسميت الدنيا دنيا ؛ لدنوها من الخلق ، وسميت الآخرة آخرة ؛ لتأخرها عن الخلق .

(١) وقع هذا الشطر من البيت فى تفسير القرطبى كما يأتى : نوماً فإن لجنب المرء مضطجعاً

(٢) هكذا أورده المصنف بالمعنى كشأنه فى كثير من الأحاديث وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث أبى موسى : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبى ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه ، فله أجران . . . » . رواه البخارى (١/ ٢٢٩ - رقم : ٩٧) وانظر أطرافه فى ٢٥٤٤ ، ٢٥٤٧ ، ٢٥٥١ ، ٣٠١١ ، ٣٤٤٦ ، ٥٠٨٣) . ومسلم (٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦ / رقم : ١٥٤) .

(٣) القصص : ٥٤ .

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿هم يوقنون﴾ من الإيقان وهو العلم، وقيل: الإيقان واليقين: علم عن استدلال، ولذلك لا يسمى الله تعالى موقناً إذ ليس علمه عن استدلال.

قوله - تعالى - : ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

فقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ يعنى الذين وصفهم ﴿على هدى﴾ أى : على رشد وبيان من ربهم . فإن قيل : لم ذكر الهدى ثانيا وقد وصفهم بالهدى مرة؟ قيل : كثره لفائدة التأكيد . أو يقال : الهدى الأول من القرآن، والهدى الثانى من الله، وفيه بيان أن الهداية من الله - تعالى - ومن كلامه كما هو مذهب أهل السنة .

وأما ﴿المفلحون﴾ من الفلاح، والفلاح يكون بمعنى البقاء . يقال : افلح بما شئت . أى : ابق بما شئت . وقد يكون بمعنى الفوز والنجاة . وأصل الفلاح القطع والشق، ومنه سمي [الزراع] ^(١) فلاحاً؛ لأنه يشق الأرض . وفى المثل : «الحديد بالحديد يُفْلَحُ»، أى : يشق . قال الشاعر:

قَدْ عَلِمْتَ يَا بَنَ أُمِّ صَحْصَحٍ أَنَّ الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ

أى : يشق . فمعنى المفلحين أنهم الباقون فى نعيم الأبد، والفائزون به، والمقطوع لهم بالخير فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالكفر مأخوذ من الكفر وهو الستر والتغطية، ومنه يقال لليل : كافر؛ لأنه يستر الأشياء بظلمته، وسمى الزارع ^(١) كافراً؛ لأنه يستر الحب بالتراب، ويسمى الكافر كافراً؛ لأنه يستر نعم الله - تعالى - بكفره ويصير فى غطاء من دلائل الإسلام وبراهينه .

وقيل : الكفر على أربعة أنحاء : كفر إنكار، وكفر جحد، وكفر عناد، وكفر نفاق .

(١) فى «الأصل» و «ك» : الزراع .

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلاً، أو لا يعترف به.

وكفر الجحد: هو أن يعرف الله - تعالى -، ولكن يجحده، ككفر إبليس.

وكفر العناد: هو أن يعرف الله - تعالى - بقلبه، ويعترف بلسانه، ولكن لا يتدين به ولا يتخذه ديناً، ككفر أبى طالب؛ فإنه عرف الله ورسوله بقلبه وأقر بلسانه حتى قال:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ
لَوْلَا الْمَلَأَةُ أَوْ حِذَارُ مَسْبَةِ
مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْ جَدْتَنِي سَمَحًا بِذَاكَ مُبِينًا

وأما كفر النفاق: أن يعترف باللسان ولا يعتقد بالقلب؛ فهذه أنواع الكفر؛ فمن لقي الله - تعالى - بنوع منها لم يعف^(١).

قوله - تعالى -: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: مستو عليهم. ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ أى: خَوَّفْتَهُمْ أَمْ لَمْ تَخَوْفَهُمْ. والإنذار: تخويف مع الإعلام.

وقيل: هو أشد التخويف. يعنى: سواء خوفتهم أَمْ لَمْ تَخَوْفَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. وردت هذه الآية فى قوم بأعيانهم علم الله - تعالى - أنهم لا يؤمنون.

قوله - تعالى -: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾

ذكر فى الآية الأولى أنهم لا يؤمنون، وذكر فى هذه الآية عِلَّتَهُ، فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ والختم: هو الطبع، وحقيقته: الاستيثاق من الشئ؛ كيلا يدخله ما هو خارج منه، ولا يخرج عنه ما هو داخل فيه، ومنه الختم على الباب.

فقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ذكر ابن كيسان أقوالاً فى معناه: أحدها: أى: جازاهم على كفرهم بأن^(٢) ختم على قلوبهم.

(١) كذا بالأصل، و«ك»، ولعل الصواب: لم يعف عنه. والله أعلم

(٢) فى «الأصل»، و«ك»: ناراً.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

والثاني وهو قول أهل السنة أى: ختم على قلوبهم بالكفر؛ لما سبق من علمه الأزلى فيهم.

وحكى قول ثالث: أن معناه: جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها، وهذا تأويل أهل الاعتزال، نبأ إلى الله منه.

وحكى أبو عمر غلام ثعلب، عن ثعلب، عن إبراهيم الأعرابي: أن الختم هو منع القلب من الإيمان، ذكره فى كتاب البياء.

قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أى: أسماعهم، ذكر الجمع بلفظ (الواحد) ^(١)، ومثله كثير فى القرآن. معناه: على موضع سمعهم، فختم على قلوبهم؛ كيلا يقبلوا الحق، وعلى سمعهم؛ كيلا يسمعوا الحق.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ هذا ابتداء الكلام ومعناه: على أبصارهم غطاء.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: كبير، وصف عذاب الآخرة بالعظم ولا شك أنه عظيم.

قوله - تعالى - : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قال الكلبي: ورد هذا فى شأن اليهود. وأكثر المفسرين على أنه فى شأن المنافقين. ومعناه: ومن الناس ناس تقول آمنا بالله وباليوم الآخر يعنى: القيامة. ﴿وما هم بمؤمنين﴾ نفى الإيمان عنهم؛ حيث أظهروا الإسلام باللسان ولم يعتقدوا بالجنان. وهذا دليل على من يخرج الاعتقاد من جملة الإيمان.

قوله - تعالى - : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية: المخادعة، والخدع بمعنى واحد وحقيقة المخادعة: أن يظهر شيئاً ويبطن خلافه.

(١) فى الأصل: الوجدان.

﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

وقال ابن الأعرابي في كتاب الياء: قوله: المخادعة مَنَعُ القلب من الحق، قاله في حق المنافقين حيث أظهروا الإسلام باللسان وأبطنوا خلافه.

فإن قال قائل: ما معنى قوله: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ وهذا يوهم الشركة في المخادعة، وقد جل الله - تعالى - عن المشاركة في المخادعة؟! الجواب: قال الحسن البصري: معناه يخادعون نبي الله.

وقال غيره من المفسرين معناه: يعاملون الله معاملة المخادعين.

فأما قوله: ﴿وَمَا يَخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ يقرأ بقراءتين: «يخادعون، ويخدعون». فمن قرأ: «يخادعون»^(١) فهو على المشاكلة؛ لأنه ذكر الأول بلفظ المخادعة، وهذا شكله فذكره بلفظه.

ومن قرأ: «يخدعون»^(٢) فهو على الأصل، وعلى أن لفظ المخادعة لا يقتضى المشاركة، بين اثنين، ومثله: طرقت النعل، وطارقت النعل، ومثله كثير في ألفاظ المفاعلة.

فمعنى قوله: ﴿وَمَا يَخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أى: وبال خديعتهم راجع إليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: لا يعلمون ذلك. يقال: شعرت بمعنى علمت، ومنه قولهم: ليت شعري؛ أى: ليت أعلم.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الآية، أراد بالمرض الشك والنفاق، بإجماع المفسرين.

ويوصف القلب والدين بالمرض والصحة كما يوصف البدن به.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أى: شكًا ونفاقًا؛ فإنه لما نزلت الآيات آية بعد آية فكلموا كفروا بآية ازدادوا كفراً ونفاقاً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

(١) هي قراءة نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، انظر النشر في القراءات العشر (٢/٢٠٧).

(٢) هي قراءة حفص، وحزمة، والكسائي، وابن عامر، انظر المصدر السابق.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ

مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴿١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: مؤلم. فعيل: بمعنى: مُفْعِل؛ كما قال القائل:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ خَفِيَّةٌ
وَأَرَادَ بِالسَّمِيعِ الْمَسْمُوعِ.

قوله - تعالى - : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ قرئ بقرأتين: مخفف (٢) ومعناه: يكذبون بما أظهروا من الإسلام وأبطنوا خلافه، وهو مثل قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (٣).

وقرئ: «يكذبون» (٤) مشدداً، ومعناه: يكذبون الرسول.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: لا تكفروا، والكفر أشد فساداً في الأرض.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يعنى: أن الذى أظهروا من الإسلام واستفدنا به من العز والأمان مصلحة لنا ونحن مصلحون به.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ هذا ابتداء كلام من الله. وقوله: (أَلَا) للتنبيه؛ قال الشاعر:

أَلَا إِنَّ هَذَا الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ قَدِيمٍ بِمُسْتَمِرٍّ

يقول الله - تعالى - : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ يعنى: بما أظهروا من الإسلام وأبطنوا خلافه، فهو فساد؛ وإن ظنوه صلاحاً، وأظهروا خلاف ما أبطنوا.

﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: لا يعلمون.

(١) التوبة: ١٢٥.

(٢) هى قراءة الكوفيين حفص، وحزمة والكسائي، وخلف. انظر النشر (٢/٢٠٧).

(٣) المنافقون: ١.

(٤) هى قراءة الباقيين. انظر النشر (٢/٢٠٨).

وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

فإن قيل: كيف يلزمهم الحجة إذا كانوا لا يعلمون؟

قيل: يلزمهم الحجة بما أوضح من السبيل، ونصب من الدلائل، وجهلهم لا يكون عذرا لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ...﴾ الآية. كما آمن الناس يعني: المهاجرين والأنصار.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ سموهم سفهاء فأجابهم الله - تعالى - بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾

والسفيه خفيف العقل رقيق الحلم؛ من قولهم: ثوب سفيه، أى: رقيق بالـ

يقول: هم الذين خفت عقولهم، ورقت أحلامهم ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...﴾ الآية، معناه: وإذا لقوا المهاجرين والأنصار قالوا: آمنا. أظهروا الإسلام باللسان.

﴿وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أى: بشياطينهم، يذكر «إلى» بمعنى «الباء» لأن الصلوات يقوم بعضها مقام البعض. والشيطان: كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس، وأصله: البعد والامتداد. يقال: بئر شطون، أى: بعيد العمق والقعر. ويقال للحبل: شطن؛ لامتداده. وسمى الشيطان شيطانا؛ لامتداده فى الشر وبعده عن الخير.

فأراد بالشياطين هاهنا عتاتهم ورؤساءهم فى الكفر. يقول: إذا خلوا براء وسهم، قالوا: إنا معكم فى دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بما أظهروا من الإسلام مع المهاجرين والأنصار.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

وقوله - تعالى - : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ...﴾ الآية . فإن قال قائل : ما معنى الاستهزاء من الله - تعالى - ؟ قلنا فيه أقوال : قال بعضهم : معناه يجازيهم على صنيعهم ، إلا أنه سماه الله استهزاء ؛ لأنه جزاء الاستهزاء ؛ كما قال : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (١) وإن لم يكن الجزاء سيئة حقيقة .

وقال بعضهم : يستهزئ بهم أى يعيبهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا﴾ (٢) أى : يعاب كذلك هذا .

وقال أهل الرواية معناه : الله يستهزئ بهم فى الآخرة ، والاستهزاء بهم فى الآخرة يحتمل وجهين ؛ أحدهما : أن يضرب للمؤمنين على الصراط نوراً يمشون به ، وإذا وصل المنافقون إليه حال بينهم وبين المؤمنين ، فذلك الاستهزاء بهم ؛ كما قال : ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ (٣) .

والثانى : أنه يقربهم من الجنة ، حتى إذا رأوا زهرتها وحسنها وبهجتها ، واستنشقوا رائحتها صرفهم عنها إلى النار ، فذلك الاستهزاء بهم ، وقد نطق عنه - عليه الصلاة والسلام بمعناه حديث فى الصحاح .

قوله : ﴿وَيَمْدُهُمْ﴾ أى ، يمهلهم حتى يستدرجهم . ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أى : ضلالتهم . ﴿يَعْمُونَ﴾ أى : يتحIRON ، قال الشاعر :

ومهمه أطرافها فى مهمه (٤) أعمى الهدى بالجاهلين العمه

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ﴾ لأن معناه : اختاروا الكفر على الإيمان ؛ لأنهم لما آثروا أشياء على شئ فكأنهم استبدلوا هذا بذلك ﴿فَمَا

(١) الشورى : ٤٠ .

(٢) النساء : ١٤٠ .

(٣) الحديد : ١٣ . (٤) والمهمه : المفازة البعيدة ، أو البلدة المقفرة . انظر لسان العرب مادة (مهمه) .

يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا

ربحت تجارتهم ﴿١٥﴾ أى: فما ربحوا فى تجارتهم. ﴿١٦﴾ وما كانوا مهتدين.

قوله - تعالى - : ﴿١٥﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴿١٦﴾ الآية. المثل: قول سائر فى
عرف الناس، يعرف به معنى الشئ من الشئ. وهذا أحد أقسام القرآن؛ فإن القرآن
على سبعة أقسام.

وقيل: مثلهم، أى: صفتهم. ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا... ﴿١٦﴾ أوقد النار،
واستوقد بمعنى واحد، كما يقال: أجاب، واستجاب.

وقيل: أوقد إذا فعل بنفسه، واستوقد إذا طلب الإيقاد من غيره. ﴿١٥﴾ فلما أضاءت
ما حوله ﴿١٦﴾ يعنى: أضاءت النار الموقدة حول المستوقد. ضربه مثلاً للمنافقين ومعنى
هذا المثل - قوله تعالى : ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴿١٦﴾ - ضربه مثلاً لما أظهروا باللسان
من الإسلام.

﴿١٥﴾ فلما أضاءت ما حوله ﴿١٦﴾ يعنى: ما استفادوا بذلك الإسلام الظاهر من التجمل
والعز والأمان فى الدنيا.

﴿١٥﴾ ذهب الله بنورهم ﴿١٦﴾ قيل: فيه معانٍ: أحدها: ذهب الله بما أظهروا من الإسلام
بإظهار عقيدتهم على لسان النبى ﷺ.

وقيل: معناه ذهب الله بنورهم، يعنى فى القبر. وقيل: فى القيامة؛ يعنى أن ما
استفادوا به فى الدنيا لا ينفعهم فى الآخرة إذا كان مصيرهم إلى النار.

فإن قال قائل: كيف قال: ﴿١٥﴾ ذهب الله بنورهم ﴿١٦﴾ ولا نور لهم، وقال فى موضع
آخر: ﴿١٦﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿١٧﴾ ولا نور لهم؟ قيل: أراد به نور ما
أظهروا من الإسلام؛ وذلك نوع نور.

وقيل: قد يذكر مثله على معنى الحرمان كما يقال: أخرجتنى من صلتك، وإن لم

حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صَمَّ بَكُم
عَمِيَ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ

يكن داخلًا في صلته. بمعنى: أنك حرمتني صلتك، كذلك قوله - تعالى - : ﴿ذهب الله بنورهم﴾ أى: حرّمهم ذلك النور. ﴿وتركهم فى ظلمات﴾ أى: شدائد ﴿لا يبصرون﴾ الحق.

قوله: ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾ فالصَّمُّ: جمع الأصمِّ، وهو الذى لا يسمع، والبُكْمُ: جمع الأبكم، وهو الذى لا ينطق، ووُلِدَ على الخرس. والعُمى: جمع الأعْمى، وهو الذى لا يبصر؛ فمعناه أنهم صم لا يبصرون الحق، ولا يعرفونه كأنهم لم يسمعوا؛ وهو مثل قول الشاعر:

* أَصَمُّ عَمَّا سَاءَ سَمِيعٌ *

أى: لا يسمع ما ساء مع كونه سميعاً.

﴿بكم﴾ يعنى: أنهم لما أبطنوا خلاف ما أظهروا؛ فكأنهم لم ينطقوا بالحق.

﴿عمى﴾ أى: لا بصائر لهم، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له.

﴿فهم لا يرجعون﴾ عما هم عليه من الضلالة.

قوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق...﴾ الآية. فالصَّيْبُ: المطر، وكل منزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صَيِّب، من قولهم: صَابَ يَصُوبُ، إذا نزل.

وقيل: الأهل مضمر فيه، أى: كأهل الصيب؛ كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ (١) أى: أهل القرية.

﴿من السماء﴾ كل ما علا فهو سماء. فالسقف سماء، والسحاب سماء، وما فوقه سماء، وأراد به السحاب ههنا.

﴿فيه ظلمات﴾ يعنى: فى السحاب؛ لأنه لا يخلو عن ظلمة، ألا تراه يغشى وجه

وَبَرَقَ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

الشمس ﴿ورعد وبرق﴾ قال على وابن عباس وأكثر المفسرين: إن الرعد صوت ملك يزجر السحاب، والبرق لمعان سوط في يد ملك يضرب به السحاب يسوقه إلى حيث قدره الله تعالى .

وفى الخبر أن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم صوت الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً»^(١). وكان ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»^(٢).

وقيل: الرعد اسم الملك. وقيل: صوت [اختناق]^(٣) الريح إلى السحاب. والأول أصح.

﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾ يعنى: من صوت العذاب، حذر الموت. وقيل: الصاعقة قطعة من العذاب ينزلها الله - تعالى - على من يشاء وعليه دل قوله - تعالى - : ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾^(٤) ﴿والله مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى جامعهم. قال مجاهد: يجمعهم فيعذبهم. والإحاطة بالشئ جمعه بحيث لا يشذ منه شئ، والإحاطة من الله - تعالى - تكون بالقهر والاقتدار والعلم.

ومعنى المثل فى هذا: أما قوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾ يعنى: إن شئت مثلهم بالمستوقد وإن شئت مثلهم بالصيب، أى بأهل الصيب. ضرب الصيب مثلاً لما أظهروا

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير (١١ / ١٦٤ رقم ١١٣٧١) وفى الدعاء (٢ / ١٢٦٠ رقم ٩٨٢)؛ وأبو الشيخ فى العظمة ص ٢٦٨ رقم ٧٨٦ من حديث ابن عباس. وقال الهيثمي فى المجمع (١٠ / ١٣٩): فيه يحيى بن كثير أبو النضر، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (ص ٢١٢)، والترمذى (٥ / ٤٦٩ رقم ٣٤٥٠)، والنسائى فى الكبرى (٦ / ٢٣٠ رقم ١٠٧٦٣، ١٠٧٦٤)، وأحمد فى مسنده (٢ / ١٠٠ - ١٠١)، والحاكم (٤ / ٢٨٦) وصحح إسناده والبيهقى فى الكبرى (٣ / ٣٦٢) وابن السننى فى عمل اليوم والليلة (ص ١١٠ رقم ٣٠٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما وقال الترمذى: غريب.

(٣) فى «الأصل»، و«ك»: الخناق، وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه. انظر تفسير الطبرى (١ / ٣٤١).

(٤) الرعد: ١٣.

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

باللسان من الإسلام.

﴿فيه ظلمات﴾ مثل لما فى الإسلام من البلايا والمحن والشدائد ﴿ورعد﴾ مثل لما فيه من المخاوف فى الآخرة.

﴿وبرق﴾ لما فيه من الوعد والوعيد.

وقيل: ضرب الصيب مثلاً للقرآن الذى كانوا يقرءونه باللسان؛ لأن فى القرآن حياة الباطن كما فى الماء حياة الظاهر. ﴿فيه ظلمات﴾ مثل لما ذكرنا فى القرآن من أنواع الكفر والنفاق، ﴿ورعد﴾ مثل لما ذكرنا فيه من الوعيد ﴿وبرق﴾ مثل لما فيه من البيان.

﴿يجعلون أصابعهم فى آذانهم﴾ يعنى: أن المنافقين إذا رأوا فى الإسلام بلاء وشدة، هربوا وتأخروا؛ حذراً من الهلاك.

﴿والله محيط بالكافرين﴾ يعنى: لا ينفعهم حذرهم؛ لأن الله - تعالى - من ورائهم يجمعهم فيعذبهم.

قوله تعالى: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم...﴾ الآية ﴿يكاد﴾ كلمة القرب، يكاد يفعل، أى: قرب يفعل ﴿يخطف أبصارهم﴾ والخطف: استلاب بسرعة. وهذا من تمام المثل، ومعناه على القول الأول: تكاد دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة.

ومعناه على القول الآخر: يكاد القرآن يبهر قلوبهم.

﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ معناه: كلما نالوا غنيمة وراحة ثبتوا على الإسلام. ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ يعنى: كلما رأوا شدة وبلاء تأخروا. وقاموا، أى: وقفوا. ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: لو شاء

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

الله لذهب بما استفادوا من العز والأمان الذى لهم بمنزلة السمع والبصر.

والثانى معناه: ولو شاء الله لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة؛ كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعنى: قادر.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾ الآية، قال ابن عباس: كل ما ورد فى القرآن من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإنما نزل بمكة، وكل ما ورد من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنما نزل بالمدينة.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعنى: يا هؤلاء الناس. وهذا وإن عمت صيغته ولكن دخله الخصوص؛ فإنه لا يتناول الصغار والمجانين. ﴿اعْبُدُوا﴾ أى: وحدوا.

قال ابن عباس: كل ما ورد فى القرآن من العبادة فهو بمعنى التوحيد، وكل ما ورد فى القرآن من التسبيح والسبحه فهو بمعنى الصلاة.

وقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أى: وحدوا الله الذى خلقكم. وإنما خاطبهم به؛ لأن الكفار مُقَرَّونَ أن الله خالقهم، والخلق: هو اختراع الشيء على غير مثال سبق. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أى: وخلق الذين من قبلكم. فإن قيل: أى فائدة فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فإن من عرف أن الله خالقه فقد عرف أنه خالق غيره من قبله؟ قيل: فائدته المبالغة فى البيان، أو يقال: فائدته المبالغة فى الدعوة، يعنى: إذا كان الله خالقكم وخالق من قبلكم فلا تعبدوا إلا إياه. وفيه إشارة لأنه خلق الأولين وأماتهم وابتلاهم فى الدنيا والآخرة؛ فأشار بهذا إلى أنى أفعل بكم ما فعلت بهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قيل معناه: لكى تتقوا، قاله أبو عبيدة، وقيل معناه: كونوا

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

على رجاء التقوى. فإن قال قائل: التقوى [هى] (١) العبادة، فأى شىء معنى قوله: اعبدوا لى تعبدوا؟ قلنا معناه: اعبدوه وكونوا على حذر منه، وهذا دأب العابد أن يعبد الله ويكون على حذر منه. وقيل معناه: اعبدوه وكونوا على رجاء التقوى؛ بأن تصيروا فى ستر ووقاية من عذاب الله تعالى، وحكم الله من ورائكم يفعل بكم ما يشاء؛ وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لِيْنَا لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٢) أى: ادعوا إلى الحق وكونا على رجاء التذكر والخشية منه. وحكم الله وراءه يفعل به ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ الآية. هذا راجع إلى ما تقدم يعنى: اعبدوا الذى جعل لكم الأرض فراشا، والجعل ها هنا بمعنى: الخلق ﴿فِرَاشًا﴾ أى: بساطا، وقيل: وطاء. وقيل: مقاما. يعنى لكم الأرض قرارا لتكونوا عليها ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى: سقفا ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ إنما أضافه إلى السماء وإن كان ينزل من السحاب؛ لأنه ينزل من جهة السماء.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ قيل: الرزق هو كل ما يؤكل. وقيل: كل ما ينتفع به. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال قتادة: الند: هو المثل. وقال أبو عبيدة: الند هو الضد. وهذا من الأضداد، والله - تعالى - برىء عن المثل وال ضد. قال حسان بن ثابت فى مدح رسول الله ﷺ:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِنْدٌ فَشَرُّكُمَْا لَخَيْرِكَمَا الْفِدَاءُ

يعنى: ولست له بمثل؛ قال لبيد:

أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نَدَّ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلَ

(١) فى «الأصل»: هو.

(٢) طه: ٤٤.

وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

أى: لا مثل له. ومعنى قوله: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ أى: لا تتخذوا من دونه أربابا تعبدونهم كعبادة الله، وتطيعونهم كطاعة الله لا أن له مثلاً، أو لا مثل لله - تعالى -.

﴿وأنتم تعلمون﴾ أى: فلا تعبدوا غيره وأنتم تعلمون أنه خالقكم وخالق السموات والأرض. قوله - تعالى -: ﴿وإن كنتم فى ريب﴾ أى: شك. فإن قيل: كيف ذكره على التشكيك وهم فى ريب على التحقيق؟ قيل: مثله جائز فى كلام العرب؛ كما يقول الرجل لغيره: إن كنت رجلاً فافعل كذا؛ وإن عرف أنه رجل على التحقيق. قيل: أراد به «وإن كنتم» فيكون على التحقيق، ﴿مما نزلنا﴾ من القرآن ﴿على عبدنا﴾ يعنى: على الرسول ﷺ.

﴿فأتوا بسورة﴾ السورة: اسم للمنزلة الرفيعة؛ ومنه سورة البناء؛ لارتفاعه. قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ شَيْءٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ

أى: أعطاك سورة منزلة، أى: منزلة رفيعة. وسميت سورة القرآن سورة؛ لأن القارئ ينال بقراءة كل سورة منزلة؛ حتى يستكمل جميع المنازل باستكمال القرآن، وقيل: السورة اسم لقطعة من القرآن معلوم الأول والآخر، ومنه سؤر الطعام لما بقى منه. وفى الخير «إذا أكلتم فاسأروا»^(١) أى: أبقوا بقية. وإنما نزل القرآن سورة سورة حتى [أن] ^(٢) القارئ كلما قرأ سورة وافتتح أخرى ازداد نشاطاً، فيكون أنشط فى القراءة، أو لأنه ربما لا يمكنه حفظ جميع القرآن فيحفظ بعض السور.

﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ وقوله: ﴿من مثله﴾ فيه معنيان: أحدهما - قاله ابن

(١) ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة (ص ٨١ رقم ٥٤) بلفظ: «إذا أكلتم فافضلوا» وبيض له، وقال

العجلونى فى كشف الخفا (١/ ٨٦): قال النجم لم أجده حديثاً، بل فى الحديث ما يعارضه. وفى النهاية

لابن الأثير (مادة سار): «إذا شربتك فاسفروا» أى أبقوا منه بقية.

(٢) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

عباس وجماعة - : أراد به من مثل القرآن . فإن قيل : كيف قال : من مثل القرآن ، ولا مثل له ؟ قيل : أراد به من مثله على زعمهم .

وفيه قول آخر : أنه أراد به من مثل محمد ؛ لأنهم كانوا يقولون : إنه مفترى فقال : فأتوا بسورة من مفترى مثله .

﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله ﴾ أى : استعينوا بأعوانكم وأربابكم من دون الله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تزعمون . وفائدته : أنهم إذا اجتمعوا وأحضروا أربابهم فعجزوا كان أبلغ فى إلزام الحجة . وقوله - تعالى - : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ... ﴾ الآية يعنى : فإن لم تفعلوا ذلك ، ولن تفعلوه أبداً على طريق الإخبار . « وتم » للماضى ، « ولن » للمستقبل . وإنما قال هذا لبيان المعجزة ؛ لأن القرآن كان معجزة للنبي ﷺ حيث عجز الكل عن الإتيان بمثله .

﴿ فاتقوا النار ﴾ أى : فآمنوا ؛ لكى تتقوا النار بالإيمان ﴿ التى وقودها الناس ﴾ الوقود يعنى : الإيقاد ، والوقود بفتح الواو الحطب . ﴿ والناس ﴾ أهل جهنم ﴿ والحجارة ﴾ قال على وابن مسعود : هى حجارة الكبريت ؛ لأنها أكثر توقداً والتهاباً ، وقال الباقر : هى جميع الحجارة . وهذا دليل على عظم تلك النار ، و﴿ أعدت للكافرين ﴾ أى : هيئت للكافرين ، وهذا دليل على أن النار مخلوقة ، لا كما قال أهل البدعة . ودليل على أنها مخلوقة للكافرين ، وإن دخلها بعض المؤمنين تأديباً وتعريفاً^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا ... ﴾ الآية ، البشارة : اسم لكل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه ويظهر عليها ، وقد تكون فى الخبر السوء . كما قال : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾^(٢) إلا أنه فى الخبر السار أغلب . ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾

(١) (تعريفاً) : عرّكه حتى عفاه (القاموس مادة : ع ر ك) ٢٠٧/٣ ولعل المراد - والله أعلم - : تطهيراً وتنظيفاً .

(٢) آل عمران : ٢١ ، التوبة : ٣٤ ، الانشقاق : ٢٤ .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ

يعنى : المؤمنين من أهل الطاعة ﴿ أن لهم جنات ﴾ الجنات : جمع جنة وهو اسم للستان الذى فيه أشجار مثمرة، فإذا لم تكن الأشجار مثمرة لا تكون جنة. وقيل : الجنة ما فيه النخيل. والفردوس ما فيه الكرم، وإنما سميت جنةً من الاجتنان؛ لأنها تستر الأرض بالتفافها وأوراقها. وقيل : الجنان سبع، وقيل : ثمان، والكل فى القرآن.

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أى : من تحت أشجارها تجري المياه من الأنهار، وفى الحديث : « إن أنهار الجنة تجري فى غير أخدود »^(١) أى : فى غير شق.

﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ﴾ أى : كلما رزقوا شيئاً من ثمار الجنة قالوا هذا الذى رزقنا من قبل. وفيه قولان : أحدهما معناه : رزقنا من قبل فى الدنيا، والثانى : أن الثمار فى الجنة متشابهة فى اللون مختلفة فى الطعم، فإذا رزقوا منها ثمرة ثم رزقوا أخرى ظنوا أنها الأولى لاستوائهما فى اللون ف ﴿ قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ﴾.

﴿ وأتوا به متشابهها ﴾ قال مجاهد : أى متشابهها فى اللون. كما ذكرنا، وقال الحسن البصرى : معناه كلها خيار ليس فيها رذال. قال ابن عباس : ليس فى الدنيا من ثمار الجنة إلا الأسامى ﴿ ولهم فيها أزواج ﴾ قيل : من الحور العين، ويحتمل من أزواج الدنيا : ﴿ مطهرة ﴾ من الأذناس؛ لا يتمخطن، ولا يتغوطن، ولا يحضن. وقيل : مطهرة الأخلاق، فيكن مطهرات خلُقًا وخلُقًا. ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ أى : مقيمون لا يظعنون.

قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ﴾ وسبب نزول الآية : أن الله - تعالى - لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، قال المشركون : إنا

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٦ / ٢٠٥) وفى صفة الجنة له أيضاً (٢ / ١٦٨ رقم ٣١٦)، وابن مردويه، والضياء المقدسى - كما فى الدر المنثور (١ / ٤٤) - من حديث أنس مرفوعاً، ولفظه : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود فى الأرض، لا والله، إنها لسائحة على وجه الأرض ». وأخرجه أبو نعيم فى صفة الجنة (٢ / ١٦٧ رقم ٣١٦) وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة له (رقم ٦٨) عن أنس موقوفاً من قوله. وقال المنذرى فى الترغيب (٤ / ٥٥) : والموقوف أشبه بالصواب

مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ

لأنعبد إلها يذكر الذباب والعنكبوت، فنزل قوله - تعالى - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أى: لا يمتنع ولا يترك ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ أى: يذكر مثلاً ﴿مَا بَعُوضَةٌ﴾ (ما) للصلة هاهنا، أى: مثلاً بالبعوضة. قال الشاعر^(١):

قَالَتْ أَلَا لَيْتَمَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا
إِلَى حَمَامَتِنَا أَوْ نِصْفَهُ فَقَدْ

معناه أى: ليت هذا الحمام لنا. والبعوض: صغار البق، سميت بعوضة لأنها بعض البق. ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ معناه: فما دونها؛ كما يقال: فلان جاهل، فيقال: وفوق ذلك. يعنى: أجهل من ذلك، فكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ يعنى: فى الصغر، وأصغر من ذلك، وقيل: فما فوقها على الحقيقة؛ لأنه ضرب المثل بالذباب، والعنكبوت. قال الربيع بن أنس: مثل البعوضة مثل صاحب الدنيا؛ لأن دأب البعوضة أنها إذا شبت هلكت، وإذا جاعت عاشت؛ كذلك صاحب الدنيا إذا استكثر من الدنيا هلك، وإذا استقل منها فاز ونجا. وقيل: إن حكم الله - تعالى - فى صغار خلقه أكثر من حكمه فى كبار خلقه. قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: أنه الصدق من ربهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أى شئ أراد الله بهذا المثل؟ يقول الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أى: أراد هذا، والإضلال: هو الصرف عن الحق إلى الباطل. وقيل: الإضلال هو الإهلاك؛ يقال: ضل اللبن فى الماء أى: هلك.

﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أى: ويرشد به كثيرا. ﴿وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يعنى: الكافرين. والفسق: هو الخروج عن طاعة الرب؛ يقال: فسقت (الرطوبة)^(٢) إذا خرجت

(١) وهي زرقاء اليمامة وهو بيت من كلام النابغة الذبياني من قصيدة مطلعها:

يَا دَارَ مِيةٍ بِالْعِلْيَاءِ فَالْسِّنْدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

(٢) فى «ك»: الرطوبة وهو تحريف.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ

عن قشرها، ومعنى إضلالهم بالمثل أنه لما ضرب المثل فكفروا به ازدادوا ضلالاً.

وقوله تعالى: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أى: يخالفون أمر الله. والميثاق: مفعال من التوثقة وهو العهد المؤكد. وفى معناه قولان: أحدهما: أنه أراد نقض الميثاق الأول الذى أخذه على آدم وذريته بقوله: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ (١).

وقيل: أراد به نقض الميثاق الذى أخذه على النبيين وسائر الأمم أن [يؤمنوا] (٢) بمحمد ﷺ بقوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين...﴾ (٣) الآية.

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ فيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنهم يقطعون ما أمروا بوصله من الإيمان بمحمد وبسائر الرسل. وقيل: أراد به قطع الرحم. والأول أولى؛ لأنه أعم، وقيل: أراد به قطع العمل عن القبول؛ فإنهم لم يعملوا بما قبلوا. ﴿ويفسدون فى الأرض﴾ بالمعاصى ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ المغبونون.

قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله﴾ قاله تعجبا، كيف تكفرون بالله بعد نصب الدلائل ووضوح البراهين؟! ثم ذكر الدليل فقال: ﴿وكنتم أمواتا﴾ هذا دليل، أى: كنتم نطفاً فى أصلاب الآباء.

﴿فأحياكم﴾ أى: خلقكم ﴿ثم يميتكم﴾ عند انتهاء الأجل. ﴿ثم يحييكم﴾ للبعث ﴿ثم إليه ترجعون﴾ إلى الله مصيركم. وقيل: أراد بالموت الأول: الموت المعهود ﴿وكنتم أمواتا﴾ أى: تصيرون أمواتا. فأحياكم أى: يحييكم فى القبر للسؤال، ثم يميتكم بعده فى القبر ثم يحييكم للبعث. ثم إليه ترجعون.

قوله تعالى: ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾ لكى تعتبروا

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) فى «الأصل»، و«ك»: يؤمنون. على جعل «أن» مصدرية غير عاملة.

(٣) آل عمران: ٨١.

عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا
فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

وتستدلوا، وقيل: لكي تنتفعوا.

﴿ثم استوى إلى السماء﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين من السلف: أى ارتفع
وعلا إلى السماء.

وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من النحويين معناه: أقبل على خلق السماء؛ لأنه
خلق الأرض أولاً، ثم أقبل على خلق السماء، كما ذكر فى «حم السجدة» (١).
﴿فسواهن سبع سموات﴾ أى: خلقهن مستويات؛ لافطر فيها، ولا صدع، ولا شق.
﴿وهو بكل شىء عليم﴾ أى: عالم بصغار خلقه وكبارهم.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ معناه:
وقال ربك. «وَإِذْ» زائدة فيه.

وقيل، معناه: واذكر إذ قال ربك. والملائكة: جمع الملك، وأصل الملك مألِك،
فقلبت الهمزة فصار مألِك ثم أسقط الهمزة فصار ملك، واشتقاقه من الألوكَة، وهى:
الرسالة، ومثلها المالكة، والمالكة؛ قال الشاعر:

أَلَكْنِى إِلَيْهَا (وخير) (٢) الرسولِ أَعْلِمُهُم بنواحي الخبرِ

يعنى: أرسلنى إليها.

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ اتفقوا على أن المراد بهذا الخليفة آدم - صلوات
الله عليه - والخليفة، والخليف بمعنى واحد، وجمع الخليف خلفاء. وجمع الخليفة
خلائف.

واختلفوا فى أنه لِمَا سَمِى خَلِيفَةً؟ منهم من قال: لأنه خليفة الجن؛ فإن الله -
تعالى - لما خلق الأرض أسكنها الجن، ولما خلق السماء أسكنها الملائكة، ثم لما خلق

(٢) كذا فى «الأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب، مادة (ألك): بخير.

(١) سورة فصلت.

لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

آدم أزعج الجن إلى أطراف الأرض؛ فهو خليفة الجن في الأرض.

وقيل: إنما سماه خليفة؛ لأنه يخلفه غيره. فيكون الخليفة بمعنى أنه يخلف غيره.
ويكون الخليفة بمعنى أنه يخلفه غيره.

وقيل: إنما سمى خليفة لأنه خليفة الله في الأرض؛ لإقامة أحكامه، وتنفيذ
قضائيه، وهذا هو الأصح.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا...﴾ الآية. قالت الملائكة: أتجعل
فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟! فإن قيل: من أين علموا ذلك؟ قيل: إن الله
تعالى أعلمهم بذلك. وقيل: اطلعوا عليه في اللوح المحفوظ.

﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ هو التنزيه عن السوء. ومعناه: ونحن ننزهك عن
الأنداد والشركاء.

وقال الحسن: معنى قوله: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ هو قولهم: سبحان الله وبحمده.

﴿ونقدس لك﴾ يعني: نثنى عليك بالقدس والطهارة.

وقيل: معناه نظهر أنفسنا بطاعتك والثناء عليك.

فإن قيل: قولهم ﴿أتجعل فيها﴾. يشبه الاعتراض عليه. وقولهم نحن ﴿نسبح
بحمدك﴾ يشبه التفاخر بالعمل؛ وكلاهما لا يجوز على الملائكة. فما معنى هذا الكلام؟
قلنا: أما قولهم: (أتجعل فيها) معناه: أنت جاعل فيها على سبيل التقدير، ومثله
قول الشاعر:

وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحَ

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

يعنى أنهم بهذه الصفة.

وقالوا: إنما قالوه على سبيل التعجب طلباً لوجه الحكمة فيه.

خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ

وأما قوله: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ ليس على سبيل التفاخر بل معناه: أنه إذا أفسدوا وسفكوا الدماء فنحن نبقى على هيئة التسبيح والتقديس أم لا؟ قال: ﴿إني أعلم ما لاتعلمون﴾ له معنيان:

أحدهما: إني أعلم فيهم من يعبدني ويطيعني من الأنبياء والأولياء والصلحاء.

والثاني معناه: إني أعلم فيكم أيها الملائكة من يعصيني - يعني إبليس -.

قوله - تعالى - : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ أما آدم إنما سمى آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض، ولما خلقه الله - تعالى - علمه أسماء الأشياء بأجمعها.

قال ابن عباس: علمه أسماء الأشياء حتى القصعة والقصيعة، والفسوة والفسية.

وإنما علمه ذلك تكريما وتشريفا له. وذلك دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا كما ذهب إليه أهل السنة.

﴿ثم عرضهم﴾ قرأ أبي بن كعب: «ثم عرضها» [وهي] (١) في الشواذ. ورجع [الكناية] (٢) إلى المسميات التي لاتعقل. والقراءة المعروفة: «ثم عرضهم» فإن المسميات لما جمعت من يعقل ومن لايعقل؛ كنى بلفظ من يعقل تغليبا له.

وإنما عرضهم على الملائكة لإظهار فضيلته عليهم، فإنهم كانوا قد قالوا: لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا، فقال: ﴿أنبئوني﴾ أخبروني ﴿بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فيما زعمتم.

قوله تعالى: ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ قد ذكرنا معنى التسبيح. ومعنى الآية: أنك أجلُّ من أن نحيط بشيء من علمك؛ إلا الذي علمتنا منه.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ أي: العالم ﴿الحكيم﴾ له معنيان أحدهما: الحاكم، وهو

(١) في «الأصل»، و«ك»: هو.

(٢) أي: الضمير.

لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا

القاضى بالعدل .

والثانى : معنى الحكيم : المحكم للأمر كيلا يتطرق إليه الفساد، ومنه : أحكمت الدابة لأنها (تمنعها) (١) من الفساد .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ لما عرضهم على الملائكة فعجزوا ؛ يقول الله تعالى لآدم : أخبرهم بأسمائهم ﴿ فلما أنباهم بأسمائهم ﴾ فأخبرهم آدم بأسماء تلك المسميات ، والحكمة التى لأجلها خلقوا ، فلما أخبرهم بها ﴿ قال الله ﴾ تعالى للملائكة : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فإنه قد قال لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وغيب السموات والأرض كل ما غاب وخفى عن الأبصار .

﴿ وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ ﴾ أى قولكم : أتجعل فيها من يفسد فيها .

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : ما كتموا من قولهم : لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا .

والثانى : معناه ما كتمه إبليس فيهم حين خلق آدم ؛ فإنه قد قال : إِنْ سُلِّطْتُ عَلَيْهِ لَأَهْلِكَنَّهُ وَإِنْ سُلِّطَ عَلَيَّ لَا أَطِيعُهُ .

قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ اختلفوا فى أن هذا الخطاب مع أى الملائكة ؟ فقال بعضهم : هو خطاب مع ملائكة الأرض خاصة .

وقيل : هو خطاب لجميع الملائكة . - هو الأصح - لقوله - تعالى - ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٢) .

والسجود عبادة مع التواضع والخشوع والخضوع ، ومنه شجرة ساجدة إذا ماتت من

(١) فى «ك» : تمنعه .

(٢) الحجر : ٣٠ ، وص : ٧٣ .

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ

كثرة حملها.

وفى قوله: ﴿اسجدوا لآدم﴾ قولان أحدهما: أن معناه اسجدوا إلى آدم، فيكون آدم كالقابلة. والسجود لله - تعالى - .

والأصح: أن السجود كان لآدم على الحقيقة. وتضمن معنى الطاعة لله - تعالى - بامتثال أمره فيه. فعلى هذا يكون السجود لآدم على سبيل التحية له. وهو كسجود إخوة يوسف ليوسف بمعنى التحية له. ثم نقل ذلك إلى السلام بين المسلمين.

﴿فسجدوا لإبليس﴾ قال بعضهم: إبليس مشتق من الإبلas. وهو اليأس من الخير، قال الشاعر:

يَاصَاحُ هَلْ تَعْرِفُ (رسما) (١) مكرسا قال: نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسًا (٢)

وقيل: هو اسم أعجمي معرب لا اشتقاق له ولذلك لا ينصرف.

واختلفوا في إبليس، والذي قاله ابن عباس وأكثر المفسرين: أنه كان من الملائكة.

وقال الحسن: كان من الجن لقوله تعالى: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (٣) ولأنه خلق من النار، والملائكة خلقوا من النور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة.

والأصح أنه كان من الملائكة لأن خطاب السجود كان مع الملائكة.

وأما قوله: ﴿كان من الجن﴾ قيل: إن فرقة من الملائكة سموا جنّا خلقهم الله - تعالى - من النار. وعليه دل قوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ (٤).

حيث قالوا الملائكة بنات الله. فسماهم جنة. وإنما سموا جنة لاستتارهم عن الأعين.

وإبليس كان من ذلك القبيل. وإنما كان له ذرية؛ لأنه أخرج من الملائكة ثم جعل

(٢) انظر لسان العرب، مادة (بلس).

(١) في «ك»: اسما.

(٤) الصافات: ١٥٨.

(٣) الكهف: ٥٠.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الذرية.

وقيل: إن الله - تعالى - لما خلق إبليس أعطاه ملك الأرض، وملك السماء الدنيا،
وجعله خازن الجنة.

قوله - تعالى - : ﴿أبَى﴾ امتنع ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أى: أنف؛ حيث ظن أنه خير من
آدم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: معناه وصار من الكافرين فى علم
الله - تعالى - .

قال مجاهد: علم الله فى أزله أنه تكون منه المعصية فخلقه للمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أراد بزوجه حواء، فإن
قيل: [لَمْ] ^(١) أمرهما بدخول الجنة، وقد وعد أن من دخلها يكون خالدا فيها فكيف
أخرجهما من الجنة؟

قلنا: إنما ذلك الوعد فى حق من يدخلها للشواب والجزاء، وآدم إنما دخل الجنة
بالكرامة دون الثواب.

﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شَعْتُمَا﴾ الرعد: الواسع من العيش. وهو أن يأكل ما شاء
إذا شاء كيف شاء. ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ يعنى: للأكل.

والشجرة: اسم لما يقوم على الساق، والنجم اسم لما (لا) ^(٢) يقوم على ساق.

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ ^(٣) وفى تلك الشجرة ثلاثة أقوال:
قال ابن مسعود: كانت شجرة العنب. وقال ابن عباس: كانت شجرة السنبلة. وقال
ابن جريج: كانت شجرة التين. وقيل: إنها شجرة العليم.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الظلم وضع الشئ فى غير موضعه وفيه يقال: «من أشبه

(٣) الرحمن: ٦.

(٢) ليست فى «ك».

(١) فى «الأصل»، و«ك»: لما.

الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا

باه فما ظلم» أى: فما وضع الشبه فى غير موضعه.

قوله - تعالى - : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ حمزة (١): «فَأَزَلَّهُمَا» ومعناه:
نَحَاهُمَا وبعدهما عن الجنة.

وقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ إلى الزلة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ يعنى من نعيم الجنة.
وإنما نسب الإخراج إليه؛ لأنه كان السبب فيه.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ الهبوط هو النزول من الأعلى إلى الأسفل، والخطاب مع آدم،
وإبليس، وحواء، والحية، وهى الحية [التى] (٢) كانت من خزان الجنة فخدعها إبليس
حتى أدخلته (الجنة) (٣).

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ العدو: اسم للواحد والجمع، معناه أعداء.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْقَرٌ﴾ أى: قرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ متعة تتغذون بها ﴿إِلَى حِينٍ﴾
إلى منتهى الآجال.

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ التلقى: هو قبول عن فطنة وفهم
دليل. فتلقى هو [أى: تعلم] (٤): ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ (٥) إلى آخره.

وقال عبيد بن عمير: هى كلمات قالها آدم حين ابتلاه الله بالمعصية.

﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال ابن عباس والأكثر: الكلمات هى قوله: ربنا - أى:
تعلم بالمعصية يارب - هذا شئ كتبته على [أم] (٦) ابتدعته من تلقاء نفسى ؟
فقال: بل شئ كتبته عليك. فقال آدم: (فكما) (٧) كتبته على فاغفره.

(١) انظر النشر فى القراءات العشر (٢/ ٢١١). (٢) فى الأصل: «الذى». (٣) فى «ك»: الحية.

(٤) فى «الأصل» و«ك»: التعلم. (٥) الأعراف: ٢٣. (٦) فى «الأصل»، و«ك»: آدم. وهو خطأ.

(٧) ليست فى «ك».

الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا

﴿فتاب عليه﴾ فقبل توبته ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ هو القابل للتوبة من العباد؛ الرحيم بهم.

قوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا﴾ الهبوط الأول كان من الجنة إلى السماء الدنيا، والهبوط الثاني كان من السماء الدنيا إلى الأرض.

﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أى: رشد [و] (١) بيان شريعة.

﴿فمن تبع هداي﴾ أى: ذلك الرشد والشريعة.

﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فى الآخرة.

قوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أى: كفروا بالله وبالرسل وكذبوا بآياته ﴿أولئك أصحاب النار﴾ يعنى يوم القيامة ﴿هم فيها خالدون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا بنى إسرائيل﴾ إسرائيل اسم يعقوب. وله فى القرآن اسمان: يعقوب وإسرائيل. ومعنى إسرائيل عبد الله، «إسر» مثل قولنا «عبد»، و«إيل» مثل قولنا «الله» ﴿اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ الذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، وهو ضد النسيان. وقوله: ﴿نعمتى﴾ أى: نعمى، ذكر الجمع بلفظ الواحد، ومثله كثير فى القرآن.

واختلفوا فى تلك النعم. قال قتادة: هى النعم التى خصت بها بنو إسرائيل من

يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
 ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَٰئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي

إنجائهم من فرعون بتغريقه، وإرسال موسى إليهم، وإنزال التوراة عليهم، ونحو ذلك.

وقال غيره: هي جميع النعم التي لله على عباده.

فإن قال قائل: لم أمرهم بالذكر وهم كانوا ذاكرين لتلك النعم؟

قلنا: الذكر بمعنى الشكر، ومعناه: اشكروا نعمتي. وإنما ذكر بلفظ الذكر؛ لأن في الشكر ذكرا، وفي الكفر نسيانا.

﴿وأوفوا بعهدي﴾ أوفى يوفى، ووفى يفى، بمعنى واحد. وقد جمعها الشاعر في بيت واحد فقال:

أَمَا ابْنُ عَوْفٍ فَقَدْ أَوْفَى بِذِمَّتِهِ كَمَا وَفَى بِقِلَاصِ النُّجْمِ حَاوِيهَا

والعهد: هو الأمر المؤكد. ومعناه: «أوفوا بعهدي» بامتنال أمرى.

﴿أوف بعهدكم﴾ بالقبول والثواب. وقال مجاهد: أراد بهذا العهد ما ذكر في سورة المائدة ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا﴾^(١) إلى آخر الآية. ﴿وإياى فارهبون﴾ فخافونى.

قوله - تعالى - : ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾ بما أنزلت في القرآن مصدقا لما معكم من التوراة. يعنى أن القرآن مصدق لما فى التوراة من التوحيد ونعت محمد

ﷺ.

أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَأَمْنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا

﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ يعنى أول من كفر به . وقيل : أول فريق كافر به . وهما فى المعنى سواء . فإن قيل : قد كفر به مشركو العرب قبلهم ، فكيف قال : ولا تكونوا أول كافر به ؟ قلنا : أراد به من أهل الكتاب ؛ لأن الخطاب مع أهل الكتاب .

﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا﴾ ولا تستبدلوا ؛ ذلك أن علماءهم وأحبارهم كانت لهم مأكلة على أغنيائهم وجهالهم ؛ فخافوا أن تذهب مأكلتهم إن آمنوا بمحمد ﷺ فغيروا نعته ، وكنتموا اسمه ، فهذا معنى بيع الآيات بالثمن القليل .
﴿وإياي فاتقون﴾ فاحذرون .

قوله - تعالى - : ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ اللبس : هو الخلط والتعمية . يقال : لَبَسَ يَلْبَسُ لُبْسًا ، من اللباس . وَلَبَسَ يَلْبَسُ لُبْسًا ، من التلبيس . قال الله - تعالى - ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ (١) أى : خلطنا عليهم كما خلطوا . وقال على - رضى الله عنه - للحارث : لا يكن ملبوسا عليك ، الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله .

فمعنى قوله : ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أى : الإسلام باليهودية والنصرانية ، كذا قال الأكثرون . وقيل : هو لبس التوراة بما غيروا من نعت محمد ﷺ .
﴿وتكنتموا الحق﴾ يعنى نعت محمد . ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه حق . قال محمد ابن سيرين : هذا الخطاب مع قوم من اليهود كانوا بالشام رأوا فى كتبهم اسم محمد ونعته ، وأنه يبعث من القرى العربية ، فخرجوا فى طلبه ونزلوا بالمدينة فلما بعث محمد حسدوه ، وغيروا اسمه ونعته ؛ خفا من ذهاب مأكلتهم .

قوله - تعالى - : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أما الصلاة فقد ذكرنا . وأما

تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ
وَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ

الزكاة: فمأخوذ من زكا الزرع، إذا كثر ونما.

وقيل: هي من تَزَكَّى. أى: تطهر، وكلا المعنيين موجود في الزكاة المفروضة؛ لأن فيها تنمية المال وتطهيره.

﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أى: صلوا مع المصلين. وأصل الركوع: عبادة مع انحناء. يقال: ركعت النخلة إذا انحنت، ومنه قول الشاعر:

أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأي كلما قمت راکع

وإنما ذكره بلفظ الركوع؛ لأن صلاة اليهود ما كان فيها ركوع؛ فكأنه قال: وصلوا صلاة ذات ركوع.

فإن قيل: قد أمرهم في أول الآية بإقامة الصلاة، فأى شيء معنى هذا الأمر الثانى: قلنا: الأول مطلق فى حق الكل، وهذا الثانى خطاب لقوم مخصوصين، قال لهم: صلوا مع الذين [سبقوكم] ^(١) بالإيمان والصلاة.

قوله - تعالى - : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أى: بالطاعة ﴿وتنسئون أنفسكم﴾ أى: تتركون أنفسكم ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ التوراة.

﴿أفلا تعقلون﴾ العقل: مأخوذ من عقل البعير، وهو ما يشد به ركة البعير، سمي به لأنه يمنع من الشرود، كذلك العقل يمنع صاحبه من التمرد والخروج عن طاعه. وفى معنى الآية قولان، أحدهما: أنه خطاب لأخبارهم؛ حيث أمروا أتباعهم بالتمسك بالتوراة، ثم خالفوا وغيروا نعت محمد ﷺ.

والقول الثانى: أن أهل المدينة كانوا يشاورون علماءهم فى اتباع محمد فأشاروا عليهم باتباعه ثم خالفوه وكفروا به.

فى الحديث: (روى أنس) ^(٢) عن النبى ﷺ أنه قال: «رأيت ليلة أسرى بى فى السماء أقواما تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فسألت من هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء

(١) فى «الأصل، ولك»: سبقكم.

(٢) فى ك: روى عن أنس.

أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ

الخطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم» (١).

قوله - تعالى - : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الاستعانة طلب المعونة . وأما
الصبر فالأكثر على أنه حبس النفس عن المعاصي .

ومنه الدابة المصبورة وهي أن تمسك لترمي كالهدف .

وفى الحديث : « أنه نهى عن الدابة المصبورة » (٢) . وقال ﷺ فى الذى يمسك غيره
حتى يقتل : « اصبروا الصابر واقتلوا القاتل » (٣) أى : أحبسوا الممسك واقتلوا المباشر .

وقال الحسن البصرى : هو الصوم . ومنه سمي شهر رمضان شهر الصبر . فإن قيل :
ما معنى الاستعانة بالصوم والصلاة ؟ قيل : لأن الصوم يزهد فى الدنيا . (وكذلك) (٤)

فى الصلاة يقرأ ما يحثه على الزهد فى الدنيا . فكأنه قال : استعينوا بهذين على
الدين ؛ لتقووا على الإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا .

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ لثقيلة . وفى قوله : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ قولان : أحدهما : أن (الكناية) (٥)

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٠، ٢٣٩، ٢٤٠)، وابن أبى شعبة فى المصنف (١٤/٣٠٨)، وابن
حبان فى صحيحه (١/٢٤٩ رقم ٥٣)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/١٧٢)، وغيرهم . وانظر الدر المنثور
(١/٧٠)، وابن كثير (١/٨٦) .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر . البخارى (٩/٥٥٨ رقم ٥٥١٤ . ٥٥١٤)، ومسلم (١٣/١٥٩ - ١٦٠
رقم ١٩٥٨)

(٣) أخرجه الدارقطنى فى سننه (٣/١٤٠)، وابن عدى - كما فى الكنز ٣٩٨٣٨ - ومن طريق ابن عدى رواه
البيهقى فى السنن الكبرى (٨/٥٠) من حديث ابن عمر مرفوعاً بنحوه، قال البيهقى : هذا غير محفوظ،
وقد قيل عن إسماعيل بن أمية عن سعيد بن المسيب عن النبى ﷺ، وهو الصواب، ثم ساق الحديث
بإسناده عن إسماعيل بن أمية مرسلأ ولفظه : قضى رسول الله ﷺ فى رجل أمسك رجلاً وقتل الآخر ..
الحديث . وقد أخرجه الدارقطنى أيضاً فى الموضع السابق، والبيهقى (٨/٥١) من حديث معمر عن
إسماعيل بن أمية يرفعه : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر » . قال أبو عبيدة : قوله : « اصبروا الصابر » يعنى احبسوا الذى
حبسه .

(٥) فى «ك» : الكتابة، وهو تصحيف، ويقصد بالكناية الضمير .

(٤) فى «ك» : وكذا .

مُلَاقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ

راجعة إلى الصوم والصلاة جميعا. إلا أنه اكتفى بأحد المذكورين والكناية عنه. وهو
كما قال القائل:

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ

أى: لغريبان إلا أنه اكتفى بأحدهما. وأورد الأزهري فى كتاب التقريب قولاً
حسناً، فقال: تقديره: واستعينوا بالصبر وإنه لكبير، وبالصلاة وإنها لكبيرة، إلا أنه
حذف أحدهما واختصر المعنى اختصاراً.

﴿إلا على الخاشعين﴾ الخاشع: هو المطيع المتواضع.

﴿الذين يظنون﴾ يستيقنون. والظن يكون بمعنى الشك، ويكون بمعنى اليقين،
قال الله - تعالى -: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حَسَابِيهِ﴾ ^(١) أى: استيقنت، وقال
الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِالْفَى مُقَنِّعٍ سُرَاتُهُمْ فِى الْفَارَسِ الْمَسْرَدِ

وقوله - تعالى -: ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أى صائرون إلى ربهم. وكل ما ورد فى
القرآن من اللقاء فهو بمعنى الصيرورة إليه، كذا قال المفسرون.
وقيل: هو اللقاء الموعود، وهو رؤية الله - تعالى -.

وقوله - تعالى -: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أى: صائرون.

وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ معناه ما سبق.
﴿وأنى فضلتكم على العالمين﴾ التفضيل نقيض التسوية. وأراد به التفضيل بتلك
النعم التى سبق ذكرها. وذلك التفضيل وإن كان فى حق الآباء ولكن يحصل به
الشرف للأبناء، فصح الخطاب معهم.

﴿على العالمين﴾ على عالمى زمانهم.

قوله - تعالى - ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ معناه: واحذروا

عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ

عذاب يوم القيامة. ﴿ لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ قال الأخفش: معناه لا تقوم نفس مقام نفس. وقال غيره: معناه لا تقضى نفس عن نفس حقا لزمها.

﴿ ولا يقبل منها شفاعاة ﴾ يقرأ بقراءتين بالتاء ^(١) والياء ^(٢) والكل جائز لأن الشفع والشفاعة بمعنى واحد كالوعظ والموعظة والصوت والصيحة بمعنى واحد. ثم يذكر تارة بالتذكير على المعنى. وتارة بالتأنيث على اللفظ. قال الله تعالى: ﴿ قد جاءكم موعظة من ربكم ﴾ ^(٣) وقال في موضع آخر ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه ﴾ ^(٤) قال ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴾ ^(٥) وقال في موضع آخر: ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ ^(٦) كذا هذا.

﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ العَدْلُ والعِدْلُ هو المثل، قال الله - تعالى - ﴿ أو عدل ذلك صياما ﴾ ^(٧) أى: مثله.

والمراد بالعدل ها هنا الفدية، وسميت عدلا، لأنها مثل المفدي به. وأما قولهم: لا يقبل منه صرف ولا عدل قيل: الصرف النافلة، والعدل الفريضة. وقيل: الصرف الحيلة، والعدل الفدية.

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ يمنعون العذاب.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ الإنجاء والتنجية واحد. هو الإنقاذ من المكروه. وآل فرعون: أتباعه الذين اقتدوا به وبفعله. وكذلك آل النبي ﷺ أتباعه.

(١) وهى قراءة ابن كثير، ويعقوب، وأبى عمرو كما فى النشر (٢/٢١٢).

(٢) وهى قراءة الباقيين. انظر المصدر السابق.

(٣) يونس: ٥٧.

(٤) البقرة: ٢٧٥.

(٥) هود: ٩٤.

(٦) هود: ٦٧.

(٧) المائدة: ٩٥.

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «آلى كل مؤمن تقى»^(١)، فأما آل القرابة فهم قوم مخصوصون [لا]^(٢) تجرى عليهم الصدقة. وقد ذكروا في الفقه.

﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أى: يجشمونكم ويولونكم. وقيل: يصرفونكم في العذاب مرة هكذا ومرة هكذا، كالإبل السائمة في البرية.

﴿سوء العذاب﴾ أشد العذاب ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ مذكور على وجه البذل عن قوله ﴿يسومونكم﴾ ومثله قول الشاعر:

مَتَى تَأْتِنَا تُلَمِّمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجَا

وقوله: «تلمم بنا في ديارنا» بدل عن قوله: «متى تأتنا».

ومعنى قوله: ﴿يذبحون أبناءكم﴾ أى: يقتلون. الذبح والذبيح بمعنى واحد.

وسبب ذلك أن فرعون رأى في المنام نارا جاءت من نحو بيت المقدس، وأحاطت بمصر، وأحرقت كل قبطنى هنالك، ولم تتعرض لبنى إسرائيل، فعلم بذلك أن نبيا يخرج من بنى إسرائيل؛ يكون هلاكهم على يديه، فأمر بقتل الأبناء، وترك البنات، حتى قيل: إنه قتل في طلب موسى اثني عشر ألف صبيا.

﴿ويستحيون نساءكم﴾ أى: يتركون ويستبقون، وهو استفعال من الحياة، ومنه

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢٨٧/٤) والبيهقي في سننه (١٥٢/٢) وابن الجوزى في العلل المتناهية (٢٦٦/١ رقم ٤٢٩) - من طريق العقيلي - جميعهم من طريق نافع عن أنس مرفوعاً. ونافع هو ابن هرمز. قال البيهقي. وهذا لا يحل الاحتجاج بمثله. وقال ابن الجوزى: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

وأخرجه الطبراني في الصغير (١٩٩/١ - ٢٠٠ رقم ٣١٨). وقال الهيثمي في المجمع (١٦٩/١٠): فيه نوح بن أبى مريم، وهو ضعيف.

(٢) ليست في «الأصل» ولا «ك».

آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ

قول النبي ﷺ: «اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم»^(١) أى: شبابهم، وأراد به الذرية والنساء.

﴿وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ البلاء: يكون بمعنى النعمة ويكون بالشدة، لأنه من الابتلاء. والله - تعالى - قد يختبر على النعمة بالشكر وقد يختبر على الشدة بالصبر. قال الله - تعالى -: ﴿[ونبلوكم]^(٢) بالشر والخير فتنة﴾^(٣) قال الشاعر:

جزى الله إحساناً بما فعلا به وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

وقوله - تعالى -: ﴿وفى ذلكم بلاء﴾ يحتمل هذا المعنيين، أحدهما: فيما لحقكم من فرعون من الأذى والشدة بلاء عظيم.

ويحتمل أنه أراد: فيما حصل لكم من النجاة بفرق فرعون بلاء عظيم، أى: نعمة عظيمة.

قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ قيل: فرقنا لكم البحر. وقيل: الباء فى موضعها، ومعناه: فرقنا البحر بدخولكم إياه فرقا فرقا فوق الرأس وفرقا من تحت القدم أو فرقا من ذلك الجانب، وفرقا من ذلك الجانب، والبحر سمي بحرا، لاتساعه. ومنه يقال للفرس: بحر إذا اتسع فى جريه، وللجواد: بحر إذا اتسع كفه للوجود.

وقوله - تعالى -: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قيل فى القصص: إن عدد الْمُنْجَيْنَ منهم كانوا ستمائة ألف [وعشرين]^(٤) ألفاً، لا يعد فيهم ابن عشرين لصغره،

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٥٤/٣ رقم ٢٦٧٠)، الترمذى (١٢٣/٣ رقم ١٥٨٣) والإمام أحمد فى مسنده (٢٠، ١٢/٥)، والطبرانى فى الكبير (٢١٦/٧ - ٢١٧، ٢٢٤، رقم ٦٩٠٠، ٦٩٠١، ٦٩٠٢، ٦٩٣٢)، والبيهقى (٩٢/٩). وقال الترمذى: حسن صحيح غريب. وأعله ابن التركمانى بضعف الحجاج، وأن أكثر الحفاظ لا يثبتون سماع الحسن من سمرة؛ سوى حديث العقيقة. ونقل الزيلعى فى نصب الراية (٣٨٦/٣) هذا الإعلال عن البيهقى نفسه. وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع وأبى داود والترمذى.

(٢) فى «الأصل وك»: ولنبلونكم، وهو خطأ.

(٤) فى «الأصل وك»: عشرون، وهو خطأ.

(٣) الأنبياء: ٣٥.

الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ

ولا ابن ستين لكبره. وأما عدد المغرّقين فالله بهم عليم.

وقيل: كان على مقدمته هامان مع ألف ألف وسبعمائة ألف نفر حين غرقوا، والله أعلم بمن كان على المؤخرة.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى غرقهم وهلاكهم. وقيل: تعلمون.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا وَاَعَدْنَا﴾ وقرأ: «وَإِذْ وَاَعَدْنَا»^(١) معناهما واحد، فإن قال قائل: المواعدة على وزن المفاعلة، فتقتضى اثنين يتواعدان، فكيف تكون المواعدة من الله مع موسى؟

قلنا: المواعدة من الله - تعالى - بالأمر، ومن موسى - صلوات الله عليه - بالقبول وكذلك الوعد.

وأما موسى، اسم عبري، و«مو» بلغة العبرية هو الماء و«شى» هو الشجر، فسمى «موشى» لأنه أخذ من الماء والشجر ثم قلب الشين سينا في العربية فصار موسى.

وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أى: انقضاء أربعين ليلة. أمره الله - تعالى - أن يصوم أربعين يوماً لإعطائه التوراة، وكان قد وعده ثلاثين؛ إلا أن الله - تعالى - كان قد نهاه أن يتناول شيئاً في هذه الثلاثين، فلما أتم الثلاثين مر بشجرة، فتناول من ورقها، أمره الله - تعالى - أن يصوم عشرة أيام بسبب ذلك. وعليه دل قوله - تعالى - في سورة الأعراف ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ...﴾^(٢) الآية.

وقوله - تعالى - : ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعنى: إلها، وله قصة معروفة ستأتى في سورة طه.

(١) وهى قراءة أبى جعفر ويعقوب، وأبى عمرو، انظر النشر (٢/٢١٢).

(٢) الأعراف: ١٤٢.

تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ بِاتِّخَاذِ الْعِجْلِ إِلَهَا.

قوله تعالى: ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك﴾. العفو: محو الآثار. ويقال: عفت الرياح كذا، إذا محت الآثار. يقول: عفونا عنكم من بعد اتخاذكم العجل إلها. ﴿لعلكم تشكرون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة. ﴿وَالْفِرْقَانِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أراد به التوراة أيضا. إلا أنه ذكرها باسمين، ومثله قول الشاعر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

والنأى والبعد اسمان بمعنى واحد.

والقول الثاني: أراد به الفرقان بين الحق والباطل. وقد أعطى الله موسى ذلك. ومنه سمى يوم بدر: يوم الفرقان؛ لأنه فرق فيه بين الحق والباطل.

والقول الثالث: أراد به انفراق البحر كما سبق. ﴿لعلكم تهتدون﴾ بالتوراة.

قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ معناه: اذكره إذ قال موسى لقومه ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلها. ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم. ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ليقتل بعضكم بعضا. وقيل معناه: استسلموا للقتل.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالقبول ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ القابل للتوبة.

وروى عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: كان عدد القتلى منهم [سبعين] (١) ألفا فلما بلغوا ذلك، أوحى الله - تعالى - إلى موسى: إني رفعت القتل عنهم،

(١) في «الأصل وك»: سبعون وهو خطأ.

عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى
اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ

ورحمت من مضى منهم، وعفوت عمن بقى، وتبت عليهم. وحكى أن يوشع بن نون خرج عليهم حين تأهبوا للقتل واحتبوا له، فقال: إن الله رحم من حل حبوته. ثم إن الذين لم يعبدوا العجل سلوا سيوفهم، وأقبلوا على قتل الذين عبدوا العجل، حتى كان الابن يقتل أباه والأب يقتل ابنه، حتى أتوا على سبعين ألفاً؛ ثم نزل الوحي كما وصفنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ هو خطاب للسبعين الذين حملهم موسى إلى الطور ليسمعوا كلام الله؛ فإنهم لما سمعوا كلام الله قالوا لموسى: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً. أى: عياناً.

وقيل: فيه تقديم وتأخير يعنى قلتُم: يا موسى جهرة لن (نؤمن) ^(١) (لك) ^(٢) حتى نرى الله (جهرة) ^(٣).

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قرأ ^(٤) عمرو: «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعَقَةُ» وهو فى الشواذ: وقد سبق تفسير الصاعقة. والمراد بها الموت هاهنا، أى: أخذكم الموت ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

فإن قيل: إذا ماتوا كيف نظروا؟ قيل: معناه: ينظر بعضكم إلى بعض حين أخذكم الموت. قيل: معناه: تعلمون ويكون النظر بمعنى العلم.

قوله - تعالى - : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ يعنى أحييانكم بعد تلك الموتة بالطور.

قال قتادة: أحياهم ليستوفوا آجالهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

(١) سقط من «ك».

(٢) فى «ك»: بك.

(٣) كذا فى «الأصل»، و«ك»، وهى زيادة تفسد المعنى.

(٤) فى تفسير القرطبى (١/ ٤٠٤) وقرأ عمر وعثمان وعلى: «الصعقة» وهى قراءة ابن محيصن فى جميع القرآن

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

قوله - تعالى - : ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ الغمام : من الغم . وأصله : التغطية والستر ومنه يقال للقلب الحزين : مغموم . لأن الحزن غطى قلبه . وللسحاب : غمام لأنه يغطي وجه الشمس . ومنه قوله تعالى : ﴿ ثم لا يکن أمرکم علیکم غمة ﴾ ^(١) أى : ملبوسا عليكم .

ومعنى الآية : قال مجاهد : أراد بتظليل الغمام عليهم ما ذكر فى قوله ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ ^(٢) وسيأتى شرحه .

وقال قتادة : إن قوما من بنى إسرائيل بقوا فى التيه فعضشوا ، وتأذوا بحر الشمس ، وظلل الله عليهم غماما ، كيلا يتأذوا .

﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ الأكثرون : على أن المن هو الترنجيبين ^(٣) . وقال قتادة : هو صمغة تقع على الشجر . وقال وهب : هو الخبز الرقاق .

وأما السلوى : قيل : إنه طائر يشبه السمانى بعينه . وفيه قول غريب : أنه العسل .

وفى القصص : أن الله - تعالى - كان ينزل عليهم ذلك كل صباح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس قدر ما يكفى ليومهم ؛ إلا يوم الجمعة فإنه كان ينزل صباح الجمعة والسبت جميعا ، وما كان للجمعة ينزل عليهم يوم السبت .

وأما قوله - عليه السلام - : « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعین » ^(٤) فليس ذلك من هذا المن وإنما معناه : أنها من عطاء الله من غير كلفة ولا مشقة .

(١) يونس : ٧١ .

(٢) البقرة : ٢١٠ .

(٣) هو ظل من السماء ، يشبه العسل ، ويقال له كذلك : الطرنجبين ، بالطاء . انظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص ٤٩) .

(٤) متفق عليه من حديث سعيد بن زيد . أخرجه البخارى - مع الفتح - (١٠ / ١٧٢ رقم : ٤٤٧٨) وطرفاه فى (٥٧٠٨ ، ٤٦٣٩) ، ومسلم - بشرح النووى - (٥ / ١٤ رقم : ٢٠٤٩) .

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أى: من حلال ما رزقناكم.

﴿وما ظلمونا﴾ وما بخشوا بحقنا ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

فالظلم: بمعنى البخس والنقص، وأصله ما بينا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ سميت القرية قرية؛ لأنها تجمع أهلها. ومنه المقرأة للحوض؛ لأنه مجمع الماء. ومنه قرية النمل؛ لأنها تجمع النمل، والمراد بالقرية ها هنا البيت المقدس. وقيل: هى أريحا موضع هنالك.

﴿فكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ ومعنى الرغد ما سبق، وقيل: هو الرزق الواسع الذى لا يضيق (ولا يُعْنَى) (١) طالبه.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أراد بالباب: باب القرية. وقيل: هو باب حطة، وهو باب إيلياء.

﴿سُجَّدًا﴾ أى: ركعا خضعا. وأصل السجود الخضوع وفى الركوع خضوع، وقال الشاعر

بِجَمْعِ تَضِلُّ الْبَلْقُ فِي حُجْرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ

أى: ركعا خضعا.

﴿وقولوا حطة﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : معناه قولوا: حط ذنوبنا، وقال الزجاج: تقديره: قولوا: مسألتنا حطة. وقال عكرمة: هو قول: لا إله إلا الله.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ تقرأ بقراءتين: «نغفر لكم» بالنون، و«يغفر لكم» بالياء (٢) وهما

(١) فى «ك»: ولا يغنى.

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٨٨/١): قراءة نافع بالياء مع ضمها، وابن عامر بالتاء مع ضمها، وهى قراءة مجاهد. وقراها الباقون بالنون مع نصبها؛ وهى أبينها. وانظر النشر (٢/٢١٥).

قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ

واحد . وهو من الغفر، وهو الستر . ومنه المغفر؛ لأنه يستر الرأس . كذلك المغفرة تستر الذنوب .

﴿خطاياكم﴾ جمع الخطيئة وتجمع على الخطيئات أيضا، وهى الذنوب . يقال : خَطِيءٌ يُخْطِئُ خِطَاءً وَخَطِيئَةً، إِذَا أَذْنَبَ مُتَعَمِّدًا .
وَأَخْطَأَ يُخْطِئُ إِخْطَاءً إِذَا أَذْنَبَ خَاطِئًا (١) .
﴿وسنزيد المحسنين﴾ من فضلنا .

قوله تعالى : ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾ أجمعوا على أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة، وقالوا بلسانهم : هطا سمقثا . أى : حنطة حمراء . وقيل : إنهم دخلوا الباب يزحفون على استاههم، وكان قد طوطئ لهم الباب، فما استطاعوا أن يدخلوا قياما، وأبوا أن يدخلوا سجدا، فدخلوا يزحفون على استاههم مخالفة فى الفعل كما بدلوا القول .

قوله تعالى : ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ .

الرجز . العذاب . والرجس : النتن . والرَّجْزُ (بضم الراء) صنم على قول من قرأ ﴿والرجز فاهجر﴾ (٢) وقيل : أنزل الله عليهم - إذ فعلوا ذاك - طاعونا أهلك منهم أربعة وعشرين ألفا فى ساعة واحدة .

﴿بما كانوا يفسقون﴾ من المخالفة فعلا وقولا .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ الاستسقاء طلب السقيا . والسبب فى ذلك : أن بنى إسرائيل بقوا فى التيه فعطشوا، فسألوا موسى أن يستسقى لهم، ففعل .

(١) انظر لسان العرب (مادة : خطا) .

(٢) المدثر : ٥ .

فَإِنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ

قوله - تعالى - : ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ اختلفوا في ذلك الحجر، منهم من قال : كان حجرا معينا على قدر رأس الرجل .

وقيل : كان ذراعا في ذراع . وقيل : كان حجرا من الأحجار لا يعينه، أي حجر كان .

﴿فانفجرت منه﴾ يعني : فضرب (وتفجرت) (١) . هكذا تقديره : منه ﴿اثنتا عشرة عينا﴾ على عدد الأسباب . ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ عرف كل سبط منهم مشربهم .

وقيل : كان يظهر فيه بضرب موسى [اثنتى عشرة] (٢) حفرة، يعرف كل سبط منهم حفرة .

وقيل : كان يحمل الحجر مع نفسه في وعاء؛ فكلما احتاجوا إلى الماء ضرب موسى على الحجر . ﴿كلوا﴾ مما أنزلنا عليكم من المن والسلوى ﴿واشربوا﴾ من هذه المشارب .
[من رزق الله] (٣) .

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ العيث : أشد الفساد . وقيل : معناه : ولا تسعوا في الأرض مفسدين .

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ كأنهم أجمعوا وسئموا من أكل المن والسلوى، فسألوا موسى أن يسأل لهم غيره من الطعام .

فإن قيل : كان لهم المن والسلوى، فلم سماهما واحدا؟! قيل : كانوا يأكلون أحدهما بالآخر (فكان) (٤) كطعام واحد .

(١) في «ك» : وانفجرت .

(٢) في «الأصل وك» : اثنتى عشر .

(٣) من «ك» .

(٤) في «ك» : وكان .

طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا

وقيل: إنه كان أبدا على نسق واحد، وكان من حيث اتساقه كطعام واحد.

﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها﴾ سألوا هذه الأطعمة.

وقوله - تعالى - : ﴿وفومها﴾ اختلفوا فيه. قال ابن عباس، والأكثر: إنه الحنطة. وقيل: الخبز. وحكى أن بعض الأعراب قال لامرأته: «فومي لنا» أى: اخبزي لنا.

وقال الضحاك بن مزاحم: أراد به الثوم. فأبدل الثاء بالفاء. ومنه قول الشاعر:

كَانَتْ دِيَارُهُمْ - إِذْ ذَاكَ - بَارِزَةً فِيهَا الْفِرَادِيسُ وَالْفُومَانُ وَالْبَصَلُ

وقد قرأ أبى بن كعب وابن مسعود: «وثومها» بالثاء ﴿وعدسها وبصلها﴾.

قوله تعالى: ﴿قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير﴾ يعنى: أتختارون الأدنى على ما هو خير. فإن قيل: أليس فيما سألوا الحنطة والخبز، وهى خير من المن والسلوى فلم سماه أدنى؟ قيل: أراد به أدنى فى القيمة، أو أراد به أسهل وجُوداً على العادة.

﴿اهبطوا مصرا﴾ أى: انزلوا واذهبوا إلى مصر. واختلفوا فيه، فالأكثر: على أنه المصر المعروف. وقد قرأ ابن مسعود: «اهبطوا مصر» غير منصرف^(١). ومن صرفه كان لقلة الحروف.

وقال الأعمش: أراد به مصر الذى عليه صالح بن على، وهو المصر المعروف. وقيل: كان مصرا من الأمصار لابعينه يقول: انزلوا مصرا ﴿فإن لكم ما سألتهم وضربت عليهم الذلة﴾ قيل: أراد به الجزية، وقال عطاء بن السائب: هو الكستيج والزنار^(٢).

وقال ابن عباس: أصحاب القبالات ممن ضربت عليهم الذلة.

(١) قال القرطبي (٤٠١/١): وقرأ الحسن بن تغلب، وطلحة «مِصْرَ». بترك الصرف وكذلك هى فى مصحف

أبى بن كعب، وقراءة ابن مسعود.

(٢) هو ما يلبسه الذمى يشده على وسطه. انظر لسان العرب (مادة: زنر).

فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْنُهُمْ كَانُوا يُكَفِّرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى

﴿والمسكنة﴾ والفقر، يقال: تمسكن الرجل أى صار فقيرا، وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة.

﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أى: رجعوا واحتملوا غضب الله.

﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ والآية: العلامة. والآية: الجماعة. يقال: خرج القوم بآيهم أى: بجماعتهم. والآية من القرآن مجمع كلمات معلوم الأول والآخر.

قوله - تعالى - : ﴿ويقتلون النبيين﴾. قرأ نافع بالهمز والمد. والباقون بالتلحين، وأصله الإنباء، فمن همزه كان على الأصل. ومن لينه فلكثرة الاستعمال.

وقيل: هو مأخوذ من النبوة وهى المكان المرتفع، فعلى هذا يكون التلحين على الأصل.

وفى الحديث: «أن رجلا قال: يانبيء الله - بالهمز والمد - فقال ﷺ: لست بنبيء الله إنما أنا نبي الله» (١).

قوله - تعالى - : ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ فإن قال قائل: لم قال: «بغير الحق» وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق؟! قلنا: ذكره وصفا للقتل، والقتل يوصف تارة بالحق، وتارة بغير الحق وهو مثل قوله - تعالى - ﴿قال رب احكم بالحق﴾ (٢). ذكر الحق وصفا للحكم لا أن حكمه ينقسم إلى الجور والحق.

(١) أخرجه العقيلي فى الضعفاء (٣/ ٨١، ٨٢) من حديث ابن عباس به مرفوعا. وقد أورده فى منكرات عبد الرحيم بن حماد الثقفى، ثم قال: وقد روى بإسناد لين.

قلت: ولعله أراد رواية أبى ذر التى أخرجها الحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٣١) وقال: هذا حديث صحيح. وتعقبه الذهبي بقوله: بل منكر لم يصح، قال النسائى: حمران ليس بثقة، وقال أبو داود: رافضى، روى عن موسى بن عبيدة وهو واه. اهـ.

وَالصَّابِّينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ

﴿ذلك بما عصوا﴾ من المعاصي ﴿وكانوا يعتدون﴾ يتجاوزون الحد .

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أراد بالذين هادوا اليهود، وإنما سموا يهودا؛ لأنهم قالوا ﴿إنا هدنا إليك﴾ ^(١) أى : ملنا إليك .

وقيل : لأنهم من أولاد يهودا بن يعقوب . والنصارى قوم يعرفون . وإنما سموا نصارى؛ لأنهم نزلوا قرية تسمى ناصرة . وقيل : لقول عيسى : من أنصارى إلى الله قالوا : نحن أنصار الله .

﴿والصابئين﴾ قرأ نافع باللين وقرأ الباقون بالهمز . وأصله الصبو وهو الميل والخروج .

يقال : صبا ناب البعير إذا خرج . وصبا قلبه إلى فلان أى : مال . قال الشاعر :

صبا قلبي إلى هند وهند مثلها (يصبى) ^(٢)

أى : مال قلبي إليها ومثلها تميل القلب .

واختلفوا فى معناه؛ قال ابن عباس : هم قوم من اليهود والنصارى .

وقال قتادة : هم قوم يقرءون الزبور، ويعبدون الملائكة، ويصلُّون إلى الكعبة ﴿من آمن بالله﴾ . فإن قيل : قد ذكر فى الجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فكيف يستقيم قوله ﴿من آمن بالله﴾ ؟

قيل : هذا فى سلمان وأتباعه الذين آمنوا بمحمد ﷺ قبل البعث . ثم أقرأ به بعد البعث .

وقيل : أراد به : من ثبت على الإيمان . وقيل : أراد بالذين آمنوا : المنافقين الذين آمنوا باللسان .

(٢) فى «ك» : يضنى .

(١) الأعراف : ١٥٦ .

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُم

وقوله تعالى: ﴿من آمن بالله﴾ يعنى بالقلب مع اللسان ﴿بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فى الآخرة.

قوله تعالى: ﴿[وَإِذْ] (١) أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أى: عهدكم ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ قيل: أراد به طور سيناء.

وقيل: كل جبل طور. وفى القصص: أن الله تعالى قلع جبل طور ورفع فوق رأسهم وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم، فقبلوا التوراة. وعليه دل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ (٢) الآية.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من التوراة ﴿بقوة﴾ بجهد واجتهاد ﴿واذكروا ما فيه﴾ وادرسوا ما فيه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ النار فى الآخرة.

قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أعرضتم من بعد ما قبلتم التوراة ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ يعنى: بالإمهال والإدراج ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ لَمَنِ الْمَعْذِبِينَ فى الحال؛ كأنه رحمهم بالإمهال.

قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ أى: جاوزوا الحد، ويقال: تعدى طوره. أى: جاوز حده.

﴿منكم فى السبت﴾ وأصل السبت: القطع، وسمى يوم السبت بذلك؛ لأن اليهود أمروا فيه بقطع الأعمال - أراد به قوم أيله، وهى قرية على شط البحر - وترك الاصطياد فى يوم السبت؛ فخالفوا واصطادوا. وقصتهم تأتى مشروحة فى سورة

(١) فى «الأصل»: إِذَا.

(٢) الأعراف: ١٧١.

الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

الأعراف .

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا أمر تكوين ليس للعبد فيه صنع ولا اختيار .

﴿خَاسِئِينَ﴾ مبعدين . ومنه يقال : [أخسأ] ^(١) أى : أبعد . فإن قيل : لم قال : «قِرَدَةً خَاسِئِينَ» وإنما تنعت القردة بالخاسئات ؟ قيل : فيه تقديم وتأخير . وتقديره : خاسئين قردة .

قوله - تعالى - : ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أى : فجعلنا عقوبتهم بالمسخ نكالاً . والنكال : اسم لكل عقوبة تُنَكَّلُ الناظر من فِعْلٍ ما جعلت العقوبة جزاء عليه . ومنه النكول من اليمين ، وهو منع اليمين .

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ فإن قيل : كيف يكون نكالاً لما بين يديها وهم قد مضوا ؟ قيل : أراد به الذين حضروا فى ذلك الزمان .

﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ الذين يأتون من بعد «وما» ها هنا : بمعنى «من» وفيه قول آخر : أراد «لما بين يديها» : ما سبقت من الذنوب ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ما حضرت من الذنوب التى أخذوا بها .

وفيه قول ثالث : أراد «بما بين يديها» القرى التى كانت مبنية فى الحال . وما خلفها : بالحدث من القرى من بعد .

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من أمة محمد ﷺ .

(١) فى «الأصل» : إخساء .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ واذكر إذ قال موسى لقومه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ البقرة : الأنثى من البقر. وهى مأخوذة من البقر، وهو الشق. سميت بذلك لأنها تشق الأرض بالحراثة.

وفى الخبر : « أن النبى ﷺ نهى عن التبقر فى الأهل والمال » (١) أى : التوسع. والقصة فى ذلك : أنه كان فى بنى إسرائيل رجل غنى، وله ابن عم فقير، فاستطال حياته فقتله، وحمله إلى حى آخر، وطرحه بفنائهم، ثم أصبح يطلب دمه. فسألوا موسى أن يسأل ربه من القاتل؟ فسأل فأوحى الله - تعالى - [إليه] (٢) أن يأمرهم بذبح البقرة.

فقال : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لأنهم لما سألوه أن يسأل ربه من القاتل؟ فقال : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فلبعد ما بين السؤال والجواب، قالوا : أتتخذنا هزوا. وذلك من شدة جهلهم، وتبسطهم فى الكلام نسبوا نبيهم إلى الاستهزاء.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ أعتصم وأمتنع بالله. ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بالجواب، لا على وفق السؤال. لأن كل من سئل عن شىء فأجاب لا على وفق السؤال يكون جاهلا.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤٣٩/١) والطياىسى فى مسنده ص ٥٠ رقم ٣٨٠، والشاشى فى مسنده (٢/٢٤٢ ٢٤٤ رقم ٨١٤، ٨١٥) عن ابن مسعود وقال الهيثمى فى المجمع (٢٥٤/١٠) : رواه أحمد بأسانيد وفيها رجل لم يسم. وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - : فى إسناديه نظر، وأحدهما ضعيف لجهالة الرجل من طيئ، والآخر صحيح على بحث فيه. انظر المسند بتحقيق شاكر (١٠٤/٦). وانظر تعليق الحافظ ابن حجر فى تعجيل المنفعة (٤٧٨ - ٤٧٩)، وتعليق الشيخ ناصر - حفظه الله - فى الصحيحة رقم ١٢.

(٢) زيادة من «ك».

إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا

قوله - تعالى - : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ هذا استيصار السن ﴿ قال إنه يقول ﴾ يعنى : فسأل^(١) فقال : إنه يقول : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ قيل : الفارض الكبيرة المسنة، والبكر: الفتى، والعوان ما بين ذلك .

ومنه يقال : عَوَّنت المرأة، إذا زادت على الثلاثين . ويقال : فى المَثَل « العَوَّانُ لَا تُعْلَمُ الْخِمْرَةَ » أى : الاختمار .

وقيل : الفارض التى ولدت بطونا، والبكر: التى لم تلد أصلا، والعوان : التى ولدت بطنا أو بطنين . ﴿ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ من الذبح .

قوله تعالى : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ سل لنا ربك . ﴿ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ هذا استيصار اللون . ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ ﴾ قال الحسن : الصفراء : السوداء .
ومنه قول الشاعر :

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَلْوَانُهَا كَالزَّبِيبِ

يعنى سود، والصحيح : أنه أراد به الصفراء المعهودة بدليل قوله : ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ وإنما يقال : أصفر فاقع، وأسود حالك، وأحمر قان، وأبيض يقق . ويقال : ذلك للمبالغة .

وقال سعيد بن جبیر : كانت صفراء القرون والظلف . والصحيح : أنه كانت صفراء بجميعها .

﴿ تسر الناظرين ﴾ أى تعجبهم وتدخل السرور فى قلوبهم من حسننها وهذا دأب كل حسن قد يرى . وقد قال النبى ﷺ « من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور حتى ينزعها »^(٢) .

(١) فى « ك » : أنه سأل .

(٢) أخرجه العقيلي فى الضعفاء (٣ / ٤٤٦) ، والطبراني فى الكبير (١٠ / ٢٦٣ رقم ١٠٦١٢) ، وابن أبى حاتم فى تفسيره (١ / ٢١٩ رقم ٧١٠ - تفسير سورة البقرة) جميعهم عن ابن عباس موقوفا . قال أبو حاتم فى العلل (٢ / ٣١٩) : هذا حديث كذب موضوع .

تَسْرُ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سل لنا ربك. ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ وهذا استيصال العمل أنها من العوامل أم لا؟ ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أى: اشتبه. ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وفى الخبر: «أنهم لو لم يقولوا: إن شاء الله ما اهتدوا أبدا» (١).

قوله - تعالى - : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ الذلول: بَيِّن الذَّلَّةَ، والدليل بَيِّن الذَّلِّ، والبقرة الذلول التى أذلها العمل بإثارة الأرض.

﴿وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ﴾ ليست بساقية ﴿مُسْلَمَةً﴾ عن العيوب. ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ قال الزجاج: ليس فيها لون يخالف معظم لونها.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فإن قيل: قد كان جاء بالحق فى كل مرة. فما معنى قوله ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾؟! قيل: معناه: الآن أتيت بالبيان التام الشافى الذى لم يبق معه لبس ولا إشكال.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعنى: من غلاء ثمنها، لأنه روى أنهم اشتروها بملء مسكها (٢) ذهباً.

وحكى عن عكرمة أنه قال: ما اشتروها بذلك، إنما اشتروها بثلاثة دنانير.

وقيل: معناه وما كادوا يفعلون من شدة اضطرابهم واختلافهم فيها، والأول أصح.

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: «شددوا على أنفسهم؛ فشدد الله عليهم. ولو

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١/ ٢٢٣ رقم ٧٢٧)، وابن مردويه فى تفسيره - كما فى تفسير ابن كثير

(١١١/١) من أبى هريرة مرفوعاً. وذكره الأخير مطولاً. وقال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه

وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة كما تقدم مثله عن السدى. وعزاه الهيثمى إلى البزار وقال: وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات المجمع (٦/ ٣١٧). ورواه سعيد بن منصور

(٢/ ١٩٣)، والفريابى، وابن المنذر - كما فى الدر (١/ ٨٣) - عن عكرمة مرسلًا.

(٢) الْمَسْكُ: الجلد، وخص بعضهم به: جلد السخلة. لسان العرب (مادة: مسك).

وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَّا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ

اعترضوا بقرة فذبحوها؛ حصل مرادهم» (١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذا فى التلاوة مؤخر، وفى المعنى مقدم؛ لأنه أول القصة. ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أى: اعوججتم (٢) ومنه قول الشاعر:

فَنَكَّبَ عَنْهُمْ دَرَّةَ الْأَعَادَى وَدَاوُوا بِالْجُنُونِ مِنَ الْجُنُونِ

أى: اعوججهم.

وقيل: معناه: تدافعتم إذا كان يحيل بعضهم على بعض وأصل [الدرة] (٣) الدفع.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أى: مظهر ما كنتم تكتُمون؛ فإن القاتل كان يكتُم القتل.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ ببَعْضِهَا﴾ أمر الله تعالى أن يضرب المقتول ببعض البقرة. واختلفوا فى ذلك البعض؛ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: كان ذلك من الغضروف إلى الكتف. قال مجاهد: وهو عجب الذنب. وقال غيره: هو الفخذ. وقال بعضهم: اللسان.

وقيل: بعض منها لابعينه؛ أى بعض كان.

﴿كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ لأنه أراهم إحياء المقتول حين ضرب ببعض البقرة.

وفى القصة: أنه لما ضرب ببعضها قام حيا وقال: «قاتلى فلان»، ثم سقط ميتا؛ فحرم قاتله الميراث.

وفى الخبر: أن النبى ﷺ قال: «ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة» (٤).

(١) وهو جزء من الحديث المتقدم. وهو جزء من حديث رواه أيضا ابن أبى حاتم فى تفسيره (١ / رقم ٦٩٥)، والبيهقى فى سننه (٦ / ٢٢٠ - ٢٢١) عن عبيدة السلماني قوله.

(٢) فى الأصل، «ك»: اعوججتم. (٣) فى الأصل، «و»: «ك»: الدواة. وهو تحريف.

(٤) لم أقف عليه مرفوعاً، وإنما وجدته من قول أبى عبيدة السلماني، رواه أبو حاتم فى تفسيره (١ / ٢١٤ - ٢١٥) رقم ٦٩٥).

تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ

﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ تمنعون أنفسكم من المعاصي .

وقيل : إنما خص البقرة بذلك الذبح ؛ لأنهم كانوا قد عبدوا العجل ، فأراد أن يريهم هوانها ، وأنها تعجز عن دفع القتل عن نفسها .

أو ابتلاهم بالأمر بذبحها حتى [يراهم] ^(١) هل يقتلون أم لا .

قوله تعالى : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ يعنى يبيست وجفت ، وجفاف القلب بخروج الرحمة والركة عنه . ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد ما ظهر لكم من تلك الآيات . ﴿فهى كالحجارة﴾ يعنى فى الصلابة ﴿أو أشد قسوة﴾ .

فإن قيل : لم قال : أو أشد قسوة و«أو» كلمة التشكيك ؟ ولم شبه بالحجارة والحديد أصلب من الحجارة ؟ .

قلنا : أما الأول معناه وأشد قسوة . وقيل : بل أشد قسوة ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ ^(٢) أو بل يزيدون .

وقال جماعة النحويين : معناه إن شئت مثلهم بالحجارة ؛ وإن شئت مثلهم بما هو أشد من الحجارة ، فأنت مصيب فى الكل . وهذا قول حسن .

وإنما لم يشبه بالحديد ؛ لأنه قابل للين ، فإنه يلين بالنار ، وقد لان لداود - عليه السلام - ، والحجارة لاتلين قط .

قوله تعالى : ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ قيل : أراد به جميع الحجارة . وقيل : أراد به الحجر الذى كان يضرب عليه موسى للأسباط .

﴿وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ أراد به عيوننا دون الأنهار ، وتكون فى بعض

(١) فى «الأصل» و«ك» : أنهم .

(٢) الصافات : ١٤٧ .

قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

الأحجار ﴿٧٤﴾ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴿٧٤﴾ أى ينزل من مخافة الله .

فإن قيل : الحجر جماد لا يفهم ؛ فكيف يخشى ؟! قلنا : قد قال أهل السنة : إن لله – تعالى – علما فى الموات لا يعلمه غيره .

وقيل : إن الله تعالى يفهمهم ويلهمهم ذلك فيخشون بإلهامه ، وبمثل هذا وردت الأخبار .

فإنه روى : « أن النبى ﷺ كان على « ثبير » والكفار يطلبونه ، فقال الجبل : انزل عني فإنني أخاف أن توخذ عليّ فيعاقبنى الله بذلك . فقال له جبل حراء : إلىّ إلىّ يارسول الله » .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « كان حجر يسلم عليّ بمكة قبل أن أبعث ، وأنا أعرفه الآن » (١) الخبر صحيح .

وفى الباب حديث أنس وسهل بن سعد ، « أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع فى المسجد قائما ، فلما اتخذ له المنبر تحول إليه فلما رماه حن الجذع » (٢) .

ويروى : « أنه خار كما يخور الثور ، حتى ارتج المسجد ؛ فنزل رسول الله ﷺ من المنبر وكان الجذع يخور حتى التزمه فسكن . فخيره النبى ﷺ بين أن يكون شجرة فى الدنيا أو شجرة فى الجنة ، فاختر الجنة ، فأمر به فدفن » (٣) .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥ / ٥٣ رقم ٢٢٧٧) ، والترمذي (٥ / ٥٥٣ رقم ٣٦٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٥ / ٨٩ ، ١٠٥ / ٩٥) جميعهم من حديث جابر بن سمرة .

(٢) متفق عليه من حديث سهل بن سعد . البخاري (٢ / ٤٦١ رقم ٩١٧) ومسلم (٥ / ٤٦ - ٤٩ رقم ٥٤٤) . وحديث أنس أخرجه أحمد فى مسنده (١ / ٤٤٩) ، والترمذي (٥ / ٥٥٤ رقم ٣٦٢٧) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (١ / ٤٥٤ رقم ٤١٥) وابن خزيمة فى صحيحه (٣ / ١٤٠ رقم ١٧٧٧) .

(٣) هذه الزيادة جاءت فى حديث طويل لعائشة ، أخرجه أبو يعلى ، وقال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٦ / ١٣١) : هذا حديث غريب إسنادا ومتنا .

وجاءت أيضا فى حديث طويل لأبى بن كعب عند أحمد (٥ / ١٣٨ ، ١٣٩) ، وبريدة عند الدارمي (١ / ٢٩ - ٣٠) وغيرهم .

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا

وقد قال مجاهد: لا ينزل حجر من [الأعلى] (١) إلى الأسفل إلا من خشية الله.

ويشهد لكل ما قلنا. قوله - تعالى - ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٢).

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أى: يشاهد ما تصنعون.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أى: ترجون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أى: يصدقونكم بما تخبرونهم به. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنهم سمعوا التوراة ثم حرفوا ما فيها من الأحكام ونعت محمد.

القول الثانى: أنه أراد به السبعين الذين حملهم موسى إلى الطور حين قالوا: إِنْ كُنْتَ تَرَى اللَّهَ فَيُنَبِّغِى أَنْ نَرَى اللَّهَ، وَإِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ؛ فَيُنَبِّغِى أَنْ نَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ. فقال موسى: أما أنا فلا أرى الله، ولكنى أسمع كلامه، ثم سأل موسى ربه تعالى أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَهُ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَرَهُمْ فَلْيَصُومُوا كَذَا وَلْيَغْسِلُوا أَوْ لْيَلْبَسُوا ثِيَابًا جَدِّدًا نَظِيفَةً، ثُمَّ لِيَحْضُرُوا فَفَعَلُوا ذَلِكَ. وَسَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ.

وفى التفسير: أنه قال لهم: أنا الله لا إله إلا أنا، أخرجتكم من مصر بيد شديدة فاعبدونى ولا تشركوا بى شيئا، وافعلوا كذا، وكذا فلما سمعوا كلامه، خرجت أرواحهم وماتوا فأحياهم الله تعالى فقالوا لموسى: إِنْ لَانْطِيقَ أَنْ نَسْمَعَ كَلَامَهُ، فَاسْمَعْ أَنْتَ، وَبَلِّغْنَا إِيَّاهُ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ قَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا كَلَامَ اللَّهِ، وَقَدْ أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا، لَكِنَّهُ قَالَ: افْعَلُوا إِنْ شِئْتُمْ أَوْ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ.

وفى رواية قال: لا تتركبوا كذا وكذا إلا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ بَدٌّ؛ فَارْتَكِبُوا، فَهَذَا مَعْنَى

(١) فى «الأصل»: أعلى، والمثبت من «ك».

(٢) الحشر: ٢١.

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

قوله ﴿يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ﴿أى﴾: فهموه ﴿وهم يعلمون﴾ أنه الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا﴾ أنزل في قوم من اليهود آمنوا فنافقوا. ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ والفتح بمعنى القضاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) أى: قضينا لك قضاء بينا.

وقال الأصمعى: سمعت أعرابيا يقول: تعال إلى الفتح. وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم فى اتباع محمد ﷺ: آمنوا به فإنه حق. ثم قال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليكون لهم الحجة عليكم عند ربكم أى: يأخذونكم.

والقول الثانى: أنهم أخبروهم بما عذبهم الله به على الجنايات؛ فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله.

والقول الثالث: أن النبى ﷺ لما فتح خيبر حاصر بنى قريظة قال لهم: «يا إخوة القردة والخنازير. فقال بعضهم لبعض: هذه الكلمة ما خرجت إلا منكم، يعنى: أنتم حدثتموه بذلك» (٢) ﴿أفلا تعقلون﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعنى: أنه عالم بما أسروا (وأعلنوا) (٣).

(١) الفتح: ١.

(٢) هذا الحديث أخرجه الطبرى فى تفسيره (١/٢٩٤) وابن أبى حاتم فى تفسيره (١/٢٣٨ رقم ٧٨٧) من حديث مجاهد مرسلًا. وعزه فى الدر لعبد بن حميد وابن المنذر (الدر المنثور ١/٨٧).

(٣) فى «ك»: وما أعلنوا.

﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ الأُمى: الذى لا يقرأ ولا يكتب. وفى اشتقاقه قولان:

أحدهما: أنه من الأم، فالأُمى باق على ما انفصل من الأم.

والثانى: من الأمة وهى الحلقة، ومنه قول الشاعر:

وإن معاوية الأكرمين حسان الوجوه طوال الأم

يعنى بنى معاوية. وطوال الأم أى الخلق. فالأُمى: باق على ما كان عليه من أصل الحلقة.

﴿لا يعلمون الكتاب إلا أمانى﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: قال مجاهد: الأمانى الأكاذيب.

ومنه قول عثمان - رضى الله عنه - : منذ أسلمت ما تمنيت ولا تغنيت أى: ما كذبت. وقال ابن دأب لرجل ذكر شيئاً: هذا شئ رويته أم شئ تمنيته. أى: اختلقته واخترعه من تلقائك.

والقول الثانى: أنه التلاوة، أى: لا يعلمون الكتاب إلا التلاوة ومثله قوله: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته﴾ (١) أى: تلاوته. وقيل فى عثمان - رضى الله عنه - :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ [فِيَا لَيْتَهُ] (٢) مَا لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

أى: تلا كتاب الله

والقول الثالث: قال الفراء والكسائى: هو من التمنى، وذلك هى أمانيتهم الباطلة من قولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ (٣) ومن قولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا

(١) الحج: ٥٢

(٢) فى «ك»: فباليت، وفى لسان العرب (مادة: منى)، وتفسير القرطبى (٨/٢): وآخره. (٣) البقرة: ٨٠.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا

من كان هودا أو نصارى ﴿١﴾ ومن قولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ﴿٢﴾ فعلى قوله هذا «إلا» بمعنى «لكن» يعنى: لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم.

﴿وإن هم إلا يظنون﴾ قال مجاهد: يكذبون. ولم يعرف أهل البصرة الظن بمعنى الكذب؛ فقالوا: معناه: إلا يخرصون.

قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يكتبون من عندهم أشياء، ثم يقولون للأعراب: هذا من عند الله، يبتغونها منهم. وقيل: أراد به ما غيروا بأيديهم من نعت محمد ﷺ فى التوراة؛ فإنه كان فيها أنه أكحل أعين، ربعة، سبط الشعر، فكتبوا فيها أنه أشقر، أزرق طويل القامة، جعد الشعر.

﴿ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ اختلفوا فى الويل؛ قال أبو سعيد الخدرى - ويروى ذلك مرفوعا عن النبى ﷺ أيضا - «إن الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر سبعين خريفا» ﴿٣﴾.

وقال عثمان: هو جبل من نار. وأصل الويل: الهلاك ودعاء العذاب، فإن قيل: ما

(١) البقرة: ١١١.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) أخرجه الترمذى (٥/٣٠٠ رقم ٣١٦٤)، وقال: غريب. وأحمد فى مسنده (٣/٧٥)، وابن حبان فى صحيحه (١٦/٥٠٨ رقم ٧٤٦٧)، والحاكم فى مستدركه (٢/٥٠٧، ٥٣٤، ٥٩٦) وقال: صحيح الإسناد جميعهم من طريق دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعاً، وعندهم جميعاً: «أربعين خريفا». وقال الحافظ ابن كثير فى البداية (١/١٠٧): وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوعاً منكراً، والله أعلم.

لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مِنْ كَسْبٍ سَيِّئَةٍ وَأَحَاطَتْ

معنى قوله: ﴿مما كتبت أيديهم﴾ و(١) الكُتِبُ لا يكون إلا باليد؟ قيل: ذكره مبالغة في التحقيق. وقيل: معناه أنهم كتبوا بأنفسهم اختراعاً.

﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ من المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ اختلفوا فيه، منهم من قال: أرادوا به أربعين يوماً عدد ما عبدنا العجل.

ومنهم من قال: سبعة أيام. لأن مقدار زمان العالم سبعة آلاف سنة فقالوا: نعذب بكل ألف سنة يوماً.

وقيل: إنهم قالوا: سمعنا أنبياءنا أنهم قالوا: ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة فنحن نقطع في كل يوم مسيرة سنة فتبقى مسيرة جهنم في أربعين يوماً وننجو منها. ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهدَهُ﴾ معناه: أنى لكم بهذا؛ قول من الله؟ فلا يخالف قوله. قوله: ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة﴾ «بلى» تذكر في جواب النفي. «ونعم» تذكر في جواب الإيجاب. قال الله - تعالى - : ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ (٢).

وقال: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى﴾ (٣). وقال: ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾ (٤). ﴿بلى من كسب سيئة﴾ السيئة: الشرك. ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أى: مات على الشرك. وقيل: أراد بالسيئة: الكبيرة. ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أى: أصر عليها، ومات

(١) ليست في «الأصل»، ولا «ك».

(٢) الأعراف: ١٧٢.

(٣) الزمر: ٧١.

(٤) الأعراف: ٤٤.

بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ

غير تائب. وقال ابن السراج النحوى: معناه: انسدت عليه مسالك النجاة. ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ إلى آخر الآية، ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قرأ أبى بن كعب وابن مسعود: «لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» على الأمر، والقراءة المعهودة «لَا تَعْبُدُونَ».

وتقرأ بالياء^(١) والتاء^(٢) ومعناها واحد؛ فإن العرب قد تذكر المخاطبة فى (موضع)^(٣) المغايبة، والمغايبة فى موضع المخاطبة. وفى هذا الميثاق عهد وقسم، وتقديره: والله لا تعبدون إلا الله.

﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أى: وأحسنوا بالوالدين إحسانا. والإحسان بهما البر والعطف والتحنن، والنزول عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله - تعالى - . ﴿وذى القربى﴾ أى: أهل القربات. ﴿واليتامى﴾ اليتيم: اسم لمن لا أب له من الآدميين. ولمن لا أم له من البهائم، وهو اسم للفقير منهم.

وقال على - رضى الله عنه - : «حفظت لكم عن رسول الله ﷺ ستا: لا طلاق قبل النكاح، ولا عتاق فى غير الملك، ولا نذر فى معصية الله، ولا يُتَمَّ بعد الحُلُم، ولا صمت يوم إلى الليل. ولا صوم وصال»^(٤). ﴿والمساكين﴾ هم الفقراء كما سبق.

(١) هى قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائى. انظر النشر (٢/ ٢١٨).

(٢) وهى قراءة الباقرين. انظر المصدر السابق.

(٣) فى «ك»: معنى.

(٤) أخرج أبو داود بعضه فى سننه (٣/ ١١٥ رقم ٢٨٧٣)، وهو بطوله عند عبد الرزاق فى المصنف (٦/ ٤١٦ رقم ١١٤٥٠) وابن عدى فى الكامل (٢/ ١٢٢) باختصار والطبرانى فى الصغير (١/ ١٦٩ رقم ٢٦٦).

والدارقطنى فى العلل (٤/ ١٤٢)، والبيهقى فى السنن (٧/ ٤٦١)، وصوب الدارقطنى وقفه، وقال

الهيثمى فى المجمع (٤/ ٣٣٧): ورجاله ثقات. وانظر تخريجه فى الإرواء للشيوخ الألبانى حفظه الله (٥/ ٨٠ - ٨٣ رقم ١٢٤٤).

بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا

﴿وقولوا للناس حسنا﴾ تقرأ بقراءتين حَسَنًا^(١) وحُسْنًا^(٢).

وتقديره: وقولوا للناس قولاً حسناً، أو وقولوا للناس قولاً ذا حسن. وفي معناه
ثلاثة أقوال، أحدها: قال سفيان الثوري: القول الحسن هو الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر. والقول الثاني: أنه اللين في القول، والمعاشرة بحسن الخلق.

والقول الثالث: أنه خطاب لأهل التوراة يعني: وقولوا للناس صدقاً في نعت
محمد ﷺ في التوراة.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ سبق تفسيره.

﴿ثم توليتم﴾ أعرضتم ﴿إلا قليلاً منكم﴾ وذلك أن فريقاً منهم قد آمنوا
﴿وأنتم معرضون﴾ كإعراض آبائكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي: لا يسفك بعضكم
دماء بعض.

وقيل: لا تسفكوا دماء غيركم فتسفك دماءكم؛ فكانكم سفكتم دماء أنفسكم.

﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ أي: لا يخرج بعضكم بعضاً.

وقيل: معناه: لا تسيئوا جوار من جاوركم؛ فتلجئوهم إلى الخروج؛ بسوء الجوار.

﴿ثم أقررتم﴾ أي: قبلتم ﴿وأنتم تشهدون﴾ تعترفون بالقبول.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: ياهؤلاء ﴿تقتلون أنفسكم﴾ (بقتل)^(٣)
بعضكم بعضاً.

(١) هي قراءة: حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف، بفتح الحاء والسين. انظر النشر (٢/٢١٨).

(٢) هي قراءة الباقيين، بضم الحاء، وإسكان السين. انظر المصدر السابق.

(٣) في «ك»: يقتل.

تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ

﴿وتخرجون فريقاً منكم من دياركم تظاهرون﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف (١) وأصله: تتظاهرون. فأدغمت التاء في الظاء. فصار مشددا ومعناه: تعاونون.

﴿عليهم بالإثم والعدوان﴾ فالإثم والعدوان: المبالغة في الظلم. وقد روى: «أن النواس بن سميان سأل رسول الله ﷺ ما البر؟ فقال: ما اطمأنت إليه نفسك، قال: ما الإثم؟ فقال ﷺ: ما حاك في صدرك» (٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسَارَى﴾ يقرأ بقراءتين «أَسْرَى، وَأُسَارَى» (٣) وفرق أبو عمرو بينهما في المعنى، فقال: الأسارى لمن كان في اليد مع الوثاق. والأسرى: لمن كان في اليد من غير وثاق، ولم يرضوا منه بهذا الفرق، والصحيح: أنهما واحد.

﴿تفدوهم﴾ و﴿تفادوهم﴾ قراءتان (٤). قيل: هما في المعنى واحد، وقيل: (تفادوهم) (٥) تقال في فداء الأسرى بالأسرى. وتفدوهم في الفداء بالمال.

﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ فيه تقدير وتأخير. وتقديره: وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم؛ وهو محرم عليكم إخراجهم؛ تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان. ﴿أَفْتَوْنُون بَبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَبَعْضٍ﴾ لأنهم خالفوا في البعض وامتلأوا في البعض.

(١) قرأ الكوفيون: حمزة، وعاصم، الكسائي، وخلف بالتخفيف، وقرأ الباقر بالتشديد. انظر النشر (٢١٨/٢)، وتفسير القرطبي (٢١/٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٧/١٦ - ١٦٨ رقم ٢٥٥٣)، والترمذي (٥١٥/٤ رقم ٢٣٨٩)، وقال: حسن صحيح وأحمد في مسنده (١٨٢/٤)، وابن حبان في صحيحه (١٢٣/٢ رقم ٣٩٧).

(٣) قرأ حمزة «أَسْرَى»، بفتح الهمزة، وسكون السين، من غير ألف، وقرأ الباقر «أُسَارَى» بضم الهمزة وألف بعد السين، انظر النشر (٢١٨/٢)، وتفسير القرطبي (٢١/٢).

(٤) قرأ نافع وحمزة، والكسائي ويعقوب: «تفادوهم» وقرأ الباقر: «تفدوهم» انظر المصادر السابقة.

(٥) في «ك»: تفادونهم.

وَالْعُدْوَانَ وَإِنْ يَتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

قال السدي - فى كشف معنى الآية - : إنهم أمروا بأربعة أشياء : أن لا يقتل بعضهم بعضا . وأن لا يخرج بعضهم بعضا . وأن لا يتعاونوا على الإثم والعدوان . وأن يفادوا الأسارى . فخالفوا فى الثلاث وامتلأوا فى المفادة .

والقصة فيه : أن بنى قريظة كانوا حلفاء الأوس ، وبنو النضير كانوا حلفاء الخزرج وكانت بين القبيلتين مقاتلة ، ف وقعت المقاتلة بين حلفاء القبيلتين ، ثم إذا وقع أسير من حلفاء إحدى القبيلتين فى يد أخرى القبيلتين فأداه حلفاء القبيلة الأخرى ، مع كون الأسير من عدوهم ، فإذا قيل لهم : لم تفادون ؟ قالوا : أمرنا بالمفادة . فإذا قيل لهم : لم تقتلوا ؟ قالوا : نحن حلفاؤهم فلا بد لنا من القتال معهم فهذا معنى الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقال : خَزَى يُخْزَى خِزْيًا ، من الذل والهوان . وَخَزَى يَخْزَى خِزَايَةً . من الخجل والاستحياء والافتضاح . ومنه قول الشاعر :

و الموت خزيان ينظر خزيان

أى : مستحى .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ اختاروا الدنيا على الآخرة .

﴿ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ يمنعون العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا ﴾ أعطينا ﴿ مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ وَفَعِينَا مِنْ بَعْدِهِ

بِالرَّسْلِ ﴾ أتبعنا . أى : يقفو رسولاً رسولاً .

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ ﴾ فيه قولان ؛ أحدهما : أنها المعجزات التى أوتى

﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا

عيسى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك.

والقول الثانى: أنها الإنجيل. ﴿وأيَّدناه﴾ قويناه من الأيد. وهو القوة.

﴿بروح القدس﴾ اختلفوا فى الروح، قال الحسن وقتادة - وهو إحدى الروايتين
عن ابن عباس - أنه أراد به جبريل. وقيل: إنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى صعد
به إلى السماء. وقيل: إن الروح هو الاسم الأعظم الذى كان يحيى به الموتى. وقيل
هو الإنجيل.

وإنما سُمى روحاً؛ لأنه كان سبباً لحياة القلوب؛ ولذلك سُمى القرآن روحاً.

وسُمى عيسى روحاً؛ لأنه حصل بتكوين الله من غير توليد والد.

وأما جبريل: فإنما سُمى روحاً؛ للطافته، أو لمكانه من الوحي الذى هو سبب حياة
القلوب.

وأما القدس: قيل: إنه نعت جبريل. وأصل القدس: الطهارة. ومنه القدوس: وهو
الطهارة. والأرض المقدسة: المطهرة؛ وإنما وصف جبريل بالقدس لأنه لم يقترب ذنباً
قط. وكان طاهراً من الذنوب.

وقيل: القدس هو الله - تعالى -.

قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ لا تريد قلوبكم
﴿استكبرتم﴾ أَنْفَتُمْ وتعظمتتم ﴿ففرقاً كذبتم وفرقاً تقتلون﴾.

فالمكذَّبون: مثل عيسى ومحمد. والمقتولون: مثل زكريا ويحيى - صلوات الله
عليهم أجمعين -.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قرأ ابن عباس: غُلْفٌ بضم اللام، وهو قراءة
الأعرج وابن محيصن؛ وهو من الشواذ.

لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
 قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ

والقراءة المعهودة بجزم اللام، وهم جمع الأغلف، ومعناه: قلوبنا فى أوعية مما تقول
 لأنفسهم شيئا من ذلك وهذا مثل قوله - تعالى - : ﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة﴾ (١).

وأما الغُلف : بضم اللام : جمع الغلاف . ومعناه : قلوبنا أوعية العلم، وليس فيها مما
 تقول شىء . أى : ما تقوله فليس بشىء .

﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ طردهم الله عن الفهم والرحمة . وأصل اللعن : الطرد
 والإبعاد وقال الشاعر :

ذغرق (٢) به القطا ونَفَيْتُ عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

أى : مقام الذئب اللعين، يعنى : المطرود .

﴿فقليلًا ماتؤمنون﴾ قيل : أراد به المشركين ومعناه : قليل إيمانهم والمراد [به] (٣)
 إيمانهم بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض .

وقيل : أراد به أهل الكتاب ؛ لأن الذين آمنوا منهم أقل من الذين آمنوا من المشركين .
 وقيل : معناه : فلا يؤمنون أصلا .

وحكى الكسائى عن العرب : قلَّ ما تنبت هذه الأرض إلا الكراث والبصل . أى :
 لاتنبت إلا الكراث والبصل .

قوله تعالى : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ يعنى القرآن . ﴿مصدق لما
 معهم﴾ من التوراة والإنجيل .

﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ يستنصرون ؛ ومنه قول الشاعر :

(١) فصلت : ٥ .

(٢) كذا فى «الأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب (مادة : لعن)، وتفسير القرطبى (٢/ ٢٦) : دَعَرْتُ .

(٣) فى «الأصل»، و«ك» : بهم .

مَنْ عِنْدَ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ

أَبْلَغُ بَنِي عَصَمَ رَسُولًا فَإِنِّي عَنْ قَبَاحَتِكُمْ غَنِي (١)

أى: عن نصرتكم.

وفى الخبر: «أن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين» (٢). أى يستنصر بهم فى الدعاء للغزوات.

ومعنى الآية: أن المشركين من قبل كانوا يؤذون اليهود فرما تكون الغلبة لهم على اليهود فى القتال؛ فقالت اليهود: اللهم انصرنا بالنبي الأمى الذى تبعته فى آخر الزمان، فكانوا ينصرون به، فلما بعث كفروا به. فهذا معنى قوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا﴾ بِئْسَ: اسم مستوف لكل ذم. ونِعْمَ: اسم مستوف لكل حمد. ﴿اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ اختاروا لأنفسهم ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ﴿بَغِيًّا﴾ حسداً. والبغى: الظلم. وأصله الطلب؛ فالباغى طالب للظلم. والحاسد: ظالم لأنه يريد زوال النعمة عن المحسود من غير جناية منه. ﴿أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من النبوة: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من الأنبياء.

﴿فَبَاءُوا﴾ أى: رجعوا ﴿بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الغضب الأول عبادة العجل. والغضب الثانى الكفر بمحمد.

والقول الثانى: أن الغضب الأول تكذيب عيسى. والغضب الثانى تكذيب محمد ﷺ.

والقول الثالث: أن الغضب الأول الكفر بالإنجيل. والغضب الثانى الكفر بالقرآن.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أى: مخزٍ.

(١) كذا فى «الأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب (مادة: فتح)

أَبْلَغُ بَنِي عَصَمَ رَسُولًا فَإِنِّي عَنْ قَبَاحَتِكُمْ غَنِي

(٢) أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث (٣٠٩/١ رقم ٩٤) والطبرانى فى الكبير (٢٩٢/١ رقم ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩) من

حديث أمية بن خالد بن أسيد. وقال المنذرى فى الترغيب: رواه رواة الصحيح، وهو مرسل (٩٠/٤). قلت: وأمىة

ذكر الحافظ ابن حجر أنه لا صحبة له. وانظر الإصابة (١٢٧/١ - ١٢٨).

أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن. ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ يكفيننا ما أنزل علينا من التوراة.

﴿ويكفرون بما وراءه﴾ قال أبو عبيدة: بما بعده. قال الفراء: بما سواه من الكتب. وهو الأصح. ﴿وهو الحق﴾ يعنى: القرآن ﴿مصدقاً لما معهم﴾ من التوراة. ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ فإن قال قائل: القتل كان من آبائهم فكيف خاطب الأبناء به؟

الجواب قلنا: قتل الأنبياء وإن وجد من الآباء لكن الأبناء رضوا به، ووالوهم عليه؛ فلهذا خاطب الأبناء به. وأيضاً فإنه قال: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ على صيغة الاستقبال، فكان اللائق بالحال أن يقول فلم قتلتم؟

وأما قوله: ﴿فلم تقتلون﴾ معناه: فلم قتلتم، لكن العرب قد تضع الماضى فى موضع المستقبل، والمستقبل فى موضع الماضى، والدليل عليه قوله: ﴿من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ يعنى فى زعمكم.

وقيل: معناه: ما كنتم مؤمنين على النفى. كقوله تعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ (١) أى: ما كان للرحمن ولد. وفيه قول آخر سيأتى.

قوله تعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ بالمعجزات. ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ فى الهاء قولان: أحدهما: أنه عائد إلى موسى والثانى: عائد إلى الحجة. ﴿وأنتم ظالمون﴾ بذلك.

قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ قد ذكرناه. ﴿واسمعوا﴾ وأقبلوا ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ يعنى: سمعنا بالآذان

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا

وعصينا بالقلوب .

وقيل : إنهم لما سمعوا وخالفوا بالعمل ؛ فكأنهم قالوا : سمعنا وعصينا . وإن لم يقولوا ذلك ومثله قول الشاعر :

امتلاً الحوض وقال قطنى مهلا رويدا قد ملأت بطنى

فقدر القول من الحوض وإن لم يقل شيئا .

﴿ وأشربوا ﴾ أى : خلطوا ، ومنه فلان مشرب اللون إذا اختلط بياضه بالحمرة .
﴿ فى قلوبهم العجل ﴾ أى : حب العجل . فحذف المضاف ، واكتفى بالمضاف إليه ،
ومثله قول الشاعر :

وكيف تواصل من أصبحت خلالته كأبى مرحب

أى كخلالة أبى مرحب .

وفى القصص : أن موسى - صلوات الله عليه - أمر أن يبرد العجل بالمبرد ، ثم أمر أن يذر فى النهر ، وأمرهم بالشرب منه ، فكل من بقى فى قلبه شئ من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه . ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ أى : بئس إيمان يأمر بهذا . ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ﴾ لأنهم قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ؛ فغيرهم بذلك .

﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ لأن من علم بدخول الجنة إذا مات يتمنى الموت ولا يشق عليه أن يموت .

قوله تعالى : ﴿ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ﴾ أخبر أنهم لن يتمنوا ذلك ،

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً
مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا

كأن الله صرفهم عن تمنى الموت؛ تصديقا للرسول، وتحقيقا لمعجزته، إذ كان يمكن
أن يتمنى بعضهم ذلك تكذيبا للرسول ﷺ .

وفى الخبر قال ﷺ : « لو تمنوا ذلك لأخذهم الموت فى الحال » (١).

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ منهم . قوله : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾
يعنى اليهود . ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ أى : وأحرص من الذين أشركوا . وهو مثل
قولهم : « فلان أسخى الناس ومن هرم » أى : وأسخى من هرم .

يريدون به هرم بن سنان . كان رجلا معروفا بالسخاوة، وله شاعر يقال له : « زهير بن
أبى سلمى » .

والمراد بالذين أشركوا ها هنا : المجوس وذلك أنهم يقول بعضهم لبعض : عش ألف
سنة « بزهذا رسال » فأخبر الله - تعالى - أن اليهود أحرص الناس على حب الحياة
ومن المجوس الذين يقولون ذلك .

﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ كما وصفنا ﴿ وما هو بمزحزحه ﴾ بمبعده ﴿ من
العذاب أن يعمر ﴾ يعنى لا يبعدهم طول العمر من العذاب .

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ ظاهر المعنى .

قوله - تعالى - : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ﴾ فى سبب نزول الآية قولان :

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٤٨/١)، والنسائى فى التفسير من الكبرى (٣٠٨/٦ رقم ١١٠٦١)،
وابن جرير الطبرى فى تفسيره (٣٣٦/١)، وأبو يعلى فى مسنده (٤٧١ / ٤ - ٤٧٢ رقم ٢٦٠٤)
جميعهم من حديث ابن عباس بنحو هذا، وفى بعض سياقه زيادة . وعزاه الهيثمى فى المجمع (٣١٧/٦)
للبراز وقال : رجاله رجال الصحيح . وفى موضع آخر (٢٣١/٨) قال : رجال أبى يعلى رجال الصحيح .

قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ
الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ

أحدهما: أن عمر - رضى الله عنه - قال لليهود: أنشدكم بالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمدا فى كتابكم؟ فسكتوا. ثم عاودهم ثانيا، فقالوا: نعم. قال عمر: فلم لم تؤمنوا به؟ قالوا: لأنه ينزل عليه جبريل؛ وهو عدونا؛ وهو الذى يأتى بالعذاب، ولو نزل عليه ميكائيل لآمنا به. فقال عمر: أشهد أن من كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكائيل، ومن كان عدوا لهما فالله عدو له، فنزلت الآية على وفق قول عمر^(١).

وقد روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: «وافقت ربي فى ثلاث».

ويروى «وافقتنى ربي فى ثلاث». أحدها: هذا والثانى: آية الحجاب؛ وذلك قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٢).

والثالثة^(٣): الصلاة خلف مقام إبراهيم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٤).

والقول الثانى: فى سبب نزول الآية: «أن ابن صوريا الأعور - وكان أعلم اليهود - أتى النبى ﷺ وقال: إني سائلك مسائل لايعرفها إلا نبى، فإن أجبتنى عرفتك صادقا. فقال: سل. قال ابن صوريا: ما علامة النبى؟ قال: أن تنام عيناه ولا ينام قلبه. قال: صدقت. ثم قال: كيف خُلِقَ الولد من الماءين؟ قال: إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنث بإذن الله.

وقال: ومن ينزل عليك من الملائكة؟ قال جبريل فقال: لو نزل عليك ميكائيل لآمنا

(٢) الأحزاب: ٥٣.

(٤) البقرة: ١٢٥.

(١) فى «ك»: هاهنا.

(٣) فى «ك»: الثالث.

نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾
مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ

بك؛ فإنه عدونا فنزل قوله - تعالى - : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل ﴾ (١).

وفيه أربع قراءات: «جبريل» على الكسر واللين، «وجبريل» على الفتح واللين، «وجبرئيل» على الفتح والهمزة والإشباع «وجبرئيل» على الفتح والهمز من غير إشباع (٢).

و«جبر» بمعنى العبد، و«ئيل» اسم الله، وكذلك ميكائيل، ومعناه: «عبد الله»، أو «عبد الرحمن». كذا قال ابن عباس، والحسن بن علي.

فجبريل على وزن قنديل وبرطيل وزنبيل، وجبرئيل على وزن عندليب، وجبريل لامثال له.

﴿فإنه نزل على قلبك﴾ (٣) يعنى: قلب محمد ﴿بإذن الله مصدقا لما بين يديه﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾.

قوله - تعالى - : ﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل [وميكال]﴾ (٤) فإن الله عدو للكافرين. هذا الذى نزل على وفق قول عمر - رضى الله عنه - وقوله: ﴿وجبريل (وميكال)﴾ (٤) وإن دخل فى جملة الملائكة الرسل؛ لكن خصهما بالذكر تشريفا.

قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ يعنى القرآن وآياته. ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أى: الكافرون.

قوله تعالى: ﴿أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم﴾ قيل: أراد به العهد الذى

(١) قد روى نحو هذا من غير ذكر ابن سوريا، وفى سياقه زيادة عما هاهنا من حديث ابن عباس أخرجه النسائى فى الكبرى (٥/ ٣٣٦ - ٣٣٧ رقم ٩٠٧٢)، وأحمد فى مسنده (١/ ٢٧٤)، والطبرى فى تفسيره (١/ ٣٤٢)، وابن أبى حاتم مختصراً (١/ ٢٨٨ - ٢٨٩ رقم ٩٥٨) وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ٣٠٥) وغيرهم.
(٢) انظر النشر (٢/ ٢١٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٧).

(٣) أثبت فى الأصل، و«ك»: مصدقا، وهى مقحمة هنا، وستأتى فى سياق الآية.

(٤) فى الأصل: ميكائيل.

﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ

أخذه الله على اليهود أن يؤمنوا بمحمد؛ فخالفوا ونبذوا.

وقيل: هو العهد الذى أخذه رسول الله ﷺ على بنى قريظة والنضير أن لا يعاونوا المشركين على قتاله. فخالفوا ونبذوا. والنبد. الطرح، ومنه قول الشاعر:

نظرت إلى عنوانه فنبدته كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وقد آمن قليل منهم.

قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ يعنى: محمداً.

﴿مصدق لما معهم﴾ من الكتب ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ أراد به التوراة.

قال الشعبى: كانوا يقرءون التوراة ولا يعملون بها. فكذلك نبذهم.

وقال سفيان الثورى: أدرجوها فى الحرير والديباج، وحلوها بالذهب والفضة، ثم لم يعملوا بها، فهم نابذون.

وقيل: أراد بالكتاب القرآن ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أى: لما خالفوا ما علموا كأنهم لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين﴾ يعنى: اليهود ﴿ما تتلوا الشياطين﴾ أى: ما تلت، مستقبل بمعنى الماضى. قال الخطيئة:

شهد الخطيئة حين يلقي ربه أن الوليد أحق بالغير

يعنى: يشهد.

ومعنى قوله: ﴿تتلوا﴾ أى: تحكى وتقص ﴿على ملك سليمان﴾ على عهد

اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا

ملك سليمان . وقيل : فى ملك سليمان . والقصة فى ذلك : ما روى أن فى زمن سليمان صلوات الله عليه - كانت سحرة ، ولهم فى ذلك كتب ، فانتزع سلمان كتب السحر^(١) من أيديهم ودفنها فى صندوق تحت كرسيه ، فلما توفى قالت الشياطين للإِنس : ألا ندلكم على كنز كان سليمان يفعل به ما كان : فاستخرجوا تلك الكتب . وقال الجهال منهم : به كان يفعل سليمان ما يفعل .

وقيل : لما لم نزع الله الملك من سليمان ، كتب الشياطين كتب السحر ، ودفنها تحت الكرسي ، فلما رد الله الملك إليه . بقى ذلك السحر مدفونا كما كان ، فلما توفى سليمان استخرجوا تلك الكتب وقالوا إن سليمان كان يفعل به ما يفعل . وقيل : إن الشيطان تمثّل فى صورة النّبي وقال لهم ذلك . وقيل : إنه وسوس إليهم ذلك ، فهذا الذى تلت الشياطين على ملك سليمان . ﴿وما كفر سليمان﴾ أى : وما سحر سليمان . وقيل : أراد به الكفر المعهود .

﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ يقرأ مخففا ومشددا فإذا شدد عمل فى نصب الشياطين^(٢) . وإذا خفف بقى على الرفع ﴿كفروا﴾ سحروا . ويحتمل الكفر المعهود ﴿يعلمون الناس السحر﴾ والسحر فى اللغة عبارة عن تمويهات وتخيلات وخدع ، قال امرؤ القيس :

أرانا موضعين (لختم) ^(٣) غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أى : نخدع .

وقال الفراء : السحر : قول يقوله إنسان يأخذ به الرجل عن امرأته .

(١) فى «ك» السحرة .

(٢) قرأ ابن عامر ، وحمزة والكسائى ، وخلف بتخفيف النون من «ولكن» ، ورفع الاسم بعدها . وقرأ الباقون

بالتشديد ، والنصب . (٣) فى «ك» : لختم .

أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا

وحكى عن الشافعى أنه قال: السحر يحيل ويمرض وقد يقتل. والسحر يتحقق وجوده على مذهب أهل السنة ويؤثر، ولكن العمل به كفر، وتأثيره مذكورنا، وقيل: إنه يؤثر فى قلب^(١) الأعيان؛ فيجعل الآدمى على صورة الحمار، والحمار على صورة الكلب. والأصح أنه يُخَيَّلُ ذلك كما بينا.

وقد سحر رسول الله ﷺ فأثر فيه؛ روى: «أن لبيد بن أعصم اليهودى سحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، فأطلعه الله عليه، فأمر به فاستخرج من بئر ذى [أروان]^(٢) وكان عليه إحدى عشرة عقدة؛ فأنزل الله - تعالى - عليه المعوذتين؛ إحدى عشرة آية، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى إذا انحلت العقد فكأنما أنشط من عقال»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قرئ على النفى^(٤) وهو محكى عن عطية بن عوف، فعلى هذا فى الآية تقديم وتأخير، تقديره: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملائكة ببابل هاروت وماروت ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر، وما يعلمان من أحد وهذا قول غريب.

والصحيح: أن «ما» بمعنى «الذى»، يعنى: والذى أنزل على الملائكة.

وقرأ ابن عباس على «الملائكة» بكسر اللام وهو فى الشواذ. قال الحسن البصرى: هما كانا علجين من علوج بابل، ولم يكونا ملكين.

والصحيح أنهما كانا ملكين وهو القراءة المعهودة.

والقصة فى ذلك ما حكى ابن عمر عن كعب الأحبار؛ وهو قول عطاء بن أبى رباح، وجماعة من المفسرين قالوا: إن الملائكة تعجبوا من كثرة معاصى بنى آدم، فقال

(١) من «ك»، وفى الأصل: «أروان».

(٢) فى «ك»: ذروان.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٣/١٠ رقم ٥٧٦٥)، ومسلم (٢٥٠/١٤).

(٤) انظر تفسير القرطبي (٥١/٢).

نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ

لهم الله - تعالى - : لو أنزلتكم إلى الأرض . ورُكِّبت فيكم ما رُكِّبت فيهم ؛ لفعلتم مثل ما فعلوا . فاختاروا من خيارهم ملكين ؛ هاروت وماروت ؛ فأنزلهما الله - تعالى - إلى الأرض ، وأخذ عليهما أن ألا يشركا ولا يقتلا ، ولا يزنيا . قال كعب : فما مضى عليهما اليوم إلا (وفعلا) ^(١) الكل .

وفى القصة : أن المزنئى بها كانت زهرة ؛ فمسخت شهابا ، ورفعت إلى السماء ، فكان ابن عمر كلما رآها لعنها .

وفى القصة : أنهما لما ارتكبا ذلك خيرهما الله - تعالى - بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ فاختارا عذاب الدنيا ؛ فعلقا بأرجلها .

قال عطاء بن أبي رباح رؤوسهما [مطوية] ^(٢) تحت أجنحتهما .

وأما بابل : قال ابن مسعود : هى أرض الكوفة . وقيل : هو جبل دماوند . وقيل : هو من نصيبين إلى رأس العين . وإنما سُمى بابل لأنه تبلبلت فيه الألسن . أى : تفرقت وانتشرت فى البلاد .

﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ والفتنة : الابتلاء . ومنه يقال : فتنت الذهب فى النار . أى : اختبرته ، ليتبين الجيد من الردىء .

فإن قيل : ما معنى إنزال السحر على الملكين ، وما معنى تعليم السحر من الملكين ، وكلاهما مستبعد ؟ ! .

قيل : أما إنزال السحر : بمعنى التعليم والإلهام يعنى عُلِّمَا وأُلِّهَمَا السحر .

وقيل : هو حقيقة الإنزال ، وهو إنزال هيئة السحر وكيفية ؛ لينتهوا عنه ، وأما تعليم السحر من الملكين : بمعنى الإعلام . ومثله قول الشاعر :

(٢) فى «الأصل» : مصوبة .

(١) فى «ك» : وقعا .

بِضَارَيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا

تَعَلَّمُ أَنْ بَعْدَ [الْغَى رَشْدًا] (١) وَأَنْ لِهَذِهِ الْغَبْرِ انْقِشَاعًا

يعنى: اعلم.

وقيل: هو على حقيقة التعليم، ثم فيه قولان: أحدهما: أنهما يعلمان كيفية السحر لينتهوا) عنه (٢) كان الرجل يأتيهما فيقول: ما الذى نهى الله عنه؟ فيقولان: الشرك. فيقول: وما الشرك؟ فيقولان: كذا وكذا.

ويأتيهما آخر فيقول: ما الذى نهى الله عنه؟ فيقولان: السحر. فيقول: وما السحر؟ [فيعلمانه] (٣) كيفية السحر لينتهى عنه، وكذا فى كل المعاصى.

والقول الثانى: أنه تعليم ابتلاء، سلطهما الله على تعليم السحر ابتلاء للناس حتى أن كل من تعلم واعتقد وعمل به كفر.

ومن لم يتعلم ولم يعمل به؛ لم يكفر. والدليل عليه قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ أى: بلية ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ أى: لا تتعلم السحر. فتعمل به؛ فتكفر.

وقوله - تعالى - : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ يعنى السحر الذى يؤخذ به الرجل عن امرأته كما وصفنا.

﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ معناه: إلا بتكوين الله، فالساحر يسحر، والله يُكُونُ.

قال سفيان الثورى: معناه: إلا بقضاء الله وقدره.

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ يعنى: السحر يضرهم ولا ينفعهم.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ اختاره ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ من نصيب.

(٢) ما بين القوسين سقط من «ك».

(١) فى الأصل: الرشد غيا.

(٣) فى الأصل: فيعلمان.

يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
 ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ

﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ بئس اختيارا اختاروه لأنفسهم.

فإن قيل: أليس قد قال: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ فما معنى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ وقد أخبر أنهم قد علموا؟

قيل: أراد بقوله: ﴿ولقد علموا﴾ الشياطين. وبقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ اليهود.

وقيل: كلاهما في اليهود؛ لكنهم لما لم يعملوا بما علموا؛ فكأنهم لم يعلموا.

قوله - تعالى - : ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا﴾ آمنوا بك يا محمد ﴿واتقوا﴾ الكفر والسحر ﴿لمثوبة﴾ لثواب ﴿من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا﴾ معناه: أرعنا سمعك واسمع منا وحقيقته (فرغ) ^(١) سمعك لكلامنا.

﴿وقولوا انظرننا﴾ أى: انتظرننا، وقيل: انظر إلينا.

وقرأ الأعمش: «أَنْظِرْنَا» أى: أمهلنا. وقال الشاعر:

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نَخْبِرَكَ الْيَقِينَا

أى: أمهلنا.

﴿واسمعوا﴾ أى: أطيعوا. ﴿وللّكافرين عذاب أليم﴾ أى: عذاب مؤلم. وفى سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أن الصحابة كانوا يقولون للنبي ﷺ: «راعنا» ويريدون به ما ذكرنا، فسمعه اليهود. وكان ذلك عندهم سباً وهو بمعنى يا أحمق.

وقد قرأ الأعمش: «راعِنًا» منونا، وقرأ الحسن: «راعونا» وهما لغتان من الرعونة،

(١) فى «ك»: فزع.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

فلما سمعه اليهود فرحوا به؛ حيث رأوهم يسبونهم ولا يعلمون، وكانوا يقولون ذلك للنبي ﷺ موافقة للمسلمين في الظاهر، ويضحكون فيما بينهم، إنا نسبه وهم لا يعلمون؛ فنزل قوله - تعالى - : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾.

والقول الثانى : أن قولهم «راعنا» كان فيه جفوة وخشونة؛ لأن حقيقته فرغ سمعك لكلامنا حتى تفهم، وفى هذا نوع جفاء؛ فنزل قوله : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ حتى يقولوا ما يقولوا على طريق التبجيل والمسألة. ويختاروا من الألفاظ أحسنها ومن المعانى أحكمها.

قوله - تعالى - : ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : ما يحب، والود : الحب.

ومعنى الآية : أن الأنبياء قبله بعثوا من ولد إسحاق، فلما بعث النبي ﷺ من ولد إسماعيل؛ لم يقع ذلك بُود اليهود ومحبتهم. وأما المشركون فإنما لم تقع نبوته بودهم، لأنه جاء بتضليلهم، وعيب آلهتهم، فهذا معنى قوله - تعالى - : ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى عليك يا محمد. ذكر الواحد بخطاب الجمع على ما هو عادة العرب ﴿مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعنى النبوة. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين : الرحمة بمعنى النبوة ها هنا. وقيل : بمعنى الإسلام. والهداية إليه. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الفضل [ابتداء] (١) إحسان بلا علة.

قوله - تعالى - : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ قرأ ابن عامر «ما نُنسخ» بضم النون وكسر السين (٢) ومعناه ما تجده منسوخا وهو مثل قولهم : أحمدت فلانا. أى : وجدته محمودا، وأبخلت فلانا. أى : وجدته بخيلا.

والقراءة المعروفة ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ على الفتح.

(٢) انظر النشر (٢/٢١٩).

(١) فى «الأصل»، و«ك»: ابتلاء. وهو تحريف.

الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾

والنسخ فى اللغة: رفع الشئ وإقامة غيره مقامه. يقال: نسخت الشمس الظل. أى رفعته وأقامت الضياء مقامه.

وقد يكون بمعنى رفع الشئ من غير إقامة غيره مقامه.

يقال: نسخت الرياح الآثار إذا رفعته من أصلها من غير شئ يقوم مقامها. والنسخ جائز فى الجملة باتفاق الأمة. ونسخ القرآن على وجه:

منها نسخ يوجب رفع التلاوة والحكم جميعا. وذلك مثل ما روى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف «أن قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرأوا سورة فلم يذكروا منها إلا قوله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فغدوا على النبى ﷺ وأخبروه بذلك فقال - عليه السلام - : «تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها»^(١).

وقيل: إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة؛ فرفع أكثرها تلاوة وحكما.

ومن النسخ ما يوجب رفع التلاوة دون الحكم وذلك مثل آية «الرجم» رفعت تلاوتها وبقي حكمها.

ومنه ما يوجب رفع الحكم دون التلاوة. مثل آية «الوصية للوالدين والأقربين» وآية «عدة الوفاة بالحول» ومثله آية «التخفيف فى القتال» وآية «المتحنة» ونحو ذلك.

ومن وجوه النسخ ما يوجب رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، وذلك مثل القبلة نسخت إلى الكعبة، والوصية نسخت إلى الميراث، وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشرا، ومقاومة الواحد العشرة فى القتال نسخت إلى مقاومة الواحد الاثنين. ونحو ذلك.

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (١٥٧/٧) وفيه زيادة، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١١٠/١) لأبى داود فى ناسخه، وابن المنذر، وابن الأنبارى فى المصاحف، وأبى ذر الهروى فى فضائله.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

ومنها: رفع الحكم من غير إقامة شيء مقامه؛ وذلك مثل امتحان النساء، نسخ من غير خلف. وكذلك أمثال هذا.

رجعنا إلى تفسير الآية فقوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾ أى: نرفع من آية. فأما قوله: ﴿أو ننسها﴾ اختلفوا فى معناه. وقال ابن عباس معناه: أو نتركها فلا ننسخ. وهو مثل قوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾^(١) أى: تركوا الله فتركهم. ومنه قول الشاعر:

إِنَّ عَلَى عَقَبَةٍ أَقْضِيهَا لَسْتُ بِنَاسِيهَا وَلَا مُنْسِيهَا

أى: لست بناسيها ولا تاركها. فعلى هذا يرجع قوله: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ إلى قوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾.

وقيل: معنى قوله: ﴿أو ننسها﴾ يعنى ننسيها على قلبك يا محمد. وذلك مثل ما روينا فى حديث أبى أمامة.

وروت عائشة «أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقرأ سورة، فقال: إن هذا الرجل ذكّرني آية كنت نسيتها»^(٢). وهو نظير قوله - تعالى - ﴿سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله﴾^(٣) وقرأ ابن مسعود: «ما نُنْسِكُ من آية أو ننسخها» وهذا يؤيد هذا القول؛ فعلى هذا يكون الإنشاء على القلب فى معنى النسخ.

وفيه قول ثالث: معنى قوله أو «ننسها» أى: نأمر بتركها، ونبيح تركها، وذلك مثل نسخ آية الممتحنة ونحوها.

فإن قال قائل: إذا كان الإنشاء بمعنى إباحة الترك. فأى فرق بينه وبين النسخ؟

قلنا: هما وجهان من النسخ إلا أنه أراد بالنسخ الأول: رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، وأراد بالثانى: نسخ الحكم، من غير إقامة غيره مقامه. كما ذكرنا.

(١) التوبة: ٦٧.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٠٣/٨ رقم ٥٠٣٧، ٥٠٣٨)، ومسلم (١٠٧/٦ رقم ٧٨٨).

(٣) الأعلى: ٦ - ٧.

نَصِيرِ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ

وقرأ أبو عمرو. وابن كثير «أو ننسأها» على الفتح والهمز^(١) وحكى أبو عبيد القاسم بن سلام، عن أبي نعيم القارئ. أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقرأت عليه بحرف أبي عمرو فغير على شيئين: فقوله: «وَأَرْنَا» فقال: «قل وَأَرْنَا» بكسر الراء قال أبو عبيدة: وأحسبه قال الحرف الثاني: قوله: «أو ننسأها» فقال: قل: «أو ننسأها» النساء والإنساء: بمعنى التأخير، تقول العرب: أنسأ الله أجلك ونسأ الله في أجلك. في معناه قولان:

أحدهما: أن معنى قوله: «أو ننسأها» أى: نرفع تلاوتها، ونؤخر حكمها، كما فعل فى آية «الرجم». ويكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة والحكم جميعا. والقول الثانى: أن معنى قوله: «أو ننسأها» أى: نؤخر إنزالها، ونتركها فى اللوح المحفوظ، فلا تنزل.

وقوله: «ما ننسخ من آية» يعنى: ما ينزل، أو «ننسأها» فلا ينزل، نأتى بخير منها أو مثلها.

فإن قيل: أيش معنى قوله: ﴿نأت بخير﴾ [منها]^(٢) وآيات القرآن سواء، لافضل لبعضها على بعض. وإن أراد به الخير فى السهولة، فقد نسخ الأسهل بالأشق، مثل الصوم كان على التأخير بينه وبين الفدية، فنسخه بصوم رمضان على الحتم. فما معنى الخيرية؟

قلنا: قد قيل، تقديره: نأت منها بخير، أى: نرفع آية ونأت بآية. والصحيح: أنه أراد بالخير الأفضل، يعنى فى النفع والسهولة. ومعناه: نأت بخير منها، أى: أنفع وأسهل.

(١) انظر النشر (٢/ ٢٢٠).

(٢) من «ك».

يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

﴿أو مثلها﴾ في النفع والسهولة. وإن (١) نسخ الأسهل بالأشق فمعنى الخير فيه بالثواب. فإن ثواب الأشق أكثر. فإن قيل: هما سواء في (امتنال) (٢) الأمر فكيف يختلفان في الثواب؟ والجواب: أن الله - تعالى - يجوز أن يثيب على الأشق أكثر مما يثيب على الأسهل، وقد وعد الثواب على صوم رمضان ما لم يعد على الصوم المخير فيه أولا.

وفيه قول آخر: أنه أراد بقوله: ﴿نأت بخير منها﴾ في نسخ القبلة خاصة.

وبقوله: ﴿أو مثلها﴾ على العموم، وذلك أن التوجه إلى الكعبة كان خيرا للعرب وأدعى لهم إلى الإسلام؛ إذ كانت في قلوبهم نفرة عن التوجه إلى البيت المقدس؛ لأنه قبله اليهود.

وفيه قول ثالث: أن المراد بقوله: ﴿نأت بخير منها﴾ يعني: في حال نسخ الأول، فإن الثاني - الذي نزل جديدا ويعمل به - خير من الأول المنسوخ الذي لا يعمل به، وهذا قول بعيد.

قوله - تعالى -: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ فقوله: ﴿ألم تعلم﴾ وإن كان على صيغة الاستفهام، لكن المراد به التقرير. ومعناه: أنك تعلم أن الله على كل شيء قدير. وكذلك قوله: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ وأما الملك: هو القدرة التامة. ومنه الملك. وهو السلطان التام القدرة.

﴿وما لكم من دون الله﴾ قال أبو عبيدة: من بعد الله. وقال غيره: بما سوى الله.

﴿من ولي﴾ أي: وال وهو القيم بالأمور ﴿ولا نصير﴾ ولا مانع من العذاب.

قوله: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم﴾ «أم» ترد في اللغة على وجوه.

(١) في «الأصل»، و«ك»: وإنما.

(٢) في «ك»: إمساك.

لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ

فتكون بمعنى التقرير وهو المراد ها هنا . ومعناه : أنتم تريدون .

وقد ترد بمعنى التشكيك ، يقال : رأيت زيدا أم عمرا ؟

وقد ترد « أم » بمعنى بل ، قال الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى

وصورتها أم أنت فى العين أملح

أى : بل أنت فى العين أملح .

﴿ أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾ وفى معناه قولان : أحدهما : أنهم سألوا الرسول فقالوا : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ (١) .

والثانى : أنهم سألوا الرسول أن يجعل الصفا ذهبا ؛ كما سأل قوم عيسى من عيسى المائدة . والأول أظهر . والمراد بالآية : منعهم عن السؤالات المفتوحة بعد ظهور البراهين .

﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ أى : يستبدل الكفر بالإيمان . وذلك أن مثل ذلك السؤال بعد ظهور البرهان كفر .

﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ أى : وسط السبيل .

وقيل : قصد السبيل . وهما سواء ، وحكى عن عيسى بن عمر النحوى أنه قال : ما زلت أكتب حتى انقطع سوائى أى : وسطى .

قوله - تعالى - : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب ﴾ يعنى : أحب وتمنى كثير من أهل

الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

الكتاب ﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا﴾ قيل: نزل ذلك فى عمار وحذيفة؛ فإن اليهود دعوهم إلى دينهم فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال عمار: فقد عاهدت الله ألا أكفر بمحمد. فقالوا لحذيفة: ما تقول أنت؟ قال: الله ربى ومحمد نبىي، والقرآن إمامى. فأنزل الله - تعالى - هذه الآية.

وقيل: هو فى حق الكفار والمسلمين على العموم؛ لأنهم مازالوا يودون عود المسلمين إلى الكفر.

﴿حسدا﴾ وذلك أنهم عرفوا أن محمدا نبى حق، وأنهم باتباعه نالوا من الإسلام ما لم ينالوه؛ فحسدوهم على دينهم.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿حسدا من عند أنفسهم﴾ ولا يكون الحسد من عند الغير؟ قيل: معناه: من تلقائهم لم ينزل به كتاب ولا ورد به أمر.

وقيل: فى الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: ود كثير من أهل الكتاب من عند أنفسهم لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا.

﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾ من بعد ما ظهر أنه حق.

قوله - تعالى -: ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ العفو: المحو، والصفح: الإعراض، وإنما نزل هذا قبل آية القتال، ثم نسخ بآية القتال.

﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ يعنى: بشرع القتال. وقال ابن عباس معناه: حتى يأتى الله بأمره: من فتح قسطنطينية، ورومية، وعمورية.

وقيل: حتى يأتى الله بأمره: من فتح قرى اليهود، مثل خيبر، وفدك، وإجلاء بنى النضير، ومثل بنى قريظة.

﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ أى قادر.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

قوله - تعالى - : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ معلوم .

﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾ من طاعة ﴿ تجدوه عند الله ﴾ ذخيرة لاتضيع ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ تقديره : قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ؛ فاختصر اختصارا .

نزلت الآية في وفد نجران ، وكانوا نصارى ، اجتمعوا في مجلس رسول الله ﷺ مع اليهود ، فتنازعوا وكفر بعضهم بعضا ، وكذب بعضهم بعضا ؛ فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .

﴿ تلك أمانيتهم ﴾ يعنى : تمنيتهم الباطل ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ ائتوا بالحجة على ما زعمتم ﴿ إن كنتم صادقين بلى من أسلم ﴾ يعنى : ليس الأمر على ما تمنوا بل الحكم للإسلام ﴿ من أسلم وجهه ﴾ أخلص عبادته لله ﴿ وهو محسن ﴾ مؤمن ﴿ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴿ هو ما جرى في مجلس رسول الله ﷺ من منازعة اليهود مع النصارى . فأما قوله : ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ يعنى : أنه يكذب بعضهم بعضا ويضلل بعضهم بعضا وهم يتلون الكتاب ، وليس في كتابهم هذا الاختلاف ، فدلّت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما في الكتاب على كونهم على الباطل .

﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ قيل : أراد به المشركين . قاله ابن عباس وقال مجاهد : أراد به عوام النصارى .

﴿ فإله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ يريهم دخول المسلمين

مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا

الجنة ودخلوهم النار .

قوله - تعالى - : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، وجماعة من المفسرين : أراد بالآية النصارى الذى عاونوا بختنصر المجوسى على تخريب بيت المقدس .

﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى، وموضع زيارتهم، فلا يدخله نصرانى إلا خائفاً، من ذلك الوقت إلى يوم القيامة ﴿ لهم فى الدنيا خزى ﴾ أى : جزية لذيئهم وقتل حربيهم ﴿ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ أى : عذاب النار .

وفيه قول آخر: أن الآية نزلت فى المشركين الذين منعوا رسول الله ﷺ من دخول مكة عام الحديبية .

وقوله - تعالى - : ﴿ وسعى فى خرابها ﴾ لأنهم منعوا المسلمين من دخول المسجد . ولم يسلموا حتى دخلوا؛ فكأنهم سعوا فى خرابها .

﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ وهذا شرعنا ألا يمكن مشرك من دخول الحرم . ولا يدخله أحد منهم إلا خائفاً .

﴿ لهم فى الدنيا خزى ﴾ هوان ﴿ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنها نزلت فى نسخ القبلة أى : الكعبة؛ فإنها لما حولت إلى الكعبة عير اليهود المسلمين، وقالوا : ليست لهم قبلة معلومة، فتارة يستقبلون هكذا، وتارة هكذا، فنزلت الآية ردا لقولهم .

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ

والقول الثاني: ماروى عمر^(١) «أن رسول الله ﷺ كان يصلى على راحلته أينما توجهت به راحلته؛ فنزلت الآية فى إباحة النافلة على الراحلة أينما توجهت به الراحلة»^(٢).

والقول الثالث: روى جابر أنه قال: «كنا فى سفر، فاشتبهت علينا القبلة، فصلى كل واحد منا إلى جهة، وخط بين يديه خطا، فلما أصبحنا فإذا الخطوط إلى غير القبلة، فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، ونزلت الآية فى معناه»^(٣).

والقول الرابع: أنه نزلت فى ابتداء الإسلام، حين لم تكن القبلة معلومة، وجازت الصلاة إلى أى جهة شاءوا. فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القبلة، وهذا قول غريب.

وأما قوله: ﴿فثم وجه الله﴾ قال مجاهد: قبله الله. الوجه: بمعنى القبلة، وكذلك الوجهة والجهة: هى القبلة. وقيل: معناه رضا الله، وقيل: معناه قصد الله، ومنه قول الشاعر:

أستغفر الله ذنبا لست أحصيه رب العباد إليه الوجه والعمل
يعنى: إليه القصد والعمل.

وقد ذكر الله - تعالى - الوجه فى كتابه فى أحد عشر موضعا، وهو صفة لله - تعالى - وتفسيره: قراءته والإيمان به. وسيأتى^(٤).

(١) كذا فى «الأصل وك»، والصواب: عن ابن عمر، كما سيأتى فى تخريج الحديث.
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٣/٥ رقم ٧٠٠)، والترمذى (١٨٩/٥ رقم ٢٩٥٨) وقال: حسن صحيح، والنسائى (٢٤٤/١ رقم ٤٩١، ٤٩٢)، و(٦١/٢ رقم ٧٤٣، ٧٤٤)، وأحمد فى مسنده (٢٠/٢).
(٣) رواه الدارقطنى (٢٧١/١). والحاكم (٢٠٦/١)، والبيهقى (١٢-١٠/٢) وقال الحاكم: محتج برواته كلهم غير محمد بن سالم فإننى لا أعرفه بعدالة وا جرح. وتعقبه الذهبى بقوله: أبو سهل واه. وقال البيهقى: ولا نعلم لهذا الحديث إسنادا قويا.

(٤) قال المصنف فى تفسير سورة الأنعام (الآية رقم: ٥٢): والوجه صفة الله - تعالى - بلا كيف، وجه لا كالوجه. نقل تفسير سورة القصص (آية رقم: ٨٨) عن سفیان بن عيينة أنه قال: «كل ما وصف الله به نفسه فى الكتاب؛ فتفسيره قراءته، لا تفسير له غيره». وهذا يوضح مراد المصنف فى هذا الموضع.

وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ أى: غنى يعطى من السعة ﴿عليه﴾ أى: عالم بالأمور.

قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولدا﴾ يعنى: النصارى ﴿سبحانه﴾ تنزيه ﴿بل له ما فى السموات والأرض﴾ ملكاً ومُلكاً ﴿كل له قانتون﴾ القانت: المطيع، وأصل القنوت: القيام. وفى الخبر: «أن النبى ﷺ سئل عن أفضل الصلاة، فقال: طول القنوت» (١) أى: طول القيام.

وقوله: ﴿كل له قانتون﴾ أى: قائمون بالعبودية. وفى معناه أقوال:

أحدها: قال ابن عباس: هو عام بمعنى الخصوص. والمراد به المسلمون، وبه قال الفراء. ولم يرضه من الفراء نحاة البصرة، وقالوا: الكل يقتضى الإحاطة بالشيء، بحيث لا يشذ منه شيء ومعناه: كل العباد قانتون. فالمسلم يسجد طوعاً. والكافر يسجد ظله كرها، كما قال الله - تعالى - : ﴿ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ (٢).

والقول الثانى: معناه: ﴿كل له قانتون﴾ مذلولون مسخرون لما خلقوا له.

والقول الثالث: ﴿كل له قانتون﴾ يعنى: فى القيامة.

قوله - تعالى - : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أى: مبدعها، قال ابن عباس: هو الخالق لا على مثال سبق. ومنه المبتدع؛ لأنه أحدث ما لم يسبق إليه.

﴿وإذا قضى أمراً﴾ أى: أحكم وأتقن. وأصل القضاء: الفراغ ومنه يقال لمن مات قضى نحبه لفراغه من الدنيا ومنه قضاء القاضى. لأنه فرغ عن فصل الحكومة. ومنه قضاء الله وقدره. لأنه فرغ عنه تقديراً وتديباً. وقال الشاعر:

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٢/٦ رقم ٧٥٦)، والترمذى (٢٢٩/٢ رقم ٣٨٧)، وابن ماجه (١/٤٥٦)

رقم ١٤٢١) وأحمد فى مسنده (٣٠٢/٣)، جميعهم من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) الرعد: ١٥.

فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

وعليهما (مَسْرُودَتَانِ) ^(١) قضاهما داود وصنع السوايع تبع

أى: صنع السوايع، وقوله: قضاهما داود، أى: أحكمهما، فكَذَلِكَ قوله: ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ أى: أحكم وأتقن ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فإن قال قائل: كيف قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾، والمعدوم لا يخاطب؟ قيل: قد قال ابن الأنبارى: معناه: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ أى: لأجل تكوينه، فعلى هذا ذهب معنى الخطاب.

وقيل: هو وإن كان معدوما، لكنه لما قدر وجوده، وهو كائن لامحالة، كان كالموجود: فصح الخطاب.

وفيه قول ثالث: أنه خرج على ما يفهمه الناس فى العادة؛ فإن كل من يريد فعلا فإما أن يقول قولا، أو يفعل فعلا. ومعناه: التكوين فحسب، إلا أنه قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ لأنه كذا يفهمه الناس.

فأما قوله - تعالى - : ﴿فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر. «فَيَكُونُ» بنصب النون، وهو أظهر على النحو؛ لأنه جواب الأمر بالفاء. فيكون على النصب.

والقراءة المعروفة: «فَيَكُونُ» بالرفع ^(٢). ومعناه: فهو يكون.

قوله - تعالى - : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس: أراد به اليهود.

وقال مجاهد: أراد به النصارى.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أى: هلاً يكلمنا الله، «ولولا» فى كل القرآن بمعنى «هلاً» إلا فى موضع واحد؛ وذلك فى قوله - تعالى - : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ^(٣) معناه: فلو لم يكن من المسبحين.

(١) المسرودة: الدرع المثقوبة، والسرد: الثقب. انظر لسان العرب (مادة: سرد). وذكر البيت فى (مادة: قضى).

(٢) انظر النشر (٢/٢٢٠).

(٣) الصفات: ١٤٣.

يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ

﴿أو تأتينا آية﴾ أى: آية نقترحها، كما اقترحوا من الآيات. ﴿كذلك قال الذين من قبلهم﴾ من الكفار فى القرون الماضية. ﴿مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ أى: أشبه بعضها بعضها فى القسوة وطلب المحال. ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾.

قوله - تعالى - : ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أى: مع الحق، والصلاات تتعاقب، ومثله قوله - تعالى - : ﴿فادخلنى فى عبادى﴾ ^(١) أى: مع عبادى.

والمراد بالحق: القرآن. وقيل: شريعة الإسلام.

﴿بشيراً ونذيراً﴾ أى: مبشراً ومنذراً ﴿ولا تستئل عن أصحاب الجحيم﴾ قرئ بقرأتين. «ولا تُسأل». «ولا تُسأل» ^(٢). فأما قوله ﴿ولا تُسأل﴾: يعنى: أرسلناك غير مسئول عن حال الكفار. وذلك مثل قوله: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ^(٣).

وقرأ ابن مسعود «وما تُسأل» وقرأ أبى بن كعب. «ولن تُسأل» ومعنى الكل واحد، وأما قوله: «ولا تُسأل» له معنيان: أحدهما: أنه على معنى قولهم: لا تسأل عن شر فلان؛ فإنه فوق ما تحسب.

وقيل: هو على النهى، وسببه ما روى محمد بن كعب القرظى: «أن رسول الله ﷺ قال: ليت شعرى ما فعل أبواى. فنزل قوله - تعالى - : ﴿ولا تستئل عن أصحاب الجحيم﴾» ^(٤) والجحيم: اسم للنار الشديدة الالتهاب.

(١) الفجر: ٢٩.

(٢) قرأ نافع ويعقوب، بفتح التاء وجزم اللام، على النهى وقرأ الباقر بضم التاء، ورفع اللام على الخبر. انظر النشر (٢/٢٢١).

(٣) الرعد: ٤٠.

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١/٤٠٩)، وابن أبى حاتم (١/٣٥٥ رقم ١١٥٨) وقال السيوطى فى الدر المنثور (١/١١٧): هذا مرسل ضعيف الإسناد. ورواه الطبرى (١/٤٠٩) عن داود بن أبى عاصم بنحوه. وقال السيوطى: معضل الإسناد ضعيف، لا يقوم به ولا بالذى قبله حجة.

الْهُدَى وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ

قوله - تعالى - : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾
معناه : ولن ترضى عنك اليهود إلا باليهودية، ولا النصارى إلا بالنصرانية.

﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ والملة : الطريقة، ومنه خبز المَلَّة. سمي الرماد الذى جعل فيه الخبز : مَلَّة؛ لأنه يظهر فيه آثار وخطوط.

﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ يعنى : دين الله، هو الدين الذى أنت عليه.

﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قيل : إنه خطاب للنبي، والمراد به الأمة لأنه كان معصوما من اتباع الأهواء، ومثله قوله تعالى : ﴿لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(١)
﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ معلوم.

وقيل معنى الآية : أن اليهود طلبوا من النبي ﷺ المهادنة وقالوا : لاتحاربنا ولا تقتلنا، وأمهلنا؛ فربما نسلم. فنزل قوله - تعالى - : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ يعنى : إنك إن هادنتهم فلا يرضون بها. وإنما يطلبون ذلك تعللا وافتعالا، ولا يرضون عنك إلا باتباع ملتهم.

قوله تعالى - : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قيل : أراد به قوما من اليهود أسلموا.

وقيل : أراد به قوما من النصارى جاءوا مع جعفر بن أبى طالب حين قدم من الحبشة فأسلموا.

﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال ابن عباس، وابن مسعود : يحللون حلاله، ويحرمون حرامه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه.

وقال الحسن : يعملون بأوامره، ويؤمنون بمحكمه، ويكلمون المتشابه إلى الله - تعالى - . وقال عكرمة : يتبعونه حق اتباعه من قولهم : تلا أى تبع ومنه قوله - تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا﴾^(٢).

بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا

﴿أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴿أى: الغابنون أنفسهم﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ أعاده تأكيداً لما سبق.

قوله - تعالى - : ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ قد ذكرنا معناه.

﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ إن قيل: أليس قد جعل الشفاعة للأنبياء وغيرهم، حيث قال: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ (١) وقال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» (٢)؟ قيل: أراد بقوله: ﴿ولا تنفعها شفاعة﴾ في قوم مخصوصين، وهم اليهود والكفار.

قوله - تعالى - : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه﴾ أى: اختبر، ومعنى ابتلاء العباد، ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء - لأنه عالم بهم وبما يكون منهم - ولكن ليعلم العباد أحوالهم، حتى يعرف بعضهم بعضاً. ﴿بكلمات﴾ وأما الكلمات: قيل: هي التي وردت في الخبر في قوله ﷺ: «عشر من الفطرة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. والخمس التي في الرأس المضمضة والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وفرق الرأس. وأما اللواتي في الجسد مثل قلم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء - في رواية وغسل البراجم -» (٣).

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٣/٣)، وأبو داود (٢٣٦/٤) رقم ٤٧٣٩، والترمذي (٥٣٩/٤) رقم ٢٤٣٥ جميعهم من حديث أنس بن مالك. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقد ورد هذا الحديث وما في معناه عن كثير من الصحابة وقال الحافظ ابن كثير في النهاية (٢٠٩/٢): وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث. ثم أفاض في ذكرها رحمه الله - تعالى .

(٣) رواه ابن جرير (٤١٤/١ - ٤١٥)، والحاكم في المستدرک (٢٦٦/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي حاتم (٣٥٩/١) رقم ١١٧٢، والبيهقي في سننه (١٤٩/١) كلهم من حديث ابن عباس موقوفاً: «ابتلاه الله بالطهارة، في خمس في الرأس وخمس في الجسد... وذكر الحديث». وقد جاء مرفوعاً من حديث عائشة، ولفظه «عشر من الفطرة» وفي ذكر بعضه اختلاف عما هنا. أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٨/٣) رقم ٢٦١. وأبو داود (١٤/١) رقم ٥٢، والترمذي (٨٥/٥) رقم ٢٧٥٧، والنسائي (١٢٦/١) رقم ٥٠٤٠، وابن ماجه (١٠٧/١) رقم ١٢٩٣ وأحمد في مسنده (١٣٧/٦).

يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

وفى الخبر أن الله - تعالى - بعث جبريل إلى إبراهيم أن تطهر لى، فتمضمض، ثم بعث إليه أن تطهر لى، فاستنشق هكذا إلى العشر، فلما أمره فى المرة العاشرة: أن تطهر لى. فنظر إلى بدنه، فلم يجد شيئاً ينظفه فتنبه على الختان فاختن.

وفى الخبر: «أنه ﷺ اختن بعد ثمانين سنة بالقدوم»^(١). وهو اسم موضع، وعاش بعده ثمانين.

وفى الأخبار: «أن إبراهيم - صلوات الله عليه - أول من قص الشارب، وأول من اختن وأول من قلم الأظفار، وأول من رأى الشيب، فلما رآه قال يارب ما هذا؟ فقال: الوقار فقال يارب زدنى وقاراً»^(٢).

﴿فأتمهن﴾ أى فأداهن به تامة، قال ابن عباس: ما أتى أحد بسهام الإسلام كما أتى بها الخليل إبراهيم - صلوات الله عليه -.

وفيه قولان آخران: أن معنى الكلمات: هو أن الله - تعالى - ابتلاه بالكوكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه. وابتلاه بنار نمرود فرضى عنه. وابتلاه بذبح الولد فرضى عنه. وابتلاه بالختان فرضى عنه.

وقوله - تعالى - : ﴿قال إني جاعلك للناس إماما﴾ يعنى فى الخير، وقد يكون الإمام فى الشر؛ على طريق المجاز. كما قال - تعالى - : ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾^(٣) وحقيقة الإمام: أن يقصد، من فعله ما يقصد وهو من الأمّ، وهو القصد.

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة. أخرجه البخارى (٤٤٧/٦) ومسلم (١٧٨/١٥) رقم (٢٣٧٠).
(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (١٩٤/٤)، وعزاه السيوطى فى الدر (١٢١/١) إلى البيهقى، من حديث عبد الله بن واقد، عن حماد عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة مرفوعاً بنحوه.
ورواه الإمام مالك فى الموطأ (٩٢٢/٢) عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قوله قلت: وهو الأشبه، والله أعلم وفى كنز العمال (١٧٢٤٩/٦) بالشرط الأول فقط للديلمى من حديث ابن عمر، وهو فى مسند الفردوس، وفى إسناده محمد بن القاسم الطالقانى، وهو متهم بالكذب كما فى ترجمته من الميزان واللسان.

الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ

﴿١﴾ قال ومن ذريتي ﴿٢﴾ أى : اجعل من ذريتي أئمة .

﴿٣﴾ قال لاينال عهدى الظالمين ﴿٤﴾ أى : لايناله من كان منهم ظالما . واختلفوا فى هذا العهد ، قال ابن عباس : هو النبوة . وقال مجاهد : أراد به الإمامة . وهو الأليق بظاهر النسق ، وفيه قول آخر : أنه الأمان من النار .

والظالم : الفاسق ، وقيل : أراد به المشرك ها هنا . وهو مثل قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ ﴿١﴾ أى : بشرك ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ ﴿٢﴾ فجعل الأمن لمن لايشرك به ، فكذلك قوله : ﴿لاينال عهدى الظالمين﴾ أى : أن أمانى لايناله المشركون منهم .

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ قال عطاء : مثابة أى : مجمعا . وقال غيره : مثابة أى : مرجعا ، وهو مأخوذ من ثاب ، أى : رجع ، والبيت مثابة ؛ لأنهم يعودون إليه مرة بعد أخرى .

قال الضحاك : لايقضون منه وطرا ، أى : لايملئون منه . والمثاب والمثابة بمعنى واحد ، قال الشاعر :

مَثَابٌ لِأَفْنَاءِ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا تَخُبُّ إِلَيْهِ الْيَعْمَلَاتُ الدَّوَامِلُ

وأما قوله : ﴿وَأَمْنًا﴾ أى : ذا أمن . قال ابن عباس : أمنه أن يدخله الجانى فيأمن ولايستوفى منه حتى يخرج ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه - رضى الله عنهم - .

وقال غيره : معناه : أنه مأمّن من أيدي المشركين ؛ فإنهم ما كانوا يتعرضون لأهل مكة ويقولون : إنهم أهل الله وخاصته . وإنما كانوا يتعرضون لمن حوله . كما قال الله - تعالى - : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ﴿٢﴾ فأما قول

(٢) العنكبوت : ٦٧ .

(١) الأنعام : ٨٢ .

السُّجُود ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ

ابن عباس فمحمول على الاستحباب. وذلك الأولى عندنا؛ أن لا يتعرض له حتى يخرج، لكن مع هذا أجاز الاستيفاء؛ لأن الحرم لا يمنع استيفاء الحقوق.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرئ بقراءتين: «واتخذوا» على الخبر، «واتخذوا» على الأمر^(١). وأما المقام بالفتح: موضع الإقامة. والمقام بالضم: فعل الإقامة. ومعناه على القول الصحيح: أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي في المسجد، يصلى إليه الأئمة وذلك الحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت، وبذلك سمي مقام إبراهيم.

وقيل: كان أثر أصابع رجله بينة فيه، واندرس من كثرة مسح الأيدي. وفي الخبر: «أن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة. ولولا ما مسته أيدي المشركين. لأضاء ما بين المشرق والمغرب»^(٢).

وقد روى عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال: وافقني ربي في ثلاث: قلت لرسول الله ﷺ: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزل قوله - تعالى - : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وفيه قول آخر: أنه أراد بمقام إبراهيم: جميع مشاهد الحج، مثل عرفة والمزدلفة، وسائر المشاهد.

(١) قرأ نافع، وابن عامر، بفتح الخاء، على الخبر، وقرأ الباقون بكسر الخاء، على الأمر، انظر النشر (٢/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه، والترمذي (٤/ ٢٢٦ رقم ٨٧٨) الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢١٣-٢١٤) وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٢١٩ رقم ٢٧٣٢، ٢٧٣١)، والحاكم في مستدركه (١/ ٤٥٦) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٢٤ رقم ٣٧١٠) عن حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً.

وقال الترمذي: هو حديث غريب هذا يروى عن عبد الله بن عمرو موقوفاً قوله، وفيه عن أنس أيضاً. قلت: قال أبو حاتم في العلل (١/ ٢٩٩-٣٠٠): رواه الزهري وشعبة كلاهما عن مسافع بن شيبه عن عبد الله ابن عمرو موقوفاً وهو أشبه، ورجاء شيخ ليس يقوى.

مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا

وقوله: ﴿مصلی﴾ أى: مُدْعَا؛ أمرهم أن يتخذوها مواضع للدعاء.

وقوله - تعالى - : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ أى: أمرنا، والعهد ها هنا بمعنى الأمر.

وأما إسماعيل: أصله: اسمع إيل، وذلك أن إبراهيم - صلوات الله عليه - كان يدعو الله أن يرزقه ولداً، ويقول: اسمع إيل. فلما رزقه [الله] ^(١) الولد سماه إسماعيل.

وقوله - تعالى - : ﴿أن طهرا بيتى﴾ يعنى من الشرك والأوثان ﴿للطائفين﴾ الدائرين حول الكعبة. ﴿والعاكفين﴾ المقيمين المجاورين ﴿والركع السجود﴾ المصلين. رُكَّع: جمع راکع، والسُّجُود جمع ساجد. قال الكلبي ومقاتل: الطائفين: هم الغرباء. والعاكفين: أهل مكة.

قال عطاء ومجاهد: الطواف للغرباء أفضل؛ لأنه يفوتهم، والصلاة لأهل مكة أفضل؛ لأنه لا يفوتهم.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى: اجعل الحرم ذا أمن ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ وإنما دعا بذلك لأنه كان بواد غير ذى زرع.

وفى القصص: أن الطائف كانت مدينة من مدائن الشام بأردن، فلما دعا إبراهيم هذا الدعاء، أمر الله - تعالى - جبريل حتى قلعها من أصلها، وأدارها حول البيت سبعة، ثم وضعها موضعها الذى هى الآن فيه، فمن تلك ثمرات أهل مكة.

﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ دعا إبراهيم أن يرزق من الثمرات المؤمنين خاصة.

﴿قال ومن كفر﴾ يقول الله - تعالى - : والكافرين أيضاً؛ وذلك أن الله - سبحانه وتعالى - وعد الرزق للخلق كافة، مؤمنهم وكافرهم.

تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ

﴿فأمتعته قليلاً﴾ يقرأ مخففاً ومشدداً (١) ومعناها واحد يعنى : أبقيه فى النعمة قليلاً.

وإنما ذكر القليل ؛ لأن الإمتاع أصله الطول والكثرة . يقال : متع النهار . أى : طال وارتفع . ونخلة ماتعة . أى : طويلة . وإنما أراد به الإمتاع فى الدنيا وهو قليل ؛ لانقطاعه .

﴿ثم أضطره﴾ ألجئه ﴿إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ أى : المرجع .

قوله - تعالى - : ﴿وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ قال الفراء : القواعد : أسس البيت .

وقال الكسائى : هى جدر البيت ، وحكى أن ابن الزبير لما هدم البيت لبينيه ؛ ظهرت أحجار بيض كبار فقال : هذه هى القواعد التى بنى عليها إبراهيم البيت .

وقال ابن عباس : إنما بنى البيت من خمسة أجبل : طور سيناء ، وطور زيتا ، ولبنان وهو جبل بالشام - والجودى ، وهو جبل بالجزيرة ، وحراء وهو جبل بمكة .

وفى الأخبار : أن الله - تعالى - بنى فى السماء بيتاً - وهو البيت المعمور ، ويسمى صراح - وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة فى الأرض بحذائه ، على قدره ومثاله .

وقيل : أول من بنى الكعبة آدم - صلوات الله عليه - فاندرس ذلك زمان الطوفان ، ثم أظهره الله - تعالى - لإبراهيم حتى بناه .

قال : ﴿وإسماعيل ربنا تقبل منا﴾ قرأ أبى بن كعب «يقولان ربنا تقبل منا» وهو فى الشواذ ، وهذا هو المعنى . ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قوله - تعالى - : ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ يقول : مستسلمين ، خاضعين ، منقادين .

(١) قرأ ابن عامر بتخفيف التاء ، وقرأ الباقون بتشديد ها . انظر النشر (٢/ ٢٢٢) .

فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهٍ نَفْسَهُ وَلَقَدْ

﴿ومن ذريتنا أمة﴾ والأمة: أتباع الأنبياء ﴿مسلمة لك﴾ خاضعة لك ﴿وأرنا﴾
قرأ أبو عمرو «مختلسا»، وقرأ غيره بكسر الراء^(١) ﴿مناسكنا﴾ أى: متعبداتنا.

والنسك: العبادة، ومنه يقال للعباد: ناسك، معناه: مواضع حجتنا ﴿وتب علينا﴾
إنك أنت التواب الرحيم ﴿.

قوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ يعنى محمدا ﷺ، وفى الخبر، أن
النبي ﷺ قال: «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى»^(٢) وأراد بدعوة إبراهيم هذا؛
فإنه دعا أن يبعث فى بنى إسماعيل رسولا منهم.

قال ابن عباس: كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود، وصالح،
وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب ومحمد... صلوات الله
عليهم أجمعين -.

وفى القصص: أن لكل نبي من مضى [اسماً واحداً]^(٣) فى القرآن إلا نبيين^(٤)
يعقوب وعيسى. أما يعقوب له اسمان: يعقوب، وإسرائيل، وأما عيسى له اسمان:

(١) قرأ ابن كثير، ويعقوب بإسكان الراء. وقرأ أبو عمرو بالاختلاس، وقرأ الباقر بكسر الراء، انظر الشرح
(٢٢٢/٢).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٧/٤)، والحاكم (٤١٨/٢)، وابن جرير فى تفسيره
(٤٣٥/١)، وابن أبى حاتم فى التفسير (٣٨٨/١ رقم ٢٤٦٤) عن حديث العرباض بن سارية مرفوعاً. قال
الحاكم: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي بأن فى إسناده أبا بكر ضعيف.

وقال الهيثمى فى المجمع (٢٢٦/٨): وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد، وقد
وثقه ابن حبان.

وللحديث طرق أخرى عن عدد من الصحابة فانظر المجمع (٢٢٥-٢٢٧)، وتخريج أحاديث الكشف
للزبيلى (٨٢-٨٣).

(٣) فى «الأصل»، و«ك»: اسم واحد.

(٤) فى «الأصل»، و«ك»: نبيان.

اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ
أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

عيسى، والمسيح.

﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ يعنى من القرآن ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ القرآن
﴿ والحكمة ﴾ فيها أقوال :

قيل : الحكمة فهم القرآن، وقال أبو بكر بن دريد صاحب الجمهرة : الحكمة كل
كلمة زجرتك ووعظتك ونهتكم عن قبيح، ودعتكم إلى حسن، وقيل : الحكمة الفقه .
وهذا قول حسن .

﴿ ويزكيهم ﴾ أى : يطهرهم، ويجعلهم أزكيا طهرة . وفيه قول آخر : أنه بمعنى
التزكية . يشهد الرسل بالنبوة من سائر الأمم وذلك أن مؤمنى سائر الأمم شهدوا للرسل
بالنبوة وتبليغ الرسالة فهذه ^(١) الأمة تزكى أولئك الشهود .

﴿ إنك أنت العزيز ﴾ قيل : هو الممتنع، والله ممتنع لاتناله الأيدى، ولا يصل إليه شئ .
وقيل : هو القوى الغالب . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وعزنى فى الخطاب ﴾ ^(٢) أى :
غلبنى .

ويقال فى المثل : « مَنْ عَزَّ بَزَّ » أى : من غلب سلب ﴿ الحكيم ﴾ معلوم .
قوله - تعالى - : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ أى : طريقة إبراهيم ﴿ إلا من
سفه نفسه ﴾ حكى أبو عبيد عن أبى عبيدة : معناه : أهلك نفسه .
وقال الزجاج : معناه جهل نفسه، وكل سفیه جاهل، وذلك أن من جهل نفسه لم
يعرف الله .

وفى الأخبار : أن الله - تعالى - أوحى إلى داود : اعرف نفسك واعرفنى . فقال

(١) فى «ك» فتلك .

(٢) ص : ٢٣ .

اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ

يارب كيف أعرف نفسي، وكيف أعرفك؟ فأوحى الله إليه: اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء، واعرفني بالقوة والقدرة والبقاء.

وقيل: معناه سَفَه نفسه وجعله سفيهاً، وفيه قول رابع: معناه سَفَه في نفسه، فحذف كلمة «فى» فصار: سَفَه نفسه.

﴿ولقد اصطفى الله﴾ اخترناه ﴿فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾ من الأنبياء.

قوله - تعالى - : ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ يعنى أى: استسلم وأخلص عبادتك لله.

﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أخلصت وفوضت إليه.

قال ابن عباس: وقد حقق التفويض إليه، ولم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار.

قوله - تعالى - : ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ قرئ «وأوصى» من الإيضاء. «ووصى» من التوصية^(١) وهى للمبالغة والتكثير، يعنى أوصى إبراهيم بنيه. وأوصى يعقوب بنيه. ﴿يابنى إن الله اصطفى لكم الدين﴾ اختار لكم دين الإسلام ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ فإن قيل: كيف قال: فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وليس بيدهم أن لا يموتوا إلا مسلمين؟

قيل معناه: داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت. إلا وأنتم مسلمون، وهذا كقول القائل: لا أريتك تفعل كذا معناه: لا تفعل كذا، حتى لا أراك وأنت فاعل له.

(١) قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ونافع: «وأوصى» بهزمة مفتوحة بين الواوين مع تخفيف الصاد، وقرأ الباقون بتشديد الصاد من غير همزة بين الواوين. انظر النشر (٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣).

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا

قوله - تعالى - : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ بمعنى : أكنتم شهداء والمراد به ما كنتم شهداء .

﴿إِذَا حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾ أى : ما كنتم حضورا حين قرب يعقوب من الموت .

﴿إِذْ قَالَ لِبْنِيهِ﴾ وهم اثنا عشر سبطا . على ما سيأتى ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أى : أيش تعبدون من بعدى ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وقرأ الحسن البصرى وعاصم الجحدري . « وإله أبيك » كأنه على هذه القراءة لم يجعل العم ولا الجد أبا .

والقراءة المعروفة « وإله آبائك » فجعل الجد والعم أباء .

وإبراهيم هو الجد وإسماعيل هو العم . وقد سمي رسول الله ﷺ عمه العباس أبا حيث قال : « إنه من بقية آبائي » . (١) وقال : « رُدُّوا عَلَى أَبِي كَيْلَا تَفْعَلَ بِهِ قَرِيشَ مَا فَعَلْتَ ثَقِيفَ بَعْرَةَ بْنِ مَسْعُودٍ » (٢) وذلك أنهم قتلوه .

قوله - تعالى - : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أى : مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ معناه : يُجَازَى كُلُّ بَكْسَبِهِ، وَيُسْأَلُ كُلٌّ عَنْ عَمَلِهِ . والله أعلم .

قوله - تعالى - : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ هود جمع هائد، وهو مثل حائل وحول . وقيل : كان أصله كونوا يهودا فحذفت الياء فصار : هودا .

وقيل : هود مصدرها يهود هودا، فهو مصدر بمعنى الجمع كما يقال : قوم صوم

(١) أخرجه الطبراني فى الصغير (١/٣٤٤ رقم ٥٧٢) من حديث الحسن بن على بن أبى طالب مرفوعاً .

قال الهيثمى فى المجمع (٩/٢٧٢) : وفيه جماعة لم أعرفهم .

ورواه الطبراني فى الكبير (١١/٨٠ رقم ١١١٠٧) من حديث ابن عباس .

وقال الهيثمى (٩/٢٧٢) : وفيه عبد الله بن خراش وهو ضعيف، وثقه ابن حبان وقال : ربما أخطأ . وبقية رجاله وثقوا .

(٢) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف فى خبر طويل (١٤/٤٨٤ رقم ١٨٧٤٨) عن عكرمة مرسلاً .

كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

وقوم فطر.

ومعناه: قالت اليهود: كونوا يهودا وقالت النصارى كونوا نصارى فهذا معنى قوله - تعالى - ﴿كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾.

﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفا﴾ قرأ الأعرج «بل ملة» بالرفع. ومعناه بل ملتنا ملة إبراهيم.

والقراءة المعروفة: ﴿بل ملة إبراهيم﴾ أى: بل نتبع ملة إبراهيم.

وقيل: معناه: بل نكون على ملة إبراهيم، فحذف «على» فصار منصوبا.

قال الكسائى: هو نصب على الإغراء كأنه يقول: اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، وأما الحنيف: هو المسلم، وأصله الميل، ومنه الأحنف وهو: المائل القدم، والمسلم مائل من سائر الأديان إلى ملة الإسلام.

وقيل: معناه المستقيم، فسماه حنيفا على الضد كما يقال للمهلكة: مفازة وللدغ سليم.

وقيل: الحنيف هو الحاج المختن؛ وذلك أنه لم يبق مع العرب من ملة إبراهيم إلا الحج والختان، وكانوا يعرفون كل من حج واختن على ملة إبراهيم، وعرفوا الرجل بذلك حنيفا. فقال: بل ملة إبراهيم حنيفا على وفق ما عرفوا ﴿وما كان من المشركين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

قال الضحاك: علموا أولادكم أسماء الأنبياء المذكورين فى القرآن كى يؤمنوا بهم، ولا تظنوا أن الإيمان بمحمد يكفى عن الإيمان بسائر الأنبياء.

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ

وفى الخبر: «أن النبي ﷺ قرأ في الركعة الأولى من ركعتي الفجر هذه الآية قوله -
تعالى - ﴿آمنا بالله﴾ إلى آخرها. وقرأ في الركعة الثانية ﴿قل آمنا بالله وما أنزل
علينا...﴾ إلى آخرها» (١). أخرجه مسلم في الصحيح (٢).

حكى عن السلف أنهم كانوا إذا قيل للرجل منهم: [أؤمن أنت؟] (٣) قرأ ﴿آمنا
بالله وما أنزل إلينا...﴾ الآية.

وأما الأسباط: هم اثنا عشر سبطا وهم أولاد يعقوب والأسباط في بنى إسرائيل
كالقبائل في [العرب] (٤).

وقيل: السبط: الشجر، سمي بذلك لكثرة فروعه.

﴿لأنفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ أى: نؤمن بالكل، ولانفضل البعض
عن البعض.

قوله - تعالى -: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ قرأ ابن عباس «بالذى آمنتم به»
وهو المعنى. فقليل معناه: بما آمنتم به.

والمثل: ضد كما في قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (٥) ومعناه: ليس كهو شيء.

قال الشاعر:

يا عاذلى دعنى عن عدلكا مثلى لا يقبل من مثلكا (٦)

(١) آل عمران: ٨٤.

(٢) الحديث في صحيح مسلم (٦/٨-٩ رقم ٧٢٧) من حديث ابن عباس مرفوعا إلا أنه قال في الآخرة: ﴿آمنا
بالله واشهد بأننا مسلمون﴾.

وفى الرواية الثانية قرأ في الآخرة: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾

(٣) فى «الأصل، ك»: آمنوا أمؤمن أنت.

(٤) فى «الأصل، ك»: بنى إسرائيل وهو سبق قلم.

(٥) الشورى: ١١.

(٦) فى «الأصل، وك»: مثله. والصواب ما أثبتناه.

تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

أى: لا يقبل منك.

وقال الزجاج: معناه فإن أتوا بإيمان كإيمانكم، وتصديق كتصديقكم، وتوحيد كتوحيدكم، وقال أبو معاذ النحوى: معناه فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم.
﴿فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق﴾ أى: منازعة؛ لأن كل منازع يكون فى شق آخر عند المنازعة.

﴿فسيكفيكم الله وهو السميع العليم﴾ وعده أن يكفيه شرهم، وقد كفى بإجلاء بنى النضير، وقتل (١) بنى قريظة، وضرب الجزية على اليهود والنصارى، وقتل المشركين.
﴿وهو السميع العليم﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس - فى رواية الكلبي - وقتادة، والحسن، وعكرمة، والسدى: معناه: دين الله. وإنما سماه صبغة؛ لأنه يظهر أثر الدين على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب.

وقال مجاهد: معناه: فطرة الله. وهذا يقرب من الأول.

وقيل: أراد به الختان. وقوله ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أى: تطهير الله بالختان، وإنما سماه صبغة؛ لأنه أقامه مقام فعل النصارى، وذلك أنهم كانوا يصبغون الولد فى ماء أصفر بدل الختان فى زى اليهود. ويعدونه تطهيرا للولد فالله - تعالى - أقام التطهير بالختان فى حق المسلمين مقام ما صبغوا.

قال الكسائى: هو نصب على الإغراء وتقديره: الزموا دين الله. ومن أحسن من الله ديننا، أو الزموا تطهير الله ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أى: تطهيرا ﴿ونحن له عابدون﴾.

(١) فى ك: وقبل.

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ والمحااجة: المجادلة بالحجة لإظهار الحق.

نزلت في اليهود ونصارى نجران حيث حاجوا رسول الله ﷺ وقالوا: ديننا أقدم من دينكم وكتابنا أقدم من كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، فنزل قوله: قل يا محمد ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أى: نحن وأنتم سواء في الله فإنه ربنا وربكم.

﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى: نجازى بأعمالنا وتجازون بأعمالكم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ يعنى: كيف تدعون أنكم أولى بالله ونحن له مخلصون وأنتم به مشركون؟ قوله - تعالى -: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ يعنى: أتقولون؟ والصيغة صيغة الاستفهام، ومعناه التوبيخ يعنى أتقولون ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى﴾. وذلك أنهم ادعوا أن هؤلاء الأنبياء كانوا يهودا أو نصارى.

﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمَ اللَّهُ﴾ وذلك أن الله - تعالى - قد أعلم المسلمين أنهم كانوا على الدين الحنيفية وما كانوا يهودا ولا نصارى، كما قال - تعالى -: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ (١).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه أراد به أن الله - تعالى - قد أشهدهم في كتبهم على أن إبراهيم كان على الدين الحنيفية، ولم يكن يهوديا ولا نصرانيا؛ فكتموا تلك الشهادة.

وقيل أراد بالشهادة على نعت محمد ﷺ.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أى: لا يخفى عليه شيء مما تعملون.

قوله - تعالى -: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أى: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا

كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ

كسبتهم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴿﴾ يعنى : أنكم غير مسؤولين عن أعمالهم بل هم المسؤولون .

فإن قيل : هذا تكرار؛ فإنه قد ذكره مرة .

قلنا : أما الأول : كان فى الأنبياء الذين سبق ذكرهم . وهذا الثانى : فى اليهود والنصارى الذين سبق ذكرهم فى هذه الآيات . أو كرره تأكيدا .

وحكى عن بعض العلماء أنه سئل عما وقع من الفتن بين على ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة - رضوان الله عليهم - فقرأ ﴿﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ... ﴿﴾ الآية وهذا جواب حسن فى مثل هذا السؤال .

قوله - تعالى - : ﴿﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴿﴾ أى : يقول السفهاء الجاهل، والسفيه : خفيف الحلم والعقل . ومنه الثوب - يعنى - السفيه ويقال : رمح سفيه، أى : سريع النفوذ .

﴿﴾ مَا وَلَاهُمْ ﴿﴾ ما عدلهم وحرفهم ﴿﴾ عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴿﴾ يعنى : بيت المقدس ﴿﴾ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴿﴾ يوجه العباد إلى أيهما شاء ﴿﴾ يهذى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿﴾ أى : طريق مستقيم . والطريق المستقيم : هو الموصل إلى المقصود .

ونزلت الآية فى اليهود؛ حيث عيروا المسلمين على تحويلهم من بيت المقدس إلى الكعبة .

قوله - تعالى - : ﴿﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ ﴿﴾ يعنى : كما اخترنا الأنبياء واخترنا بنى إسرائيل من الخلق فكذلك اخترناكم من الأمم . ﴿﴾ أُمَّةٌ وَسَطًا ﴿﴾ أى : عدلاً خياراً . قال الشاعر :

عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ

هُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمَعْظَمِ

وفى الخبر أن النبي ﷺ قال: «إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأعدلها» (١).

وقد ورد فى الخبر عنه ﷺ أنه قال: «خير الدين النمط الأوسط» (٢) يعنى الذى ليس فيه غلو ولا تقصير. وذلك دين الإسلام؛ لأن النصارى غلوا فى دينهم، واليهود قصروا. وأما المسلمون أخذوا بالنمط الأوسط.

﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ وذلك يوم القيامة، حين يسأل الأمم عن إبلاغ الرسل، فينكرون تبليغهم الرسالة. فيسأل الرسل فيقولون: بلغنا، فيقال لهم: ومن يشهد لكم؟ فيأتون بهذه الأمة فيشهدون لهم بالبلاغ. فتقول الأمم: إنهم أتوا بعدنا فكيف يشهدون بذلك؟ فيسأل هذه الأمة. فيقولون: أرسلت إلينا رسولا، وأنزلت علينا كتابا، وأخبرتنا فيه ببلاغ الرسل، وأنت صادق فيما أخبرت، فبذلك نشهد لهم بالبلاغ.

﴿ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ على أعمالكم.

وقيل: معناه مزكيا مصدقا علي شهادتكم.

قوله - تعالى - : ﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها﴾ أى: ما حولنا القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه﴾ فإن قال قائل: مامعنى قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ وهو عالم بالأشياء قبل كونها؟

(١) أخرجه الترمذى (٢١١/٥) رقم (٣٠٠١) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (١٤٣٣/٢) رقم (٤٢٨٧، ٤٢٨٨)،

والإمام أحمد فى مسنده (٤٤٧/٤، ٥/٣، ٥) والحاكم فى مستدركه (٨٤/٤) وقال: صحيح. جميعهم من

حديث بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده مرفوعاً.

(٢) عزاه العراقي فى تخريجه على الإحياء (٧٢/١) لأبى عبيد فى الغريب من حديث على موقوفاً ولفظه

«عليكم بالنمط الأوسط». وقال: ولم أجده مرفوعاً.

الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ

قلنا بلى كان عالما به علم الغيب، وإنما أراد بهذا: العلم الذى يتعلق به الثواب والعقاب، وهو العلم بوجود الأتباع؛ فإن كونه موجودا إنما يعلم بعد الوجود. وقيل: معناه إلا لنرى، وهو قريب من الأول.

وقيل: الابتلاء مضمرة فيه، وتقديره: إلا لنبتلى فيظهر المتبع من المنقلب، وفى الخبر: «أن القبلة لما حولت إلى الكعبة، ارتد قوم من المسلمين إلى اليهودية، وقالوا: إن محمدا رجع إلى دين آبائه». فهذا معنى قوله: ﴿مَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ وقوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ لثقلية.

قيل: معناه: وإن كانت القبلة لكبيرة. قال الزجاج: وإن كانت التحويلة لكبيرة.

﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أى: هداهم الله. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ نزل هذا فى قوم معينين. ذلك ما روى: «أن القبلة لما حولت سأل قوم رسول الله ﷺ فقالوا: إن قوما منا كانوا قد صلوا إلى بيت المقدس، وماتوا، فما شأنهم؟ منهم أسعد بن زرارة، وأبو أمامة والبراء بن معرور - فنزل قوله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى: صلاتكم فجعل الصلاة إيمانا، وهذا دليل على المرجئة؛ حيث لم يجعلوا الصلاة من الإيمان. وإنما سموا مرجئة لأنهم أخرؤا العمل عن الإيمان.

وحكى: أن أبا يوسف شهد عند شريك بن عبد الله القاضى فرد شهادته، قيل له أترد شهادة يعقوب؟ فقال: كيف أقبل شهادة من يقول: إن الصلاة ليست من الإيمان؟!.

وقيل: معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ بالتحويل.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ والرافة: أشد الرحمة.

قوله - تعالى -: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ هذه الآية وإن كانت

لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ

متأخرة فى التلاوة لكنها متقدمة فى المعنى؛ فإنها رأس القصة.

وسبب نزول الآية ما روى جابر: «أن النبى ﷺ بعد ما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا - أو سبعة عشر شهرا - وكان يود أن يحوله الله إلى الكعبة فكان يقول لجبريل: وددت لو حولنى الله إلى الكعبة؛ فإنها قبله أبى إبراهيم، وكان يقول لجبريل: سل ربك فقال له جبريل: سل أنت فإنك عند الله بمكان، وكان كلما نزل جبريل تردد وجهه فى السماء؛ رجاء أن ينزل بالنسخ»^(١).

قال السدى: إنه ﷺ كلما افتتح صلاة، كان يردد وجهه فى السماء رجاء أن يحوله الله إلى الكعبة، فأقامه الله عليه ستة عشر شهرا، ثم نزل قوله - تعالى - ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أى: تودها وتهواها؛ لأن القبلة الأولى كانت [ترضيه]^(٢) أيضا.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى نحو البيت.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أى: نحوه. وفى الخبر أن النبى ﷺ قال: «هذه القبلة وأشار إلى البيت»^(٣).

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعنى التحويل إلى الكعبة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: أول ما نسخ بعدما قدم المدينة هو القبلة.

(١) لم أقف عليه بهذا السياق من حديث جابر ولا غيره، وقد صح عن النبى ﷺ أحاديث فى حبه أن يستقبل الكعبة وفى سبب نزول قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى...﴾ منها حديث البراء الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠/٨ رقم ٤٤٨٦)، والله أعلم.

(٢) فى «الأصل، وك»: ترضاه.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عباس. فرواه البخارى (١/٥٩٧ رقم ٣٩٨)، ومسلم (٩/١٢٥ - ١٢٦ رقم

فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا

وقيل: أول صلاة صليت إلى الكعبة كانت صلاة العصر. وروى «أنها حولت إلى الكعبة وكانوا في الصلاة. والصحيح: أن التحويل كان خارج الصلاة. وإنما كان ذلك في حق أهل قباء؛ فإنهم شرعوا في صلاة العصر، وكانت صلاة العصر نحو بيت المقدس، فأتاهم آتٍ وقال: «أشهد أنني صليت هذه الصلاة مع رسول الله ﷺ إلى الكعبة؛ فاستداروا إلى الكعبة وبنوا على صلاتهم»^(١).

قوله - تعالى - : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ معناه: لو أتيتهم بكل معجزة ما تبعوك في الكعبة. ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ يعني: قبلة اليهود والنصارى ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ يعني: اليهود والنصارى، وذلك أن قبلة اليهود بيت المقدس وهو المغرب، وقبلة النصارى المشرق، وأما قبلة المسلمين هي الكعبة.

وقد روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»^(٢) قال ابن عمر: يعني لأهل المشرق. وصورته أن يجعل مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة على يساره. ومغرب الصيف في أطول يوم من السنة عن يمينه، فيكون وجهه إلى الكعبة وذلك بأن يتوجه إلى مسقط قلب العقرب حين يسقط. فهذا معنى قوله: «ما بين المشرق والمغرب قبله...».

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ وإن كان الخطاب مع الرسول، ولكن المراد به الأمة كما سبق.

(١) تقدم في حديث البراء عند البخاري.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٠٥/١-٢٠٦)، والبيهقي من طريق الحاكم (٩/٢) وقال الحاكم: صحيح، وقد أوقفه جماعة عن عبد الله بن عمر، وقال الذهبي: وصححه أبو حاتم موقوفاً على عبد الله، والله أعلم. قلت: وفي العلل لابن أبي حاتم (١٨٤/١) أن أبا زرعة قال في الرواية المرفوعة لابن عمر: هذا وهم، الحديث حديث ابن عمر موقوف.

قلت: وفي الباب عن أبي هريرة مرفوعاً، أخرجه الترمذي في سننه (١٧٣/٢ رقم ٣٤٤)، وابن ماجه (٣٢٣/١ رقم ١٠١١) وقال الترمذي: حسن صحيح.

قَبْلَتِكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعِ قَبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةٍ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمَنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنَ

﴿من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾ معلوم التفسير.

قوله - تعالى - : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ قيل : أراد به القبلة . وقيل : أراد به محمدا ﷺ .

وروى أن عبد الله بن سلام قال : معرفتى بهذا النبی أشد من معرفتى بابنى . قال له عمر : وكيف ذاك ؟ قال : لأنى لا أعرف ما أحدثت النساء ، وأعرف أنه نبى حق . فقال عمر : لله درك .

﴿وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ أى : الشاكين .

قوله - تعالى - : ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ قال مجاهد : هو موليها وجهة . يعنى : القبلة . وقال أبو حاتم ، عن الأخفش معناه : الله موليها .

فقوله : «هو» كناية عن الله - تعالى - يعنى : الله مولى الأمم إلى قبلتهم . وقرأ ابن عامر : «هو مولاها»^(١) أى : المستقبل مصروف إليها .

﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أى : بادروا ، والمراد ها هنا : المبادرة إلى القبول من الله ﴿أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ إن الله على كل شىء قدير .

قوله - تعالى - : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أى : نحوه .

﴿وإنه للحق من ربك﴾ ذكره تأكيداً للأول ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ .

رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

قوله تعالى: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴿يعني: اليهود؛ وذلك أنهم قالوا: إن محمدا اتبع قبلتنا، فسيعود إلى ملتنا.﴾
﴿إلا الذين ظلموا﴾ وهم المشركون. وقيل: «إلا» بمعنى «ولا» الذين ظلموا. ومثله: قول الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر وأبيك إلا الفرقدان

يعنى: ولا الفرقدان.

والصحيح: أنه استثناء منقطع، «وإلا» بمعنى «لكن» الذين ظلموا يخاصمونكم ويحاجونكم بالحجة الباطلة، وذلك أن المشركين قالوا - حين تحولت القبلة إلى الكعبة - : إنه رجع إلى قبلتنا فسيعود إلى ملتنا، والحجة الباطلة قد تسمى حجة، كما قال الله - تعالى - : ﴿حجبتهم داخضة﴾^(١) فكأنه أبطل حجة اليهود بالتحويل إلى الكعبة: ثم أبطل حجة المشركين بدليل سواه.

﴿إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ قال سعيد بن جبیر: لا تتم نعمته على المسلم إلا بأن يدخله الجنة.
وفى الخبر: «أن النبي ﷺ سمع رجلا يقول الحمد لله على الإسلام، فقال ﷺ: لقد حمدت الله على نعمة عظيمة»^(٢).

قوله - تعالى - : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ فإن قال قائل: الكاف للتشبيه فأين المشبه به؟ قلنا: قال - على رضى الله - : عنه تقديره: فاذكره لى، كما

(١) الشورى: ١٦.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا فى الشكر (ص ٦٨ رقم ٩) عن الحسن مرسلًا.

تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا

أرسلنا فيكم رسولا فيكون الذكر على هذا القول بمعنى الشكر.

وقيل: تقديره: ولآتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولا منكم، وذلك أن إبراهيم - صلوات الله عليه - كان قد دعا دعوتين: دعا أن يبعث فيهم رسولا منهم، ودعا إتمام النعمة على ذريته بالرزق من الثمرات، فأجاب إحدى الدعوتين بأن بعث فيهم رسولا، ثم أجاب الدعوة الثانية فقال: ولآتم نعمتي عليكم، كما أرسلنا فيكم رسولا منكم.

﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ يعني: القرآن ﴿ويزكيكم﴾ كما بينا ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ وقد ذكرنا. وقيل: الحكمة السنة، وقيل: مواظب القرآن. ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم﴾ قيل: ذكر الله ها هنا بمعنى المدح والثناء عليه.

وفى الخبر عن النبي ﷺ «أن الله - تعالى - يقول: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلى ذراعا، تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه مسلم في الصحيح (١).

وقيل: معناه: فاذكروني كما أرسلنا، وهذا قريب من قول على.

وقيل: الذكر من العبد الطاعة، ومن الله المغفرة والرحمة. ومعناه: فاذكروني بالطاعة أذكركم بالمغفرة والرحمة.

﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ يعني واشكروا لي بالطاعة ولا تكفروني بالمعصية. فإن من أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره.

(١) هو في الصحيح (١٧/٣ رقم ٢٦٧٥) عن أبي هريرة مرفوعاً.

فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

وحكى أن موسى - صلوات الله عليه - سأل ربه فقال: ما الشكر الذى ينبغى لك؟ فقال أن لا يزال لسانك رطبا بذكرى.

قوله - تعالى - : ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ فالاستعانة: طلب المعونة. وفى الصبر قولان: أحدهما: الثبات على الدين، والآخر: الصوم. ووجه الاستعانة بهما ما سبق.

﴿إن الله مع الصابرين﴾ قال عطاء، عن ابن عباس: بالحفظ والنصر.

قوله - تعالى - : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات﴾ نزلت الآية فى قوم معينين، استشهدوا يوم بدر، وكان يقول المسلمون: مات فلان، فلم يَرْضَ الله - تعالى - ذلك منهم، وأنزل الله هذه الآية.

﴿بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ أى: شهداء؛ لأن الشهيد حى.

وقيل: معناه ما ورد فى الخبر: «أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تعلف من ثمار الجنة - أى تأكل - وتأتوى إلى قناديل معلقة تحت العرش». (١) فذلك قوله: ﴿بل أحياء عند ربهم﴾ (٢).

وقيل: معناه أحياء بالثواب والثناء الحسن، وليسوا بأموات بالذكر السيء وعدم الثواب.

قوله - تعالى - : ﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف﴾ واللام فيه لجواب القسم. وتقديره: والله لنبلونكم. وحكمة الابتلاء لإظهار المطيع من العاصى، لا ليعلم شيئا.

(١) رواه الترمذى (١٥١/٤ رقم ١٦٤١)، وابن ماجه (٤٦٦/١ رقم ١٤٤٦) وأحمد فى مسنده (٣٨٦/٦) جميعهم من حديث كعب بن مالك، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وينحوه رواه الإمام مسلم فى صحيحه (٤٦/١٣ رقم ٤٧)، والترمذى (٢١٥/٥ - ٢١٦ رقم ٣٠١١) من حديث ابن مسعود، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢) ال عمران: ١٦٩.

﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ
﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

لم يكن عالماً به، واختلفوا فيمن نزلت الآية فيه، منهم من قال : نزلت في اليهود وقيل : نزلت في المسلمين .

﴿ بشئ من الخوف ﴾ خوف العدو ﴿ والجوع ﴾ بالقحط والجذب ﴿ ونقص من الأموال ﴾ بالخسران والهلاك ﴿ والأنفس ﴾ بالمرض والشيب والموت ﴿ والثمرات ﴾ بالجوائح، وقيل : بالأولاد؛ وذلك أنهم ثمرات القلوب، وحكمة الابتلاء بهذه الأشياء : حتى إذا صبروا عليه فكل من سمع به بعدهم؛ علم أنهم إنما صبروا عليه لما عرفوا من الحق .

﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ . قال سعيد بن جبير : كلمة الإسترجاع لم تعط [لأحد] ^(١) من الأمم سوى هذه الأمة . ألا ترى أن يعقوب - صلوات الله عليه - لما ابتلي بفراق يوسف قال : ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ ^(٢) ولم يقل : إنا لله وإنا إليه راجعون؟ ومعناه : إنا لله ملئاً وعبودية، وإنا إليه راجعون في القيامة، وإنما قيد بهذا لأن الأمر في القيامة يخلص لله - تعالى - .

وروي : « أن رسول الله ﷺ طُفيء سراجُه ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . فقيل له في ذلك ، فقال : كل ما أذى المؤمن فهو مصيبة له » ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ ومعنى الصلوات هاهنا الرحمة بعد الرحمة ؛ لأن الصلاة من الله : الرحمة . ومن الملائكة : الاستغفار ، ومن الناس الدعاء . قال الشاعر :

(١) في الأصل أحد .

(٢) يوسف : ٨٤

(٣) أخرجه أبو داود في مراسيله (رقم ٤١٢) عن عمران القصير .

وروى مرسلأ أيضا عن عكرمة، أخرجه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «الفداء» كما في الدر المنثور للسيوطي (١/١٦٥) . وعزاه أيضا لابن أبي الدنيا عن عبد العزيز بن أبي داود بلاغا .

وَالشَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

صلى على يحيى وأشيعه رب كريم وشفيع مطاع
يعني: ترحم عليه .

قوله: ﴿ورحمة﴾ ذكرها تأكيداً للأول ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ قال عمر - رضي الله عنه - : نِعَمَ الْعِدْلَانِ وَنِعَمَتِ الْعِلَاوَةِ، وَالْعِدْلَانِ: الصَّلَوَاتُ وَالرَّحْمَةُ، وَالْعِلَاوَةُ: الْهَدَايَةُ.

وقد ورد في ثواب المصيبة أخبار كثيرة، منها: ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصيب العبد المؤمن بمصيبة إلا كُفِّرَ عنه، حتى الشوكة يشاكها» (١).

قوله - تعالى - : ﴿إِنْ الصِّفَا وَالْمُرُوَّةُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الصفا: جبل بأحد طرفي المسعى . والمروة: جبل بالطرف الثاني، والصفا: الحجر الصلب، والمروة: الحجر الرخو.

قوله - تعالى - : ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ فالشعائر: جمع الشعيرة، وهي: الأعلام التي على مناسك الحج. ومثله المشاعر، فالموقف شعيرة، والمطاف شعيرة، والمنحر شعيرة، والمشعر شعيرة.

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ فأصل الحج: القصد . قال الشاعر:

وأشهد من عوفٍ حلولاً كثيرةً يحجون (٢) سبَّ الزُّبْرِ قَانِ الْمَزْعَفَرَا

أى: يقصدون . وأصل العمرة: الزيارة . قال الشاعر:

وجاشت النفس لما جاء فلهم وراكب جاء من تثليثٍ معتمر (٣)

أى: زائراً وفي الحج والعمرة قصد وزيارة .

(١) متفق عليه من حديث عائشة، فرواه البخارى (١٠/١٠٧ رقم ٥٦٤٠)، ومسلم (٦/١٩٣-١٩٦ رقم ٢٥٧٢) وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما.

(٢) في «الأصل» و«ك»: «يحجون العمامة . والبيت في لسان العرب (مادة: حجج وتفسير الطبرى (٣/٢٢٨) . وزيادة «العمامة» ليست في لسان العرب، ولا تفسير الطبرى، ولعلها مقحمة .

(٣) كذا في لسان العرب (مادة: عمر)، ووقع في «الأصل، وك»: «معتمراً . على النصب .

﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا

وقوله - تعالى - : ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ قرأ ابن عباس : « فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ». وهى قراءة أنس ، وكذلك كان فى مصحف أبى بن كعب ، وابن مسعود . والقراءة المعروفة : ﴿ أن يطوف بهما ﴾ .

وقد روى عن عروة بن الزبير : أنه قال لعائشة : « أنا ^(١) لا أرى جناحا على من لا يطوف بين الصفا والمروة ، وقرأ هذه الآية .

فقال عائشة : بئسما رأيت يا ابن أختى وذكرت القصة فى سبب نزول الآية ^(٢) . والقصة فى ذلك أنه كان فى الجاهلية على الصفا والمروة صنمان : إساف ونائلة ، وكان إساف على الصفا ، ونائلة على المروة ، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيما للصنمين ، فلما فتح النبى ﷺ مكة ، وكسر الأصنام . وكان المسلمون يتخرجون عن السعى بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين كانا عليهم ؛ فنزلت الآية فى رفع ذلك الحرج .

ثم وجوب السعى بالخبر ؛ وهو قوله ﷺ : « إن الله - تعالى - كتب عليكم السعى فاسعوا » ^(٣) .

(١) فى «ك» : إبنى .

(٢) متفق عليه من حديث عائشة . أخرجه البخارى (٣/ ٥٨١ رقم ١٦٤٣) ومسلم (٩/ ٢٩-٣٤ رقم ١٢٧٧) .

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٢١، ٤٢٢) ، وابن خزيمة فى صحيحه (٤/ ٢٣٢-٢٣٣) ، والدارقطنى

(٢/ ٢٥٥) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٧٠) من حديث حبيبة بنت أبى تجزأة . وقال الهيثمى فى المجمع

(٣/ ٢٠٠) : وفيه عبد الله بن المؤمل . وثقة ابن حبان وقال : يخطئ ، وضعفه غيره .

ورواه الدارقطنى (٢/ ٢٥٥) ، والبيهقى (٥/ ٩٧) عن نسوة من بنى عبد الدار أدركن رسول الله ﷺ . ونقل

الزبلى فى نصب الراية (٣/ ٥٦) تصحيح ابن عبد الهادى لإسناد هذا الحديث .

ورواه الطبرانى فى الكبير (١١/ ١٨٤ ، ١١٤٣٧) من حديث ابن عباس وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٥١) :

وفيه المفضل بن صدقة وهو متروك . ورواه الطبرانى فى الكبير (٢٤/ ٢٠٦-٢٠٧ رقم ٥٢٩) ، والبيهقى فى

سننه (٥/ ٩٨) من حديث تملك العبدية . وقال الهيثمى : وفيه المثنى بن الصباح ، وقد وثقه ابن معين فى

رواية ، وضعفه جماعة . وللحديث طرق كثيرة انظر نصب الراية (٣/ ٥٥ - ٥٧) .

أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا

فأما تلك القراءة «أن لا يطوف بهما» فهي قراءة مهجورة فلا تترك بها القراءة المعهودة.

وقيل: «لا» فيه صلة . والمراد: أن يطوف . قال الشاعر:

لا ألوم البيض ألا تسخرا لما رأين الشمط القفندرا

أى: أن تسخر.

قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قرأ حمزة: «وَمَنْ يَطَّوَّعَ» مشدد (١). ومعناه يتطوع والمعروف ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾. ثم من قال: إن السعى ليس بركن صرف قوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ إلى السعى.

ومن قال: إنه ركن صرفه إلى أصل الحج والعمرة.

ويحتمل أنه أراد التطوع بسائر الأعمال.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ والشكر من الله: أن يُعْطَى فوق ما يستحق العبد.

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَيْنَاهِ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ نزلت الآية في اليهود.

﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ قال ابن عباس: اللاعنون: هم كل الخلائق سوى الجن والإنس.

وفى الأخبار: «أن الأرض إذا أجذبت يلعن كل شيء عَصَاةَ بَنِي آدَمَ؛ حتى الخنافس يقولون: اللهم العن عَصَاةَ بَنِي آدَمَ؛ فَإِنَّا حَرُمْنَا الرِّزْقَ بِشُؤْمِ مَعَاصِيهِمْ» (٢).

وقال قتادة: اللاعنون: هم الملائكة والمؤمنون. وقيل: هم الجن والإنس.

(١) قرأ حمزة، والكسائي، وخلف «يَطَّوَّعَ» بالياء المفتوحة، وتشديد الطاء، وإسكان العين على الاستقبال.

وقرأ الباقر بالتاء، وتخفيف الطاء وفتح العين على المضى. انظر النشر (٢/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٣)، وعبد بن حميد، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب عن مجاهد قوله.

وأخرجه ابن جرير (٢/ ٣٣)، وعبد بن حميد عن عكرمة قوله، وانظر الدر (١/ ١٧٠).

التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - : ما تلاعن اثنان ولم يكونا مستحقين إلا رجعت اللعنة على اليهود.

قوله - تعالى - : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أى : أسلموا ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أى : داموا على التوبة ﴿وَبَيْنُوا﴾ ما كتموا ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فإن قال قائل : قد قال : ﴿النَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والملعون من جملة الناس؛ فكيف يلعن نفسه؟ قيل : يلعن نفسه فى القيامة . قال الله - تعالى - : ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ (١) .

وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعنى فى اللعنة، ويحتمل فى النار وإن لم تكن مذكورة فى الآية ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ معلوم التفسير .

قوله - تعالى - : ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وسبب نزول [هذه] (٢) الآية ما روى أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك، أوصف لنا ربك؛ فنزل قوله - تعالى - ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وسورة الإخلاص .

قال الأزهرى : الواحد : الذى لانظير له، يقال : فلان واحد العالم أى : لانظير له فى العالم . وحقيقة الواحد : هو المنفرد الذى لانظير له ولا شريك . ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ روى شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد النهشلية (٣) عن النبى ﷺ أنه قال : «اسم الله الأعظم فى آيتين من سورة البقرة : آية الكرسي، وهذه الآية ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾» (٤) .

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ روى أنه لما نزل قوله :

(١) العنكبوت : ٢٥ .

(٢) من «ك» .

(٣) كذا فى «الأصل»، «ك» . والصواب الأشهلية كما جاء فى ترجمتها فى كثير من المواضع، وهى أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن عبد الأشهل الأنصارية . انظر تهذيب الكمال (١٢٨/٣٥) .

(٤) رواه أبو داود (٨٠/٢ رقم ١٤٩٦)، والترمذى (٤٨٣/٥ رقم ٣٤٧٨)، وابن ماجه (١٢٦٧/٢ رقم ٣٨٥٥) وأحمد (٤٦١/٦)، وابن أبى شيبة (٢٧٢/١٠ رقم ٩٤١٢)، والدارمى (٥٤٢/٢ رقم ٣٣٨٩) والطبرانى فى الكبير (١٧٤/٢٤ - ١٧٥ رقم ٤٤٠، ٤٤١)

يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ قال المشركون لرسول الله ﷺ : ما الدليل على أنه واحد؛ فنزل
قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والخلق: هو ابتداء الشيء وتقديره، ومنه
قول الشاعر:

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفرى

أى: يقطع ما قدرت.

والسموات: جمع سماء، وهى سبع سموات، وكذلك الأرضون سبع، على
الصحيح.

وإنما ذكر السموات بلفظ الجمع، والأرض بلفظ الواحد؛ لأن كل سماء من جنس
آخر. والأرضون كلها من جنس واحد. وهو التراب، والآية فى السموات: سمكها
[وسعته] (١) وارتفاعها من غير عمد ولا عُلَاقَة، وما ترى فيها من الشمس والقمر
والنجوم.

والآية فى الأرض: مداها وبسطها وسعتها وما يرى فيها من الأشجار والأنهار والجبال
 والبحار والجواهر والنبات.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وذلك [ذهابهما ومجيئهم] (٢) ومنه
قولهم: فلان يختلف إلى فلان. أى: يذهب ويجىء مرة بعد أخرى. ومثله قوله -
تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ (٣) أى: يخلف أحدهما الآخر،
والآية فى الليل والنهار نقصانهما وزيادتهما وأن يذهب ضوء النهار فلا يدرى أين
ذهب، ويذهب سواد الليل فلا يدرى أين ذهب.

(١) فى «الأصل، وك»: شعلها.

(٢) فى «الأصل، وك»: ذهابها ومجيئها.

(٣) الفرقان: ٦٢.

النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ

وقوله - تعالى - : ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ والفلك : اسم للجمع والواحدان فإذا أريد به الجمع يؤنث، وإذا أريد به الواحد يذكر، وقد ورد بالصيغتين في القرآن، والمراد ها هنا الجمع .

والآية في الفلك تسخير [وجريها] (١) على وجه الماء . وهي موفرة مثقلة لا ترسب تحت الماء بل تعلو على وجه الماء .

قوله - تعالى - : ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ قيل : إن الله - تعالى - يخلق الماء في السحاب، فعلى هذا؛ السماء ها هنا بمعنى السحاب . وقيل : بل يخلق الماء في السماء، ومن السماء ينزل إلى السحاب ثم من السحاب ينزل إلى الأرض .

وقوله - تعالى - : ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى : بعد يبسها وجدوبتها . فإن الأرض إذا أجذبت فقد ماتت . وإذا أخضبت فقد حيت .

وقوله - تعالى - : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أى : فرق فيها . وقوله : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ قيل : تصريفها : أن الريح تارة تكون شمالا وتارة تكون جنوبا، وتارة تكون قبولا، وتارة تكون دبوراً، وتارة نكباء، والنكباء : فهي التي لاتعرف لها جهة . وقيل : تصريفها : أن الريح تارة تكون لنا، وتارة عاصفا، وتارة حارة، وتارة باردة .

قال ابن عباس : أعظم جنود الله الريح والماء .

وقال ابن المبارك : للريح جناحان، والسحاب : غلاف مملوء من الماء .

وفى مصحف حفصة : (وتصريف الأرواح) وهو قريب من الرياح . وسميت الريح ريحا؛ لأنها تريح النفس .

قال شريح القاضي : ما هبت ريح إلا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح .

وقوله - تعالى - : ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ أى : المذلّل ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

(١) ليست فى الاصل، ولا «ك»، وما أثبتناه من تفسير البغوى (١/١٣٥) فإن البغوى ينقل عن المصنف .

يَعْقُلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ

قال وهب بن منبه: ثلاثة لا يدري من أين تجيء: الرعد، والبرق، والسحاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ كأنه عاب المشركين حيث اتخذوا من دونه أندادا بعدما أظهر الدلائل، ونصب البراهين، على الوحداية ﴿أندادا﴾ أى: أصناما.

قوله - تعالى - : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال أبو العباس المبرد النحوى: معنى قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أى: يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله. وقيل معناه: يحبون الأصنام كما يحبون الله؛ لأنهم أشركوها مع الله. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأنهم لا يختارون على الله ما سوى الله. والمشركون إذا اتخذوا صنما ثم رأوا أحسن منه، طرحوا الأول واختاروا الثانى. وقوله - تعالى - : ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ قرئ هذا بقراءتين. «ولو يرى» بالياء. «ولو ترى» بالتاء^(١).

والمعنى: اعلم أولاً أن جواب «لو» ها هنا محذوف، ومثله كثير فى القرآن.

قال الله - تعالى - : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾^(٢) وقال: ﴿وَلَوْ أَن قَرَأْنَا سِيرَتَ بِهِ الْجِبَالِ أَوْ قَطَعْتَ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾^(٣) ثم حذف الجواب اختصارا لسبقه إلى الإفهام.

(١) قرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب بالخطاب: «ولو ترى، وقرأ الباقر بالغيب» «ولو يرى» واختلف على أبي جعفر فروى

ابن شبيب عن الفضل من طريقه النهراوانى عنه بالخطاب.

انظر النشر (٢/٢٢٤). وتفسير البغوى (١/١٣٧).

(٢) سبأ: ٣١.

(٣) الرعد: ٣١.

جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا

ثم من قرأ «ولو يرى» بالياء، فتقديره : ولو يرى الذين ظلموا شدة عذاب الله وعقوبته - حين يرون العذاب - لعرفوا أن ما اتخذوا من الأصنام لا يضرهم ولا ينفعهم.

ومن قرأ «ولو ترى» بالتاء ففي معناه قولان : أحدهما : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في شدة العذاب - حين رأوا العذاب - لرأيت أمرا عجيبا .

والثاني : معناه : قل يا محمد : أيها الظالم، ولو ترى الذين ظلموا في شدة العذاب لتعجبت منه ولرأيت أمرا فظيعا .

وقوله - تعالى - : ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ قوله : «أن القوة» يقرأ بكسر الألف، وفتحها^(١)، فمن قرأ بالكسر، كان على الابتداء بعد تمام الأول، ومن قرأ بالفتح كان تمام الأول، ومعناه : لأن القوة لله .

قوله - تعالى - : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ هذا في القيامة، حين يجمع الله القادة وأتباعهم، يبرأ بعضهم من بعض .

﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ﴾^(٢) الأسباب ﴿أَيَّ : الْوَصَلَاتِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْقَرَابَاتِ﴾^(٣) والصدقات .

قال مجاهد : يعنى الوصل وهو قريب من الأول .

وقيل الأسباب : الأعمال . وقد ترد بمعنى : أبواب السموات والأرض .

(١) قرأ يعقوب وأبو جعفر بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها . انظر النشر (٢/ ٢٢٤)، وتفسير البغوى (١٣٧/١) .

(٢) فى الأصل : «به»، وهو سبق قلم .

(٣) فى الأصل، وك : «القربات»، وما أثبتناه هو الصواب انظر البغوى (١/ ١٣٧) .

الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

وذلك فى قوله - تعالى - : ﴿لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات﴾ (١) أى :
أبوابها . قال الشاعر :

ومن هاب أسباب المنايا [يتلقها] (٢) وإن رام أسباب السماء بسلم

وأصل السبب : ما يوصل . ومنه يقال : للحبل سبب ، وقوله - تعالى - :
﴿وتقطعت بهم﴾ أى : عنهم ، ومثله قوله - تعالى - : ﴿فاسأل به خبيراً﴾ (٣) أى :
عنه خبيراً .

وقوله - تعالى - : ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة﴾ أى : رجعة إلى الدنيا .
﴿فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم
بخارجين من النار﴾ .

وفيه قولان : أحدهما : أنه يريهم ما ارتكبوا من السيئات ؛ فتلك الحسرات .
والثانى : أنه يريهم ما تركوا من الخيرات والحسنات ؛ ليكون عليهم حسرات .

(١) غافر : ٣٦ - ٣٧ .

(٢) فى «الأصل» : يتلقه ، وفى «ك» ثلثه . وكلاهما خطأ انظر لسان العرب (مادة : سبب) . وفيه : (ولو رام) . بدلا
من : (وإن رام) .

(٣) الفرقان : ٥٩ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ

قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ حكى عن أبي محمد
سفيان بن عيينة الهلالى أنه سئل عن أكل الطين فقال : لا تأكل لأن الله - تعالى
قال : ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يقل : كُلُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فالحلال : كل
ما أحله الشرع .

وفى الطيب قولان :

أحدهما : كل ما يستطاب ويستلذ فهو طيب . والمسلم يستطيب الحلال وَيَعَافُ
الحرام .

وقيل : الطيب : الطاهر .

وقوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها قال مجاهد : هى خطايا الشيطان . وقال أبو مجلز لاحق بن حميد
السدوسى : هى النذور فى المعاصى . والقول الثالث : هى كل أعمال الشيطان .
واشتقاقها من الخطوة ؛ لأنَّ لِلْخُطَا آثاراً تبقى ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر المعنى .

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ فالسوء : المعصية .

والفحشاء فيه قولان : أحدهما : أنه أراد به الزنا . وقيل : البخل ، ومنه قول الشاعر :

عقيلة مال الفاحش المتشدد

أى : البخيل المتشدد

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ أى : وجدنا .

﴿عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ معناه : كيف يتبعون

آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

آباءهم وآباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟! وفي هذا نهى عن تقليد الآباء في الدين.
قوله - تعالى - : ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء﴾
النعق: صوت الراعى بالغنم قال الأخطل.

فانعق بضأنك يا جرير فإنما مَتَّكَ نَفْسَكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا

وفى الآية محذوف مقدره. وتقديرها: مثل الكفار ومثلك يا محمد فى دعائهم
كمثل الراعى ينعق بالغنم وهى لاتسمع إلا صوتا ولاتفهم إلا دعاء.
﴿ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾ وقيل: معناه: مثل الكفار فى دعاء
الأصنام.

على هذا القول إشكال لأن؛ الأصنام لا يسمعون النداء ولا الدعاء. وكيف يكون
مثلا أن يسمع ذلك كمثال الذى ينعق بما لا يسمع كما بينا؟
قال ابن الأنبارى: أراد بالذى ينعق: الصائح فى الجبل يصيح فيسمع صوتا؛ وهو
الصدى. وليس هناك معقول ولا مفهوم. وضرب المثل به للكفار فى قلة الفهم
والعقل.

قوله - تعالى - : ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ وفى الخبر
عن النبى ﷺ أنه قال: «أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسل
كلوا من الطيبات﴾^(١) وقال للمؤمنين ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما
رزقناكم واشكروا لله﴾^(٢) وقد ذكرنا معنى الطيبات.

(١) المؤمنون: ٥١.

(٢) رواه مسلم (١٣٩/٧ - ١٤٠ رقم ١٠١٥)، والترمذى (٢٠٥/٥ رقم ٢٩٨٩) وقال: حسن غريب، وأحمد
(٣٢٨/٢).

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا

﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ يعنى: أنكم كما تعبدونه على الإلهية، فاشكروه على الإحسان. قوله - تعالى - : ﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾ «إنما» للنفي والإثبات؛ لأنها مركبة من حرفى النفي والإثبات «فإن» للإثبات «وما» للنفي.

تقول: إن فى الدار زيدا. يفهم منه وجود زيد فى الدار. فإذا قلت: «إنما زيد فى الدار» يفهم منه أنه لا أحد فى الدار إلا زيد.

وأما الميتة: إسم لما خرج روحه من غير ذكاة ﴿والدم﴾ معروف وفيهما تخصيص؛ فإن الشرع أباح من الميتة: السمك والجراد، ومن الدماء: الكبد والطحال.

وقوله - تعالى - : ﴿ولحم الخنزير﴾ أى: الخنزير بلحمه وشحمه وجميع أجزائه.

﴿وما أهل به لغير الله﴾ أى: ذبح على اسم الأصنام، وأصل الإهلال: رفع الصوت، وكانوا يرفعون أصواتهم على الذبائح، قال ابن أحمر:

يهل بالفرقد ركبائها كما يهل الراكب المعتمر

قوله - تعالى - : ﴿فمن اضطر﴾ يقرأ بقراءتين: بكسر النون، ورفعها، ^(١) فمن قرأ بالكسر فهو على الأصل ومن قرأ بالضم فلا تباع ضمة الطاء، والاضطرار إلى أكل الميتة ﴿غير باغ ولا عاد﴾ قال ابن عباس ومجاهد: غير باغ أى: غير خارج على السلطان. ﴿ولا عاد﴾ ولا متدد، عاص فى سفره. ففى هذا دليل على أن العاصى فى سفره لا يترخص بأكل الميتة.

وقال الحسن وقتادة ﴿غير باغ﴾ أى: غير طالب للميتة على الشبع؛ فياكله تلذذاً. ﴿ولا عاد﴾ ولا مجاوزاً يأكله حد الحاجة.

﴿فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ ظاهر المعنى.

(١) قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وأبو عمرو بكسر النون، وقرأ الباقون بضمها. انظر النشر (٢/٢٢٥) وتفسير

عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قد سبق تفسيره.

وقوله - تعالى - : ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الذين أكلوا من الرشوة فالماكلة تصير في بطونهم نارا.

وقيل: معناه أن ذلك الأكل لما كان يفضى بهم إلى النار؛ فكأنهم يأكلون في بطونهم نارا.

ومثله قول الشاعر:

وأم سليم فلا تجزعن فللموت ما تلد الوالدة

وقال آخر:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى الفوات

ومعلوم أن الولد لا يولد للموت، ولكن لما كان يؤول إلى الموت لا محالة أضافه إليه.

وقوله - تعالى - : ﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه لا يكلمهم^(١) ولكن يكلمهم بالتهديد والتوبيخ.

وقيل: في معناه: أنه غضبان عليهم؛ كما يقل: فلان لا يكلم فلانا؛ إذا كان عليه غضبان.

(١) في تفسير البغوى (١/١٤١): أنه لا يكلمهم بالرحمة وبما يسرهم، ولكن يكلمهم بالتهديد والتوبيخ. ولعله سقط من النسخ: «بالرحمة وبما يسرهم» أو ما يشبه ذلك.

اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

﴿ولا يزكيهم﴾ أى: لا يطهرهم من الذنوب ﴿ولهم عذاب أليم﴾. قوله - تعالى - : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾ قال ابن عباس: معناه: أى شئ صبرهم على النار؟!

وقال الكسائى والفراء: معناه: فما أجراًهم على النار، وحكى الكسائى: أن أعرابيين اختصما إلى قاض، فحلف المنكر، فقال له المدعى: ما أصبرك على النار، أى: ما أجراك على النار.

وقال بعض النحويين: معناه: فما أبقاهم فى النار، يقال: فلان ما أصبره على الحبس، أى: ما أبقاه فى الحبس، «وما» للتعجب ها هنا.

قال الكسائى: التعجب من الله بمعنى: التعجب للخلق ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ وهم منكرون لذلك.

﴿وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أى: خلاف طويل.

وإنما سمي الخلاف: شقاقاً؛ لأن المخالف يكون فى شق، وصاحبه فى شق آخر.

قوله - تعالى - : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ فالبر: كل عمل خير، يفضى بصاحبه إلى الجنة.

وفى معناه قولان: أحدهما: أن الخطاب مع المسلمين، فإنهم كانوا فى الابتداء يأتون بالشهادتين، والصلوات إلى أى جهة شاءوا.

فقال: ليس كل البر أن تُصلُّوا قبل المشرق والمغرب ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ فأمرهم بسائر الشرائع المذكورة فى الآية.

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

وقيل : هو خطاب لليهود والنصارى إذ كان قبلة اليهود المغرب، وقبله النصارى المشرق .

فقال : ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق أيها النصارى، وقبل المغرب أيها اليهود، ولكن البر من آمن بالله .

وفى تقديره قولان : أحدهما : أن تقديره ولكن ذا البر من آمن بالله، والثانى : أن تقديره : ولكن البر من آمن بالله ﴿ واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ﴾ أى : حب المال .

قال ابن مسعود : هو أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء، وتخشى الفقر ﴿ ذوى القربى ﴾ أهل القربات . ﴿ والیتامى والمساكين ﴾ قد ذكرناهم .

﴿ وابن السبیل ﴾ هو المنقطع . وقيل : أراد به الضيف ﴿ والسائلین ﴾ معلوم ﴿ وفى الرقاب ﴾ يعنى : المكاتبین .

﴿ وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ فإن قال قائل : لم قال : «الموفون» على الرفع؟ قيل : فيه قولان . أحدهما : أنه معطوف على خبر لكن، وتقديره : ولكن ذا البر المؤمنون بالله والموفون .

وقيل تقديره : وهم الموفون كأنه عد أصنافا، ثم قال : هم والموفون كذا وكذا .

وفيه قول ثالث : أن الكلام إذا طال فالعرب قد تخالف فى الإعراب .

﴿ والصابرین ﴾ نصب على المدح . وقيل تقديره : أعنى الصابرين . قال الشاعر :

لا يبعدن قومی الذین همُ سم العداة وآفة الجزر

النازلین بكل معترك والطیبین معاقد الأزر

وقوله - تعالى - : ﴿ فى البأساء ﴾ هو الجوع ﴿ والضراء ﴾ المرض والضرر .

عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ

﴿وحين البأس﴾ وحين القتال ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ وفؤوا بالعهد، وقيل: صَدَقَتْ أفعالهم أقوالهم ﴿وأولئك هم المتقون﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ أى: فرض عليكم. ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ قال ابن عباس: كان هذا في ابتداء الإسلام، وكان القصاص بين الحر والحر، والعبد مع العبد، والأنثى مع الأنثى، وما كان يقتل الحر بالعبد، ولا العبد بالحر، ولا الذكر بالأنثى، ولا الأنثى بالذكر: ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾^(١) فجرى القصاص بين الكل.

وأما على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقد قال فى الحر إذا قتل عبدا: يقتل الحرُّ به، ثم سيد العبد يغرم لولى القاتل الحر، ما بين ديتة وقيمة العبد، وإذا قتل العبد حرا، يقتل العبد به، ثم يغرم سيد العبد القاتل لولى الحر المقتول ما بين ديتة وقيمة العبد.

وفيه قول آخر محكى عن ابن عباس: أن الآية نزلت فى قبيلتين، كان لأحديهما على الأخرى فضل. فقالت القبيلة الفاضلة: يقتل الحر منكم بالعبد منا، والذكر منكم بالأنثى منا؛ فنزلت الآية ردًّا لقولهم.

وقوله - تعالى - : ﴿فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ وأصل العفو: الترك. وأظهر الأقوال فيه: مذهب عامة الصحابة والتابعين؛ أن من عفا عن القصاص فله أخذ الدية، فهذا يتَّبَع بالمعروف، يعنى: لا يطلب المزيد على قدر حقه. ويؤدَّى ذلك بالإحسان، أى: لا يماطل فى الأداء.

إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ

قال الأزهرى: فى الآية تقدير : ومعناه : فمن جعل له من مال أخيه - يعنى القاتل - أو فمن جعل له من بدل دم أخيه - يعنى المقتول - عفو أى : فضل ، فليتبع الطالب بالمعروف ، وليؤد المطلوب بالإحسان .

وظاهره يقتضى أن أخوة الدين لاتنقطع بين القاتل والمقتول ، حيث قال : من أخيه ، وهو الذى نقول به . وقيل : معناه أخوة النسب .

وقيل : إنما سماه أخا حال إنزال الآية ، وحال نزول الآية كان أخا له قبل حصول القتل ، لا أنه يبقى أخا له ، فإن القتل يقطع الموالاة بين القاتل والمقتول ، ويوجب البراءة [منه] ^(١) ؛ لفسقه وقتله .

﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ ومعناه : أن الدية كانت فى شرع النصارى حتما ، والقصاص فى شرع اليهود حتما ، وخيرت هذه الأمة بين القصاص والدية ، [فذلك] ^(٢) التخفيف .

﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ أى : قتل بعد العفو . ﴿ فله عذاب أليم ﴾ أى : القصاص .

قال ابن جريج : إن القصاص حتم عليه ، بحيث لايقبل العفو .

قوله - تعالى - : ﴿ ولکم فی القصاص حياة یا أولی الألباب ﴾ ومعنى الحياة : أنه إذا فكر أنه لو قتل قتل ، لم يقتل ؛ فيبقى والمقتول حيین . ﴿ لعلکم تتقون ﴾ ترتدعون عن القتل .

قوله - تعالى - : ﴿ كتب علیکم ﴾ أى : فرض علیکم ﴿ إذا حضر أحدکم

(١) فى « الأصل » : عنه .

(٢) فى « الأصل ، وك » : فکذلك .

إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ

الموت ﴿١﴾ إذا قارب أوان الموت. ﴿٢﴾ إن ترك خيرا ﴿٣﴾ أى: مالا وسعة، والخير فى كل القرآن بمعنى المال.

﴿٤﴾ الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴿٥﴾ وذلك أن الوصية كانت واجبة فى ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين، ثم صار منسوخا بآية الميراث. قال النبى ﷺ: «إن الله - تعالى - قد أعطى كل ذى حق حقه، ألا لا وصية لوارث» (١).

وقال الحسن، وطاوس، وقتادة والضحاك،: إن النسخ فى الوالدين دون الأقربين. ثم اختلفوا فيمن أوصى بثلث ماله للأجنبى، فقال بعضهم: ثلث ما أوصى به للأقربين، وثلثاه للأجنبى.

وقال بعضهم: ثلثاه للأقربين، وثلثه للأجنبى.

وقال بعضهم: كل الثلث للأقربين، ولاشئ للأجنبى، والأصح: أنه صار منسوخا فى حق الكل، وبقي الاستحباب فى حق الأقربين الذين لا يرثون. وقيل: هو فى ابتداء الإسلام كان على النذب، والمندوب فى الوصية: بما دون الثلث.

وحكى عن بعض السلف أنه قال: الخمس معروف، والرابع جهد، والثلث غاية تنفذها القضاة.

قوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَمْ قَالَ : ﴿فَمَنْ

(١) أخرجه أبو داود (١١٤/٣) رقم ٢٨٧٠، والترمذى (٤/٣٧٦-٣٧٧) رقم ٢١٢٠ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه ((٩٠٥/٢) رقم ٢٧١٣) وأحمد فى مسنده (٥/٢٦٧) من حديث أبى أمامة، وللحديث طرق كثيرة عن غير واحد من الصحابة انظر تلخيص الحبير (٣/١٩٧-١٩٩)، ونصب الراية (٤/٤٠٣-٤٠٥).

سَمِعَ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

بدله ﴿﴾ بعلامة التذكير، والمذكور مؤنث، وهى: الوصية؟ قيل معناه: فمن بدل أمر الوصية.

وقيل: معناه: فمن بدل قول الموصى؛ لأن الوصية تصدر عن قول الموصى؛ فرجع إلى المعنى دون اللفظ، وهذا مثل قوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ (١) أى: جاءه وعظ، فرجع إلى المعنى، كذا وأراد بالتبديل: تبديل الشهداء والأوصياء والأولياء.

﴿فَإِذَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يَبْدِلُونَهُ﴾ لا على الموصى. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما أوصى به الموصى ﴿عليم﴾ بتبديل المبدلين.

قوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ الخوف ها هنا بمعنى العلم.

وهو مثل قوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَاقِيَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (٢) وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ (٣). أى: علمتم، وإنما عبر بالخوف عن العلم؛ لأن الخوف طرف إلى العلم فإنه إنما يخاف الوقوع فى الشيء؛ للعلم به.

وقوله - تعالى -: ﴿مَنْ مُوسٍ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد (٤)، يقال: أَوْصَى وَوَصَّى بمعنى واحد.

وأما الجنف: الميل، والإثم: الظلم، وأنشد سيبويه:

تجانف عن جو اليمامة ناقتى وما كان قصدى أهلها لسوائكا

(١) البقرة: ٢٧٥.

(٢) البقرة: ٢٢٩.

(٣) النساء: ١٤٩.

(٤) قرأ يعقوب، وحمزة، والكسائى، وخلف، وأبو بكر، بفتح الواو وتشديد الصاد، وقرأ الباقون بالتخفيف. مع إسكان الواو.

انظر النشر (٢/ ٢٢٦)، وتفسير البغوى (١/ ١٤٨).

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ

وقال السدى: الجنف، الخطأ، والإثم: العمد.

ومعنى الآية على - قول ابن عباس ومجاهد -: أن الرجل إذا حضر وصية الموصى فراه يميل، إما بتقصير، أو بإسراف، أو وضع الوصية فى غير موضعها؛ فأرشده، ورده إلى الحق فهو مباح له، وهذا معنى قوله - تعالى - ﴿فَأُصْلِحْ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. وقيل: هذا فى الوصية للأقربين حين كانت واجبة، فإذا رآه يوصى لغير الأقربين، يرده إلى الوصية للأقربين.

وقيل: أراد به الإمام يصلح بين الموصى لهم والورثة، فيردهم إلى الحق.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أى: فلا حرج عليه ﴿إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله - تعالى - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أى: فرض عليكم الصيام.

والصيام فى اللغة: هو الإمساك. يقال: صامت الخيل: إذا أمسكت عن العلف، والسير، ومنه قول الشاعر:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلقك اللُجُما

ومنه يقال: صام النهار: إذا ارتفعت الشمس وصارت فى إبطاء السير كالواقفة؛ وذلك فى وقت الهاجرة، ومنه قول الشاعر:

فدعها وسل النفس عنك بجسرة [ذمول] ^(١) إذا صام النهار وهجرا

ومنه قوله - تعالى - ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صُومًا﴾ ^(٢) أى: صمتاً، وفى الصمت إمساك عن الكلام.

(١) فى «الأصل، وك»: ذبول بباء بدلاً من الميم.

وما أثبتناه من لسان العرب (مادة: صوم). وفيه أيضاً: وتسلّ لهم بدلاً من وسلّ النفس.

(٢) مريم: ٢٦.

خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ

وأما الصوم فى الشريعة: هو الإمساك عن الأكل، والشرب، والوطء، مع النية، فى وقت مخصوص.

﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ اختلفوا فى هذا التشبيه،

قال سعيد بن جبير: كان الصوم فى ابتداء الإسلام واجبا من العتمة إلى الليلة القابلة، وكذا كان واجبا على من قبلنا.

وقيل: أراد به: صوم رمضان كتب على المسلمين كما كتب على الذين من قبلهم، يعنى: النصارى.

قال دغفل بن حنظلة: كان الصوم واجبا على النصارى ثلاثين يوما، ثم إن ملكا منهم مرض، فقال: إن شفانى الله أزيد عشرة، فشفاه الله فزاد عشرة، ثم إن ملكا آخر منهم مرض وقال: إن شفانى الله أزيد فيه سبعة أيام، فشفاه الله فزاد سبعة. قالوا: ما هذا النقصان؟! أكملوه بخمسين. وقالوا: نصومه فى وقت لآخر ولا قر. فكانوا يصومون الخمسين فى وقت الربيع، فهذا أصل صوم الخمسين فى حق النصارى.

وقيل: أراد به: صوم ثلاثة أيام من كل شهر: كان واجبا فى ابتداء الإسلام، كما كتب على اليهود.

روى معاذ بن جبل: «أن النبى ﷺ لما هاجر إلى المدينة، رأى اليهود يصومون ثلاثة أيام من كل شهر، ويوم عاشوراء، ففرضه الله عليه كذلك» (١).

وكان يصومها سبعة وثلاثين يوما، من الربيع إلى الربيع، ثم نسخ ذلك بصوم

(١) رواه أبو داود (١٤٠/١) وقم (٧٠٥) أحمد فى مسنده (٢٤٦-٢٤٧)، والطبرى فى تفسيره (٧٦/٢)، والطبرانى فى الكبير (١٣٢/٢٠ - ١٣٤ رقم ٢٧٠) والحاكم فى مستدركه (٢٧٤/٢) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقى فى السنن الكبرى (٢٠٠/٤) جميعهم من طريق ابن أبى ليلى عن معاذ به مرفوعاً. وقال البيهقى: وهذا مرسل؛ عبد الرحمن لم يدرك معاذ بن جبل.

فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ

رمضان .

وقيل : كان يصوم الثلاث في أيام البيض .

قال ابن عباس : أول ما نسخ بعد الهجرة : أمر القبلة ، والصوم .

قوله - تعالى - : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ يعنى : بالصوم ؛ لأن الصوم وصلة إلى التقوى بما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات .

وقيل : معناه لعلكم تحتززون عن الشهوات من الأكل ، والشرب ، والوطء .

قوله - تعالى - : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ فَإِنْ قَلْنَا بِنَسْخِ الْآيَةِ فَهُوَ صَوْمٌ كَانَ وَاجِبًا ثُمَّ نَسَخَ .

وإن قلنا : الآية غير منسوخة فالمراد بقوله : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أيام رمضان ، وفيه إشارة إلى التيسير ، حيث لم يوجب صوم كل السنة ، وإنما أوجبه أياما معدودات ﴿ فَمَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ قال داود وأهل الظاهر : يجب على المسافر صوم عدة من أيام أخر وإن صام رمضان قولاً بظاهر الآية .

والجمهور على أن فيه إضمماراً وتقديره : فأفطر ، فعدة من أيام أخر .

ثم اختلفوا في حد المرض الذى يبيح الفطر ، فقال داود وأهل الظاهر : هو ما ينطلق عليه اسم المرض . وهو قول ابن سيرين من السلف . وقال الحسن : هو المرض الذى تجوز معه الصلاة قاعداً .

ومذهب الشافعى : هو المرض الذى يخاف من الصوم معه الزيادة فى المرض .

فأما حد السفر الذى يبيح الفطر اختلفوا فيه ، فقال داود ومن تابعه : هو ما ينطلق عليه اسم السفر . ومذهب الشافعى أنه مسافة القصر ، ستة عشر فرسخاً .

وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

ومذهب أبى حنيفة - رضى الله [عنه] (١) - أنه مسيرة ثلاثة أيام، كما قال فى القصر.

قوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فى الآية قراءات :
فالقراءة المعروفة : هذا .

وقرأ ابن عباس وعائشة - وهو صحيح ، عن ابن عباس - : «على الذين يُطَوَّقُونَهُ»
وقرأ مجاهد : «وعلى الذين يَطَوَّقُونَهُ» ، وهما من الشواذ .

فأما قراءة : « فدية طعام مسكين » فيه قراءتان معروفتان : أحدهما هذه ،

والثانية : قراءة أهل المدينة والشام « فدية طعام مساكين » بالألف (٢) .

وأما القراءة المعروفة ﴿وعلى الذين يُطِيقُونَهُ فدية﴾ وعلى الذين يُطِيقُونَهُ فدية ﴿ أراد به : فى ابتداء الإسلام
كانوا مخيرين بين الصوم والفدية ، فقال : وعلى الذين يطيقونه فدية ؛ إن اختاروا
الفدية .

وقيل معناه : وعلى الذين يطيقونه فى حال الشباب ، وعجزوا عنه فى الكبر الفدية
إذا أفطروا ، وهو مروى عن على ، فعلى هذا لا تكون الآية منسوخة .

فأما قراءة ابن عباس معناه : وعلى الذين يُطَوَّقُونَهُ فلا يطيقونه الفدية .

(١) فى «الأصل، وك» : عنهما .

(٢) قرأ نافع، وجعفر، وابن ذكوان : « فدية » بغير تنوين ، «طعام» بالخفض . وقرأ الباقر بالتنوين ، والرفع « فدية
طعام » .

وقرأ نافع ، وأبو جعفر وابن عامر « مساكين » بالألف على الجمع ، وقرأ الباقر « مسكين » على الأفراد . انظر
النشر (٢٢٦/٢) .

الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

وأما قراءة مجاهد يَطْوِقُونَهُ أى : يتطوقونه ويكلفونه فلا يطيقونه .

وأما قوله : ﴿ فدية طعام مساكين ﴾ إنما أضاف الفدية إلى الطعام لأن الفدية قدر من الطعام، والطعام اسم الجنس، وهو كما يقال خاتم فضة، وثوب خز، ونحو ذلك .

وأما القراءة الثانية ﴿ فدية ﴾ رفع على الابتداء ﴿ طعام مساكين ﴾ تفسير له وبديل عنه، وإنما قال : « مسكين ؛ لأن لكل يوم يُطعم مسكينا .

ومن قرأ : « مساكين » لأن جملة طعام أيام الصوم تكون لمساكين .

وقوله - تعالى - : ﴿ فمن تطوع خيرا فهو خيرا له ﴾ قال ابن عباس : أراد به : من أطعم مسكينين وعليه طعام مسكين واحد، أو أطعم صاعا وعليه مد، فهو خير له .

قوله - تعالى - : ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ إن قلنا بقول النسخ، معناه : وأن تصوموا خير لكم من الفدية .

وإن قلنا : الآية غير منسوخة فمعناه : وأن تصوموا فى حال الشباب خير لكم من الفدية فى حال الكبر والعجز .

وقيل : هذا فى حق الشيخ الهرم، أن يتكلف الصوم خير له من أن يفدى .
والصحيح : أحد القولين الأولين ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ شهر رمضان ﴾ سمي الشهر بذلك لشهرته .

وأما رمضان كان فى الجاهلية يسمى شهر رمضان ناتقا .

قال أبو على قطرب : إنما سمي : رمضان ؛ لأنهم كانوا يصومون فى الحر الشديد ، ومنه الرمضاء : للرمل الذى حمى بالشمس .

وقال مجاهد : هو اسم من أسماء الله ، ولذلك لا يجمع على رمضانات ، ويروى هذا

عن النبي ﷺ غريبا^(١)، والصحيح أنه اسم الشهر.

وقد ورد في فضل الشهر والصوم أخبار، منها ما روى مرفوعا: «سيد الشهور شهر رمضان»^(٢).

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب الرحمة، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»^(٣) أخرجه مسلم في الصحيح. وقال ﷺ: «يقول الله - تعالى - : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لى وأنا أجزي به...»^(٤) الخبر.

واختلفوا فى تخصيص الصوم، منهم من قال: لأنه أشد العبادات فى كسر

(١) رواه ابن عدى فى الكامل (٥٣/٧) من حديث أبى هريرة والبيهقى من طريقه (٢٠١/٤ - ٢٠٢)، وابن الجوزى فى الموضوعات من طريق ابن عدى (١٨٧/٢) ولفظه: «لا تقولوا: رمضان، فإن رمضان اسم الله، ولكن قولوا: شهر رمضان». وقال ابن الجوزى: هذا حديث موضوع لا أصل له، وأبو معشر اسمه نجيح، كان يحيى بن سعيد يضعفه ولا يحدث عنه، ويضحك إذا ذكره.

وقال ابن معين: إسناده ليس بشيء، ثم قال - رحمه الله - ولم يذكر أحد فى أسماء الله - تعالى - رمضان، ولا يجوز أن يسمى به إجماعا.

وأخرجه ابن أبى حاتم فى العلل (٢٤٩/١ - ٢٥٠ رقم ٧٣٤) ونقل عن أبيه أنه قال: هذا خطأ، إنما هو قول أبى هريرة.

وقال البيهقى: وقد قيل: عن أبى معشر، عن محمد بن كعب، من قوله، وهو أشبه. وفى الباب عن عائشة، وابن عمر انظر اللالىء المصنوعة (٩٧/٢ - ٩٨).

(٢) رواه البزار - مختصر زوائد البزار لابن حجر (٤٠٢/١ رقم ٦٦٣) - من حديث أبى سعيد، وقال: يزيد فيه لين، وقد روى عنه جماعة.

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (١٣٥/٤ رقم ١٨٩٩)، ومسلم (٢٦٢/٧ - ٢٦٣ رقم ١٠٧٩) واللفظ له.

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (١٤١/٤ رقم ١٩٠٤)، ومسلم (٤٢/٨ رقم ١١٥١).

الشهوات وقمع النفس . ومنهم من قال : لأنه سر بين العبد وبين ربه .

وقوله - تعالى - : ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ فإن قال قائل : إنما أنزل القرآن في ثلاث وعشرين سنة فكيف قال : أنزل فيه القرآن ؟ والجواب : قال ابن عباس : أنزل الله - تعالى - القرآن جملة في رمضان إلى بيت في السماء الدنيا يسمى بيت العزة ، ثم منه أنزل إلى الأرض إرسالا .

روى واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال : « أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة في الليلة السادسة من رمضان ، وأنزل الإنجيل في ليلة الثالث عشر من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان »^(١) .

وفيه قول ثالث معناه : أنزل فيه القرآن بفريضة صوم رمضان .

وإنما سمي القرآن قرآنا ؛ لأنه يجمع السور والآي ، والحروف ، وأصل القرآن : الجمع ، ومنه قول الشاعر :

ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنيبا

وقوله - تعالى - : ﴿هدى للناس﴾ رشاد وبيان . وقوله - تعالى - : ﴿وبينات من الهدى والفرقان﴾ أى : دلالات واضحات من الحلال والحرام ، والفرقان : المفرق بين الحق والباطل .

وقوله - تعالى - : ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : معناه فمن كان منكم مقيما في الحضر فأدرك الشهر فليصمه .

ثم اختلفت الصحابة فيمن أدرك الشهر وهو مقيم ، ثم سافر على قولين : فقال على - رضى الله عنه - : لا يجوز له أن يفطر . وأكثر الصحابة على أنه يجوز الفطر ،

(١) رواه الإمام أحمد (١٠٧/٤) ، والطبراني ، فى الكبير (٢٢/٧٥ رقم ١٨٥) ، والطبرى فى تفسيره (٨٤/٢) .

وقال الهيثمى فى المجمع (٢٠٢/١) : فيه عمران بن داود وثقه ابن حبان وضعفه يحيى ، وقال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث ، وبقية رجاله ثقات . وعزاه للطبراني فى الأوسط أيضا .

وهو الأصح؛ لما صح عن رسول الله ﷺ برواية جابر «أنه سافر في رمضان فلما بلغ كراع الغميم أفطر وأفطر الناس» (١).

وقوله - تعالى - : ﴿فليصمه﴾ أى بقدر ما أدرك وهو مقيم ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ إنما أعاد هذا ليعلم أن هذا الحكم فى الناسخ مثل ما كان فى المنسوخ.

وقوله - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ يعنى فى إباحة الفطر بالمرض والسفر، وتأخير الصوم إلى أيام أخر.

وحكى عن الشعبى أنه قال : ما خير رجل بين أمرين فاختر أيسرهما؛ إلا كان ذلك أحبهما إلى الله .

وروى محجن بن أدرع : «أن النبى ﷺ أخبر برجل كان يطيل الصلاة فى المسجد طول النهار - فجاء إليه وأخذ بمنكبيه وهزهما هزاً، ثم قال : إن الله - تعالى - رضى لهذه الأمة باليسر، وكره لهم العسر، وإن هذا الرجل رضى بالعسر ويكره اليسر». (٢)

ومشهور عن رسول الله ﷺ : «أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» (٣).

(١) رواه مسلم (٣٢٨ / ٧) رقم (١١١٤)، والترمذى (٨٩ / ٣) رقم (٧١٠)، والنسائى (١٧٧ / ٤) رقم (٢٢٦٣)، والطيالسى (ص ٢٣٢ رقم ١٦٦٧) والحميدى (١٣٥ / ٢) رقم (١٢٨٩)، والشافعى فى مسنده (١ / ٢٦٨ - ٢٦٩ رقم ٧١٢، والطحاوى فى شرح المعانى (٢ / ٦٥)، وأبو يعلى (٣ / ٤٠٠ - ٤٠١) رقم (١٨٨٠)، وابن خزيمة (٣ / ٢٥٥) رقم (٢٠١٩)، وابن حبان فى صحيحه (٦ / ٤٢٣) رقم (٢٧٠٦)، والبيهقى فى الكبرى (٤ / ٢٤١، ٢٤٦) وفى الدلائل (٥ / ٢٥) .

(٢) رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده كما فى بغية الباحث (ص ٨٨ رقم ٢٢٣) وقال البوصيرى فى مختصر اتحاف السادة المهرة (٣ / ٦٠) رقم (٢٠٠٢) - : رواه الحارث عن سعيد بن يونس ولم أقف له على ترجمة وباقى رجال الإسناد ثقات.

(٣) رواه البزار - كما فى مختصر الزوائد لابن حجر - (١ / ٤٢٠) رقم (٧٠١)، والطبرانى فى الكبير (١١ / ٣٢٣) رقم (١٨٨٠) وابن حبان فى صحيحه (٢ / ٦٩) رقم (٣٥٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٨ / ٢٧٦) عن ابن عباس مرفوعاً . وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ١٦٥) : رجال البزار ثقات، وكذلك رجال الطبرانى . وفى الباب عن ابن عمر، وأبى هريرة، وعائشة وابن مسعود وانظر تلخيص الحبير (٢ / ١٠٥ - ١٠٦) .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

﴿ولتكمّلوا العدة﴾ أى: عدة الشهر بقضاء ما أفطر فى المرض أو السفر.
﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أى: لتعظموه على ما أرشدكم إلى ما رضى به من صوم رمضان. قال ابن عباس: هو تكبيرات ليلة الفطر - وهو مروى عن ابن عمر، وعائشة - رضى الله عنهما -. وقال: حق على كل مسلم أن يكبر ليلة الفطر إلى أن يفرغ من صلاة العيد ﴿ولعلكم تشكرون﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فى سبب نزول الآية قولان: أحدهما: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية.

والثانى: أنه لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ادعوني أستجب لكم﴾^(١) قالوا: يا رسول الله كيف ندعوه ومتى ندعوه؛ فنزلت الآية.

وقول: ﴿فإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أى: لا يخفى على شىء، وهو أقرب إلى العباد من جبل الوريد، وأقرب إلى القلب من ذى القلب.

وقوله - تعالى - : ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فيه حذف. وتقديره: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِنْ شِئْتُ. وهذا مثل قوله - تعالى - : ﴿فِيكَشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾^(٢).

قال ابن الأنبارى: معناه: أسمع دعوة الداعى، تقول العرب: فلان يدعوا من لا يجيب، أى من لا يسمع، وهذا لأنه قد يدعى فلا يجيب، فدل أنه أراد بالإجابة السماع.

وقيل: هو على حقيقة الإجابة، ومعناه: أنه لا يخيب من دعاه، فإنه إن دعاه بما قدّر

(١) غافر: ٦٥.

(٢) ما بين القوسين ليس فى «ك».

(٣) الأنعام: ٤١.

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا

له أعطى، وإن دعاه بما لم يُقَدَّرْ له يدخر له الثواب فى الآخرة فلا يخيب دعاءه.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من عبد يقول [يارب]^(١) إلا قال الله - تعالى - : لبيك عبدى، فيعجل ما شاء، ويدخر ما شاء»^(٢).

قوله - تعالى - : ﴿فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى﴾ قيل : الاستجابة ها هنا بمعنى الإجابة، وعليه يدل قول الشاعر:

وداع دعايا من يجيبُ إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أى : فلم يجبه، وقال أبو عبيدة : معناه فليستدعوا منى الإجابة .

وحقيقته فليطيعوا لى . ﴿وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون﴾ ظاهر المعنى .

قوله - تعالى - : ﴿أحل لكم﴾ أى : أبيع لكم ﴿ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ .

قيل : والرفث : كل ما يريده الرجل من امرأته، وهو بمعنى الوطء ها هنا .

قال ابن عباس : إن الله حَيٌّ كريم، يكنى بالحسن عن القبيح .

﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قيل : معناه : هن سكن لكم، وأنتم سكن لهن . وقيل : لايسكن شىء إلى شىء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر .

وقيل : أراد به حقيقة اللباس، فإن أحدهما يصير لباسا لصاحبه عند المباشرة، قال

(١) ليست فى الأصل، ولا كـ .

(٢) روى والبخارى فى الأدب المفرد (١٠٩-٢١٠) وأحمد (٤٤٨/٢)، والحاكم (٤٩٧/١) وقال صحيح

الإسناد . من حديث أبى هريرة مرفوعاً : «ما من مسلم ينصب وجهه لله - عز وجل - فى مسألة إلا أعطاه إياها، إما أن يعجل له، وإما أن يدخرها له» قال المنذرى فى الترغيب (٤٧٨/٢) : رواه أحمد بإسناد لا بأس

عَنْكُمْ فَلَا أَنْ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى جيدَه تثنت فصارت عليه لباسا

قال الربيع بن أنس: معناه: هن فرش لكم، وأنت لحف لهن.

وقوله - تعالى -: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ هو افتعال: من الخيانة، أى: تخونون أنفسكم بمخالفة الأمر، وترك الوقاية.

وقوله - تعالى -: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَلَا أَنْ بَاشِرُوهُنَّ﴾ قيل: أراد به الوطء.

وقيل: مادون الوطء.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أنس بن مالك: أراد به طلب الولد.

وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس: أراد به ابتغاء ليلة القدر.

وقال قتادة - وهو أحسن الأقوال -: يعنى: وابتغوا ما كتب الله لكم من الرخصة بإباحة الأكل، والشرب، والوطء، فى اللوح المحفوظ.

وقرأ ابن عباس فى الشواذ: «وَاتَّبَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا».

وسبب نزول الآية: أن الله - تعالى - كان قد أوجب الصوم فى الابتداء من العتمة إلى الليلة القابلة، وكان كل من نام أو صلى العشاء حرم عليه الأكل، والشرب، والوطء «فروى أن رجلاً يقال له: صرمة أبو قيس ظل يعمل جميع النهار، ثم آوى إلى منزله، وطلب من امرأته طعاماً، فأبطأت، فغلبه النوم، فلما استيقظ كان قد حرم الطعام والشراب فأصبح وقد جهد جهداً شديداً، حتى خر مغشياً عليه، فأخبر به

الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ

رسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية بإباحة الأكل والشرب بالليل (١).

وسبب إباحة المباشرة: ما روى أن عمر - رضى الله عنه - قال: «يارسول الله إني أصبت امرأتى بعد ما نمت، فقال ﷺ: ما كنت جديرا بهذا يا عمر» (٢).

«وروى أن رجلا من الصحابة أخبر النبي ﷺ بمثل ذلك، فنزلت الآية بإباحة المباشرة» وذلك معنى قوله: ﴿كنتم تختانون أنفسكم﴾.

فأما قوله: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أراد بالخيط: اللون، ومعناه: بياض النهار من سواد الليل.

وقوله - تعالى -: ﴿من الفجر﴾ سبب نزوله ما روى «أنه لما نزلت هذه الآية أخذ عدى ابن حاتم عقالين، أحدهما أبيض، والآخر أسود، ووضعهما تحت وسادته فلما أصبح كان ينظر إليهما، ويتسحر، حتى يتبين الأبيض من الأسود، فأخبر به النبي ﷺ فقال: إنك لعريض الوساد» (٣).

وفى رواية: «إنك لعريض القفا، إنما هو بياض النهار من سواد الليل» (٤) وهى كلمة لهم يكنون بها عن قلة الفهم؛ فنزل قوله ﴿من الفجر﴾ والفجر فجران:

(١) قصة صرمة أبو قيس أخرجها البخارى فى صحيحه (٤/ ١٥٤ رقم ١٩١٥)، وأبو داود (٢/ ٢٩٥ رقم ٢٣١٤)، والترمذي (٥/ ١٩٤ رقم ٢٩٦٨) والنسائى (٤/ ١٤٧ رقم ٢١٦٨). من حديث البراء لن عازب. ووقع فى اسمه اختلاف كثير، وانظر الإصابة (٢/ ١٨٢ - ١٨٣).

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٩٦) وعزاه السيوطى فى الدرر (١/ ٢٠٦) لابن أبى حاتم أيضاً من حديث ابن عباس.

(٣) متفق عليه من حديث عدى بن حاتم، رواه البخارى (٤/ ١٥٧ رقم ١٩١٦)، ومسلم (٧/ ٣٨٢ رقم ١٠٩٠).

(٤) البخارى (٨/ ٣١ رقم ٤٥١٠).

وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ

أحدهما فجر مستطيل كذب السرحان، يطلع صاعدا، ثم يغيب، ويغلب الظلام، وهو الفجر الكاذب.

والثاني بعده: فجر مستطير، ينتشر في الأفق سريعا، وقيل: تختلط به الحمرة، وهو الفجر الصادق الذي يُحرم الطعام ويبيح الصيام.

وتقول العرب: الفجر (بشير) ^(١) الشمس.

ويحكى عن حذيفة بن اليمان خلافا غريبا، وهو معروف عنه، أنه قال: أراد بالفجر طلوع الشمس، وكان يبيح التسحر بعد طلوع الفجر.

وقوله - تعالى - : ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وهذا يقتضى حرمة الصوم بالليل لأنه قد جعله حدا.

وقد قال ﷺ: «من صام بالليل فقد تعب ولا أجر له» ^(٢).

وقال أيضا: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم» ^(٣).

قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ والعكوف: هو المقام في الموضع.

وقيل: نزلت الآية في قوم من المسلمين كانوا يخرجون من الاعتكاف، ويباشرون الأهل، ثم يعودون إلى المعتكف، فحرم الله - تعالى - المباشرة في الاعتكاف.

(١) في «ك»: مشى. وهو خطأ.

(٢) رواه الترمذى في العلل الكبير (٢٦٤/١) وقال: سألت البخارى عن هذا الحديث، فقال: أرى هذا الحديث مرسلا، وما أرى عبادة بن نسي سمع من أبى سعد الخير، وعزاه الحافظ في الإصابة (٨٦/٢) لابن أبى داود في الصحابة، وأبى أحمد الحاكم، والدولابى في الكنى.

(٣) متفق عليه من حديث عمر، رواه البخارى (٢٣١/٤) رقم ١٩٥٤، ومسلم (٢٩٥/٧) رقم ١١٠٠.

يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ

والاعتكاف جائز في كل المساجد، وحكى عن حذيفة بن اليمان خلافا شاذاً فيه فقال: لا يجوز الاعتكاف إلا في ثلاثة مساجد: في المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد المدينة وكان يعيب على عبد الله بن مسعود اعتكافه في غيرها من المساجد، وكان عبد الله ينكره ويرد عليه قوله، والأمة على قول عبد الله.
وقوله - تعالى -: ﴿تلك حدود الله﴾ وهى ما منع الله - تعالى - عنها من المعاصى.

وأصل الحد: المنع. ومنه الحداد للبواب؛ لأنه يمنع الناس، ومنه الحديد؛ لأنه يُحْتَمَى به للامتناع من الأعداء.

وقوله - تعالى -: ﴿فلا تقربوها﴾ أى: فلا تتركبوها.

وقوله - تعالى -: ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أى: لا تأكل بعضكم أموال بعض بالباطل. والأكل بالباطل نوعان:

أحدهما: أن يكون بطريق الغصب والنهب والظلم.

والآخر: بطريق اللهو واللعب مثل القمار والرهان وأجرة المغنى ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وتدلوها بها إلى الحكام﴾ قيل: معناه: ولا تدلوها بها إلى الحكام، أى لا ترشوهم وتصانعوهم فيحكموا لكم بالجرور.

وقيل: معناه: ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتنسبونه إلى قول الحكام وتتخذون قولهم حجة.

﴿وأنتم تعلمون﴾ خلافة، هذا دليل على من يقول بنفوذ القضاء ظاهراً وباطناً.

والإدلاء: الإلقاء يقال: أدلى دلوه، إذا أرسل، ودلّى إذا أخرج.

عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

وقوله - تعالى -: ﴿لَتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾ أى : طائفة ﴿من أموال الناس بالإِثم﴾ بالظلم ﴿وأنتم تعلمون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ وهى جمع الهلال، وهو اسم للقمر أول ما يبدو دقيقا وإنما سُمى هلالا؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته. يقال : استهل الصبى : إذا صاح بالبكاء، والعرب تسمى كل ثلاثة من الشهر باسم خاص، فتقول للثلاثة الأولى : غرر، ثم يليه، نفل، ثم يليه، تسع، ثم يليه، عشر، ثم يليه، بيض، ثم يليه، ربع، والأصح زرع، ثم يليه، ظلم، ثم يليه، حناوس، ثم يليه، وادى، ثم يليه محاق.

وسبب نزول الآية : ما روى أن معاذ بن جبل، وثعلبة بن عثمة، قالا : «يارسول الله، ما بال حال القمر يبدو دقيقا؛ ثم يمتلئ فورا ثم يعود دقيقا؛ فنزل قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾.

يعنى : فعلت ما فعلت؛ ليكون مواقيت لصومكم، وفطركم، وحجكم، وآجال ديونكم».

وقوله - تعالى -: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ قال البراء بن عازب : نزلت الآية فينا معشر الأنصار، كان الرجل منا إذا خرج إلى الحج ثم عاد، لا يدخل داره من الباب، ولكن ينقب نقبا فى مؤخر البيت، فيدخل منه، ويعد الدخول من باب البيت فجورا؛ فنزل قوله - تعالى -: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ أى : بآخرها.

﴿ولكن البر من اتقى﴾ أى : بر من اتقى ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ ردهم إلى الأبواب ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ قيل : كان فى ابتداء

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ

الإسلام، أمر الله - تعالى - نبيه بالكف عن قتال المشركين ثم (١) لما هاجر إلى المدينة أمره بقتالهم إذا قاتلوا؛ بقوله - تعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ [ثم] (١) أمره بقتالهم قاتلوا أو لم يقاتلوا.

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ أى : لا تبدءوهم بالقتال .

وقيل : ولا تعندوا أى : لا تقتلوا المعاهدين منهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ قيل : نسخت الآية الأولى بهذه كما بينا . وقيل : بل نسخت بقوله - تعالى - : ﴿ أَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ (٢) .

وقالوا : نسخت بها قريبا من سبعين آية .

﴿ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أى : وجدتموهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة؛ فقال : أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ يعنى بالفتنة : الكفر، وسبب ذلك : أن الله - تعالى - لما حرم بدايتهم بالقتال فى الشهر الحرام، بادر إلى قتالهم بعض المسلمين، فغيرهم الكفار عليه، فقال الله - تعالى - ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ يعنى : الشرك الذى أنتم عليه أشد من قتالهم الذى بدءوا به .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ كذا كان فى الابتداء حراما بدايتهم بقتال فى البلد الحرام، ثم صار منسوخا .

(١) ليست فى «الأصل، ولاك» .

(٢) التوبة : ٥ .

وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ انتهوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ

قال عطاء: لم يصير هذا منسوخا. والأصح أن الآية منسوخة.

وقوله - تعالى - : ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

﴿فَإِنْ انتهوا﴾ يعنى فَإِنْ أسلموا. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما سلف.

قوله - تعالى - : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أى : شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ

لِلَّهِ﴾ أى : قاتلوهم حتى يسلموا لله. وقيل : حتى لا تكون سجدة إلا لله.

وقوله - تعالى - : ﴿فَإِنْ انتهوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أى : فَإِنْ أسلموا فَلَا

نهب، وَلَا أَسْرَ، وَلَا قَتْلَ، إِلَّا عَلَى الَّذِينَ بقوا على الشرك.

قوله - تعالى - : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ﴾ فى معنى الآية

قولان:

أحدهما : أنه أراد به فى أمر العمرة، وذلك ما روى «أن النبی ﷺ خرج معتمرا فى

ذى القعدة، فلما بلغ الحديبية صده المشركون، فصالحهم على أن يعود فى العام

المقبل، ثم عاد معتمرا فى العام المقبل فى ذى القعدة فأقضاه الله - تعالى - ما فات

فى العام الأول بما فعله فى العام الثانى»^(١) فهذا معنى قوله : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ

الْحَرَامِ﴾ يعنى ذا القعدة. ﴿وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ﴾ يعنى : حرمة الشهر الحرام، وحرمة

البلد الحرام، وحرمة الإحرام.

والقول الثانى : أنه وارد فى أمر القتال، ومعناه فَإِنْ بدءوكم بالقتال فى الشهر

الحرام، وانتهكوا حرمة فقاتلوهم فيه ولا تبالوا بحرمة؛ فإنه قِصاص بما فعلوا.

﴿فَمَنْ اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ والاعتداء : الظلم،

(١) رواه الطبرى (١١٤/٢ - ١١٥) عن ابن عباس بنحوه، وكذا هو عنده عن مجاهد، وقتادة، وعثمان بن

مقسم، والسدى، والضحاك، والربيع.

الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ

وإنما سُمي الجزاء على الظلم: اعتداء، على ازدواج الكلام، ومثله قوله - تعالى - ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (١).

وتقول العرب: ظلمني فلان فظلمته، أى: جازيته على الظلم. ويقال: جهل فلان على فجهلت عليه، قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال آخر:

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم
ولى فرس للجهل بالجهل مسرج

﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أراد به: الإنفاق فى الجهاد، وكل خيرٍ سبيلُ الله، ولكن إذا أطلق سبيل الله، ينصرف إلى الجهاد.

﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قيل: الباء زائدة، وتقديره: ولا تلقوا أيديكم، وعبر بالأيدى عن الأنفس، كما قال الله - تعالى : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (٢) أى: بما كسبتم. وقيل الباء فى موضعها، وفيه حذف، وتقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة.

والتهلكة والهلاك: واحد. وقيل: بينهما فرق، فالتهلكة: ما يمكن الاحتراز عنه، والهلاك: ما لا يمكن الاحتراز عنه. وفى معناه قولان: أحدهما: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك الإنفاق فى سبيل الله.

والثانى: قال النعمان بن بشير، والبراء بن عازب: إن المراد به: أن يذنب الرجل

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) الشورى: ٣٠.

اللَّهُ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا
الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ

ذنبا ثم يقول: لا توبة لى، فيقنط من رحمة الله - ونعوذ بالله.

والأول أصح. لما روى عن أبى أيوب الأنصارى - رضى الله عنه - أنه قال: نزلت
الآية فينا معشر الأنصار فإن الله - تعالى - لما نصر دينه، وأعز نبيه، قلنا: لو أقمنا فى
أموالنا نصلحها، وترك الجهاد، فإنها تضيع، فنزلت الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى
التَّهْلُكَةِ﴾ يعنى: بترك الإنفاق فى الجهاد، والإقامة على الأموال، حتى روى: أنه لما
نزلت الآية مازال أبو أيوب يغزو حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية، فى بعث
بَعَثَهُ معاوية وتوفى (هنالك) ^(١) ودفن فى أصل سور قسطنطينية وهم يستسقون ^(٢)
به.

وقوله - تعالى - : ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ يعنى: بالإنفاق فى سبيل الله.

وقال عكرمة: معناه: أحسنوا الظن بالله.

وقيل معناه: أدوا فرائض الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال فضيل بن عياض: من
كانت تحت يده دجاجة فلم يحسن إليها لم يكن من المحسنين.

قوله - تعالى - : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وقرأ ابن مسعود: فى الشواذ:
«وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ» من غير قوله: «لِلَّهِ» وقرأ الشعبى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ
وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ.

واختلفوا فى معنى الإتمام، قال عمر: إتمامهما أن لا ينسخ إذ كان جائزا نسخه فى
الابتداء. وقال على، وابن مسعود: إتمامهما أن يحرم بهما من ديرة الأهل. وقيل:
إتمامهما أن يكون الزاد والنفقة من الحلال. وقال سفيان الثورى: إتمامهما أن يقصد

(١) فى «ك»: هناك

(٢) فى «ك»: يستشفون، وفى كلاهما نظرة، فالاستسقاء أو الاستشفاء بالأموات وقبورهم غير جائز، كما هو

مقرر فى علم العقيدة.

يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ

الحج ولا يقصد التجارة.

وقيل: إتمامهما أن لا يعصى الله فيه، ويأتى به على وجهه كما أمر.

ثم اعلم أن العمرة واجبة، وهو قول ابن عمر، وعند أبي حنيفة - رضى الله عنه - سنة، وهو مروى عن جابر.

والدليل على وجوبها: ظاهر الآية، وهو قوله: ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وظاهر الأمر للوجوب.

وقد ورد فى فضل الحج والعمرة أخبار، منها: ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العمرتان تكفران ما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» (١).

وقوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ قال ابن عمر: الإحصار: من العدو. (وقال ابن مسعود: الإحصار: من العدو) (٢) والمرض كلاهما معتبر. وعن ابن عباس فيه روايتان. والإحصار والحصر بمعنى واحد.

وقال الفراء: الإحصار: بالحبس، والحصر: منع العدو. والصحيح أنه من العدو دون المرض لقوله: ﴿فَإِذَا أَمَنْتُمْ﴾ والأمن: من العدو. ومن قال: بالأول قال فيه حذف، وتقديره. فإذا أمنت من العدو، وبرأتم من المرض.

وقوله - تعالى -: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ وأقل ما يجب منه: ذبح الشاة، والأعلى: نحر بدنة، والأوسط: ذبح بقرة، والهدى والتهدية والهدى بمعنى واحد؛ وهو ما يهدى إلى موضع، أو إلى شخص. قال الشاعر:

حلفت برب مكة والمصلّى وأعناق الهدى مقلدات

وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أى: حتى

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخارى (٦٩٨/٣ رقم ١٧٧٣)، ومسلم (١٦٧/٩ رقم ١٣٤٩).

(٢) سقط من «ك».

صَدَقَةٌ أَوْ نُسُكٌ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ

يذبح فى موضعه، وموضع الذبح عندنا: حيث أحصر وتحلل.

وقال أبو حنيفة: موضعه: مكة. وما قلناه أصح؛ لأن رسول الله ﷺ «لما بلغ الحديبية معتمرا، فصده المشركون، تحلل وذبح هنالك»^(١).

قوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ نزل هذا فى كعب بن عجرة. روى عبد الرحمن بن أبى ليلى. عن كعب بن عجرة أنه قال: «كنت مع رسول الله ﷺ بالحديبية، وكنت أنفخ تحت القدر والقمل يتهافت على وجهى، فقال - عليه السلام - : ما هذا؟! احلق رأسك، واذبح شاة، أو صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين»^(٢). فهذا معنى قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾
يعنى: ذبح الشاة.

وذلك المذهب عندنا، أن يذبح فى فدية الأذى: شاة، أو يصوم ثلاثة أيام، أو يتصدق بفرق من طعام، والفرق: ثلاثة أصوع، كل صاع أربعة أمداد، فيتصدق على كل مسكين بمُدَيْنٍ.

وقال عطاء: يطعم عشرة مساكين.

وقوله - تعالى - : ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ قال ابن الزبير: يختص التمتع بالمُحَصَّرِ؛ لقوله - تعالى - : ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ وعامة الصحابة على أنه جائز على العموم للكافة.

ثم مذهب المدنيين، والكوفيين: أن التمتع هو: أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج،

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رواه البخارى (٤/٦-٧ رقم ١٨٠٧)، ومسلم (٨/٢٩٢-٢٩٥ رقم ١٢٣٠).

(٢) متفق عليه من حديث كعب بن عجرة، رواه البخارى (٤/١٦ رقم ١٨١٤)، ومسلم (٨/١٦٧-١٧٢ رقم ١٢٠١).

لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ
لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

ثم يقيم بمكة، ويحج من عامه ذلك.

وسمى تمتعاً؛ لأنه يستمتع بالمحظورات إذا تحلل عن العمرة إلى أن يحرم بالحج.

وقال طائوس: لا يختص التمتع بأشهر الحج، بل إذا أحرم بالعمرة في غير أشهر الحج يكون متمتعاً.

وقوله - تعالى - : ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أى: ذبح الشاة.

وقوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ وذلك بأن يصوم يوماً قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة، ويجوز أن يصوم الثلاثة متفرقة.

وقال ابن عمر، وعائشة: يصوم ثلاثة أيام منى، وذلك أيام التشريق وهو قول الشافعى فى القديم. وقوله - تعالى - : ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قال ابن عمر: معناه إذا رجعت إلى الأهل.

والصحيح: أنه إذا أراد الرجوع عن الحج حتى لو صام السبع فى الطريق جاز ويجوز متفرقا أيضاً.

وقوله - تعالى - : ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فإن قال قائل: لا يشكل أن الثلاثة والسبع عشرة، فلم قال: تلك عشرة كاملة؟ قلنا: قيل: إنما قاله تأكيداً، ومثله قول الفرزدق^(١):

وسادسة تميل إلى شمام

ثلاث واثنتان فهن خمس

وهذا لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب، وكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان.

(١) فى «الأصل، وك» الفارق، وهو تحريف.

﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشهر هكذا وهكذا وهكذا - حبس إبهامه في الكرة الثالثة»^(١). فأشار إليهم بأصابعه ليعرفوا الحساب.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، يعنى: فصيام عشرة أيام: ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجعت، وقيل: إنما قال ذلك؛ لقطع توهم الزيادة، فإن قوله: فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعت. يوهم وخمسة إذا فعلتم كذا، ونحو ذلك، فقال: تلك عشرة ليقطع توهم الزيادة.

وقوله: ﴿كاملة﴾ أى: كاملة في الأجر. وقيل: كاملة فيما أريد به من إقامة الصوم مقام الهدى.

قوله - تعالى - : ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال بعض الصحابة: أراد بحاضري المسجد الحرام: أهل مكة، وكان ابن عباس يقول: يا أهل مكة لا تمتع لكم. إنما التمتع للغرباء.

وقيل: هم جميع أهل الحرم. وقال الشافعى: كل من كان من مكة على ما دون مسافة القصر؛ فهو من حاضري المسجد الحرام.

﴿واتقوا الله﴾ أى: فى أداء الأوامر ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ على ارتكاب المناهى.

قوله - تعالى - : ﴿الحج أشهر معلومات﴾ الأكثرون على أن المراد به: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة.

وقال مالك: كل ذى الحجة وقوله - تعالى - : ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ قال ابن عمر، وابن مسعود: أراد به: فمن فرض فيهن الحج بالتلبية. أى: فمن لبى.

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر، رواه البخارى (٤/ ١٤٣ رقم ١٩٠٨) ومسلم (٧/ ٢٦٤ - ٢٧٠ رقم

فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا

وعندنا يختص إحرام الحج بأشهر الحج، وعند أبي حنيفة يجوز في جميع السنة. وفيه خلاف الصحابة، وهو مذكور في الفقه.

وقوله - تعالى - : ﴿فَلَا رَفْثَ﴾ قيل : هو الوطء. وقيل : الرفث : الإفحاش في القول.

وقيل : هو أن يتعرض لأمر الوطء مع النساء، وذلك بأن يقول : إذا حللنا فعلنا كذا. وعن ابن عباس أنه كان محرماً فأنشد :

فَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسًا إِنْ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ نَنْكَ لَمِيسًا

فقيل له : أترفت وأنت محرم؟ فقال : الرفث : هو ما روجع به النساء، أى : يذكر في مشاهدتهن.

وقوله - تعالى - : ﴿وَلَا فَسُوقَ﴾ الفسوق : السباب. وقيل : هو كل المعاصى.

وقوله : ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال ابن مسعود : الجدل : أن يمارى الرجل صاحبه حتى يغضبه.

وقيل : أراد به ما كان عليه أهل الجاهلية من الاختلاف في أمر الحج، حتى كان بعضهم يقف بعرفة، وبعضهم بالمزدلفة، وكان يحج بعضهم في ذى القعدة، وبعضهم في ذى الحجة، وكل يقول : ما فعلته فهو صواب، فقال : ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أى : استقر أمر الحج على ما فعله الرسول، فلا خلاف فيه من بعد وذلك معنى قوله ﷺ «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته...»^(١) الحديث.

وقوله - تعالى - : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ أى : لا يخفى عليه ولا يضيعه، بل يثيب عليه.

(١) متفق عليه من حديث أبى بكرة، رواه البخارى (٨/ ١٧٥ رقم ٤٦٦٢)، ومسلم (١١/ ٢٤١ - ٢٤٧ رقم ١٦٧٩).

أُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ

وقوله - تعالى - : ﴿وتزودوا﴾ نزل فى قوم من اليمن، كانوا يخرجون إلى الحج من غير زاد ويسألون الناس الزاد، وربما يفضى الحال بهم فى السلب والنهب، فقال : ﴿وتزودوا﴾ أى : اخرجوا مع الزاد .

وقوله : ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ يعنى : من السلب والسؤال .

وقال سعيد بن جبير : تزودوا بالكعك والسويق .

وقال غيره : وتزودوا بالخشكناخ، والسويق . وقوله - تعالى - : ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ معلوم المعنى .

قوله - تعالى - : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ فى سبب نزول هذا قولان : أحدهما : ما روى عن أبى أمامة التيمى أنه قال : قلت لابن عمر : إنا نكرى فى هذا الوجه - يعنى إلى مكة - والناس يقولون : لاحق لكم، فقال ابن عمر : ألسنت تقف ؟ ألسنت تسعى ؟ ألسنت تطوف ؟ قلت : نعم . فقال : لك حج . وروى ابن عمر « أن رسول الله ﷺ سئل عن ذلك، فلم يجب بشيء حتى نزل جبريل بهذه الآية » (١) .

والثانى : قال ابن عباس : كان فى الجاهلية أسواق يقال لها عكاظ، والمجنة، وذو المجاز، وكان أهل الجاهلية يتجرون منها، فلما جاء الإسلام كان المسلمون يتخرجون عن التجارة فى تلك الأسواق، فنزل قوله : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ « يعنى : بالتجارة فى تلك الأسواق .

وقرأ ابن الزبير : فضلا من ربكم فى مواسم الحج .

وقوله - تعالى - : ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ أما عرفات : سمي بذلك ؛ لأن

(١) رواه أبو داود (١٤٢/٢) رقم (١٧٣٣)، والحاكم فى مستدركه (٤٩٩/١)، وأحمد (١٥٥/٢) وقال : صحيح الإسناد، والبيهقى فى سننه (٣٣٣/٤) .

لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

جبريل لما وقف بإبراهيم، كان يقول له: عرفت. فيقول: عرفت.

والإفاضة: الدفع بكثرة، يقال: فاض الإناء. إذا امتلأ حتى سال من الجوانب، ومنه: رجل فياض، إذا كان كثير العطاء، قال الشاعر:

وأبيض فياضٌ يده غمامة على معتقيه ما تغبُّ نوافله

وإنما قال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ لأنه يدفع بعضهم بعضاً بكثرة عند الرجوع.

وقوله - تعالى -: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ والمشعر الحرام، والمزدلفة، والجمع أسامي موضع واحد. فالمشعر: المَعْلَمُ فَإِنَّ الْمَزْدَلِفَةَ مَعْلَمٌ لِلْمَبِيتِ، والوقوف، والدعاء، والجمع بين الصلاتين. وإنما سمي: جمعا؛ لأنه يجمع هنالك بين المغرب والعشاء.

وسمى: مزدلفة، من الازدلاف وهو: الاجتماع، والمزدلفة: موضع بين جبلين، يسمى أحدهما: قرح يقف عليه الإمام، وهو من جملة الحرم ولذلك سمي المشعر الحرام.

وقوله - تعالى -: ﴿وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أى: واذكروه بالتوحيد والتعظيم، كما ذكركم بالهداية.

وقوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ قيل: ما كنتم من قبله إلا من الضالين، وقيل: معناه: قد كنتم من قبله لَمَنِ الضالين.

قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ يعنى: من عرفات.

فإن قيل: كيف قال: ثم أفيضوا - بكلمة التعقيب - والإفاضة من عرفات إنما تكون قبل الوصول إلى المزدلفة؟ قلنا: «ثم» بمعنى «الواو» ههنا، يعنى: وأفيضوا. وهو مثل قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١) أى: وكان من الذين آمنوا، فيكون

رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا

جمعا بين الحكمين .

وقيل : تقديره : ثم أمركم أن تفيضوا من عرفات . وهذا مثل قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ ^(١) (وإنما آتاه الكتاب قبل محمد ﷺ لكن معناه ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب) ^(٢) ، كذلك هاهنا ، فيكون عمل « ثم » فى الأمر لا فى الإفاضة .

وأما الكلام فى المعنى : قيل : إن قريشا وأحلافهم كانوا يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج من حرم الله . لأن عرفات كانت فى الحل ، وأما سائر العرب كانوا يقفون بعرفات .

فقوله : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا ﴾ خطاب لقريش ، يعنى : قفوا بعرفات ، وأفيضوا منها ﴿ من حيث أفاض الناس ﴾ يعنى : سائر العرب .

وقيل : أراد بالناس فى قوله : ﴿ من حيث أفاض الناس ﴾ إبراهيم ، وقد يسمى الواحد ناسا ، كما قال الله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ ^(٣) وأراد به : نعيم ابن مسعود الأشجعى وحده .

وقرأ الضحاك ، وسعيد بن جبير ﴿ من حيث أفاض النَّاسِ ﴾ يعنى : آدم - عليه السلام - .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٤) .

قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ ﴾ يعنى : فرغتم من المناسك ، وذلك عند رمى جمرة العقبة والاستقرار بمنى ، وقوله : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾

(١) الأنعام : ١٥٤ .

(٢) سقط من « ك » .

(٣) آل عمران : ١٧٣ .

(٤) كذا فى الأصل ، وك « لم يعلق علي هذه الآية ، ولعله وقع سقط هاهنا . ولعله قال : « ظاهر المعنى » . والله أعلم .

فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾

يعنى: فاذكروا الله بالتكبير والتمجيد والثناء عليه.

وفى قوله: ﴿كذركم آباءكم﴾ قولان، قال عطاء: هو أن الصبى أول ما يتكلم فإنما يلهج بذكر أبيه، فيقول: يا أبة. لا يذكر غيره، فقال - تعالى -: ﴿فاذكروا الله﴾ لا غيره ﴿كذركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾.

والثانى: هو أن العرب كانوا إذا فرغوا من الحج، ذكروا مفاخر آبائهم، فقال - تعالى -: فاذكروا الله بدل ذكركم آباءكم أو أشد ذكرا.

وقوله - تعالى -: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا﴾ أراد به: المشركين، كانوا لا يسألون الله فى الحج إلا الدنيا، وكان الرجل منهم يقول: اللهم إن أبى كان عظيم القبة كبير الجفنة، كثير المال، اللهم فاعطنى مثل ما أعطيته.

وقوله - تعالى -: ﴿وما له فى الآخرة من خلاق﴾ من نصيب.

قوله - تعالى -: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة﴾ أراد به المسلمين، واختلفوا فى معناه.

قال الحسن البصرى: ﴿فى الدنيا حسنة﴾ يعنى: العلم والعبادة، ﴿وفى الآخرة حسنة﴾ يعنى: الجنة.

وحكى عن على - رضى الله عنه - أنه قال ﴿فى الدنيا حسنة﴾ المرأة الصالحة، ﴿وفى الآخرة حسنة﴾ الجنة.

وقد ورد فى الحديث مرفوعا: «من أوتى قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وامرأة صالحة تعينه على أمر دينه، فقد جُمع له خير الدنيا والآخرة» (١).

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى الشكر (ص ٨١ رقم ٣٤)، والطبرانى فى الكبير (١١/ ١٣٤ رقم ١١٢٧٥)، وفى

الأوسط - كما فى مجمع البحرين (٤/ ١٥٥ - ١٥٦ رقم ٢٢٤٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ٦٥)،

والبيهقى فى الآداب (ص ٢٩٣ رقم ٨٨٩) كلهم من حديث ابن عباس.

وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٧٦) رواه الطبرانى فى الأوسط، والكبير، ورجال الأوسط رجال الصحيح.

واختلف فى إسناده انظر الضعيفة رقم (١٠٦٦).

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

وقال قتادة: ﴿فى الدنيا حسنة﴾ يعنى: العافية، ﴿فى الآخرة حسنة﴾ يعنى: العاقبة.

وروى أنس عن النبى ﷺ: «أنه عاد مريضاً قد أنهكه المرض حتى صار كالفرخ، فقال له - عليه السلام - : بم كنت تدعو؟ فقال الرجل: قلت: اللهم إن كنت معاقبى بشيء فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا، فقال ﷺ: سبحان الله، ما تطيق ذلك، هلا قلت: ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة﴾»^(١). وقيل: كان هذا أكثر دعاء رسول الله ﷺ^(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿وقنا عذاب النار﴾ أى: اصرف عنا عذاب النار.

قوله - تعالى - : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ أى: الاستجابة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من الدعاء. ﴿والله سريع الحساب﴾ قال أهل التفسير: يحاسب العباد أسرع من لمح البصر. وقال أهل المعانى: يحاسب العباد من غير تدبير ولا رؤية؛ لكونه عالماً بما للعباد، وما على العباد فلا يحتاج إلى رؤية.

وقال ابن الأنبارى: معناه: أن الله آت بالقيامة عن قريب، فإن ما هو كائن لامحالة فهو قريب، ففيه إشارة إلى قرب القيامة.

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد (ص ٢١٤)، ومسلم فى صحيحه (١٧/ ٢٢-٢٣ رقم ٢٦٨٨)، والترمذى (٥/ ٤٨٧ رقم ٣٤٨٧) وقال: حسن صحيح غريب. والنسائى فى الكبرى (٦/ ٢٦٠-٢٦١ رقم ١٠٨٩٢)، وأحمد (٣/ ١٠٧، ٢٨٨).

(٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك. رواه البخارى (١١/ ١٩٥ رقم ٦٣٨٩)، ومسلم (١٧/ ٢٧ رقم ٢٦٩٠).

فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمَنِ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ

قوله - تعالى - : ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ يعني : أيام منى ، وهى أيام التشريق . قال ابن عمر : الأيام المعلومات والأيام المعدودات فى أربعة أيام ، فيوم النحر ويومان بعده هى الأيام المعلومات ، وثلاثة أيام بعد يوم النحر هى الأيام المعدودات . والمعدودات الْمُحْصَيَات ، وإنما قال ذلك لقلتهن ، والمراد بالذكر منها ههنا : هو التكبيرات أدبار الصلوات .

وقوله - تعالى - : ﴿فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه﴾ أراد به : النفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق ، يعنى : فمن تعجل بالنفر بالرجوع من منى فيه فلا حرج عليه .
وقوله - تعالى - : ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ يعنى : من تأخر بالنفر الثانى فى اليوم الثالث من أيام التشريق فلا حرج عليه .

فإن قيل : الآية فيمن رجع على إتمام المناسك ، فكيف نفى الحرج عنه وهو بمحل استحقاق الثواب لاكمال الحرج ؟ قلنا : قال ابن مسعود : أراد به : من [نفى] ^(١) الحرج : أنه رجع مغفورا له . وهذا مؤيد بالحديث ، وما روى مرفوعا « من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق ؛ رجع كيوم ولدته أمه » ^(٢) .

وقال النخعى معناه : فمن تعجل فلا إثم عليه بالتعجيل ، ومن تأخر فلا إثم عليه بالتأخير .

وفيه قول ثالث : إنما قال ذلك ، لأن بعضهم كان يزيد فى المقام بمنى على الثلاث تبررا وتقربا ؛ فقال الله - تعالى - : من رجع فى اليوم الثانى أو الثالث ولم يزد على الثلاث فلا حرج عليه . يعنى : فى ترك الزيادة .

(١) ليست فى « الأصل » ، ولا فى « ك » .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، فرواه . البخارى (٤٤٦ / ٣) رقم ١٥١٩ ، وأطرافه فى : رقم ١٨١٩ ،

(١٨٢٠) ، ومسلم (١٦٦ / ٩ - ١٧٠) رقم ١٣٥٠ .

اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ

وفيه قول رابع: حسن، معناه: من ترخص بالتعجيل فلا إثم عليه بالترخص، ومن تأخر فلا إثم عليه بترك الترخص؛ وذلك أن النبي ﷺ كان قد ندب إلى الرخصة بقوله: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» (١).

قوله - تعالى - : ﴿لَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ قال أبو العالية: معناه: لمن اتقى الله بعد الحج في جميع عمره.

وقال الآخرون: معناه: لمن اتقى المعاصي في الحج، وقوله - تعالى - : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ ظاهر المعنى

قوله - تعالى - : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نزلت الآية في الأخنس بن شريق حليف بنى زهرة فإنه أتى النبي - عليه السلام - وقال: «إني أحبك، وأريد أن أؤمن بك، والله يعلم ما في قلبي، وكان يبطن بغضه، وكان - عليه السلام - يعجبه قوله (ويُسْرُبه)» (٢) فنزلت الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٣) يعنى فى العلانية.

وأما قوله: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ قرأ ابن مسعود: وشهيد (٤) الله على ما في قلبه. وقرأ ابن محيصن: وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ، وهما في الشواذ، والمعروف هو الأول.

وقوله - تعالى - : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أى: شديد الخصومة قال الشاعر:

إِنْ تَحْتَ (التراب) حَزَمًا وَجُودًا وَخَصِيمًا أَلَدًّا مِعْلَاقَ

(١) تقدم تخريجه .

(٢) فى «ك»: ويسره .

(٣) رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٢/ ١٨١ - ١٨٢) عن السدى مرسلًا .

(٤) كذا «بالاصل، وك» وفى تفسير القرطبي، وغيره: (ويستشهد) . (٥) فى لسان العرب (مادة: علق): الاحجار .

الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

وقال مجاهد: ﴿ألد الخصام﴾ أى: الظالم فى الخصومة.

وقوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ فيه نزلت الآية أيضا؛ فإنه خرج من عند النبي ﷺ فرأى حمارا فعقره، ومر بزروع فأحرقه (١) فهذا معنى قوله: ﴿سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ فالحرث: الزرع. والنسل: ولد كل دابة.

﴿والله لا يحب الفساد﴾ أى: لا يرضى الفساد، وقيل: من الفساد: كسر الدرهم، وشق الثوب من غير مصلحة.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فيه نزلت الآية أيضا. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾ أى: حمية الجاهلية ﴿بِالْإِثْمِ﴾ أى: بالظلم، والعزة: التكبر والمنعة، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (٢).

وعن ابن مسعود قال: كفى بالمرء إثما أن يقال له: اتق الله، فيقول: أنت الذى تأمرنى بالتقوى.

وروى أنه قيل لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : اتق الله. فوضع خده على الأرض تواضعا لله.

وفى رواية قيل لعمر: اتق الله: فأنكر المغيرة بن شعبه على قائله، فقال عمر: إنكم لاتزالون بخير ما قالوا ذلك لنا، وقبلنا منهم.

وقوله - تعالى - : ﴿فحسبه جهنم﴾ أى: كافيه. قال امرؤ القيس.

وتملأ بيتنا أقطاً وسمناً
وحسبك من غنى شبع ورى

وقوله - تعالى - : ﴿ولبئس المهاد﴾ المهاد: كل فراش يستقر المرء عليه.

(١) رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٢ / ١٨١) عن السدى مرسلًا.

(٢) ص: ٢.

بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ

قوله - تعالى - : ﴿ ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾ قال سعيد
ابن المسيب : « نزلت الآية في صهيب بن سنان ، وذلك أنه خرج من مكة مهاجرا إلى
المدينة فتبعه المشركون ولحقوه ، فنثر كنانته وقال : إنكم تعلمون أنى من أركم ، والله
لاتصلون إلى حتى أرمى جميع ما بكنانتي ثم أخذ سيفى وأضرب حتى أعجز أو
ترجعوا عنى وما لكم مالى ثمة ، فقالوا : أين مالك ؟ فدلهم عليه ، فرجعوا عنه ، فلما
سمع ذلك رسول الله ﷺ قال : ربح البيع يا أبا يحيى » ^(١) . فهذا معنى قوله : ﴿ ومن
الناس من يشترى نفسه ﴾ أى : يبيع .

والشراء : البيع ، ومنه قول الشاعر :

وشريتُ بُردًا ليتنى من بعد برد [صرت هامه] ^(٢)

قاله رجل كان له غلام يسمى بردا ، وكان مفتونا به ، فباعه فندم عليه .

وقوله - تعالى - : ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ أى : شديد الرحمة بهم .

قوله - تعالى - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾ آمنوا : أى
صدقوا .

ادخلوا فى السلم كافة ، أى : ادخلوا جميعا فى الإسلام .

قال الأزهري السلم الصلح ، والسلم : الانقياد ، والمراد به : الإسلام ههنا .

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٧١ - ١٧٢) والحرث بن أبى أسامة فى مسنده كما فى بغية الباحث فى
زوائد الحرث (ص ٢١٤ رقم ٦٧٧) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٥١ - ١٥٢) .

وعزه السيوطى فى الدر (١/ ٢٤٩) لابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن عساكر . ورواه الحاكم عن أنس
(٣/ ٢٩٨) وقال : صحيح على شرط مسلم . وأخرجه الطبرى (٢/ ١٨٦) عن عكرمة بنحوه .

(٢) فى الأصل : ضرب هامه ، وفى «ك» : ضرب هامتى .

يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ

وقال الأزهرى أيضا: معناه: ادخلوا فى الإسلام وشرائعه كافة.

وفيه قول ثالث، معناه: ادخلوا فى الإسلام إلى منتهى شرائعه، كافين عن المجاوزة إلى غيره، من الكف.

قال ابن عباس: نزلت الآية فى عبد الله بن سلام، وقوم من اليهود أسلموا، وأرادوا أن يجمعوا بين الإسلام واليهودية، فقالوا: نلزم السبت فلا نأكل لحوم الإبل ونحو ذلك، فنزلت الآية. أى: كونوا للإسلام خاصة، ولا تجمعوا بينه وبين اليهودية، وكفوا عن المجاوزة إلى غيره.

فإن قال قائل: كيف خاطب المؤمنين بالدخول فى الإسلام؟ قيل: يحتمل معناه: الثبات على الإسلام، ويحتمل أنه خطاب للذين آمنوا باللسان ولم يؤمنوا بالقلب.

وقوله - تعالى - ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: آثار الشيطان، وهى جمع الخطوة. والخطوة: ما بين القدمين ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

قوله - تعالى - ﴿فَإِنْ زِلْتُمْ﴾ زَلَّ يَزِلُّ: إذا ضل وتنجى عن الطريق، وَأَزَلَّ يَزِلُّ: إذا أسدى نعمة إلى غيره. ومنه قوله ﷺ: «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» (١).

وقوله - تعالى - ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الدلالات الواضحات.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فالعزيز: الغالب الذى لا يفوته شىء، والحكيم: ذو الإصابة فى الأمر.

قوله - تعالى - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ والآية من المتشابهات.

(١) رواه القضاعى فى مسند الشهاب (١/٢٣٨ - ٢٣٩ رقم ٣٧٦) من طريق يحيى بن صيفى عن ابن عمر.

وعزه الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٣/٦٧٩) لابن الأعرابى فى معجمه.

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا

وروى أصحاب الحديث عن أبي بن كعب ومجاهد، أنهما قالا فى تفسير الآية: يأتى الله يوم القيامة فى ظلل من الغمام.

وأما أبو بكر محمد بن الحسن النقاش المفسر فلم يتعرض للآية بشيء، وقال الزجاج: يحتمل معنى الآية من حيث اللغة: يأتى الله بما وعدهم من العقاب.

قال الشيخ الإمام: والأولى فى هذه الآية وما يشاكلها أن نؤمن بظاهره ونكل علمه إلى الله - تعالى - وننزه الله - سبحانه وتعالى - عن سمات الحدث والنقص.

وأما قوله: ﴿فى ظلل﴾ فهو جمع الظلة وهو السترة من الغمام. قد ذكرنا معنى الغمام.

﴿والملائكة﴾ قرئ بالرفع والخفض^(١). فإذا قرئ بالرفع، فهو منسوق على الله، وإذا قرئ بالخفض فهو منسوق على الظلل.

﴿وقضى الأمر﴾ أى: فرغ من الأمر، وذلك فصل الله القضاء بالحق بين الخلق.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ قال قطرب: إنما خص به يوم القيامة؛ لأن الأمر يخلص يومئذ لله - تعالى -.

قوله - تعالى -: ﴿سل بنى إسرائيل﴾ هو خطاب للرسول ﷺ، يعنى: سل الذين أسلموا منهم ﴿كم آتيناهم من آية بينة﴾ أى: من دلالة واضحة على نبوة موسى.

وقيل: معناه: الدلالات التى آتاهم فى التوراة والإنجيل على نبوة محمد ﷺ ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ فى معناه قولان:

أحدهما: ومن يغير عهد الله.

والثانى معناه: ومن ينكر الدلالة التى على نبوة محمد ﷺ.

(١) قرأ أبو جعفر بالخفض، وقرأ الباقر بالرفع. انظر النشر (٢/٢٢٧)، وتفسير البغوى (١/١٨٤).

فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٢٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا

قوله - تعالى - : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ . قال الزجاج : المزين هو الشيطان . فإن الله - تعالى - قد زهد الخلق في الدنيا ، ورغبهم في الآخرة . وقال الأكثرون : المزين هو الله - تعالى - والتزيين من الله هو أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر المعجبة ، فنظر الخلق إليها بأكثر من قدرها ، فأعجبهم ذلك ، ففتنوا به ؛ [فلذلك] ^(١) التزيين من الله .

﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ أى : يستهزئون . وهم رؤساء قريش كأبى جهل وغيره ، وكانوا يسخرون من الفقراء .

قال ابن عباس : أراد بالذين آمنوا : عبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وأبا ذر .

﴿ والذين اتقوا ﴾ أى : هؤلاء الفقراء ﴿ فوقهم يوم القيامة ﴾ لأنهم فى أعلى عليين ، وأولئك فى أسفل السافلين .

﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فيه أقوال ، أحدها : أنه يوسع على من يشاء من غير مضايقه ولا تقتير .

والقول الثانى : معناه : أنه لا يأخذ شيئاً من شىء مقدر ، كالعبد يأخذ ألفاً من ألفين ، فيعطى قدراً من مقدّره فيخاف الإجحاف على ماله ؛ ولكن الله يرزق العباد من خزائنه التى لاتنفد .

والثالث : معناه : أنه يقتدر على من يشاء ، ويبسط على من يشاء ، ولا يعطى كل أحد على قدر حاجته ؛ بل يعطى الكثير من لا يحتاج إليه ، ولا يعطى القليل من يحتاج إليه .

والقول الرابع : قال ابن عباس : هذا فيما سهل الله - تعالى - على رسوله من

(١) فى « الاصل » : فلذلك ، وفى « ك » : فكذلك .

اٰخْتَلَفَ فِيْهِ اِلَّا الَّذِيْنَ اُوْتُوْهُ مِنْۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًاۙ بَيْنَهُمْ فَهَدٰى اللّٰهُ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لِمَا

الاستيلاء على بنى قريظة والنضير، على أسهل وجه من غير قتال ولا تعب .

وقوله - تعالى - : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فالأمة فى اللغة : على وجوه، منها :
الأمة بمعنى الدين، ومنه قول النابغة :

حلفتُ ، فلم أترك لنفسك رِيبةً وهل يَأْتَمَنُ ذو أمة وهو طائع

أى : ذو دين

والأمة : الفرقة من الناس وغيرهم ، فالترك أمة ، والروم أمة ، والفرس أمة ، ومن الطير أمة ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (١) .

والأمة : الحين ، وقال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ (٢) أى : بعد حين .

والأمة : الإمام الذى يقتدى به ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (٣) .

والأمة : الْمُعَلَّمُ للخير . والأمة : القامة ، ومنه قول الشاعر :

وإن معاوية الأكرمين حسان الوجوه طوال الأمم

والإمة - بكسر الألف - : النعمة ، والمراد بالأمة ههنا الدين .

يعنى : كان الناس على دين واحد ثم اختلفوا فى معناه .

وقال بعضهم - وهو قول مجاهد - أراد به آدم ، كان أمة واحدة .

وقيل - وهو قول قتادة وسعيد بن جبير - : أراد به عشرين قرناً من بنى آدم ونوح كانوا على الإسلام .

(١) الأنعام : ٣٨ .

(٢) يوسف : ٤٥ .

(٣) النحل : ١٢٠ .

اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مُستقيم ﴿٢١٣﴾ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى

وقيل: أراد به الناس في زمن إبراهيم كانوا على ملة الكفر.

﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾.

فإن قال قائل: كيف يحكم الكتاب؟ قيل: قرأ عاصم الجحدري: «لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ» بضم الياء (١) – فيكون الحكم من الأنبياء.

وأما قوله: ﴿لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ يعني: ليحكم الذين أوتوا الكتاب من النبيين. وقوله – تعالى –: ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه﴾ يعني: أوتوا الكتاب. ﴿من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾ أي: حسدا وظلما. ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ قال زيد بن أسلم: اختلفوا في القبلة، فهدانا الله إلى الكعبة، واختلفوا في الأيام، فاختر اليهود السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدانا الله للجمعة، واختلفوا في عيسى، فقال بعضهم: كذاب. وقال بعضهم: ابن الله فهدانا الله لكونه نبيا عبدا، واختلفوا في إبراهيم، فادعاه كل فرقة فهدانا الله لكونه حنيفا مسلما.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون، وأول الناس دخولا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا وأوتيناه من بعدهم، الناس لنا تبع، فالיום لنا، – يعني: الجمعة – وغدا لليهود، وبعد غد للنصارى» (٢).

﴿والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾.

(١) وهى قراءة أبى جعفر المدنى، كما فى تفسير البغوى، (١/٨٦)، والنشر فى القراءات العشر لابن الجزرى (٢/٢٢٧). وقرأ الباقر بفتح الياء.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٢/٤١٢ رقم ٨٧٦)، ومسلم (٦/٢٠٤ – ٢٠٦ رقم ٨٥٥).

يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِن نَّصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا

قوله - تعالى - : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ .

نزل في المهاجرين إلى المدينة حين أصابهم حر شديد و فاقة عظيمة فأنزل الله - تعالى - هذه الآية؛ تطيباً لقلوبهم وتسلياً لهم .

فقوله : ﴿ أم ﴾ كلمة للخروج من كلام إلى كلام، ونكون بمعنى : بل يقول الله - تعالى - لهم : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ يعنى : ولم يصبكم ما أصابهم، وقوله - تعالى - : ﴿ مثل الذين خلوا ﴾ أى : صفة الذين خلوا . ﴿ من قبلكم مستهم البأساء ﴾ الفقر ﴿ والضراء ﴾ المرض ﴿ وزلزلوا ﴾ حُرِّكُوا بشدة وخَوْفُوا . ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ حتى استبطئوا نصر الله . ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ قيل : المراد به الوصية التى كانت واجبة فى الابتداء للوالدين والأقربين .

وقيل : أراد به التطوعات والصدقات جعلها للوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل .

وقيل : إنه كان فى الابتداء، ثم نسخت بآية الزكاة .

﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أى : يحصى ويجازى عليه . وهذا مثل قوله - تعالى - : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ ^(١) أى : يرى الجزاء على العمل؛ لأن العمل فائت فلا يراه .

قوله - تعالى - : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ أى : شاق عليكم .

واعلم أن أكثر العلماء على أن الجهاد فرض على الكفاية، وقال عطاء - وهو قول الثورى ^(٢) - : أنه تطوع قالوا : والآية فى الذين أمروا بالقتال من الصحابة .

(١) الزلزلة : ٧ .

(٢) فى «ك» : النووى، وهو خطأ .

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾ يعنى : القتال ﴿وهو خير لكم﴾ بإصابة الشهادة، وحياسة الغنيمة، والظفر بالعدو.

﴿وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ يعنى : القعود عن القتال ﴿وهو شر لكم﴾ بفوت المنازل. قال ابن عباس: «كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لى : يا غلام ارض بما قدر الله لك؛ فعسى أن تكره شيئاً وهو خير لك، وعسى أن تحب شيئاً وهو شر لك، وتلا هذه الآية: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾» (١).

قوله - تعالى - : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ أى : عن قتال فيه، خُفِضَ على البدل ﴿قل قتال فيه كبير﴾ عظيم. ثم ابتدأ فقال : ﴿وصد عن سبيل الله﴾ يعنى : صدكم المسلمين عن الإسلام.

﴿وكفر به﴾ أى : كفركم بالله. ﴿والمسجد الحرام﴾ أى : وصدكم المسلمين عن المسجد الحرام.

﴿ وإخراج أهله منه ﴾ أى : إخراج أهل مكة من مكة ﴿أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل﴾ أى : والكفر الذى أنتم عليه، وأفعالكم تلك، أكبر عند الله، وأشد من قتال المسلمين فى الشهر الحرام.

قال عروة بن الزبير: سبب نزول الآية: ما روى «أن النبى ﷺ بعث عبد الله بن جحش مع ثمانية نفر قبل مكة، ودفع إليهم كتاباً وقال: لا تَفْكُوهُ إِلَّا بعد يومين، فلما مضى يومان فكوا الكتاب، فإذا فيه: امضوا إلى بطن النخل - وذلك موضع بين مكة والطائف - وفيه استعلموا أخبار قريش، فنزلوا هنالك، وكانوا يستعلمون خفية، فمر بهم عير من الطائف عليهم عمرو بن الحضرمى مع زبيب وأدم، فرماه واحد من

(١) رواه ابن جرير الطبرى (٢٠١/٢).

وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

المسلمين فقتله وقادوا العير إلى رسول الله ﷺ . وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخر، أو فى أول يوم من رجب - وكانوا شاكين فيه - فغيرهم المشركون بقتلهم ابن الحضرمى فى الشهر الحرام فنزلت الآية (١).

يعنى الذى فعلتم أنتم من تلك الأفعال أكبر وأشد من قتلهم فى الشهر الحرام . وفى الخبر: « أن النبى ﷺ لم يمد يده إلى شىء من ذلك العير حتى نزلت الآية، ثم قسمها بين المسلمين » (٢).

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ يعنى : المشركين كانوا يقاتلون المسلمين ويعيرونهم على الإسلام .
﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

قال - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ﴾ هذه الآية متصلة بالأولى فى المعنى وذلك أن عبد الله بن جحش لما مر بالسرية وقتل ابن الحضرمى من قتله قال : المشركون إن لم يصيبوا وزرا فلا ينالون خيرا فنزلت هذه الآية ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ يعنى عبد الله بن جحش وقومه ﴿ والذين هاجروا ﴾ من أوطانهم ﴿ وجاهدوا ﴾ يعنى بالغزو فى سبيل الله ﴿ أولئك يرجون رحمة الله ﴾ أخبر أنهم على رجاء الرحمة، وإنما لم يقطعوا لأنفسهم بالرحمة؛ لأن الإنسان يعرف من نفسه أنه لا يمكنه تأدية حق الله - تعالى - على وجهه فلا يأمن تقصيرا؛ فلا يمكنه القطع لنفسه بالرحمة .

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٠٢/٢ - ٢٠٣) مطولاً.

(٢) تقدم فى الذى قبله من رواية عروة.

﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن

ولأنه ربما يرتكب فى المستقبل ما يستوجب به العقاب .

﴿والله غفور رحيم﴾ فالغفور: السّتور . والرحيم: العطوف .

قوله - تعالى - : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فالخمر: كل شراب مسكر، وسمى المسكر: خمراً؛ لأنه يخامر العقل ويستره .

وأصل الخمر: السّتر والتغطية . ومنه الخمار؛ لأنه يستر الرأس . ويقال: دخل فلان فى خمار الناس، أى تَسَتَّرَ فيهم .

وقال عمر - رضى الله عنه - : الخمر ما خامر العقل . وهو حجة أصحاب الحديث على أن كل مسكر خمر، ومنه يقال للسكران من أى شراب: كان مخموراً .

والميسر: القمار . وقال ابن مسعود: دعوا الكعبان فإنه من الميسر .

وقال ابن سيرين: كل ما يلعب به فهو ميسر، حتى الجوز الذى يلعب به الصبيان . ثم اختلفوا فى تحريم الخمر أنه بأى آية كان؟ .

قال بعضهم: هو بهذه الآية، فإنه قال: ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ (ولفظ الإثم) ^(١) يدل على التحريم؛ فإنه حرم الخمر بلفظ الإثم فى آية أخرى، حيث قال: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم﴾ ^(٢) وأراد به: الخمر . ومنه قول الشاعر:

شربتُ الإثم حتى ضل عقلى كذاكَ الإثم يذهبُ بالعُقُولِ

وقال ابن عباس، وأكثر المفسرين: إن تحريم الخمر بالآية التى فى سورة المائدة ^(٣) . بأنه لما نزلت هذه الآية: ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ فانتهى بعضهم، ولم ينته البعض . فنزل قوله: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ ^(٤) فكانوا يتحنيون للشرب حتى كان

(٢) الاعراف: ٣٣ .

(١) فى «ك»: والإثم الكبير .

(٣) هى قوله - تعالى - : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم

تفلحون﴾ إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ آية: ٩٠، ٩١ .

(٤) النساء: ٤٣ .

الرجل يشرب بعد العشاء الأخيرة فيصبح وقد زال السكر، ثم يشرب بعد صلاة الصبح فيصحو إذا جاء وقت الظهر، فنزلت آية المائدة. قال ابن عمر: حرمت الخمر بآية المائدة، وروى هو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تحريم الخمر بآية المائدة» (١).

وعن عمر - رضى الله عنه - أنه لما سمع قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ (٢) قال: انتهينا ربنا.

﴿قل فيهما إثم كبير﴾ قرأ حمزة والكسائي: بالثاء وقرأ الباقون كبير (٣) - بالباء، فالكبير: بمعنى العظيم، والكثير: لكثرة عدد الآثام في الخمر التي ذكرها في آية المائدة ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾ (٢) الآية.

وقوله - تعالى -: ﴿ومنافع للناس﴾ فالإثم في الخمر: هو ما يقع فيه من العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وأما المنافع في الخمر: اللذة، والفرح، واستمراء الطعام، والربح في التجارة فيه.

وقد قال حسان بن ثابت: في الخمر ونفعها:

ونشربها فتركنا أسوداً ولُبُوثاً ما ينهنهنّا اللقاء (٤)

وقال آخر:

وإذا سكرتُ فإننى ربُّ (الخورنق) (٥) والسدير

وإذا صحتُ فإننى ربُّ الشؤيّهة والبعير

وأما المنافع للناس في الميسر: فهو إصابة المال فيه من غير كد وتعب.

والإثم فيه: أنه إذا ذهب ماله من غير عوض يأخذه يسوءه ذلك؛ فيعادي صاحبه،

ويقصده بالسوء.

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢١١/٢) من حديث ابن عمر.

(٣) انظر النشر (٢٢٧/٢)، وتفسير البغوى (١٩٣/١).

(٤) كذا وقع في «الأصل وك». وفي تفسير القرطبي (٥٧/٣).

ونشربها فتنزلنا ملوكاً وأسدأ ما ينهنهنّا اللقاء

(٥) في «ك»: الخورنق.

نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

وقوله ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ قيل: معناه: إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم.

وقيل: إثمهما أكبر من نفعهما قبل التحريم، يعنى: الإثم الذى يصير الخمر سببا فيه من العدواة والعريضة أكبر من نفعهما.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قرأ أبو عمرو وحده بضم الواو، وقرأ الباقر بفتحها^(١)، فمن قرأ بالضم؛ فتقديره ما الذى ينفقون، فقال: قل الذى ينفقون العفو؛ ومن قرأ بالفتح فتقديره: ماذا ينفقون؟ فقال: قل: ينفقون العفو. واختلفوا فى معنى العفو، فقال طائوس: هو اليسير من كل شىء، وقال أكثر المفسرين: العفو: الفضل، وذلك أن الصدقة إنما تجب فى الفاضل عن الحاجة، وكانت الصحابة يكتسبون المال، ويمسكون قدر النفقة، ويتصدقون بالفضل، بحكم هذه الآية، ثم نسخ ذلك بآية الزكاة.

وقيل معناه: [التصدق]^(٢) عن ظهر الغنى؛ وذلك أن يتصدق وهو غنى، ولا يتصدق وهو فقير. فيبقى كلاً على الناس. وهو معنى قوله ﷺ: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى»^(٣).

وحقيقة العفو: الميسور. ومنه قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾^(٤) أى: ما تيسر من أخلاق الرجال.

(١) انظر النشر (٢/٢٢٧)، وتفسير البغوى (١/١٩٣).

(٢) فى «الأصل وك»: التصديق. وهو تحريف.

(٣) متفق عليه من حديث حكيم بن حزام، رواه البخارى (٣/٣٤٥ رقم ١٤٢٧)، ومسلم (٧/١٧٦ رقم ٩٥٠).

ورواه البخارى من حديث أبى هريرة (٣/٢٤٥ رقم ١٤٢٦) وأطرافه فى ١٤٢٨، و ٥٣٥٥، ٥٣٥٦.

(٤) الأعراف: ١٩٩.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ فيه تقديم وتأخير، وتقديره: يبين الله لكم الآيات في الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة؛ فتعرفون فضل الآخرة على الدنيا. فتزهدون في الدنيا، وتنفقون رغبة في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾^(١) تخرج المسلمون من أموال اليتامى تحرجاً شديداً، حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم في المرعى، والطعام، والإدام، فنزلت هذه الآية بإباحة المخالطة في ذلك كله؛ لكن بشرط أنه إن استخدم غلام اليتيم يخدمه، وإن أكل بطعامه يبدله.

قال مجاهد: يوسع عليه من طعام نفسه لا يتوسع من طعام اليتيم.

وقوله تعالى: ﴿قل إصلاح لهم خير﴾ قرأ الضحاك: قل إصلاح إليهم خير، والمتلو: قل إصلاح لهم. ومعناه: إصلاح لهم خير لكم في الدين. ﴿وإن تخالطوهم بإخوانكم﴾ هو إباحة المخالطة.

﴿والله يعلم المفسد﴾ يعنى: الذى يخالط فيخون ﴿من المصلح﴾ وهو الذى يخالط فلا يقصد الخيانة. ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ قال أبو عبيدة: لأهلككم. وقال ابن عباس: يجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقاً لكم. وقيل: معناه: ولو شاء الله لما أباح لكم المخالطة.

وقال أهل اللغة: العنت: المشقة. ومعناه: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أى: كلفكم في كل شيء ما يشق عليكم.

﴿إن الله عزيز حكيم﴾ فالعزيز: هو الذى يأمر بعزة؛ سهل على العباد، أو لم يسهل، والحكيم، قد ذكرنا معناه.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَأَمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ قال ابن عباس : لا يجوز نكاح الكوافر أبداً إلى يوم القيامة ؛ بحكم هذه الآية .

وسائر المفسرين والعلماء من الصحابة وغيرهم ، على أن الآية منسوخة في الكتابيات ، بقوله : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (١) .

وروى عن عثمان - رضى الله عنه - أنه تزوج بنائلة بنت فرافصة - وكانت نصرانية - فأسلمت تحته . وعن طلحة بن عبيد الله : أنه تزوج بنصرانية . وعن حذيفة : أنه تزوج يهودية . وقال قتادة وسعيد بن جبير : أراد بالمشركات : الوثنيات .
فإن قال قائل : الكفار عندكم مشركون كلهم ، فمن لا ينكر إلا نبوة محمد كيف يكون مشركا بالله ؟

قلنا : قال أبو الحسين بن فارس صاحب المجل : هو مشرك ؛ لأنه يقول : القرآن الذى أتى به محمد ﷺ كلامٌ غير الله ، وهذا القرآن معجز لا يقوله إلا من كان إلها ، فإذا هو كلام غير الله . وكأنهم أشركوا بالله غير الله .

وأما سبب نزول الآية : ما روى « أن أبا مرثد الغنوى كانت له حبيبة بمكة ، وكان يصيبها بالفجور - وتسمى عناقاً - فلما هاجر إلى المدينة وأسلم ، تمت له حاجة ، فرجع إلى مكة ، فتزيت له ، فقال أبو مرثد : إنى قد دخلت فى دين الإسلام ، وإن الزنا حرام فى دينى ، فحتى أرجع فاستأذن رسول الله ﷺ أن أتزوج بك ، فرجع واستأذن ؛ فنزل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿وَلَأَمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾ نزل هذا فى عبد الله بن رواحة . « كانت له أمة سوداء فلطمها ، ثم أخبر رسول الله ﷺ بذلك فسأله عنها ، فقال :

(١) المائدة : ٥ .

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٥٠) عن ابن عباس ، وفى (ص ٤٩) عن مقاتل بن حيان .

وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ
أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي

إنها مؤمنة، تؤمن بالله والرسول، وتحسن الوضوء، والصلاة. فقال عليه السلام :
بئسما صنعت. فقال : والله لأتزوجن بها، فأعتقها، وتزوج بها. وكان قد عُرِضَتْ
عليه حرة مشركة، فعيّره المشركون على نكاح الأمة السوداء؛ فنزل قوله : ﴿ولأمة
مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ (١).

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ في هذا إجماع، أن المسلمة لا تنكح من
المشركين أجمع ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبتكم﴾، فإن قال قائل : كيف
قال : ﴿خير من مشرك﴾ ولا خير في المشرك؟ قيل : يجوز مثله كما قال الله - تعالى
:- ﴿ءآلله خير أما يشركون﴾ (٢) ويقال : الرجوع إلى الحق خير من التماذى فى
الباطل.

﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى : إلى أسباب النار ﴿والله يدعو إلى الجنة و المغفرة
بإِذْنِهِ﴾ أى : بقضائه وإرادته ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾
قوله تعالى : ﴿ويسألونك عن المحيض﴾ أما السائل عنه : هو أسيد بن حضير،
وعباد بن بشير. وأما المحيض : مفعول من الحيض. والمراد به : نفس الحيض.
قال الأزهري : يقال : حاضت المرأة حيضا، ومحيضا : إذا نزل بها الدم من الرحم فى
وقت معلوم.

ويقال : استحيضت المرأة : إذا نزل بها الدم من عرق لا من الرحم لا فى وقت
معلوم.

(١) رواه الطبري فى تفسيره (٢/ ٢٢٣) عن السدى مرسلأ.

(٢) النمل : ٥٩.

الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

﴿قل هو أذى﴾ أى: قدر. وقال الكلبي: الأذى: هو الدم.

﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض﴾ وسبب نزول الآية ما روى عن أنس: أن اليهود كانوا يعتزلون المرأة فى حالة الحيض أشد الاعتزال، وكانوا لا يؤاكلونها، ولا يشاربونها، ويخرجونها من البيت، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزلت الآية.

ولم يُردَّ بهذا الاعتزال ما كانوا يفعلونه، وإنما أراد به الاعتزال بترك الوطء حتى تحل المضاجعة، وسائر أنواع المباشرة.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «اصنعوا كل شىء إلا الوطء»^(١).

وفيه قول آخر: أنه يفعل كل شىء ويجتنب ما تحت الإزار، وذلك ما بين السرة والركبة وهو قول الشافعى.

﴿ولا تقربوهن﴾ أراد به: القربان بالوطء؛ فإن قربانها بغير الوطء مباح. ﴿حتى يطهرن﴾ يقرأ مخففاً. والمراد به حتى يطهرن من المحيض. وقرأ أهل الكوفة غير حفص «حتى يَطْهَرْنَ» مشدداً^(٢).

وقرأ أبى بن كعب، وابن مسعود - رضى الله عنهما - : «حتى يتطهرن» فى الشواذ.

وقوله: ﴿يطهرن﴾ بمعنى: يتطهرن؛ إلا أنه أدغم التاء فى الطاء. ومعناه: حتى

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٣/٢٧٢ رقم ٣٠٢)، وأبو داود (١/٦٧ - ٦٨ رقم ٢٥٨)، والترمذى (٥/١٩٩ رقم ٢٩٧٧) وقال: حسن صحيح، والنسائى (١/١٥٢ رقم ٢٨٨)، وابن ماجه (١/٢١١ رقم ٦٤٤)، وأحمد (٣/١٣١، ٢٤٦) والطيلالسى فى مسنده ص ٢٧٣ رقم ٢٠٥٢، وابن حبان (٤/١٩٥ - ١٩٦ رقم ١٣٦٢)، والبيهقى (١/٣١٣).

(٢) قرأ حمزة والكسائى، وخلف، وأبو بكر بتشديد الطاء والهاء، وقرأ الباقر بتخفيفها. انظر النشر

(٢/٢٢٧)، وتفسير البغوى (١/١٩٧).^{*}

نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا

يغتسلن .

قال أبو جعفر النحاس : قوله : ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ على التخفيف قد يكون بمعنى الاغتسال ، من فعل الطهارة .

والكل حجة الشافعى فى وجوب الاغتسال (لإباحة الوطء فإنه) (١) مدَّ التحريم إليه .

وقوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أى : اغتسلن ﴿ فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فيه قولان : أحدهما معناه : من حيث أَمَرَكُمُ اللَّهُ بالاجتناب فى حال الحيض .

و الثانى - وهو قول محمد بن الحنفية - معناه : من حيث أباح الله ، وذلك بطريق النكاح .

﴿ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ قيل : معناه : التوابين من الذنوب . والمتطهرين من العيوب .

والقول الثانى : معنى التوابين الرَّجَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ بالتوبة والاستغفار ، ومعنى المتطهرين : المتبرئين من حول أنفسهم وقوتهم .

وفيه قول ثالث : أن التوابين : من التوبة ، والمتطهرين يعنى : بالاستنجاء بالماء .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢) يعنى : المتطهرين بالاستنجاء بالماء بعد الحجر .

قوله تعالى : ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ ﴾ أى : موضع حرث لكم ومزدرع ، وقد قال الشاعر :

فحرثى همُّهُ أَكْلُ الْجَرَادِ

إِذَا أَكَلَ الْجَرَادُ حُرُوثَ قَوْمٍ

(١) فى « ك » : فى وجوب الوطء ؛ لأنه .

(٢) التوبة : ١٠٨ .

سمى العيال: حرثاً، أنشدته المبرد.

﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ وسبب نزول هذا: ما روى جابر: أن اليهود قالوا من أتى امرأته مولية جاء ولده أحول؛ فنزلت الآية.

﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أى: (مقبلة ومديرة) ^(١) وقائمة وقاعدة، وكيف شئتم.

وقيل: معناه: متى شئتم.

قال ابن عباس: معنى قوله: ﴿أنى شئتم﴾ أى: إن شئتم فاعزلوا، وإن شئتم فلا تعزلوا.

قال الشيخ: واعلم أن الآية لاتدل على إباحة إتيان النساء فى غير المأتى؛ لأنه قال: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم﴾ فخص الإتيان بموضع الحرث، وهو القبل.

وروى نافع، عن ابن عمر. أنه كان يبيح إتيان المرأة فى الدبر، وأنكروا هذا على نافع. وقالوا: كذب العبد على سيده - عبد الله بن عمر - فإنه ما كان يبيحه قط، وحكى ذلك عن مالك أيضاً، وأنكره أصحابه.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء فى أدبارهن» ^(٢).

وعن ابن عباس أنه قال: هى اللوطية الكبرى. وقال فى العزل: هى المؤودة الصغرى.

وقوله تعالى: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ قال ابن عباس: هو التسمية على الوطء. وقيل: هو طلب الولد. وقيل: سائر أفعال الخير.

(١) فى «ك»: مقبل ومدير.

(٢) رواه والنسائى فى الكبرى (٣١٨/٥) رقم ٨٩٨٩، وابن ماجه (٦١٩/١) رقم ١٩٢٤، وأحمد فى مسنده (٢١٢/٥، ٢١٤، ٢١٥) وابن حبان فى صحيحه (٥١٢/٩ - ٥١٥) رقم ٤١٩٨ و ٤٢٠٠ وغيرهم من حديث خزيمه بن ثابت. وفى الباب أحاديث عن غير واحد من الصحابة، وراجع تلخيص الحبير (٣٦٧/٣ - ٣٨٠).

أَنْتُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي

﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾ صائرون إليه ﴿وبشر المؤمنين﴾ يامحمد .

قوله - تعالى - : ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ نزلت الآية في عبد الله بن رواحة، كان له ختن على ابنته، فحلف أن لا يبره فإذا قيل له : ألا تصل ختنك؟ فقال : حلفت - وكان من أقربائه - فنزلت الآية . ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا﴾

والعرضة : كل ما يعترض فيمنع من الشيء . ومعناه : ولا تجعلوا الحلف بالله سببا يمنعكم عن البر والتقوى .

وقيل : معناه : لاتستكثروا من الأيمان ؛ فإن من كثر يمينه فقد جعل اسم الله عرضة للهلك .

وفيه قول آخر : معناه : ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن لاتبروا، «ولا» محذوفة، وهذا كما قال الشاعر :

فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَإِنْ قُطِعَتْ رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

أى : لا أبرح قاعدا .

﴿وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم﴾ قوله تعالى : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ اللغو : كل مطرح (من) الكلام وفي معناه ها هنا خمسة أقوال :

أحدها : وهو قول عائشة - رضى الله عنها - قالت : يمين اللغو : قول الرجل : لا والله، وبلى والله، وإي والله . وهذا قول الشافعى .

والثانى : وهو قول أبى هريرة، وابن عباس : وهو أن يحلف الرجل على شيء أنه فعله ولم يفعله، أو على عكسه وهذا قول أبى حنيفة . وقال الشعبى : هو اليمين فى

أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا

حال الغضب . وقال سعيد بن جبير: هو الحلف بتحريم الحلال .

وقال زيد بن أسلم: هو أن يقول الرجل: أعمى الله بصرى، أو أتلف مالى، إن لم أفعل كذا؛ فهذا يمين اللغو، والله لا يؤاخذ به، ولو يؤاخذ به الناس لعجل عقوبتهم .

والأصح: ما قالت عائشة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ وكسب القلب: هو القصد بالقلب إلى اليمين؛ فدل أن يمين اللغو: مالم يقصد بالقلب .

﴿والله غفور﴾ أى: ستور ﴿حليم﴾ وهو الذى لا يعجل بالعقوبة .

قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ الآية: اليمين . وكذلك الإيلاء قال الشاعر:

قليل الألایا حافظٌ ليمينه وإن بدرت منه الآيةُ برت

فقوله: ﴿للذين يؤلون﴾ أى: يحلفون . قال ابن عباس: إنما ينعقد الإيلاء إذا حلف على ترك الوطء أبداً ومطلقاً . ومذهب أبى حنيفة أنه ينعقد الإيلاء بالحلف على أربعة أشهر . ومذهب الشافعى أنه إنما يصير مؤلئاً بالحلف على أربعة أشهر، وهى ﴿تربص أربعة أشهر﴾ أى: انتظار أربعة أشهر .

﴿فإن فاءوا﴾ أى: فإن رجعوا عن اليمين بالوطء فى حق من يقدر على الوطء، أو بالقول فى حق من لا يقدر على الوطء ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ وقرأ أبى بن كعب: «فإن فاءوا فيهن» يعنى فى المدة، وهذا يوافق قول أبى حنيفة .

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ يعنى: بالإيقاع ﴿فإن الله سميع عليم﴾ لقول الزوج، عليم بما يضمره .

ومذهب الشافعى أنه تجوز الفیئة بعد المدة بوقف حتى يفى أى: يطلق، وهو

الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا

مروى عن عمر، وعلى، وأبى الدرداء - رضى الله عنهم - .

وذهب أبو حنيفة إلى أنها تطلق طليقة بئنة بانقضاء المدة. وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما - وابن مسعود، وعلى، فى رواية ضعيفة، والمسألة فى الخلافات .

قوله تعالى: ﴿والمطلقات﴾ يعنى المخلّيات يقال: أطلق الأسير وأطلق البعير إذا خلاه.

﴿يتربصن بأنفسهن﴾ ينتظرن ﴿ثلاثة قروء﴾ والقُرء: الطهر، وهو قول أهل الحجاز .

قال الزهرى: لم يقل أحد من أهل الحجاز: أن الأقراء الحيض؛ إلا سعيد بن المسيب .

ومذهب أبى حنيفة . أن الأقراء الحيض وهو مروى عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وهو قول أهل الكوفة .

وقال أبو عمرو بن العلاء: القراء اسم ينطلق على الحيض، وينطلق على الطهر، ويذكر بمعناها أيضا .

وأصل القراء: الجمع . وقيل: هو مأخوذ من القراء بمعنى الوقت، يقال: أقرأت الرياح إذا هبت لوقتها .

وَقَرَأَتِ النُّجُومُ إِذَا أَفْلَتَ . ويكون بمعنى طلعت لوقت معلوم .

وأنشدوا فى الأقراء بمعنى الأطهار قول الأعشى :

أفى كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مُورثةً مالا وفى الحى رفعةً لما ضاع فيها من قُروء نساكا

يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ
بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فِيمَا سَأَلَ

وإنما يضيع في السفر زمان الأطهار لا زمان الحيض؛ لأنها مضيعة.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ يعني: من
الحيض، والحبل.

قال قتادة: علم الله تعالى أن يكون في النساء لوائم، تقول المرأة: حضت، ولم
تحض، وطهرت (١) ولم تطهر، وحبلت ولم تحبل.

قوله تعالى: ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إن كن يؤمن بالله﴾ والحكم في الكافرة مثل الحكم في المؤمنة؟ قيل: معناه: أن هذا من
فعل المؤمنات، كما يقال: إن كنت مؤمناً فأدّ حقى. يعنى: من فعل المؤمنين أداء
الحقوق. وقوله ﴿وبعولتهن﴾ أى: أزواجهن ﴿أحق بردهن﴾ أى: برجعتهن ﴿فى ذلك﴾ يعنى: فى تلك المدة. ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ معناه: إن أرادوا بالرجعة
الصلاح، وحسن العشرة، ولم يكن قصده الإضرار، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية.
كان الرجل منهم يطلق امرأته، ثم يراجعها إذا أشرفت العدة على الانقضاء، ثم
يطلقها، ثم يراجعها كذلك، يقصد به تطويل العدة عليها.

﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ قال ابن عباس: فى معناه: إنى أحب أن
أزين لامراتى كما تحب امرأتى أن تزين لى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ولهن مثل
الذى عليهن بالمعروف﴾ وفيه قول آخر، معناه: على الرجل أن يتقى لحقها كما على
المرأة أن تتقى لحقه يعنى: من الحرام.

﴿وللرجال عليهن درجة﴾ قال مجاهد: بالجهاد والميراث. وقيل: يعنى: فى
الطلاق؛ لأن الطلاق بيد الرجال. وقال حميد: باللحبة. ﴿والله عزيز﴾ أى: منيع

(١) فى «ك»: «تطهرت».

بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا

﴿حَكِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ . قال عروة بن الزبير: كان الناس في الابتداء يطلقون من غير حصر ولا عدد، فيطلق الرجل امرأته فلما قاربت انقضاء العدة راجعها، ثم طلقها كذلك، ثم راجعها، وقال: لا أخليك تتزوجين أبد، فنزلت الآية ﴿الطلاق مرتان﴾ . ويعنى: الطلاق الذى يملك عقبيه الرجعة مرتان .

﴿فإمساك بمعروف﴾ هو الرجعة، وقيل: هو الإمساك بعد الرجعة للصحة . وقوله: ﴿بمعروف﴾ هو كل ما يعرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح، وحسن الصحبة . ﴿أو تسريح بإحسان﴾ هو أن يتركها بعد الطلاق حتى تنقضى عدتها . «وسئل رسول الله ﷺ أين الطلقة الثالثة؟ فقال: أو تسريح بإحسان» (١) .

ولفظ السراح والفرق صريحان مثل الطلاق عند الشافعى .

وقال أبو حنيفة: الصريح لفظ واحد وهو الطلاق .

وقوله تعالى : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا﴾ يعنى: غصبا وظلما، وذلك مثل قوله فى سورة النساء: ﴿وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ يعنى: إنما يحل الأخذ عند

(١) رواه الدارقطنى (٤/٤٣)، والبيهقى فى سننه (٧/٣٤٠) من حديث أنس وأنكره، وصححه من حديث أبى رزین مرسلًا . وقال البيهقى: وروى عن قتادة عن أنس وليس بشيء .

ورواية أبى رزین أخرجهما أحمد، وأبو داود فى المراسيل، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، والبيهقى وغيرهم . وانظر التعليق المغنى على الدارقطنى .

(٢) النساء: ٢٠ .

إرادة الخلع، ووجود الخوف.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ﴾ يقرأ بفتح الياء وهو المعروف. وقرأ الأعمش وحمزة: «إِلَّا أَنْ يُخَافَ» بضم الياء^(١). وقرأ ابن مسعود: «إِلَّا أَنْ تَخَافُوا».

أما الأول: راجع إلى الزوجين. وأما قراءة ابن مسعود: فهي خطابٌ للولادة والقضاة. وأما قراءة حمزة: قيل: إنه قصد اعتبار معنى قراءة ابن مسعود، ومعناه: إلا أن يخاف الزوجان؛ [فيعلم]^(٢) الولاية والقضاة. وقالوا: إنه لم يصب.

واختلفوا في معنى هذا الخوف، قال أبو عبيدة إمام اللغة: الخوف بمعنى العلم. قال أبو إسحاق الزجاج: هو على حقيقة الخوف، معناه إلا أن يغلب على الظن خوف أن لا يقيما حدود الله.

وفيه قول ثالث: أن الخوف بمعنى الظن، قال الشاعر:

أَتَانِي كَلَامٌ مِنْ نَصِيبٍ (يقوله)^(٣) وَمَا خَفْتُ يَا سَلَامُ أَنْكَ [عَائِي]^(٤)

أى: ما ظننت.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَاقِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أى: فيما اختلعت به. واختلفوا في الخلع،

قال طائوس، والربيع بن أنس: يختص جواز الخلع بحال خوف النشوز؛ تمسكا بظاهر الآية.

وقال الزهرى: يختص جواز الخلع بقدر ما ساق إليها من المهر، حتى لا يجوز بالزيادة. وقال الحسن: الخلع إنما يجوز للولادة والقضاة؛ تمسكا بظاهر الآية.

(١) قرأ بالياء المضمومة: أبو جعفر، ويعقوب، وحمزة.

وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (٢٢٧/٢)، وتفسير البغوى (٢٠٧/١).

(٢) فى «الأصل و ك»: ومن الخائف، وما أثبتناه هو الصواب، انظر تفسير البغوى (٢٠٧/١).

(٣) فى «ك»: بقول.

(٤) فى «الأصل و ك»: عاصى.

أَفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ

والأكثرون على أن الخلع يجوز بكل حال، وبكل قدر تراضيا عليه من الزوجين وغيرهما.

وإنما الآية خرجت على وفق العادة في أن الخلع إنما يكون في حال خوف النشوز، وهو الأولى أن يؤتى بالخلع في حال النشوز، وبقدر المهر.

وقوله - تعالى - : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ أى : فلا تَجَاوِزُوها، وحدود الله : كل ما منع الشرع من المجاوزة عنه.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ . ظاهر المعنى .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ ﴾ هو الطلقة الثالثة . وحكمها تحريم العقد إلى أن يوجد الزوج الثانى . ثم التحليل للزوج الأول إنما يحصل بالعقد والوطء جميعا، على قول أكثر العلماء .

وحكى عن سعيد بن المسيب - وقيل : عن سعيد بن جبير - أنه يحصل بمجرد النكاح . بظاهر الآية . وقد عدّ هذا من شواذ الخلاف .

والدليل على صحة القول الأول : ما روى « أن امرأة رفاعة القرظى جاءت إلى رسول الله ﷺ ، وقالت : إن رفاعة بَتَّ طلاقى ، وتزوجت بعده بعبد الرحمن بن الزبير ، وإنما معه مثل هدية الثوب . فقال عليه السلام : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا ، حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » (١) . فدلّت السنة على اشتراط الوطء وهذا خبر صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ فالنكاح بمعنى الوطء ، ويكون بمعنى

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٧٤/٩ رقم ٥٢٦٠) ، ومسلم (١٠/٣-٧ رقم ٤٤٣٣) من حديث عائشة

عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ

العقد . ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ يعنى : الزوج الثانى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ وأراد بالرجعة هاهنا : إنشاء النكاح مع الزوج الأول .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ يعنى : إِنْ عَلِمَا أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا الصِّلَاحُ ، وَحَسَنَ الصَّحْبَةِ .

وقوله : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى : يعلمون ما أمر الله به

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أى : قاربن بلوغ الأجل كما يقال : بلغت المنزل ، إذا قاربه .

وقوله : ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أى : راجعوهن بالمعروف .

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو اتركوهن حتى تنقضى العدة .

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا﴾ أى : لا تقصدوا بالرجعة الضرر بالمرأة ، كما كانوا يفعلونه . ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أى : أضر بنفسه لا بغيره .

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ قالت عائشة - وهو الأصح - : هو النهى عن قصد الإضرار (بالرجعة) ^(١) فَإِنْ كُلٌّ مِنْ خَالَفَ أَمْرَ الشَّرْعِ فَهُوَ مَتَّخِذٌ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا . وقال أبو الدرداء - وهو قول الحسن - : هو أن الرجل منهم كان يطلق ، ثم يقول : ما كنت جادا ، ويعتق ، ثم يقول : ما كنت جادا ، كنت لاعبا .

وفيه قول ثالث : أنه نَهَى عن الزيادة على قدر الطلاق الثلاث .

(١) فى «ك» : مع الرجعة .

وَالْحِكْمَةَ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ

وقوله تعالى : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ قال عطاء : أراد به نعمة الإسلام .

﴿وما أنزل عليكم من الكتاب﴾ يعنى : القرآن ﴿والحكمة﴾ يعنى : السنة .

﴿يعظكم به﴾ يرشدكم به ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ .

قوله تعالى : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أراد ببلوغ الأجل فى هذه الآية : تمام انقضاء العدة .

وقوله تعالى : ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ والعضل : المنع .

قال الخليل : يقال : دجاج معضل ، إذا نشبت فيها البيضة وامتنعت من الخروج ؛ لضيق المخرج . ومنه الداء العضال ، وهو الذى لا يطاق علاجه .

وعن عمر - رضى الله عنه - أنه قال : أعضل بى أهل الكوفة . أى : ضيقوا على ، وأوقعوا بى فى أمر شديد .

وأكثر العلماء والمفسرين على أنه خطاب للأولياء ، نهاهم عن الامتناع من التزويج .

وقد قال الشافعى : هذا بين ، أنه دليل على أن المرأة لا تلى عقد النكاح .

ونزلت الآية فى معقل بن معقل بن يسار المزنى ؛ فإنه زوج أخته من رجل فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم جاء يخطبها مع الخطأب ، ورغبت المرأة فيه ، فقال معقل : زوجتك أختى دون غيرك ، وخطبها أشرف قومى فاخترتك ! أطلقتها ، لا أنكحتكها أبدا ؛ فنزلت الآية .

وفيه قول آخر : أنه خطاب للأزواج ؛ لأن ابتداء الآية خطاب لهم .

ومنع الأزواج هو ما ذكرنا من أن يطلق ، ثم يراجع ، ثم يطلق . والأول أصح .

وقوله - تعالى - : ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم

بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا

يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿﴾ إنما خصهم لأن الوعظ إنما يؤثر في المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿﴾ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴿﴾ أزكى لكم أى : خير لكم، وأطهر أى : أصلح . ﴿﴾ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿﴾ .

قوله تعالى : ﴿﴾ والوالدات يرضعن أولادهن ﴿﴾ هذا خبر بمعنى الأمر .
﴿﴾ حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴿﴾ .

فالحولان : (مدة) (١) الرضاع، فإن قال قائل : لم قال : كاملين؟

قيل : لأن الحولين قد ينطلق على الحول وبعض الحول الثانى، كما فى قوله : ﴿﴾ الحج أشهر معلومات ﴿﴾ (٢) أطلق الأشهر على شهرين وبعض الثالث، فقال : كاملين ليعرف أنه أراد تمام الحولين . وقيل : إنما قاله تأكيدا .

وروى أن امرأة أتت بولدٍ لسته أشهر من وقت النكاح، فجاء زوجها إلى عثمان فى ذلك . فهم عثمان - رضى الله عنه - برجمها، فقال على : لاسبيل لك عليها؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿﴾ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴿﴾ (٣) وقال : ﴿﴾ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴿﴾ فإذا ذهب الفصال حولين، بقى للحمل ستة أشهر، فتركها عثمان، ودرأ الحد .

وقوله تعالى : ﴿﴾ وعلى المولود له ﴿﴾ يعنى : الزوج أبو الولد . ﴿﴾ رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴿﴾ وذلك نفقة مدة الرضاع . ﴿﴾ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴿﴾ إلا طاقتها،

(١) فى «ك» : عدة .

(٢) البقرة : ١٩٨ .

(٣) الأحقاف : ١٥ .

تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وَسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ

يعنى: على الموسع بقدر وسعته، وعلى المقتر بقدر طاقته.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا﴾ بفتح الراء. وقرأ أبو عمرو وغيره بضم الراء. وقرأ أبان [عن] (١) عاصم: «لاتضارر» وفي الشواذ (٢). فمن قرأ بفتح الراء فمعناه: لاتضار المرأة بولدها. يعنى: لاينتزع الأب ولدها منها، فيسلمه إلى غيرها وهى راغبة فى الإرضاع.

ويحتمل أن معناه: أن المرأة لاتضار بولدها فتتركه (لغيرها)، وتمتنع من الإرضاع.

ومن قرأ بالرفع فهذا أيضا معناه، وهو معنى القراءة الثالثة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ يعنى الأب لا يضر بولده فيسلم إلى غير الأم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قال عمر: أراد به على غير الوالدين مثل ذلك النفقة، وهذا قول أبى حنيفة، فإنه يوجب نفقة القرابة على الإخوة والأعمام.

والقول الثانى: أراد بمثل ذلك: ترك المضارة. وهو قول ابن عباس، ولم ير النفقة على غير الوالدين. وهذا مذهب مالك والشافعى.

وفيه قول ثالث: أراد بالوارث هذا: الولد، عليه نفقته من ماله إن كان له مال.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أى: فيما دون الحولين. ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا﴾ يعنى: من الوالدين ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ أى: يشاور أهل العلم به حتى يخبروا أن الفصال فى ذلك الوقت لا يضر بالولد. والمشاورة: استخراج الرأى.

(١) فى «الأصل وك»: بن، خطأ.

(٢) قرأ ابن كثير، ويعقوب، وأبو عمرو. برفع الراء، وقرأ الباقر بفتحها واختلف على أبى جعفر فى تخفيف الراء وتسكينها، أم تشديدها وفتحها انظر النشر (٢/٢٢٧)، وتفسير البغوى (١/٢١٢).

تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا
يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ

وقيل: إن عمر ركب فرسا يشوره، أى: يستخرج سيره، فعطب تحته، فحكّم
شريحاً؛ فقضى عليه بالضمان. وقال: إنما ركبته سوماً؛ فولاه القضاء، فقضى بعد
ذلك سبعين سنة.

وقوله: ﴿فلا جناح عليهما﴾ أى: فلا حرج فى الفصل قبل تمام الحولين.

وقوله: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ أى: تستأجروا مرضعة لأولادكم،
واللام محذوفة. ومعناه: أن تسترضعوا لأولادكم.

وقوله: ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾.

يقرأ: «آتيتم» ممدوداً، ويقرأ: «آتيتم» مقصوراً^(١) ومعنى الأول: إذا سلمتم إلى
الأم، وما آتيتم أى: ما سميت لها من أجره الرضاع بقدر ما أرضعت. ويحتمل
التسليم إلى المستأجرة أجزتها إلى الرضاع.

ومن قرأ «آتيتم» فمعناه: إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف، يعنى: إذا سلمتم لأمره
وانقدتم لحكمه فيما فعلتم من المعروف. ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون
بصير﴾.

قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم﴾ قرأ على: «يتوفون» بفتح الياء، ومعناه:
يستوفون أعمارهم. والمعروف بضم الياء، ومعناه: والذين يموتون ويتوفى آجالهم
﴿ويذرون أزواجاً﴾ أى: ويتركون أزواجاً والمراد بالأزواج: الزوجات.

﴿يتربصن﴾ ينتظرن ﴿بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ الآية فى عدة الوفاة، وهى
مقدرة بأربعة أشهر وعشر باتفاق الأمة لنص الكتاب.

(١) قرأ ابن كثير بقصر الهمزة. وقرأ الباقر بالمد. انظر النشر (٢/٢٢٨).

فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ

وقيل : إنما قدر بتلك المدة لحكمة، وهى أن الولد يرتكض فى بطن الحامل لنصف مدة الحمل وأربعة أشهر وعشر قريب من نصف مدة الحمل .

والارتكاض : بمعنى التحرك، ويقال : امرأة مركضة إذا تحرك [فى] (١) بطنها، قال الشاعر :

وَمُرْكُضَةٌ صَرِيحِيُّ أَبُوهَا يَهَانُ لَهَا الْغُلَامَةُ وَالْغُلَامُ

وأما قوله : ﴿ وعشرا ﴾ فهى ليل، يقال : عشرة أيام وعشر ليل، وإنما خص الليالى لأن كل أجل يبتدئ من الليل .

وقال المبرد : أراد به : عشر مدد، كل مدة يوم وليلة .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أى : انقضت عدتهن .

﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ﴾ يعنى : فيما فعلن من اختيار الأزواج دون العقد، والعقد إلى الولي .

وقيل : معناه فيما (تَزَيْنُ) (٢) للأزواج زينة لا ينكرها الشرع . ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون خبير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ التعريض بالخطبة فى أوان العدة جائز . والخطبة : خطبة العقد، يقال : خَطَبَ يَخْطُبُ خُطْبَةً إذا خطب العقد . وَخَطَبَ يَخْطُبُ خُطْبَةً إذا خطب الناس بكلام معلوم الأول والآخر .

وصورة التعريض بالخطبة : أن يقول للمرأة : إنكِ الجميلة، وإنكِ على لكريمة، وإنى لراغب فى النساء، أو ما قضى الله يكون، ونحو ذلك . فهذا لا بأس به فى حق المعتدة . ولا يجوز التصريح بالخطبة .

وقال مجاهد : وذلك أن يقول : لاتسبقينى بالنكاح، أو يقول : لاتفتوينى على نفسك، أو أخطبك حتى إذا حللت أتزوجك، ونحو هذا .

(٢) فى «ك» : تتزين .

(١) فى «الأصل» : ذو .

وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

وقيل: إن ذلك يجوز مع الولي بأن يقول له: لاتسبقتني بالنكاح ونحو ذلك.

وإنما لايجوز التصريح معها. والدليل على جواز التعريض بالخطبة: ما روى أن سكيئة بنت حنظلة تأيمت عن زوجها، فدخل عليها أبو جعفر محمد بن علي الباقر، وقال: تعلمين قرابتي من رسول الله، وقرابتي من علي، وحقى في الإسلام، وشرفى في العرب. فقالت سكيئة: أتخطبني وأنا معتدة وأنت أنت - يعنى: منك يؤخذ العلم؟! فقال: ما خطبتك، ولكن ذكرت منزلتي.

ثم روى «أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة - وكانت فى عدة زوجها أبى سلمة، فذكر - عليه السلام - كرامته على الله، ومنزلته عند الله، وكان يذكر من ذلك ويعتمد على يديه حتى أثر الحصر فى يديه» (١). فهذا كله من التعريض بالخطبة، ودل الحديث على جوازه.

وقوله - تعالى -: ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: أضمرتم فى أنفسكم أمر النكاح ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ يعنى: فى أنفسكم. ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ فى معنى هذا السر أقوال، أصحها: أنه أخذ ميثاق النكاح مما نهى الشرع عنه فى حال العدة.

وقيل: السر: الزنا. وقيل: هو الوطء. قال امرؤ القيس:

أَلَا زَعَمْتَ بِسِبَاسَةِ الْيَوْمِ أُنِّى كَبِرْتُ وَأَنْ لَا يَحْسَنُ السِّرُّ أَمْثَالِي

يعنى: الجماع. قال الشافعى قوله: ﴿لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ هو أن يصف نفسه بكثرة الجماع؛ ليرغبها فى نكاحه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ هو ما ذكرنا من التعريض المباح.

قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أى: لاتحققوا العزم على عقد النكاح فى العدة حتى يبلغ الكتاب أجله ﴿أى: فرض الكتاب؛ لأن العدة من فرض الكتاب.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ هذا فى التحذير عما نهاهم عنه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

(١) رواه الطبري فى تفسيره (٣٢٢/٢)، والدارقطنى فى سننه (٢٢٤/٣)، والبيهقى فى الكبرى (١٧٨/٧) جميعهم من حديث أبى جعفر الباقر مرسلا.

غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً

قوله تعالى : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ تقديره : ولم تمسوهن ، ولم تفرضوا لهن فريضة .

هذه الآية فى المطلقة قبل الفرض والمسيس . وفى الآية دليل على جواز إخلاء النكاح عن تسمية المهر . وفيها دليل على وجوب المتعة فى الجملة ؛ فإنه قال : ﴿ ومتعهن ﴾ .

قال ابن عباس فى المتعة : أعلاها خادم ، وأوسطها الورق ، وأدناها ثوب للكسوة . قال الشافعى : واستحسن فى المتعة أن تكون من عشرين درهما إلى ثلاثين ، وفى الجملة هى مفوضة إلى اجتهاد الحكام ، فيوجب على كل واحد تقدير ما يرى ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾ .

قال شريح : هذا إرشاد وندب إلى الإمتاع ، ولم ير وجوب المتعة ، وسائر العلماء ذهبوا إلى وجوب المتعة ، فمذهب على - رضى الله عنه - أن لكل مطلقة متعة . وقال ابن عمر : لكل مطلقة متعة ؛ إلا التى فرض لها زوجها ، وطلقها قبل الدخول ، حسبها نصف المسمى ، وهذا أحد قولى الشافعى .

وفيه قول ثالث : أنها لا تجب إلا للتى لم يفرض لها ، وطلقت قبل الدخول .

قوله تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ هذه الآية فى المطلقة بعد الفرض قبل المسيس ، وجب لها نصف المسمى عند الطلاق قبل الدخول .

﴿ إلا أن يعفون ﴾ هذا فى الزوجات ، يقال : عفو ، تعفوان ، يعفون . ومعنى عفو المرأة : هو الفضل بترك النصف الذى وجب لها .

﴿ أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ﴾ قال على - وهو مذهب شريح ، والشعبى :

فَنَصِّفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا

إن المراد به: الزوج، وعفوه: الفضل بإعطاء تمام المهر.

وقال ابن عباس: أراد به: الولي - وهو الأليق بنظم الآية - ورأى جواز إبراء الولي عن مهر المرأة.

وفيه قول ثالث: أنه في أب البكر خاصة، وله العفو عن مهر ابنته مادامت بكرا. والفتوى على أن ليس إلى الولي من العفو شيء. وإنما الآية في الزوج، كما قال على رضى الله عنه.

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ الخطاب مع الكل. ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أى: أفضال بعضكم على بعض. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أمر بالمحافظة على جميع الأوقات.

وأما الصلاة الوسطى ففيها سبعة أقوال: أحدها: قال عمر، وعلى، وأبو هريرة، وأبو أيوب، وعائشة - رضى الله عنهم - هى صلاة العصر، لأنها وسط (صلاتي) (١) الليل وصلاتي النهار.

وعن حفصة أنها قالت لكتاب مصحفها: إذا بلغت قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ فأعلمنى، فلما بلغه أعلمها، فقالت: اكتب: والصلاة الوسطى صلاة العصر.

وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم الخندق: «شغلونا عن صلاة الوسطى - صلاة العصر - ملائكة بطونهم وقبورهم نارا» (٢).

والقول الثانى - وهو قول زيد بن ثابت -: أنها صلاة الظهر، لأنها وسط النهار.

(١) فى «ك»: صلاة.

(٢) متفق عليه من حديث على بن أبى طالب، إلا أن ذكر صلاة العصر تفرد بها مسلم، رواه البخارى (٤٣/٨) رقم

(٤٥٣٣)، ومسلم (١٧٧/٥ - ١٧٨ رقم ٦٢٧)، وفى الباب أحاديث، وانظر تعليق الحافظ ابن حجر فى الفتح.

والقول الثالث - وهو قول ابن عباس، وابن عمر، وجابر - : أنها صلاة الصبح . وهو [اختيار] ^(١) الشافعى لأنها وسط صلاتى الليل وصلاتى النهار .

ووراء هذا فيه أربع أقوال غريبة : أحدها قاله قبيصة بن ذؤيب : أنها صلاة المغرب ؛ لأنها وسط فى عدد الركعات .

والقول الثانى - وهو قول سعيد بن المسيب، والربيع بن خثيم - : أنها كل صلاة من الصلوات الخمس ؛ لأن كل صلاة من الصلوات الخمس : وَسْطَى بين الأربع . وإنما خصه بعد ذكر الصلوات تأكيدا وتحريضا على المحافظة على جميع الصلوات .

والقول الثالث : أنها الجمعة .

والقول الرابع : أنها الجماعة .

واختلفوا فى صلاة الصبح أنها من صلاة الليل ، أو من صلاة النهار ؟

فأكثر العلماء على أنها من صلاة النهار .

وقال بعضهم : إنها [من] ^(٢) صلاة الليل . وهذا الخلاف يرجع إلى أن النهار من وقت طلوع الفجر أو [من] ^(٣) وقت طلوع الشمس .

فمن قال : إنه من وقت طلوع الفجر ؛ جعل صلاة الصبح من صلاة النهار .

ومن قال : إن النهار من وقت طلوع الشمس ؛ جعلها من صلاة الليل . واستدل قائل هذا القول بقول أمية بن الصلت .

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد

وقال ابن الأنبارى : ليل محض ، ونهار محض ، ومشارك بين الليل ، والنهار فصلاة المغرب والعشاء الآخرة فى محض الليل .

وصلاة الظهر والعصر فى محض النهار ، وصلاة الصبح مشترك بين الليل والنهار .

(١) فى « الأصل وك » : اختيارات .

(٢) ليست فى « الأصل ولا ك » .

(٣) من « ك » .

فَإِذَا أَمِنتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ
مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا

وفيه قول آخر - هو المختار - : أنه ليل لغة ونهار شرعا .

وقوله : ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أى : مطيعين ساكتين .

وذلك أن الكلام كان مباحا فى الصلاة فى الابتداء، فلما نزلت هذه الآية؛ سكتوا .

والقارئ فى الصلاة ساكت عن الكلام . ومذهب الشافعى أنه [لو] (١) حلف

لا يتكلم فقرأ القرآن لم يحنث؛ لأنه كلام الله لا كلامه .

خلافاً لأبى حنيفة قال : يحنث .

قوله تعالى : ﴿فإن خفتن فرجالا أو ركبانا﴾ هذه فى صلاة الخوف، يصلون

مشاة، وفرسانا .

وقوله : ﴿فإذا أمنتن فأذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ يعنى : كما

علمكم من أصل الصلاة فى حال الأمن .

قوله تعالى : ﴿والذين يثوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم﴾ . يقرأ

بالفتح، وتقديره : أوصوا وصية . ويقرأ بالضم : وتقديره : عليكم وصية، (٢) وهذا ورد

فى ابتداء الإسلام حين كانت (العدة للوفاة) (٣) حولا كاملا، وكانت نفقة جميع

الحول على الزوج واجبة، وكان يجب عليه الوصية بالإئناق إذا مات، فهذا معنى

قوله : ﴿وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول﴾ أى : نفقة الحول .

وقوله : ﴿غير إخراج﴾ وحرم على الوارث إخراج المعتدة من البيت قبل تمام الحول،

لكن إذا خرجت بنفسها سقطت نفقتها . فنسخ ذلك بآية عدة الوفاة كما سبق، وتلك

(١) ليست فى «الأصل» ولا «ك»، ويقتضيها السياق .

(٢) قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، وحفص بالفتح، وقرأ الباقر بالضم . انظر النشر (٢/٢٢٨)، وتفسير

البغوى (١/٢٢٢) .

(٣) فى «ك» : عدة الوفاة .

جَنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾
وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

الآية وإن كانت متقدمة في التلاوة ولكنها متأخرة في المعنى، وهى ناسخة لهذه الآية.
وقيل لعثمان: ألا تضع تلك الآية مكان هذه الآية، وهذه مكان تلك؟ فقال: أكره
أن أُغَيِّرَ القرآن عن موضعه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ
مَعْرُوفٍ﴾ هو ما ذكرنا بعد الفراغ من العدة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أعاد ذكر المتعة تأكيدا.

وسبب نزول الآية: ما روى أنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا
عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) قالوا: إن شئنا نمتع، وإن شئنا لا نمتع، فنزلت هذه الآية.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: المتعة لهن ملكا، جعلها لهن بلام التملك.
وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ يعنى: واجبا على المؤمنين^(٢).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ لأنه ذكر فيما قبل كثيرا من الآيات،
والأحكام، فأراد به ذلك. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: تفهمون وتفقهون.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ قال ابن عباس:
كانوا أربعة آلاف، وقال غيره: كانوا ثمانية آلاف، وقال السدى: كانوا [بضعة]^(٣)

(١) البقرة: ٢٣٦.

(٢) فى «ك»: على امرئ يتقى.

(٣) فى «الأصل وك»: بضعة.

فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا

وثلاثين ألفا وفي رواية ابن جريج: أربعين ألفا، وقال ابن دريد: ألفوف، أى: مؤتلفة
قلوبهم، والصحيح أن المراد به: العدد كما بينا.

وقوله: ﴿حذر الموت فقال لهم الله موتوا﴾ أى: أماتهم الله ﴿ثم أحياهم﴾ هذا
[فى] (١) قوم من بنى إسرائيل هربوا من الطاعون، وقالوا: نذهب إلى أرض ليس بها
طاعون، فذهبوا فأماتهم الله تعالى هنالك وبقوا سبعة أيام كذلك، فمر بهم نبي
يقال له: حزقيل، فدعا الله تعالى فأحياهم. قال الحسن البصرى: أماتهم الله تعالى
قبل آجالهم؛ عقوبة لهم، ثم أحياهم ليستوفوا آجالهم.

وفى القصص: أنه بعد ما أحياهم كان يوجد منهم ريح الموت، وكذلك من
أولادهم. وقوله تعالى: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ قيل: هو على العموم فى
حق الكافة فى الدنيا، وقيل: هو على الخصوص فى حق المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أما الكفار فلا يشكرون.

وأما [المؤمنون] (٢) فلم يبلغوا غاية الشكر.

قوله تعالى: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميعٌ عَلِيمٌ﴾ قيل الخطاب
مع الصحابة. والمعنى فيه: أن أولئك القوم لما هربوا من الموت لم ينفعهم الهرب حتى
أدركهم الموت، فلا تقعدوا أنتم عن القتال خوفا من الموت؛ بل جاهدوا وقاتلوا فى
سبيل الله.

وقيل: الخطاب مع أولئك القوم من بنى إسرائيل، فإنهم إنما قعدوا عن القتال؛
فأماتهم الله ثم أحياهم، وأمرهم بالقتال.

(١) من «ك».

(٢) فى «الأصل وك»: المؤمنين. وهو خلاف الجادة.

الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ

قوله تعالى : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا﴾ القرض : هو القطع . ومنه المقرض ، وسمى القرض قرضا ؛ لأنه يقطع من ماله شيئا ليكافأ عليه . أو يرد عليه مثله .

قال لبيد :

وإذا جوزيت قرضا فأجزه إنما يجزى الفتى ليس الإبل

فإن قيل : كيف يكون الإقراض من الله تعالى ؟ قيل معناه : يقرض أنبياء الله . فقال الضحاك : معناه : يتصدق لله ، وسماه قرضا لأن الله تعالى قد وعد الثواب عليه .

وقوله تعالى : ﴿قرضا حسنا﴾ يعنى : حلالا ، وقيل : حسناً أى : طيبة نفسه به .

وقوله : ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ يقرأ بقراءات : فيضاعفه « بضم الفاء على إتباع قوله : ﴿يقرض﴾ .

وقرىء : « فيضاعفه » . بفتح الفاء نصبا على جواب الاستفهام . ويقرأ : « فَيُضَعِّفُهُ » بالياء ويقرأ بالنون : « فنضعفه » ^(١) .

والتضعيف والمضاعفة بمعنى واحد . والضَّعْفُ كل ما زاد على المثل .

وقوله : ﴿أضعافا كثيرة﴾ قال السدى : كثيرة لا يعلم عددها إلا الله .

وقال غيره : سبعمائة ضعف .

وقوله : ﴿والله يقبض ويبسط﴾ فيه أربعة أقوال :

(١) قرأ ابن عامر ، ويعقوب بفتح الفاء ، وقرأ الباقون بضمها ، واختلفوا فى حذف الألف وتشديد العين ، فقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوب « فيضعفه » بالتشديد مع حذف الألف ، وقرأ الباقون بإثبات الألف والتخفيف .

انظر النشر (٢٢٨/٢) ، وتفسير البغوى (٢٢٥/١) ، وتفسير القرطبى (٢٤٢/٣) .

تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لِهْمُ

[أحدهما^(١)]: قال الحسن: يقبض بالتقتير، ويبسط بالتوسيع.

وقال الزجاج: يقبض بقبول الصدقة، ويبسط بإعطاء الثواب عليه.

والقول الثالث: يقبض بتقليل الأعمار، ويبسط بتكثير الأعمار.

والقول الرابع: يقبض بالتحريم، ويبسط بالإباحة.

وقوله تعالى: ﴿وإليه ترجعون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ الملاء: أشرف كل قوم. وفي الخبر: «أنه لما قتل رءوس المشركين مثل أبي جهل، وعتبة، وغيرهما يوم بدر قال رجل من الأنصار: ما قتلنا إلا عجائز صلعا - أى: أواخر القوم شيوخا - فكره ذلك رسول الله ﷺ وقال: أولئك الملاء من قريش؛ لو رأيتهم هبتهم، وإن أمروك أطعتهم، واحتقرت فعلك مع فعلهم»^(٢).

وقوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لِهْمُ﴾ (أحدهما) قيل: ذلك النبي كان اشمويل، وقيل: كان يوشع بن النون، وقيل: هو شمعون، وسمى بذلك؛ لأن الله تعالى دعاه فسمعه. والقصة في ذلك: أن بني إسرائيل [ظهر]^(٣) عليهم العدو، وسبوا من أبناء ملوكهم أربع مائة وأربعين نفرا - وكانوا قد قعدوا عن القتال أربع سنين - فجاءوا إلى نبيهم ذلك، وقالوا له: ابعث لنا ملكا يجتمع أمرنا عليه

(١) من «ك».

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٨٦ - ٨٧ رقم ٢٠١) من حديث عدى بن حاتم في حديث طويل، وقال الهيثمي في المجمع (٢٧/ ١٠) وفيه حصين السلولى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وذكر موسى بن عقبة في كتاب المغازي له أن القائل هو سلمة بن سلامة أحد بني عبد الأشهل، رواه البيهقي بإسناده لموسى في الدلائل (٣/ ١٤٧).

(٣) ليست في «الأصل» ولا «ك» وما أثبتناه يقتضيه السياق.

أَبْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

فَنَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ القراءة المعروفة : بفتح السين . وقرئ : « هل عَسَيْتُمْ » بكسر السين وهما في المعنى سواء . وبالفتح أصوب .

وقوله : ﴿ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ ومعنى الآية : لعلكم أن تجبنوا عن القتال فلا تقاتلوا .

وقوله : ﴿ قَالُوا وَمَالُنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : ما يمنعنا أن نقاتل فى سبيل الله . ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا ﴾ لأنهم كانوا أخرجوا من بيت المقدس .

﴿ وَأَبْنَاءِنَا ﴾ أى : أخرجنا من أبنائنا بالسبى ، والسبى فيه مضمر ، ومثله قول الشاعر :

ورأيت زوجك فى الوغى ^(١) متقلدا سيفاً ورمحاً

أى : وحاملاً رمحاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وأراد بالقليل : أولئك الذين اقتصروا على الغرقة ، وجاوزوا مع طالوت وسياًتى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا ﴾ قيل : إنه كان سقاءً يستسقى على الحمار .

وسمى طالوت ؛ لطوله لأنه كان أطول من كل أحد برأسه ومنكبه .

وقيل : كان الرجل منهم إذا رفع يديه وصل إلى رأسه ، يعنى : رأس طالوت .

(١) جاء هذا الشطر فى لسان العرب (مادة : قلد) : ياليت زوجك قد غدا .

بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ

وقوله: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أى: كيف يكون له الملك علينا، وليس هو من سبط النبوة، والمملك؟

وذلك أن سبط النبوة كان سبط لاوى بن يعقوب، وهو سبط موسى بن عمران، وسبط الملك كان سبط يهوذا، وكان طالوت من سبط بنيامين، ولم يكن سبط ملك ولا نبوة؛ وذلك أنهم كانوا قد عصوا الله معصية عظيمة؛ فنزع الله منهم النبوة والمملك وكانوا يسمون سبط الإثم.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ لأنه كان سقاء كما بينا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: اختاره عليكم.

وقوله: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أما الزيادة بالجسم: معلوم.

وأما العلم: قيل أراد به علم الحرب - وكان طالوت أعلمهم بأمر الحرب - وقيل: أراد به علم الدين، والأول أصح.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فالواسع: ذو السعة، وهو الذى يعطى عن غنى.

وأما العليم: فقليل: العليم والعالم بمعنى واحد، ومنهم من فرق بين العليم والعالم، فقال: العالم: بما كان، والعليم: بما يكون.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ طلبوا منه آية على الملك، فأخبرهم نبيهم بآية ملكه، وذلك إتيان التابوت.

قيل: هو التابوت الذى كان مع موسى وهارون، كانت بنو إسرائيل يخرجون به إلى الغزوات ويستنصرون به.

يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ

وقيل : كان من شجر الشمشاذ، وكان ثلاثة أذرع فى ذراعين .

وفيه قول آخر: أنه التابوت الذى أنزله الله تعالى على آدم مع الركن، وكان فيه صور الأنبياء .

وقوله : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال على - رضى الله عنه - : السكينة لها وجه كوجه الإنسان، وهى بعد ريح هفافة .

وقال ابن عباس : هو طست من ذهب كان يُغَسَّلُ فيه قلوب الأنبياء، وقيل : هى شىء يشبه الهرله عينان لهما شعاع، وله جناحان من الزمرد والبرجد، وكانوا إذا سمعوا صوته تيقنوا بالنصر، وكانوا إذا خرجوا بالتابوت إلى الحرب يضعونه قدامهم، فإن سار ساروا، وإن وقف وقفوا .

وقال مجاهد : السكينة آية كانوا يسكنون إليها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ وذلك عصى موسى، ونعلاه، وعمامة هارون، ورضاض الألواح التى تكسرت، وقفيز من المن الذى أنزل على بنى إسرائيل .

وقيل : أراد به التوراة، كانت فى التابوت . ﴿ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ يعنى : موسى وهارون، ومثله قول الشاعر :

فَلَا تَبْكُ مِيتًا بَعْدَ مِيتِ أَجْنَهُ عَلَىٰ وَعَبَّاسٍ وَآلِ أَبِي بَكْرٍ

أى : دفنه يعنى : وأبو بكر .

وقوله تعالى : ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قال الحسن : كان التابوت مع الملائكة فى السماء، فلما تولى طالوت الملك، حملت الملائكة التابوت ووضعوه بينهم .

وقيل : إن العمالقة غلبوا على التابوت، ودفنوه، فأمر الله تعالى الملائكة حتى استخرجوه، وحملوه إليهم .

الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ

قال ابن عباس: إن العمالقة لما غلبوا على التابوت أخذهم الباسور، فعلموا أن ذلك عقوبة عليهم من أجل التابوت، فشدوه على عجلة وحملوه على ثورين، وساقوهما إلى المفازة وتركوه فجاءت الملائكة وساقوا ذلك إلى بنى إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ قال ابن عباس: كان عدد الجنود ثمانين ألفاً.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ وذلك نهر كان بين أردن وفلسطين، ومعناه: أن الله ممتحنكم بذلك النهر؛ ليظهر من له نية وقصد في القتال، ممن لانية له. وقوله: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ قاله طالوت، يعنى: ليس من أهل ولايتي وصحابتي.

﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أى: من لم يذقه، قال الشاعر:

فَإِنْ شِئْتَ حَرَمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتَ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا وَلَا بَرْدًا

أى: لم أذق ماء ولا نوما. يقال: منع البردُ البردَ أى: منع البردُ النومَ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ يقرأ بقراءتين، بفتح الغين وضمها (١).

والغُرْفَةُ بفتح الغين: المرة. والغُرْفَةُ بضم الغين: ملء الكف.

وقوله: ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال عكرمة: كان عدد القليل الذين اقتصروا على الغرفة: أربعة آلاف.

(١) قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو بفتح الغين وقرأ الباقون بضمها. انظر النشر (٢/ ٢٣٠)، وتفسير

البغوى (١/ ٢٣١).

اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ

وأكثر المفسرين - وهو الأصح - على أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر نفرا .

قال البراء بن عازب : كنا نتحدث أن عدد أصحاب رسول الله ﷺ ، ورضى عنهم يوم بدر كانوا على عدة الذين جاوزوا مع طالوت ، وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر نفرا^(١) . قال البراء بن عازب : ولم يجاوز إلا مؤمن .

وفى القصص : أنهم لما وصلوا إلى النهر ، كان قد ألقى الله عليهم العطش ، فشرب الكل إلا هذا العدد القليل . وكل من شرب منهم اسودت شفتاه ، ولم يرو ، وبقي على الشط ، وكل من اقتصر على الغرفة روى وجاوز .

وقيل : إن الكل جاوزوا ، ولكن حضر بعضهم القتال ، ولم يحضر البعض .

وقوله : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ قال ابن عباس والسدي : إنما قاله الذين انخذلوا ولم يجاوزوا ، وقيل : إنما قاله من الذين جاوزوا ؛ من قلت بصيرته في الدين دون من قويت بصيرته .
وقوله - تعالى - : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملأوا الله ﴾ يعني : الذين قويت بصيرتهم .

﴿ يظنون ﴾ يستيقنون أنهم ملأوا الله ، وقد ذكرنا الظن بمعنى اليقين ، وقيل : هو على حقيقة الظن يعني : الذين يظنون إصابة الشهادة في الواقعة .

وقوله : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ بقضائه وإرادته .

﴿ والله مع الصابرين ﴾ بالنصر والمعونة .

وقوله : ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده ﴾ كان جالوت رئيس تلك العمالقة .

(١) البخارى فى صحيحه (٧/٣٣٩ رقم ٣٩٥٧) .

وَجُنُودَهُ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ معناه: أصبب علينا.

وقوله: ﴿وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أى: فى القتال ﴿وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

قوله - تعالى - : ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: كسروهم، يقال: سقاء مهزم، ومنهزم أى: متكسر مُتَثَنٍّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

وقوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: بقضائه وإرادته.

وقوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ وفى القصة: أن أبا داود حضر الحرب مع ثلاثة عشر نفرا من أولاده كان أصغرهم سنا داود، وكان [أصاب] (١) معه مقلاع وقذافة، فبرز جالوت وطلب البراز وخرج إليه داود، ورماه بالمقلاع - الحجر - بين عينيه وخرج من قفاه، وأصاب قوما آخرين وقتلهم.

وقوله: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ جمع لدواد بين الملك والحكمة، يعنى: النبوة. قيل: بعده بسبع سنين، ولم يكن من قبل مجتمعا، بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط، وقيل: الملك والحكمة: هو العلم مع العمل.

وقوله: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ قيل: صنعة الدروع، وأصوات الطيور، والزبور.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ قرأ نافع: «ولولا دفاع الله» (٢) والمعنى واحد.

قال ابن عباس ومجاهد: معناه: لولا دفع الله الكفار بالمؤمنين؛ لكثر الكفر، ونزلت السخطة، واستؤصلت الأرض.

(١) فى «الأصل وك»: ماصاب. وما أثبتناه هو الصواب.

(٢) وهى قراءة أبى جعفر المدنى، ويعقوب أيضاً، بكسر الدال، وألف بعد الفاء. وقرأ الباقر بفتح الدال،

وإسكان الفاء، بغير ألف. انظر النشر (٢/ ٢٣٠)، وتفسير البغوى (١/ ٢٣٥).

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾
تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ

وقال على، وعامة المفسرين: إن الله يدفع بالمتقى عن غير المتقى، وبالصالح عن الفاجر، وبالمصلح عن غير المصلح، وبالمؤمن عن الكافر، وهو معنى قول النبي ﷺ «لولا مشايخ رقع، وبهائم رتع، وصبيان رضع، لصب عليكم العذاب صبا» (١).

وقال رسول الله ﷺ «إن الله يدفع البلاء بالرجل الصالح عن مائة بيت من أهله وجيرانه» (٢).

وقوله: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهى ما ذكر من الآيات.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ هذه الآية فى بيان فضل الرسل بعضهم على بعض مع استوائهم فى أصل الرسالة.

وقوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعنى: موسى وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ يعنى: محمداً ﷺ قال الزجاج: ما أوتى نبي آية إلا أوتى نبينا مثل تلك الآية، وقد أوتى انشقاق

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده (٢٨٧/١١ رقم ٦٤٠٢)، (٥١١/١١ رقم ٦٦٣٣)، والبخارى - كما فى مختصر الزوائد (٤٥٠/٢ رقم ٢١٩٣)، والطبرانى فى الأوسط - كما فى مجمع الزوائد - (٢٦٤/٨ رقم ٥٠٨٤)، والبيهقى فى الكبرى (٣٤٥/٣)، والخطيب فى تاريخه (٦٤/٦)، كلهم من حديث أبى هريرة.

وقال الهيثمى فى المجمع (٢٣٠/١٠): وفيه إبراهيم بن خثيم، وهو ضعيف.
ورواه الدولابى فى الكنى (٤٣/١ - ٤٤)، والطبرانى فى الكبير (٣٠٩/٢٢ رقم ٧٨٥)، وفى الأوسط - مجمع البحرين - (٢٦٤/٨ - ٢٦٥ رقم ٥٠٨٥)، وابن عدى فى الكامل (٢٤٣/١)، (٣٨٠/٦) كلهم من طريق مالك بن عبيدة بن مسافع، عن أبيه عن جده.

وقال الهيثمى فى المجمع (٢٣٥/١٠): فيه عبد الرحمن بن سعد بن عمار، وهو ضعيف.
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٤٠٤/٢)، والطبرانى فى الأوسط - مجمع البحرين - (١٩١ - ١٩٠/٥ رقم ٢٨٩٩)، (٢٢٢/٨ رقم ٥٠٠٥)، والعقلى فى الضعفاء (٤٠٣/٤ - ٤٠٤) وابن عدى فى الكامل (٣٨٢/٢ - ٣٨٣)، والبقوى فى تفسيره (٢٣٦/١)، وأشار الطبرانى، وابن عدى إلى تفرد حفص بن سليمان به - وهو متروك.
وقال الهيثمى فى المجمع (١٦٧/٨): رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف.

وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ

القمر، وحنين الجذع، وكلام الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع، والقرآن العظيم، وبعث إلى الأحمر والأسود، وغيره من الأنبياء بعث إلى قوم مخصوصين.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قد سبق ذكره.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْنَاتُ﴾ هذا دليل على القدرية حيث أحالوا الاقتتال على المشيئة.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ منهم من تفضل عليه الله فآمن، ومنهم من خذله الله فكفر.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ أعاده ثانيا تأكيداً. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال السدي: أراد به الزكاة المفروضة. وقال غيره: أراد به الإنفاق في سبيل الله وقوله: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني: يوم القيامة.

وقوله: ﴿لَا بَيْعُ فِيهِ﴾ أى: لافدية فيه، وسماها بيعاً، لأن في الفدية شراء نفسه.

وقوله: ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قد نفى الخلّة هاهنا في القيامة، وقد قال في آية أخرى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (١) فثبت الخلّة.

وقيل: تقديره: الأخلاء في الدنيا بعضهم لبعض عدو يوم القيامة، وإنما قال ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ وذلك أن الكفار كانوا يقولون: إن الملائكة أخلاؤنا والأصنام

الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي

شفعاؤنا فقال: لا تنفع خلتهم ولا شفاعتهم.

وقوله: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ذكره مبالغة في الثناء، وهو مثل قولهم: لا كريم إلا فلان. أبلغ من قولهم: فلان كريم.

وقوله: ﴿الحى القيوم﴾ قرأ عمر: «الْقَيَّام». وقرأ علقمة: «الْقَيِّمُ» والمعروف: ﴿القيوم﴾. فالحى هو الباقي الدائم على الأبد، وهو من الحياة.

والحياة: صفة الله تعالى وأما القيوم: قيل: هو القائم على كل أحد بتدبيره في الدنيا.

وقيل: هو القائم على كل نفس بما كسبت للمجازاة في الآخرة.

وقيل: هو القائم بالأمور.

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ قال المفضل الضبى: السَّنة في الرأس، والنوم في القلب، فالسَّنة أول النوم، وهو النعاس.

ومنهم من فرق بين السَّنة والنعاس، فقال: السَّنة في الرأس والنعاس في العين، والنوم في القلب.

والنوم: غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع من المعرفة بالأشياء.

وفى الأخبار أن «موسى - عليه السلام - قال يارب ألك نوم؟ فأوحى إليه ياموسى انظر ما تقول، خذ قَارُورَتَيْنِ فأخذهما بيديه فالتقى الله عليه النوم، فوقعت إحداهما على الأخرى وانكسرتا، قال الله تعالى: لو كان لى نوم ما قامت سماء ولا أرض»^(١).

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

(١) رواه الطبرى (٦/٣)، وأبو يعلى (٢١/١٢) رقم ٦٦٦٩، والبيهقى فى الاسماء والصفات (ص ٦٨ - ٦٩)، والخطيب فى تاريخه (٢٦٨/١) وابن الجوزى فى العلل (٣٩/١ - ٤٠ رقم ٢٣، ٢٢)، كلهم من حديث أبى هريرة، قال ابن الجوزى: لا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، وغلط من رفعه. وقال الذهبى فى الميزان (٢٧٦/١): حديث منكر... ولا يسوغ أن يكون هذا وقع فى نفس موسى، وإنما روى أن بنى إسرائيل سألوا موسى عن ذلك.

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

لأنهم زعموا أن الملائكة والأصنام يشفعون لهم فقال: ﴿من ذا الذي﴾ يمكنه الشفاعة إلا برضاه.

وقوله: ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ يعني: الآخرة ﴿وما خلفهم﴾ يعني: الدنيا، وقيل: ﴿ما بين أيديهم﴾ ما قدموا ﴿وما خلفهم﴾ ما خلفوا. وقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾.

الإحاطة: العلم بالشئ بجميع جهاته وأنواعه، ومعناه: ولا يحيطون بشيء من علم الغيب إلا بما شاء، يعني: إلا بما أخبر به الرسل، وهو مثل قوله في سورة الجن: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ (١).

وقوله: ﴿وسع كرسیه السموات والأرض﴾ قرأ يعقوب الحضرمي: «وسع كرسیه السموات والأرض» والمعروف هو الأول.

واختلفوا في الكرسي، قال الحسن: هو العرش نفسه. وقال أبو هريرة: الكرسي موضوع قدام العرش.

ومعنى قوله: ﴿وسع كرسیه السموات والأرض﴾ أى: سعته مثل سعة السموات والأرض وأوسع منه، وهو ظاهر في قراءة الحضرمي، وفي الأخبار «أن السموات والأرض في جنب الكرسي كحلقة في فلاة، والكرسي في جنب العرش كحلقة في فلاة» (٢).

وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أن السموات والأرض في جنب الكرسي كدراهم سبعة على الترس.

(١) الجن: ٢٦ - ٢٧.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٣/٧-٨)، وأبو الشيخ في العظمة (ص ٨٦ رقم ٢٢٢، وص ١٠١ رقم ٢٦١) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٥٩٠ - ٥٩١) وابن مردويه في تفسيره - كما في تفسير ابن كثير - (٣٠٩/١ - ٣١٠) من حديث أبي ذر مرفوعاً.

وَلَا يُوْدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ

وروى سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: أنه أراد بالكرسى علمه. ومثله قول الشاعر:

مالي بأمرك كرسى أكاثمه ولا بكرسى علم الله مخلوقه.

ومعناه: العلم. وقيل: هو مُلْكُهُ وَسُلْطَانُهُ. قال الزجاج: وفى الجملة هو أمر عظيم يدُلُّ على كمال قُدْرَتِهِ.

وقوله: ﴿وَلَا يُوْدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ قيل: هو راجع إلى الله تعالى. يعنى: ولا يثقل عليه حفظ السموات والأرض.

وقيل: هو راجع إلى الكرسى، وقيل على هذا: إن الكرسى تحت الأرض كالعرش فوق السموات، والسموات والأرض على الكرسى. وقيل: معلقة بالكرسى.

﴿وَلَا يُوْدُّهُ﴾ أى: لا يثقل على الكرسى حفظ السموات والأرض.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ يعنى بالعلیّ: المتعالى عن الأشياء والأنداد.

وقيل: العلى بالملك والسلطنة. والعظيم: الكبير.

وقد ورد فى فضل آية الكرسى أخبار منها:

ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبى بن كعب: «أى آية أعظم فى القرآن؟ فقال: آية الكرسى. فقال عليه السلام: لِيَهْنِثْكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذَرِ» (١).

قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قيل: سبب نزول الآية أن المرأة من أهل المدينة كان لا يعيش لها ولد؛ فكانت تنذر وتقول: إن عاش لى ولد لأهودنه، فإذا عاش لها ولد جعلته بين اليهود، فلما جاء الإسلام وأجلى رسول الله ﷺ بنى النصير إلى الشام بقى بينهم عدد من أولاد الأنصار قد هودوا فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى استردادهم؛

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٦/١٣٥ رقم ٨١٠)، وأبو داود (٢/٧٢ رقم ١٤٦٠)، وأحمد (٥/١٤٢)، والحاكم (٣/٣٠٤).

الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

فنزلت الآية. ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ فمن شاء منهم أن يدخل فى الإسلام، فليدخل ومن لم يشأ فلا إكراه فى الدين.

وقال الشعبى: هذا فى أهل الكتاب لا يجبرون على الإسلام إذا بذلوا الجزية.

وفيه قول ثالث: أنه كان فى الابتداء، ثم صار منسوخا بآية القتال.

وقوله: ﴿ قد تبين الرشد من الغى ﴾ أى: الحق من الباطل، والإيمان من الكفر.

وقوله: ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ﴾ الطاغوت: هو الشيطان، وينطلق على الواحد والعدد. وقيل: كل ما يعبد من دون الله فهو طاغوت.

وأما الطاغوت فى قوله: ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ ^(١) هو كعب بن الأشرف خاصة.

وقوله: ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ العروة: الكوز والدلو. والمراد هاهنا بالعروة الوثقى: العقد الوثيق المحكم فى الدين.

قال ابن عباس: أراد به كلمة لا إله إلا الله. قال مجاهد: أراد به الإسلام. وقيل: هو القرآن ومعناه: فقد تمسك بتمسك.

﴿ لا انفصام لها ﴾ أى: لا انقطاع لها ﴿ والله سميع ﴾ بدعائك إياهم إلى الإسلام ﴿ عليم ﴾ بحرصك على إسلامهم.

قوله تعالى: ﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ يعنى: القيّم عليهم بالنصر والمعونة والمثوبة.

وقوله: ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ يعنى: من الكفر إلى الإسلام، وإنما سُمى الكفر ظلمات؛ لأن طريق الكفر مشتببه ملتبس. وإنما سُمى الإسلام نورا لأن طريقه بين واضح.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾
أى: من الإسلام إلى الكفر.

فإن قال قائل: كيف يخرجونهم من الإسلام ولم يدخلوا فيه؟ قيل: هو فى قوم من المرتدين خاصة.

وقيل: هو على العموم؛ وذلك أنهم لما عدلوا وصرفوا عن الإسلام؛ فكأنهم أخرجوا عنه، يقول الرجل لغيره: أخرجتنى عن صلتك، أى: لم تعطينى، ولم تصلنى.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ معناه: هل انتهى إليك خبر الذى حاج إبراهيم - وهو نمروذ -؟ قاله قتادة.

وهو أول من تجرَّب فى الأرض وادعى الربوبية. والحاجة: المجادلة، ثم بين الحاجة فى سياق الآية.

قوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أى: كانت تلك الحاجة فى الربوبية من نظر الملك وطغيانه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ وفى القصص: أن الناس قحطوا على عهد نمروذ، وكانوا يمتارون من عنده الطعام، وكان إذا آتاه الرجل فى طلب الطعام يسأله من ربك؟ فإذا قال: أنت، باع منه الطعام، فجاء إليه إبراهيم فيمن جاء يمتار الطعام، فقال له نمروذ: من ربك؟ قال: ربى الذى يحىي ويميت، فاشتغل^(١) بالحاجة ولم يعطه شيئاً، فانصرف عنه إبراهيم، ومربكثيب من الرمل، فملاً منه الجواليق تطيباً لقلوب أهله، فلما بلغ منزله فإذا فيه الدقيق.

(١) فى «ك»: فاشتغل.

إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

وقوله تعالى : ﴿ قال أنا أحيى وأميت ﴾ هذا قول نمرود حين قال له إبراهيم : ربى
الذى يحيى ويميت .

قال سفيان : إنه دعا برجلين وجب القتل عليهما ، فقتل أحدهما ولم يقتل الآخر ،
فهذا إحياءه وإماتته .

وقوله : ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشَّمس من المشرق فأْت بها من المغرب ﴾ فإن
قال قائل : لِمَ انتقل إبراهيم من حجة إلى حجة ، وهذا يكون عجزاً ؟ قيل : كانت الحجة
الأولى لازمة ، ومعارضة نمرود إياه كانت فاسدة ؛ لأنه أراد به الحياة والموت اختراعاً ، ولم
يعارضه بمثله لكنه خاف أن يشتبه على السامعين ، فأتى بحجة أوضح من الأولى ؛
مبالغة فى الإلزام ، وقطعاً للشغب .

وقوله : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أى : تخير بغلبة الحجة عليه . ومنه قول الشاعر :

وما هو إلا أن أراها فجأة فأبْهت حتى ما أكاد أجيب

فإن قال قائل : كيف بهت وكان يمكنه أن يعارض إبراهيم فيقول له : سل أنت
ربك حتى يأتى بها من المغرب ؟ قلنا : إنما لم يقله ؛ لأنه خاف أن لو سأل ذلك دعا ،
فأتى بها من المغرب ؛ فكان زيادة فى فضيحته وانقطاعه .

والصحيح أن الله صرفه عن تلك المعارضة إظهاراً للحجة عليه ، ولتكون معجزة
لإبراهيم .

وقوله : ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ظاهر المعنى .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ تقديره : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم ،
وإلى الذى مر على قرية ؟ .

وقيل : تقديره : هل رأيت كالذى حاج إبراهيم ، وكالذى مر على قرية ؟ .

عُرُوشَهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ

واختلفوا فى الذى مر على قرية، فقال قتادة: هو عزيز النبى . وقال وهب: هو إرمياء النبى . وقال محمد بن إسحاق: هو الخضر - عليهم السلام - .

والصحيح: أنه كان عزيز النبى مر على قرية، يعنى: على بيت المقدس .

وقوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قيل: كانت السقوف ساقطة على الأرض، وكانت الجدران متساقطة على السقوف، فهى الخاوية على عروشها . ومعناه: أنها كانت خالية، وكان قد خربها، بختنصر الملك البابلى .

وقوله: ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وفى القصة: أن عزيزاً مرَّ [بها] (١) وهو على حمار ومعه التين والعصير فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها؟!

فإن قال قائل: كيف قال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها، وهذا يكون سببه الشك فى قدرته؟ قيل: لم يكن شاكاً فيه؛ وإنما قال ذلك استبعاداً على ما يقال فى العادة، أى: لا يحيى هذه الله بعد خرابها .

قال عطاء: دخل فى قلبه ما يدخل فى قلوب الناس .

وقوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أى: أحياه، وإنما سُمى الإحياء بعثاً؛ لأنه إذا أحيى يبعث للأمر .

وفى القصة: أنه لما قال تلك المقالة غلبه النوم، فقبض الله روحه مئة عام، وبعث ملكاً عمّر بيت المقدس فى تلك الأعوام، ثم لما أحياه بعث إليه ملكاً فسأله: كم لبثت؟

فهذا معنى قوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُ﴾ وقوله: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأن الله تعالى إنما أماته فى أول النهار وبعثه فى آخر النهار وقبل غروب الشمس، فقال:

(١) فى «الأصل» و«ك»: به، والصواب ما أثبتناه وهو ما يقتضيه السياق .

لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ

لَبِثْتَ يَوْمًا، ثم نظر إلى الشمس لم تغرب بعد، فقال: أو بعض يوم ﴿قال﴾ - يعنى - الملك -: ﴿بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أى: لم يتغير؛ فإن التين الذى كان معه لم يتغير؛ كأنه قطف من ساعته، وكذلك العصير كأنه عصر من ساعته.

قال الكسائى: لم يتسنه، معناه: كأنه لم تأت عليه السنون، وقطف من ساعته. وقال مجاهد: معناه لم ينتن، ومنه قوله تعالى ﴿من حمأ مسنون﴾^(١). وقيل: أصله لم يتسنن، فقلبت إحدى النونين هاء ومثله فى كلام العرب كثير، مثل: يتمطى كان فى الأصل (يتمطط)، فقلبت إحدى الطائين ياء. وقال الشاعر:

يقضى البازى إذا البازى انكسر

وكان فى الأصل: (يقضض البازى).

وقوله: ﴿وانظر إلى حمارك﴾ قيل: فنظر إليه، فإذا عظام بيض تلوح نخرة فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض، وجعله حماراً من عظام، ثم أدخل فيه الدم، ثم كساه الجلد، ثم نفخ فيه الروح، فقام الحمار ونهق، وهو ينظر إليه، فهذا معنى قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ يقرأ بقراءتين بالراء: نحيتها، وبالزاي: يركب بعضها على بعض، من النشز، وهو الارتفاع^(٢).

وقوله: ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ فى الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: وانظر إلى حمارك، وانظر إلى العظام كيف ننشزها، ثم نكسوها لحماً لنحييها.

(١) الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣.

(٢) قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائى، وعاصم بالزاي المنقوطة، وقرأ الباقون بالراء المهملة. انظر النشر.

نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن

وقوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ وبيان الآية فيه: أنه بُعثَ شاباً، وابنه شيخ.

قال على - رضى الله عنه - : أماته الله وهو ابن خمسين سنة وامرأته حامل، ثم بُعثَ بعد مئة سنة وهو ابن خمسين، وابنه [ابن] (١) مئة سنة.

وقوله: ﴿فلما تبين له قال أعلم﴾ فلما ظهرت له قدرة الله تعالى على عمارة بيت المقدس، وإحياء الموتى ﴿قال أعلم﴾ يقرأ بقراءتين: على الخبر، وعلى الأمر (٢)، أما على الخبر فمعناه: علمت أن الله على كل شيء قدير، وأما على الأمر قال لنفسه: ﴿أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قيل: سبب سؤاله ذلك: أن إبراهيم مرَّ على حيوان على شط البحر مزقته السباع والوحش، وكان يأكل منه حيتان البحر، فقال: رب ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى.

وفيه قول آخر: أنه لما حاجَّه نمرود في إحياء الموتى؛ أراد أن يعرف بالعيان ما آمن به بالخبر والاستدلال.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ﴾ يعنى: قد آمنت فلم تسأل؟ وهذا مثل قول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا

يعنى: أنتم كذلك.

وقوله: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ فإن قال قائل: أكان إبراهيم شاكا فيه

(١) ليست فى «الأصل» ولا «ك».

(٢) قرأ حمزة، والكسائى بهمزة وصل وإسكان الميم على الأمر، وإذا ابتداء كسر الهمزة، وقرأ الباقون بهمزة قطع، ورفع الميم على الخبر. انظر النشر (٢/ ٢٣١ - ٢٣٢).

لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ

حتى احتاج إلى السؤال، وما معنى قوله عليه السلام: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(١)؟ والجواب: أنه لم يكن شاكاً فيه، ولكنه إنما آمن بالخبر والاستدلال، فأراد أن يعرفه عياناً.

قال عكرمة: ليزداد يقيناً على يقين؛ لأن العيان فوق الخبر في ارتفاع العلم. وقد قال عليه السلام: «ليس الخبر كالمعاينة»^(٢).

وأما قوله: ﴿وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؛ وذلك أنه لما سأل ذلك تعلق به قلبه، فقال: ولكن ليطمئن قلبي عن ذلك التعلق.

وقيل: إنما قال ذلك؛ لأن الله تعالى لما اتخذه خليلاً، قال ملك الموت: يارب، ائذن لي حتى أبشره؛ فبشره بأن الله اتخذك خليلاً فأراد أن يريه الله إحياء الموتى تخصيصاً له بكرامته؛ ليطمئن قلبه بالخلة.

وقيل معناه: ولكن ليطمئن قلبي، فأعرف أنني إذا سألتك أعطيتني، وإذا دعوتك أجبتني. وأما قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(٣) إنما قاله على سبيل التواضع، يعني: نحن دونه، وأحق بالشك منه، فإذا لم نشك نحن فكيف يشك إبراهيم؟ وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل: هي الطاووس، والديك، والحمامة، والغراب.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (٤٧٣/٦) رقم ٣٣٨٢ وأطرافه في ٣٣٧٥، ٤٥٣٧، ٤٦٩٤، ٦٩٩٢)، ومسلم (٢/٢٤٠ - ٢٤١، ١٥/١٧٩ رقم ١٥١).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/٢١٥، ٢٧١)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٩٦ - ٩٧ رقم ٦٢١٣، ٦٢١٤)، وابن عدي في الكامل (٧/٢٨، ١٣٦)، والحاكم في مستدركه (٢/٣٢١)، وصححه جميعهم من حديث ابن عباس مرفوعاً. وفي بعض ألفاظه اختلاف، وفي الباب عن ابن عمرو، وأنس وأبي هريرة.

(٣) سبق.

جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ

وقوله تعالى : ﴿فصرهن إليك﴾ أى : فضمهن إليك . وقرأ حمزة بكسر
الصاد (١) .

وفيه تقديم وتأخير، وتقديره : فخذ أربعة من الطير إليك فصرهن، أى : فقطعهن .
وقوله : ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ قيل : جعلها على أربعة أجبل .
وقال السدى : على سبعة أجبل، وقال ابن عباس : على أربعة أرباع العالم، جزءا
على جبل بجانب الشرق (٢)، وجزءا على جبل جانب الغرب (٢)، وجزءا على
الشمال، وجزءا على الجنوب .

وفيه قول آخر : أنه أراد بقوله : ﴿اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ أى : عشرا،
وكان على عشرة أجبل ؛ حتى ذهب بعض العلماء من هذا إلى أنه لو أوصى الإنسان
بجزء من ماله ينصرف إلى العُشر .

وقوله : ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيًا﴾ وفى القصة : أنه جزء تلك الطيور الأربعة،
وخلط اللحم باللحم، والريش بالريش، والعظم بالعظم، وجعلها على الأجل .

وقيل : دقّه بالهَؤُونُ وأخذ رءوسهن بين أصابعه، وقيل : مناقيرهن، ثم دعاهن ؛ فكان
يطير الريش إلى الريش، واللحم إلى اللحم، والدم إلى الدم، ويُركَّب بعضها على
بعض، وأُتِيْنَ سَاعِيَاتٍ إلى رءوسهن .

وقوله تعالى : ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ ظاهر المعنى .

قوله تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ قيل : سبيل الله :
الجهاد .

(١) وهى قراءة أبى جعفر، وخلف، ورويس . انظر النشر (٢/ ٢٣٢) .

(٢) فى «ك» : المشرق .. المغرب .

يُضَاعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

وقيل : جميع أبواب الخير سبيل الله .

وقوله : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مئة حبة ﴾ ضربه مثلا للمتقين وما وعد من الثواب على الإنفاق .

فإن قال قائل : كيف ضرب المثل به ، وهل (١) يتصور فى كل سنبله مئة حبة ؟

قيل : لما كان ذلك متصورا فى الجملة ، صح ضرب المثل به وإن لم يعرف ، ومثله ما قاله امرؤ القيس :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وناب الغول لايعرف ، ولكن لما تصور وجوده بالجملة مثل به . وقيل : هو يتصور فى سنبله الدخن ونحوه .

وقوله : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ قيل : معناه : يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء . وقيل : معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء .

وقوله : ﴿ والله واسع ﴾ أى : واسع الفضل والرحمة والقدرة ، يعطى عن سعة .

وقوله : ﴿ عليم ﴾ أى : عليم بنية من يعطى .

قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ﴾ أما المن : فهو أن يقول للفقير : أعطيتك كذا ، وصنعت بك كذا ، فيعدهد عليه نعمه ، وأما الأذى : فهو أن يعير الفقير ، فيقول له : إلى كم تسأل ، وكم تؤذينى فلا زلت فقيرا ونحو ذلك .

وقيل : من الأذى : أن يذكر إنفاقه عليه عند من لايريد أن يعرف .

وقوله : ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أى : ثوابهم ، وقوله : ﴿ ولاخوف عليهم ﴾

(١) فى «ك» : وكيف .

يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ
 ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ
 النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

ولا يخافون فوات الثواب، وقوله: ﴿ولا هم يحزنون﴾ أى: على ما أنفقوا إذا رأوا الثواب.

قوله تعالى: ﴿قول معروف﴾ قال الحسن: هو القول الجميل.

وقيل: هو أن يعطيه ويُبْرِّك له، فيقول: بارك الله لك فيه، أو يمنعه ويدعو له.

وقوله: ﴿ومغفرة﴾ هو: أن تستر خلَّتَه (١)، ولا تهتك ستره.

وقيل: هو أن تغفو عن الفقير إن بدرت منه مساءة أو أذى.

وقوله: ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ يقول: ذلك القول المعروف، وتلك المغفرة، خير من صدقة يتبعها أذى.

وقوله: ﴿والله غنى﴾ أى: مستغن عن صدقاتكم. وقوله: ﴿حليم﴾ أى: لا يعجل بالعقوبة إذا منعت الصدقة.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ قد ذكرنا معناهما.

وقيل: المنُّ فى الصدقة بمنزلة الحدِّث فى الصلاة، يبطلها ويحبطها.

وقوله: ﴿كالذى ينفق ماله رياء الناس﴾ أى: كإبطال الذى ينفق ماله رياء الناس؛ لأن الرياء يبطل الصدقة ويحبطها.

وقوله: ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ يعنى: النفقة مع الرياء ليس من فعل المؤمنين.

وفى الجملة كل من أتى بالصدقة تقرباً إلى مخلوق فلا يكون مؤمناً.

(١) الخَلَّة: الحاجة والفقير. انظر لسان العرب (مادة: خلل).

فَتَرَكُهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾
وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ

وقوله: ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب﴾ الصفوان: الحجر الصلد الأملس.

وقوله: ﴿فأصابه وابل﴾ الوابل: المطر الشديد العظام القطر.

وقوله: ﴿فتركه صلدا﴾ أى: أملس ﴿لايقدرُونَ على شىء مما كسبوا﴾ ومعنى هذا المثل: أن الذى يرائى بالإلفاق يفرق نفقته، ولا يفوز بشىء من الثواب، كالتراب الذى يكون على الحجر فيصيبه الوابل؛ فيفوت الذى عليه، ويبقى أملس، بحيث لا يقدر على شىء منه.

وقوله: ﴿والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله﴾ أى: خالصا لوجه الله.

وقوله: ﴿و تثبिता من أنفسهم﴾ قال قتادة: هو أن يكون محتسبا بالإلفاق.

وقال الحسن: هو أن يثبت من نفسه حتى إن كانت نيته أن يتصدق لله يفعل، وإن كانت نيته غيره يمسك، وقال الكلبي، والشعبي: هو أن يتصدق على يقين بالثواب، وتصديق بوعد الله فيه.

وقوله: ﴿كمثل الجنة بربوة﴾ الجنة: البستان. والربوة: المكان المرتفع.

وقوله: ﴿أصابها وابل﴾ كما ذكرنا. وقوله: ﴿فآتت أكلها ضعفين﴾ أى: ثمرها ضعف ما تؤتى غيرها. قوله: ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ الطل: المطر الخفيف الصغار القطر، ويكون دائما.

ومعنى هذا المثل: أن الذى ينفق خالصا لوجه الله تعالى لا تخلف نفقته، بل تنمو وتزكو بكل حال: كما أن الجنة التى على الربوة لا تخلف، بل تنمو وتزكو بكل حال سواء أصابها الوابل، أو أصابها الطل؛ وذلك أن الطل إذا كان يدوم يعمل عمل

بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّودُ أَحَدَكُمُ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

الوابل الشديد .

وقوله : ﴿ وَالله بما تعملون بصير ﴾ ظاهر المعنى .

قوله تعالى : ﴿ أَيُّودُ أَحَدَكُمُ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ أى : صغاراً .

﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارًا فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ الإعصار : ريح ترتفع كالعمود نحو السماء ، تسميه العرب ، وسائر الناس : زوبعة ، ومنه قول الشاعر :

إِنْ كُنْتُ رِيحًا فَقَدْ لَاقَيْتُ إِعْصَارًا

وأما معنى الآية : روى أن عمر - رضى الله عنه - سأل الصحابة عن معنى هذه الآية ، فقالوا : الله أعلم ، فغضب عمر ، وقال : قولوا : نعلم ، أو لنعلم ، ونحن نعلم أن الله يعلم ؛ فسكتوا ، وكان ابن عباس فيهم فقال : فى قلبى شىء ، فقال له عمر : قل ، ولا تحقر نفسك ، ضرب مثلاً لعمل . وروى تمام الكلام فيه . - ثم اختلفوا ، منهم من قال : تمام الكلام من عمر ، ومنهم من قال : تمام الكلام من ابن عباس -

وتماه : أن الله تعالى ضرب هذا مثلاً للذى يعمل طول عمره عملاً ، ثم يحبطه برياء أو بشىء فى آخر عمره ، فيفوته ذلك ، ولا ينفعه فى أحوج حال يكون إليه ؛ كالذى له بستان ذات أشجار ، وثمار ، وأنهار ، فيدركه الكبر ، وله عيلة كبيرة وأولاد صغار ، فلما قرب إدراكه واحتاج إليه ، أصابته نارٌ فأحرقته ، فيفوته ذلك (ولا ينفع) (١) فى أحوج حال يكون إليه .

(١) فى «ك» : ينبت .

آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ
مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ . ظاهر المعنى .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ أى : من حلال ما كسبتم ، وفى هذا دلالة على أن الكسب يتنوع إلى الطيب ، والخبيث .

وقوله : ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ قيل : هو الأمر بإخراج العشور .

وقيل : هو أمر بإخراج الحقوق التى كانت واجبة فى نبات الأرض فى الابتداء ، ثم صارت منسوخة بآية الزكاة .

وقيل : هو فى صدقات التطوع .

وقوله : ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ أم ، وتيمم : إذا قصد . وأراد بالخبيث : الردى ها هنا ، أى : ولا تقصدوا الردىء منه تنفقون .

وسبب نزول الآية : « ما روى أن أصحاب النخيل على عهد رسول الله ﷺ كانوا يأتون بقنو فيعلقونه فى المسجد ؛ ليأكله الفقراء ، فجاء رجل بقنو حشف أردأ ما يكون ، وعلقه ، فلم يرضه رسول الله ﷺ ونزلت الآية : ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ » (١) .

وقوله : ﴿ ولستم بآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ إلا أن تسامحوا وتساهلوا فى أخذه ، ومعناه : أن الحق لو كان لكم على غيركم ، فجاء به رديئاً لاتأخذونه إلا بإغماض فيه ، فتعتقدون أنكم تركتم بعض حقكم وأغمضتم .

وقوله : ﴿ واعلموا أن الله غنى ﴾ يعطى عن غنى ﴿ حميد ﴾ محمود الغنى ، وفيه دليل على أن الغنى لغير الله مذموم .

وقيل : الحميد : المستحق للحمد .

(١) رواه الترمذي (٢٠٣/٥ - ٢٠٤ رقم ٢٩٨٧) وقال : حسن غريب صحيح ، وابن ماجه (١/٥٨٣ رقم

١٨٢٢) ، والحاكم في المستدرک (٢/٢٨٥) وقال : حديث غريب صحيح على شرط مسلم . جميعهم من

حديث البراء بن عازب .

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا

قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ يخوفكم بالفقر، والباء محذوفة.

وقوله: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: بأن لا تتصدقوا وتبخلوا، ومنه قول طرفة:

عَقِيلَةٌ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ^(١)

أى: البخيل المتشدد^(٢).

والبخل داء عظيم، قال عَزَّوَجَلَّ «لا داء أدوى من البخل».

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ مغفرة، أى: عفو الله، وفضلا: بالثواب.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقد ذكرنا معناهما.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس: وهو حكمة القرآن، وهو أن يعرف ناسخه و منسوخه، ومقدمه ومؤخره، ومحكمه ومتشابهه، وحرامه وحلاله، وأمثاله.

وقيل: هو الفقه فى الدين.

وقال إبراهيم النخعى: هو معرفة معانى الأشياء وفهمها.

وفيه قول رابع: هو الإصابة، فعلا وقولا.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

قرأ يعقوب: «وَمَنْ يُؤْتَ» بكسر التاء يعنى: وَمَنْ يُؤْتِهِ اللهُ الْحِكْمَةَ.

(١) هذا شطر من البيت، والشطرا الأول كما فى لسان العرب (مادة: فحش):

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَمُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي

(٢) رواه الطبراني فى الكبير (٢ / رقم ١٢٠٣)، والحاكم (٣ / ٢١٩) من حديث أبي هريرة، وقال: صحيح على

شرط مسلم. وقال الهيثمى فى المجمع (٩ / ٣١٨): رواه الطبرانى، والبيهقى، وفيه سعيد بن محمد الوراق، وهو

متروك. وقد روى موقفا على أبي بكر الصديق كما فى البخارى (٦ / ٢٧٤، ٢٧٩ رقم ٣١٣٧)، وأحمد فى

مسنده (٣ / ٣٠٧ - ٣٠٨). وفى الباب عن جابر، وكعب بن مالك.

كثيراً وما يذكرُ إلا أولوا الألباب ﴿٢٦٩﴾ وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصارٍ ﴿٢٧٠﴾ إن تبدوا الصدقاتِ فنعماً هي وإن تخفوها

قيل: هذه الحكمة: هي الكتابة، ومعرفة الخط.

وقيل: هي العقل. وقيل: الأمانة.

﴿وما يذكرُ إلا أولوا الألباب﴾ أى: وما يتفكر إلا أولوا العقول.

قوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم﴾ فيه قولان: أحدهما: أن المراد بالنفقة: الزكاة المفروضة، وأما النذر: هو أن ينوى عمل الخير، وصدقة التطوع.

والقول الثانى: أن النفقة هي صدقة التطوع، وأما النذر هو ما عرف من نذر اللسان؛ وهو أن يوجب التصديق على نفسه.

وقوله: ﴿فإن الله يعلمه﴾ أى: يجازى. وقال مجاهد: يحصيه.

وقوله: ﴿وما للظالمين﴾ أى: الذين يتصدقون من الغصب والنهب. ﴿من أنصار﴾ جمع النصير، أى: ما لهم من ينصر ويمنع من العذاب.

قوله تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ معناه: إن تظهروا. ﴿فنعماً هي﴾ يقرأ بالقراءات بفتح النون، وكسر العين، ويقرأ: بكسرهما، وقرأ أبو عمرو: بكسر النون وجزم العين، ولم يرض ذلك منه نحاة البصرة، وقالوا فيه التقاء الساكنين، واستشهد أبو عمرو بقوله ﷺ لعمر بن العاص: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(١) والكل فى المعنى سواء، ومعناه: نعم خلة، هي أو نعم شئ هو.

قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ قيل: هذا فى صدقات

(١) رواه البخاري فى الأدب المفرد (ص ٩٠ - ٩١ رقم)، وأحمد فى مسنده (١٩٧/٤، ٢٠٢)، والحاكم فى مستدركه (٢٣٦، ٢/٢) وصححه. وأبو يعلى فى مسنده (٣٢٠/١٣ رقم ٧٣٣٦)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢٥٩/٢ رقم ١٣١٥)، وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (٦/٨ - ٧ رقم ٣٢١٠، ٣٢١١). وقال الهيثمى فى المجمع (٣٥٥/٩): رواه أحمد، وأبو يعلى، والطبرانى فى الأوسط والكبير... ورجال أحمد، وأبو يعلى رجال الصحيح.

وَتُؤْتُوهُمَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

التطوع، والإخفاء فيها أفضل، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «صدقة السر تفضل صدقة العلانية بسبعين ضعفا» (١).

وأما الزكاة المفروضة: فالإظهار فيها أفضل، وقد قال ﷺ «صدقة العلانية تفضل صدقة السر بخمس وعشرين» (٢)، وهذا في الزكاة، والأول في التطوعات.

وقيل: الآية في الزكاة المفروضة، وكان الإخفاء خيرا في الكل على عهد رسول الله ﷺ فأما في زماننا فالإظهار خير في الزكاة لسوء الزمان، كيلا يساء الظن به.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم﴾ يقرأ: بالنون، والياء، ويقرأ: بالرفع، والجزم (٣) ﴿من سيئاتكم﴾ قيل: من صلة فيه. وتقديره: ويكفر عنكم سيئاتكم، فعلى هذا يكون شاملا للصغائر، والكبائر.

وفيه قول آخر: أن «من» على التحقيق، والتكفير بالصدقات يكون عن الصغائر فأما الكبائر فإنما تكفرها التوبة.

والأول أقرب إلى أهل السنة، وقد قال النبي ﷺ: «صدقة السر تطفئ غضب الرب» (٤).

وقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ هذا ظاهر المعنى.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٦٢/٣) عن ابن عباس موقوفا، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٥٦/١ رقم ١٦٧) للحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

(٢) هو بقية حديث ابن عباس المتقدم.

(٣) قرأ ابن عامر، وحفص بالياء، وقرأ الباقر بالنون، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وحمزة، والكسائي، وخلف، بجزم الراء، وقرأ الباقر برفعها. انظر النشر (٢٣٦/٢).

(٤) روى هذا الحديث من حديث عمر بن الخطاب، وعبد الله بن جعفر، وأنس بن مالك، وأبي أمامة، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وابن مسعود، ومعاوية بن حيدة، وأم سلمة.

وقال الشيخ ناصر - حفظه الله - في السلسلة الصحيحة (٥٣٩/٤): وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب. وراجع الصحيحة (رقم ١٩٠٨)، والإرواء (رقم ٨٨٥).

﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي

قوله تعالى : ﴿ليس عليك هداهم﴾ ليس المراد به : هداية الدعوة، فإنها عليه حتم، وإنما المراد به : هداية التوفيق .

قال سعيد بن جبير : « سبب نزول الآية ما روى : أن النبي ﷺ نهى عن التصديق على المشركين، وإنما كان نهى عنه، كي تحملهم الحاجة على الدخول في الإسلام فنزلت الآية فأمر النبي - ﷺ - بالتصدق على أهل الأديان كلها» (١).

ومعناه : ليس عليك هداهم، بأن تلجئهم وتحملهم على الدخول في الإسلام، ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ أى يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء.

قوله : ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أى : تعملونه لأنفسكم.

قوله : ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، أى : أنفقوا لوجه الله، ومعناه : ابتغاء مرضاة الله .

وقيل : هو على المبالغة، فإن قول الرجل : عملت لوجه فلان . أبلغ وأشرف من قوله : عملت لفلان، فذكرنا شرف اللفظين .

وقوله : ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ أى : يوفر عليكم ثوابه .
﴿وأنتم لا تظلمون﴾ ظاهر .

قوله تعالى : ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ يعنى : تلك الصدقات التى سبق ذكرها للفقراء .

قال مجاهد : أراد به فقراء المهاجرين من مكة .

وأما قوله : ﴿أحصروا في سبيل الله﴾ فيه ثلاثة أقوال :

[أحدها] (٢) : قال ابن عباس : يعنى : حبسهم العدو والفقر عن سبيل الله والجهاد، فصاروا محصورين عنه .

(١) الطبري في تفسيره (٣/٦٣) .

(٢) من «ك» .

الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا

وقال سعيد بن المسيب: أراد به: أنهم خرجوا إلى الحرب، فأصابتهم جراحات، فصاروا محصرين عن الجهاد بسبب الجراحات.

وقال قتادة - وهو أحسن الأقوال - : معناه: أنهم حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وتركوا الخروج للتجارة والمعاش، ووقفوا أنفسهم على الحرب.

وقد ورد ذلك في أهل الصفة، كانوا قريباً من أربعمئة نفر، اجتمعوا في مسجد رسول الله ﷺ وكانوا لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال، وكان يبعث الناس إليهم بفضل قوتهم، وكانوا وقفوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وقالوا: لا تخرج سرية إلا ونخرج معها، فهذا معنى قوله: ﴿أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا على القولين الأولين يرجع إلى الضرب في الأرض للجهاد.

وعلى القول الثالث: هو الضرب في الأرض للمعاش والتجارة.

وقوله: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ قال مجاهد: ليس المراد بهذا الجاهل خلاف العالم وإنما هو الذي لا خبرة له ولا معرفة بحالهم.

وقوله: ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ يعنى: من القناعة التي لهم يظنهم من لم يعرفهم أغنياء.

قوله: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ قيل: بالتخشع الذي كان لهم.

وقال الضحاك: بصفرة الألوان.

وقال ابن زيد: بربثاة الثياب.

وقيل: أثر الجوع والجهد.

وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أى: إلحاحاً.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا

وقيل: أصله من إلحاف؛ فالإلحاف: السؤال على العموم، كأنه يسأل كل من يلقي.

وفيه قول آخر: أنه أراد به ترك السؤال أصلاً؛ فإنه إذا سأل فقد ألحف، يعنى: لا يسألون أصلاً.

والدليل عليه أنه قال: ﴿أغنياء من التعفف﴾ وإذا سأل لا يكون متعففاً، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «من سأل وعنده أوقية فقد ألحف»^(١). يعنى: عنده أربعون درهماً.

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير له من أن يسأل الناس أعطى أو منع»^(٢).

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

قال ابن عباس: هذا فى على بن أبى طالب، كانت له أربعة دراهم، فتصدق بدرهم بالليل، ودرهم بالنهار، ودرهم فى السر، ودرهم فى العلن^(٣)؛ فنزلت الآية رضا بفعله، وثناء عليه.

وقيل: أراد بالنفقة ها هنا: النفقة على الخيل فى سبيل الله؛ فإنها تعتلف من تلك النفقة ليلاً ونهاراً، وسراً وعلانية؛ والنفقة على الخيل فى سبيل الله باب عظيم فى

(١) رواه وأبو داود فى سننه (١١٦/٢ - ١١٧ رقم ١٦٢٨)، والنسائي (٩٨/٥ رقم ٢٥٩٥)، والإمام أحمد فى مسنده (٩، ٧/٣) وابن خزيمة فى صحيحه (١٠٠/٤ رقم ٢٤٤٧)، وابن حبان فى صحيحه (١٨٤/٨ - ١٨٥ رقم ٣٣٩٠) عن أبى سعيد الخدرى.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٢٩٣/٣ رقم ١٤٧٠) وأطرافه فى ١٤٨٠، ٢٠٧٤، (٢٣٧٤)، ومسلم (١٨٤/٧ - ١٨٥ رقم ١٠٤٢).

(٣) فى «ك»: العلانية.

وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا
الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ

الخير. وقد ورد في الحديث: «أنه يؤجر بأرواثها وأبوالها»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أى: يأخذون، فعبر بالأكـل عن الأخـذ؛ لأنه
يؤخذ ليوكل.

وقوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

الخبـط: ضرب على غير استواء، يقال: فلان يخبط خبط عشواء، إذا كان يسلك
طريقا لايهتدى إليه. ومنه قول الشاعر:

رَأَيْتَ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مِنْ تُصَبِّ تُمَتُّهُ وَمِنْ تَخْطِئِ يُعَمَّرُ فِيهِمْ

ومعناه: أن أكل الربا يحشر يوم القيامة كمثل السكران، يقوم تارة، ويقع أخرى.

وقيل: هو من تخبط الشيطان، وذلك [أن]^(٢) يدخل الإنسان فيصرعه.

والمس: الجنون، والخبط: أول الجنون، ومعناه: أنه يحشر يوم القيامة كمثل
المصروع؛ وذلك علامة أكلة الربا يوم القيامة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾. أراد بهم ثقيف؛ فإنهم قالوا إنما
البيع مثل الربا.

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (٥/٥٦ رقم ٢٣٧١، وأطرافه فى ٢٨٦٠، ٣٦٤٦، ٤٩٦٢،

٤٩٦٣، ٧٣٥٦)، ومسلم (٧/٨٩ - ٩٧ رقم ٩٨٧).

(٢) فى «الأصل وك»: أن لا، ولعل «لا» زيادة مقحمة.

وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ هذا جوابهم.

وقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ يعني: من أكل الربا.

﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أى: مغفورا له ما سلف منه ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ﴾ إلى أكل الربا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أى: يُذْهِبُ بركة المال؛ فإنَّ للحلال بركة، وليس للحرām بركة.

وقيل: معناه: يبطل الصدقة من الربا ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ ويكثر الصدقات ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ فالكفّار: عظيم الكفران، والأثيم: كثير الإثم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد سبق تفسيره.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. نزل هذا فى ثقيف وبنى مخزوم تنازعوا إلى عتاب بن أسيد قاضى مكة فقالت ثقيف إنما أسلمنا على أن ما علينا من الربا موضوع وما لنا باقى فكتب بذلك عتاب إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فبعث رسول الله ﷺ بالآية إلى عتاب ليقرأ عليهم^(١).

وقوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعنى: ترك الربا من فعل المؤمنين.

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧١/٣) عن ابن جريج مرسلا. وعزاه السيوطى فى الدر (٣٧٧/١) لابن أبى حاتم بنحوه عن مقاتل، وفيه شك فى اسم الصحابى، هل هو معاذ بن جبل أم عتاب. ورواه أبو يعلى - كما فى أسباب النزول للواحدى من طريقه (ص ٦٤ - ٦٥) - بإسناده عن ابن عباس فى حديث طويل.

لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

وقيل : معناه : إذ كنتم مؤمنين .

والآية فى إبطال ربا الجاهلية؛ وذلك أنهم كانوا يدينون الناس بشرط أن يزيدوا فى الدين عند الأداء، وكان يقرض الرجل غيره، ويضرب له أجلا، ثم عند حلول الأجل يقول له : زدنى فى الدين حتى أزيدك فى الأجل، فهذا كان ربا الجاهلية وهو حرام .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : فأيقنوا به .

ويقرأ ممدودا : « فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ » (١) أى : أعلموا غيركم أن يتركوا الربا، إنكم حرب الله ورسوله، فإذا أعلمتم فقد علمتم .

﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ أى : تركتم استحلال الربا، ورجعتم عنه ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أبطل الزيادة، وجعل لهم أصل المال .

وإنما قال : ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ لأنهم ما داموا على استحلال الربا كان ما لهم فيئاً ليس لهم أصله ولا فرعه .

﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ أى : لَا تَظْلِمُونَ بطلب الزيادة، وَلَا تُظْلَمُونَ بنقصان حقكم فى أصل المال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ قرأ : أبى بن كعب : « وَإِنْ كَانَ مِنْ عَلَيْهِ الدِّينُ ذَا عُسْرَةٍ » . وقرأ عطاء : « فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ » .

والمعروف : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ أى : وإن وقع ذو عسرة، أو وإن كان ذو عسرة غريما لكم، فنظرة إلى ميسرة، أى : فأنظروه إلى اليسار .

وقرأ نافع : « إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ » بضم السين (٢)، وهو مثل الأول فى المعنى .

(١) قرأ حمزة، وأبو بكر بقطع الهمزة ممدودة، وكسر الذال، وقرأ الباقون بفتحها ووصل الهمزة . انظر النشر (٢٣٦/٢) .

(٢) قرأ نافع بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها . انظر المصدر السابق .

تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ

وروى أبو اليسر عن النبي - عليه السلام - أنه قال : « من أنظر معسرا أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » (١).

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « كان فيمن قبلكم رجل يداين الناس فقال لفاته : إذا كان معسرا فتجاوز عنه ؛ لعل الله يتجاوز عنا ، فلحق الله فتجاوز عنه » (٣) . والخبر في الصحاح .

﴿ وأن تصدقوا ﴾ يعنى : بترك أصل المال الذى أعطيتموه قرضا . ﴿ خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

قوله - تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ . قال ابن عباس : هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ .

قال ابن جريج : إنما عاش بعدها سبع ليال ، وفى رواية تسع ليال .

ويروى أن جبريل - صلوات الله عليه - لما نزل بهذه الآية قال : ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة ، وهذه الآية مسجلة سجلها الله على الخلق كافة .

﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وهو ظاهر المعنى .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴾ قال ابن عباس : أشهد أن السلف المضمون المؤجل فى كتاب الله ، قد أنزل فيه أطول آية ، وتلا هذه الآية .

وقوله : ﴿ تداينتم بدين ﴾ أى : تعاملتم بالدين ، يقال : دايته ، إذا عاملته بالدين .

فإن قيل : قوله : ﴿ تداينتم ﴾ يغنى عن المعاملة بالدين ، فلم قال : تداينتم بدين ؟ قيل : لأن العرب تقول : تداينا - أى : تعاطينا وتجاوزنا ، وإن لم يكن فى الدين ؛ فقال :

(١) رواه مسلم (٨/١٨١ - ١٩٣ رقم ٣٠٠٦) ، وابن ماجه (٢/٨٠٨ رقم ٢٤١٩) . وأحمد (٣/٤٢٧) ،

والحاكم (٢/٢٨-٢٩) والبيهقى فى الكبرى (٥/٣٥٧) .

(٢) متفق عليه . رواه البخاري (٤/٣٦١ رقم ٧٠٢٨ وطرفه فى ٣٤٨٠) ، ومسلم (١٠/٣٢٣ - ٣٢٤ رقم

بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا

﴿تداینتم بدین﴾ ليعرف المعنى المراد من اللفظ، ويحتمل أنه قاله تأكيداً. ﴿إلى أجل مسمى﴾ الأجل: مُدَّة معلومة الأول والآخر، وهذا يشتمل على الأجل فى السلم، والأجل فى الثمن، والأجل فى القرض، ولم يجوز أكثر العلماء الأجل فى القرض، وجوزه بعضهم.

﴿فاكتبوه﴾ قيل: هو على الوجوب، وهو قول مجاهد.

وقال الشعبي: إنما يجب الكتب إذا وجد من يكتب، والأصح أنه على الندب.

وقال أبو سعيد الخدرى: هذا الأمر منسوخ بقوله تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى أؤتمن أمانته﴾.

وقوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾. الكتابة بالعدل هو: أن يكتب من غير زيادة ولانقصان، ولا تقديم فى الأجل ولا تأخير.

﴿ولا يأب كاتب أن يكتب﴾ قيل: الكتابة واجبة على الكتبة لظاهر الآية، والأصح أنه على الندب.

﴿كما علمه الله فليكتب﴾ أى: كما شرعه الله، فليكتب.

﴿وليمل الذى عليه الحق﴾ الإملا والإملاء بمعنى واحد.

والإملا لغة قريش وبنى أسد، والإملاء: لغة قيس وتميم، وهما مذكوران فى القرآن.

فالإملا هاهنا، والإملاء فى قوله: ﴿فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ (١).

﴿وليتق الله ربه﴾ يعنى: المملى ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾، ولا ينقص من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً﴾ أما السفه: قال مجاهد:

يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا

هو الجاهل .

وقال الزجاج: هو خفيف العقل، ويشتمل هذا على: المرأة، والصغير ونحوه، ومنه قول الشاعر:

مشين كما اهتزت رماحٌ تسفَهت أعاليها مرَّ الرياحِ النواسم

وقيل: السفية: الصغير ومذهب الشافعي: أنه المبذر المفسد لماله .

وأما الضعيف: هو ضعيف العقل من عته، أو جنون .

﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ أى: لا يقدر على الإملال من خرس، أو عمى .

﴿فليملل وليه بالعدل﴾ يعنى: وليّ هؤلاء .

أما من لم يجوز الحجر على السفية - كالنخعي، وابن سيرين، وغيرهما - قالوا: أراد بالولى: صاحب الحق، يعنى: إن عجز من عليه الحق من الإملال فليملل الذى له الحق .

﴿واستشهدوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أى: وأشهدوا .

﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ يعنى: فإن لم يكن الشاهدان رجلين فرجل وامرأتان .

﴿ممن ترضون من الشَّهَدَاءِ﴾ وهم أهل الفضل والدين، قاله ابن عباس . ﴿أن تضل إحداهما﴾ أن تنسى وتغفل إحداهما، وذلك بأن يغيب حفظها عن الشهادة، أو تغيب الشهادة عن الحفظ .

﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ وذلك بأن تقول: ألسنا حضرنا مجلس كذا؟ ألم نسمع كيت وكيت؟ .

الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً

وقرأ حمزة: «إِنْ تَضَلَّ فَتَذَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» على الشرط (١).

قال سفيان بن عيينة: فتذكر إحداهما الأخرى، معناه: تجعل إحداهما الأخرى ذكراً، أى: يقومان مقام الذكر، والأول أصح.

﴿ولا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ قيل: أراد به: إذا ما دعوا للتحمل، وإنما سماهم شهداء على معنى أنهم يكونون شهداء. وقيل: هو الدعاء إلى الشهادة.

﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ أى: لا تملوا ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ يعنى: الذى قَلَّ أَوْ كَثُرَ.

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعدل عند الله ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ لأن الكتبة تذكر الشهود.

﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أى: أن لا تشكوا ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ قرأ: بضم التاء على اسم كان، وقرأ بفتح التاء، يعنى: إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة، ومثله قول الشاعر:

فَدَىٰ لِبَنِي ذَهَلِ بْنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ أَشْهَبَا (٢)

يعنى: إذا كان اليوم يوما.

﴿تَدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يعنى: إذا كانت التجارة يدا بيد.

(١) قرأ حمزة: «إِنْ» بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها، وقرأ: «فتذكر» بضم الراء، وقرأ الباقون بفتحها.

وقرأ ابن كثير، ويعقوب، وأبو عمرو بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد. انظر النشر (٢/ ٢٣٦ - ٢٣٧)، وتفسير البغوى (١/ ٢٦٩).

(٢) جاء هذا الشطر من البيت فى لسان العرب (مادة: شهب) كما يلى:

إذا كان يومٌ ذو كواكبٍ أشهبُ

تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا

﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أمر به استحباباً.

﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ قرأ عمر: «ولا يضارر» وقرأ ابن مسعود: «ولا يضارر» والمعروف: ﴿ولا يضار﴾، وهذا يحتمل أن يكون نهياً للكاتب والشاهد عن الإضرار، ويحتمل أن يكون نهياً للمملى والداعي.

فأما إضرار الشهود والكاتب: أن يأبى الكتابة والشهادة إذا دعى إليها.

وأما الإضرار بالكاتب والشهود: أن يدعوه وهو مشغول، فيمنعه من شغله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أى: معصية منكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾. قرأ عطاء: «ولم تجدوا كُتَّابًا» وهو جمع الكاتب، كما يقال: قائم وقيام، ونائم ونيام.

﴿فرهن مقبوضة﴾ ويقرأ: «فرهان» مقبوضة والمعنى واحد^(١).

وحكم الرهن معلوم، وليس ذكر السفر، وعدم الكاتب على سبيل الشرط فى جواز الرهن؛ وإنما خرج الكلام على الأعم الأغلب.

﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته﴾ يعنى: إن ائتمنه فى الدين فليقبضه على الأمانة.

﴿وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة﴾ نهى الشهود عن كتمان الشهادة، وهو

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بضم الراء والهاء، من غير ألف، وقرأ الباقون: بكسر الراء، وفتح الراء، وألف

بعدها. انظر النشر (٢/٢٣٧).

فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

حرام.

﴿ومن يكتُمها فإنه آثم قلبه﴾ قيل: ما أوعد الله تعالى على شيء كإيعاده على
كتمان الشهادة، فإنه قال: ﴿فإنه آثم قلبه﴾ وأراد به مسخ القلب، ونعوذ بالله
﴿والله بما تعملون عليم﴾.

قوله تعالى: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ ﴿ملكاً ومُلكاً﴾. ﴿وإن تبدوا
ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ هذا منسوخ؛ فإنه روى: لما نزلت هذه
الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا: يحاسبنا الله بما نحدث به أنفسنا؟! وبقوا في
ذلك حولا كاملا؛ فنزل قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ فصار هذا
منسوخا به.

هذا قول أبي هريرة، وابن مسعود، (وابن عمر)^(١)، وفي إحدى الروايتين عن ابن
عباس.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَفَى عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا؛ مَا لَمْ
تَعْمَلْ أَوْ تَكْلَمْ بِهِ»^(٢) أَى: تتكلم به.

وقال أهل الأصول: هذا ليس بمنسوخ؛ لأن قوله: ﴿يحاسبكم به الله﴾ خبر،
والنسخ لا يرد على الأخبار، وإنما يرد على الأوامر والنواهي.

وقد روى الوالبى، عن ابن عباس - فى الرواية الثانية - أن معنى قوله:
﴿يحاسبكم به الله﴾ أَى: يُعَلِّمُكُمْ بِهِ، أَى: لا يخفى عليه شيء من ذلك.

(١) وفى «ك»: وأبى عمر، خطأ.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (١٩٠/٥) رقم ٢٥٢٨ وأطرافه فى ٥٦٦٩، ٦٦٦٤)، ومسلم

(٢/١٩٣ رقم ٢٠١).

شَيْءٌ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا

﴿ فيغفر لمن يشاء ﴾ أى : يغفر للمؤمنين ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ يعنى : الكافرين ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ لأنه ذكر الآيات والأحكام، ثم قال : آمَنَ الرُّسُولُ بِذَلِكَ كله .

﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ وقرأ يعقوب : « لا يفرق » بالياء (١)، أى : لا يفرق الرسول بين أحد من رسله .

﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ أى : قبلنا ﴿ غفرانك ربنا ﴾ أى : اغفر غفرانك، أو اعطنا غفرانك ربنا ﴿ وإليك المصير ﴾ أى : المرجع .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أى : طاقتها .

وقيل : ما (يشق) (٢) عليها . وهو مثل قول الرجل : لا أستطيع أن أنظر إلى فلان، أى : يشق علي أن أنظر إليه، فكذلك ذكر الوسع بمعنى : السهولة، أى : لا يكلف الله نفساً إلا ما يسهل عليها .

وهذه الآية هي النسخة لما بينا .

﴿ لها ما كسبت ﴾ أى : من الخير ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾ أى : من الشر .

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا ﴾ أى : تركنا، وقيل : هى على حقيقة النسيان .

﴿ أو أخطأنا ﴾ الخطأ : يكون بمعنى : العمد، ويكون على حقيقة الخطأ، يقال :

أَخْطَأَ يُخْطِئُ وَخَطَأٌ يُخْطَأُ [والمراد] (٣) بقوله ها هنا ﴿ أو أخطأنا ﴾ أى : تعمداً .

(١) انظر النشر (٢/٢٣٧) .

(٢) فى « ك » : يضيق .

(٣) ليست فى « الأصل » ولا « ك »، والسياق يقتضيها .

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا﴾

قيل: هو العهد الثقيل الذي حمل من قبلنا.

وقيل: لا تحمل علينا ما يشق علينا.

وقيل: الإصر: هو ذنب لا توبة له، أى: اعصمنا من ذنب لا تقبل له توبة.

﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ فى هذا دليل على أن الله تعالى يجوز أن يُحمّل العباد ما لا يطيقونه؛ لكنه إنما حمل الكفار ما لا يطيقونه ولم يحمل المؤمنين. ﴿واعف عنا﴾ أى: امح عنا ﴿واغفر لنا﴾ أى: استر علينا. ﴿وارحمنا﴾ أى: ارحم علينا.

﴿أنت مولانا﴾ أنت ناصرنا والقيم بأمورنا. ﴿فانصرونا على القوم الكافرين﴾ وقد ورد فى فضل الآيتين أخبار، منها: ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأ فى ليلة بآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه» (١).

وروى أنه قال — عليه السلام —: «هما آيتان أنزلتا على من كنز تحت العرش» (٢).

وَعَلَيْهِ [وآله أجمعين] (٣).

(١) متفق عليه من حديث أبي مسعود الأنصاري، رواه البخاري (٦٧٢/٨) رقم ٥٠٠٩ وأطرافه فى ٤٠٠٨، ٥٠٠٨، ٥٠٤٠، ٥٠٥١)، ومسلم (١٣٢/٦) رقم (٨٠٧).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٤/١٤٧، ١٥٨)، والطبراني فى الكبير (١٧/٢٨٣) رقم ٧٧٩، ٧٨٠) وأبو يعلى فى مسنده (٣/٢٧٧) رقم ١٧٣٥) عن عقبة بن عامر.

وقال الحافظ ابن كثير فى رواية أحمد (١/٣٤١): هذا إسناد حسن ولم يخرجوه.

وقال الهيثمي فى المجمع (٦/٣١٥): الحديث حسن. وفى الباب عن حذيفة وعلي.

(٣) من «لک».

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قال الشيخ الإمام الأجل - رضي الله عنه - لقد ورد في فضل هذه السورة وسورة البقرة أخبار منها: ما روي عن رسول الله ﷺ [أنه] ^(١) قال: «تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما الزهروان تظلان صاحبهما يوم القيامة» ^(٢).

وروى عنه ﷺ أنه قال: «تجىء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف» ^(٣).

(١) من «ك».

(٢) تقدم في أول سورة البقرة.

(٣) رواه مسلم (١٣٠/٦ - ١٣١ رقم ٨٠٥)، والترمذي (١٤٧/٥ - ١٤٨ رقم ٢٨٨٣)، وأحمد (١٨٣/٤) عن النواس بن سمعان، وقد تقدم تخريجه في أول سورة البقرة، من حديث أبي أمامة، وبريدة - رضي الله عنهما -.

الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ

قوله تعالى: ﴿آلم الله﴾

فالآلف: هو الله، واللام: جبريل، والميم: محمد ﷺ، وفيه إشارة لما أنزل الله،
على لسان جبريل، على محمد ﷺ.

وقد ذكرنا الأقوال في حروف التهجي.

وإنما فتح الميم عند الوصل، وإن كان الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر؛ لأنهم
استثقلوا الكسرة بعد [الجزم، والياء فيه جزم] ^(١).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لامعبود سواه. ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فالحي: الدائم الذي لم يزل.

وأما القيوم فقد سبق تفسيره، وقيل: هو الذي لا يزول ولا يحول. وقال جعفر بن
محمد [بن] ^(٢) الزبير: هو دائم الوجود. وقرأ عمر، وابن مسعود ﴿الْحَيُّ الْقَيُّامُ﴾
وهو في الشواذ.

قوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب: القرآن، وسمى كتاباً؛ لأنه
يجمع الآي والحروف، وهو من الكتب وهو: الجمع، ومنه: الكتيبة و[هي] السرية
لاجتماعهم.

ومنه يقال: كتبت البغلة، إذا جمع بين شفريرها بحلقه. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي:
بالصدق في الدلالات والإخبارات، والوعد والوعيد.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: القرآن مصدق لما قبله من التوراة والإنجيل.
وإنما قال: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لأنه في تصديق ما قبله، وإظهار صدقه، كالأشياء الحاضر
بين يديه.

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ﴾

(١) من «ك».

(٢) ليس في الأصل ولا «ك» والصواب إثباتها.

الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا

فذكر هاهنا ﴿أنزل﴾ وذكر في الابتداء ﴿نزل الكتاب﴾، لأنه أنزل التوراة جملة والإنجيل جملة، ونزل القرآن مفصلاً.

وأما التوراة أصلها وَوَرِيَّةٌ من الورى، من قولهم ورى الزند إذا أضاء، وخرجت ناره، ويقال: ورى زندي عند فلان؛ إذا أضاء أمره عنده.

فسمى وورية؛ لضياؤها وكونها نوراً، وقلبت الواو تاء فصارت تورية. وأما الإنجيل من «النجل» وهو الأصل فسمى به؛ لأنه كان أصلاً من الأصول فى العلم.

﴿وأنزل الفرقان﴾ قيل: هو القرآن، وهو المفرق بين الحلال والحرام، وقيل: كل ما أنزل الله فهو فرقان؛ لكونه مفرقاً بين الحلال والحرام، وفى الآية تقديم وتأخير، وتقديره وأنزل التوراة والإنجيل من قبل، وأنزل الفرقان هدى للناس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ «نزلت فى وفد نجران من النصارى، قدموا على رسول الله ﷺ، وفيهم السيد والعاقب: كانا رجلين منهم، وهم ستون راکباً، وقيل: قريباً من عشرين راکباً، فدخلوا المسجد، والنبي ﷺ قد صلى العصر، فوقفوا يصلون نحو المشرق صلاتهم، فلما فرغوا سألهم رسول الله عن عيسى، فاختلفوا فيه، فقال بعضهم: الله. وقال بعضهم: ابن الله، وقال بعضهم: ثالث ثلاثة، فقال ﷺ: أسلموا، فقالوا: نحن مسلمون، فقال ﷺ: كذبتم؛ يمنعكم من ذلك قولكم عيسى ولد الله. فأنزل الله تعالى فيهم بضع وثمانين آية، من أول سورة آل عمران فى الحجاج، والدلالة عليهم، ورد قولهم، وهذه الآية من جملتها نزلت فيهم» (١).

﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ فالعزيز: المنيع الذى لا يُقَدَّر عليه، ومنه: الأرض العزراء،

(١) رواه ابن جرير الطبري (١٠٨/٣) من طريق ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير مرسلًا، الخبر بطوله، وفي أماكن متفرقة من تفسيره. وعزاه صاحب الدر المنثور (٤٣/٢) لابن إسحاق، وابن المنذر أيضاً. وعزاه فى الدر (٤٣/٢) لأبي نعيم فى الدلائل، من حديث ابن عباس ولكن قال: «وهم أربعة عشر رجلاً...» الحديث، ورواه ابن مردويه من حديث رافع بن خديج. إلا أنه قال فى الأشراف: «كانوا اثنى عشر...» الحديث. (تفسير ابن كثير ١/٣٦٩)

يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ
كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ

وهي الصلبة الشاقة المسلك، وقيل: العزيز: الغالب الذي لا يفوته شيء، ومنه: يقال: من عزَّ بَزَأً أي (١) من غلب سلب، والمنتقم المعاقب على (الجنائية) (٢)، والنقمة: العقوبة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهذا لاشك فيه.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ هذا في الرد على وفد نجران؛ حيث قالوا: عيسى ولد الله، فكأنه يقول: هو الذي صورته في الرحم، (فكيف يكون ولد له) (٣)!

وقد روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: إن النطفة إذا وقعت في الرحم تكون أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين يوماً علقة، ثم أربعين يوماً مضغة، ثم يبعث الله تعالى ملكاً يأخذ تراباً بين أصبعيه فيخلطه بالمضغة، ثم يصوره بإذن الله كيف شاء (٤)، أحمر أو أسود أو أبيض، طويلاً أو قصيراً، حسناً أو قبيحاً، ثم يكتب رزقه وعمله وأثره وأجله وشقى أو سعيد، ثم إذا مات يدفن في التربة التي أخذ منها التراب. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في أمره ﴿الْحَكِيمُ﴾ في سلطانه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ اختلفوا في المحكمات والمتشابهات، قال ابن عباس: المحكمات هي (٥) الآيات الثلاث التي في آخر سورة الأنعام، وذلك قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ (٦) إلى

(١) تكررت في الأصل من الناسخ.

(٢) في «ك»: الخيانة.

(٣) في «ك»: فكيف يكون له ولداً.

(٤) في «ك»: يشاء الله.

(٦) الأنعام: ١٥١.

(٥) في «ك»: من.

آيَاتُ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ

آخر الآيات الثلاث، وأما المتشابهات: حروف التهجي في أوائل السور. وقال عكرمة ومجاهد: المحكمات: الحلال والحرام^(١)، وما سواه كله من المتشابهات؛ لأنه يشبه بعضها بعضاً في الحق، والتصديق، يصدق بعضه بعضها.

وقال الضحاك: المحكمات: الناسخات، والمتشابهات: المنسوخات.

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: المحكمات ما أوقف الله تعالى الخلق على معناها، والمتشابهات ما لا يعقل معناها، ولا يعلمها إلا الله. وفيه قولان آخران: أحدهما: أن المحكمات ما لا يشتبه معناها، والمتشابهات ما يشتبه ويلتبس معناها. والقول الثاني: أن المحكمات ما يستقل بنفسه في المعنى، [والمتشابهات]^(٢) ما لا يستقل بنفسه في المعنى إلا بنوع استدلال، أو ردٍّ إلى غيره؛ وإنما سميت محكمات من الإحكام؛ (كأنه)^(٣) أحكمها؛ فمنع الخلق من التصرف فيها؛ لظهورها (ووضوح)^(٤) معناها.

﴿هن أم الكتاب﴾ أي: أصل الكتاب، فإن قال قائل: لم لم يقل: هن أمهات الكتاب؟ قيل: قال الفراء: تقديره: هن الشيء الذي هو أصل الكتاب. وقال غيره: معناها: كل واحدة منهن أصل الكتاب، كما يقال: القوم أسد على، أي: كل واحد منهم أسد على، ومعناها: هن أصل الكتاب؛ لأن الخلق يفزعون إليه، كما تفزع الفروع إلى الأصول، فإن قال قائل: كيف فرقها هنا بين المحكمات والمتشابهات، وسمى كل القرآن متشابهاً في قوله تعالى ﴿اللهم نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾^(٥). وسمى الكل محكماً حيث قال: ﴿الر. كتاب أحكمت آياته﴾^(٦)؟ قلنا: لما ذكر هنالك ﴿كتاباً متشابهاً﴾ على معنى: أنه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق، وإنما ذكر في الموضع الآخر ﴿أحكمت آياته﴾^(٧) على معنى أن الكل حق وجد، ليس فيه

(١) في «ك»: الحلالات والحرامات.

(٢) من «ك».

(٣) في «ك»: لأنه.

(٤) في «ك»: وظهور.

(٥) الزمر: ٢٣.

(٦) هود: ٢٠١.

(٧) هود: ٢.

عبث ولا هزل، ثم ذكر تفصيلاً آخر بعده، فجعل البعض محكماً والبعض متشابهاً.

﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ﴾ قال مجاهد: الزيغ: اللبس. وقيل: هو الشرك، وقيل: هو الشبهات التى تتعلق بالقلب ﴿فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ يعنى: أن الذين فى قلوبهم زيغ يغفلون فى طلب التأويل للمتشابه؛ فيقعون على التأويل المظلم؛ فذلك ابتغاء الفتنة؛ لأن من غلا فى الدين، وطلب تأويل ما لا يعلمه إلا الله، يقع فى الفتنة، ويكون مفتوناً، وخير الدين: النمط الأوسط الذى ليس فيه غلو ولا تقصير.

ثم اختلفوا فى الذين يتبعون ما تشابه من هم؟ قيل: هم اليهود الذين قالوا: مدة أمة محمد على حروف التهجى فى أوائل السور، فهم الذين اتبعوا ما تشابه من حروف التهجى، وقيل: هم النصارى من وفد نجران، حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ما تقول فى عيسى؟ فقال: عبد الله ورسوله، قالوا: فهل تقول: إنه كلمة الله وروح منه؟ فقال: نعم، قالوا: حسبنا الله^(١). واتبعوا ما تشابه من قوله: كلمة الله وروح منه. وقيل: هم الغالون فى طلب التأويل واتباع المتشابه، وروت عائشة «أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية، ثم قال: إذا رأيتم الذين يجادلون فى الآيات فاحذروهم فهم هم»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ استأثر الله تعالى بعلم التأويل، وقطع أفهام العباد عنه، والفرق بين التأويل والتفسير: أن التفسير: هو ذكر المعنى الواضح، كما تقول فى قوله: ﴿لا ريب فيه﴾^(٣) أى: لا شك فيه، وأما التأويل: هو ما يؤول المعنى إليه، ويستقر عليه. ثم الكلام فى الوقف، فاعلم: أن أبى بن كعب وعائشة

(١) رواه ابن جرير الطبري (١١٨/٣)، وابن أبى حاتم فى تفسير (آل عمران ١/٦٦ رقم ١٠٦) كلاهما عن الربيع مرسلاً. وعزاه السيوطي فى الدر لهما عن الربيع (٧/٢).

(٢) متفق عليه من حديث عائشة. رواه البخاري (٥٧/٨ رقم ٤٥٤٧)، ومسلم (٣٣١/١٦) رقم ٣٣٢.

(٢٦٦٥).

(٣) البقرة: ٢.

مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَزِغْ

وابن عباس - فى رواية طاوس عنه - (رأو) ^(١) الوقف على قول ﴿إلا الله﴾، وهو قول الحسن، وأكثر التابعين، وبه قال الكسائى، والفراء، والأخفش، وأبو عبيد، وأبو حاتم، قالوا: إن الواو فى قوله: ﴿والراسخون﴾ واو الابتداء؛ والدليل على صحته قراءة ابن عباس «ويقول الراسخون فى العلم آمنا به» وروى ابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس - فى رواية أخرى : الواو للنسق، ولا وقف (على قوله) ﴿إلا الله﴾ (وأن الراسخون) ^(٢) فى العلم يعلمون التأويل، قال ابن عباس: وأنا ممن يعلم تأويله، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل» ^(٣)، قالوا: والصحيح رواية طاوس، عن ابن عباس، كما ذكرنا، وعليه إجماع القراء؛ ولأن على قضية قول مجاهد لا يستقيم.

قوله: ﴿والراسخون فى العلم يقولون﴾ قال النحاة: وإنما يستقيم أن تقول: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم قائلين ﴿آمنا به﴾ (و) ^(١) لأنه قال: ﴿والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾؛ ولو علموا التأويل لم يكن لقولهم هذا معنى، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: «أنزل القرآن على أربعة أوجه: الحلال والحرام، وعربية تعرفها العرب، ومما يعلم العباد تأويله، وما لا يعلم تأويله إلا الله» وهذا يشهد لما قلنا؛ فدل أن الوقف على قوله: ﴿إلا الله﴾. والواو: واو الابتداء فى قوله: ﴿والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ قالوا: ومن رسوخهم فى العلم يقولون ذلك ﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾.

قوله تعالى: ﴿ربنا لاترغ قلوبنا﴾ أى: لا تمل قلوبنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وهذا

(١) ليست فى «ك».

(٢) فى «ك»: وإن الراسخين.

(٣) متفق عليه. رواه البخارى فى الصحيح (٢٠٤/١) رقم ٧٥، وأطرافه ١٤٣، ٣٧٥٦، ٧٢٧٠، ومسلم

(١٦/٥٥ رقم ٢٤٧٧).

قُلُوبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ

دعاء للتثبيت والإدامة عليه، وقد روت أم سلمة عن النبي أنه كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» (١) ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ نصره ومعونه ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لاشك فيه عند أهل الحق، وقيل: أراد لا ريب فيه: يوم القيامة إذا قامت وظهرت.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فلا ترغ قلوبنا، وارحمنا، ولكنه أوجزه ولم يذكر تمام الدعاء

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ هو قول الكافرين يوم القيامة: شغلنا عن الحق أموالنا وأهلونا، يقول لا عذر لهم فيه، ولا يغنيهم ذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ الدَّابُّ: الشَّانُ، والدَّابُّ: العادة، ومعنى الآية: أن هؤلاء الكفار فى تكذيب الرسول، وجحد الحق، والتظاهر على الكفر؛ كعادة آل فرعون، وآل فرعون: فرعون وقومه.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعنى: عاداً وثمود ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، عاقبهم بجرائمهم، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لأنه دائم، عقابه لا ينقطع؛ وكل دائم شديد.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال ابن عباس: وسبب نزول الآية ما روى: «أنه لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال المشركين يوم بدر جمع اليهود بقينقاع، وقال

(١) رواه الترمذي (٥/٥٠٣ رقم ٣٥٢٢) وقال: حسن. وأحمد (٦/٢٩٤، ٣٠٢، ٣١٥)، وابن أبي شيبة فى مصنفه (١٠/٢٠٩ - ٢١٠ رقم ٩٢٤٦) وابن خزيمة فى التوحيد (ص ٨١)، والطبرى فى التفسير (٣/١٢٦)، وابن أبى حاتم فى تفسير آل عمران (١/٨٤ رقم ١٤٥)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/١٠٠ رقم ٢٢٣)، والآجرى فى الشريعة (ص ٣١٦).

العقاب ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ

لهم: أسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بالمشركين من بأس الله، فقالوا: إنك لقيت قوماً أغماراً لا يعرفون القتال، فلو قاتلتنا لوليت ﴿١﴾ فنزل ﴿٢﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ يعني: ستغلبون في الدنيا، وتحشرون في الآخرة إلى جهنم. ﴿وبئس المهاد﴾ وقال مقاتل وجماعة: هو خطاب لأولئك المشركين يوم بدر، يقول الله: قل للمشركين: ستغلبون، وتحشرون إلى جهنم، وقد غلبوا وحشروا إلى جهنم، ويقرأ: «سيعلبون ويحشرون» ﴿٣﴾ بالياء - وهو بمعنى الأول، قال الفراء: وهو مثل قول الرجل: قل لزيد: إنك قائم. هو بمعنى قوله: قل لزيد: إنه قائم؛ فهما ﴿٤﴾ في المعنى سواء، ويحتمل أن يكون هذا خطاب لليهود، يعني: قل للذين كفروا من اليهود: سيعلب المشركون، ويحشرون إلى جهنم، وبئس المهاد، أي: بعسما مهدوا لأنفسهم، أو بعسما مهد لهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: معجزة وعلامة، ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ في فرقتين ﴿الَّتِي تَقَاتَلَا﴾ اجتماعاً، من الالتقاء: وهو الاجتماع، ومنه: «يوم التلاق»؛ لأنه يجتمع فيه أهل السماء وأهل الأرض ﴿فِئَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: المسلمين يوم بدر ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ يعني: المشركين ﴿يُرَوْنَهُمْ مِّثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ يعني: المسلمين رأوا المشركين مثلى عددهم، وكانوا ثلاثة أمثالهم؛ لأن عدد المسلمين يوم بدر كان ثلثمائة وثلاثة عشر نفراً أو أربعة عشر نفراً، وكان عدد المشركين تسعمائة وخمسين

(١) رواه أبو داود في سننه (٣/١٥٤ - ١٥٥ رقم ٣٠٠١)، وابن جرير في تفسيره (٣/١٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/١٢٨) من حديث ابن عباس. وعزاه السيوطي في الدر (٢/٧) لهما وزاد فعزاه لابن إسحاق. وقد رواه ابن جرير من طريقه.

(٢) في «الاصول»: فنزلت.

(٣) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف، انظر النشر (٢/٢٣٨) وأما القرطبي في تفسيره (٤/٢٣) فعزى هذه القراءة لنافع.

(٤) في «ك»: فهو.

يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي

نفراً، وعن عليّ وابن مسعود: أن عدد المشركين كانوا ألفاً، فرآهم المسلمون نيّفاً وستمائة. قال ابن مسعود: رأيناهم ضعفى عددنا، ثم رأيناهم مثل عددنا؛ رجل [برجل] (١) وهذا معنى قوله تعالى فى سورة الأنفال ﴿وَإِذْ يَرِيكُهُمْ إِذْ التَّقِيتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ (٢) فرآهم المسلمون أقل من عددهم، وكذلك المشركون رأوا المسلمين أقل من عددهم، وكانت الحكمة فيه إذا رأوهم أقل مما كانوا لا يحجمون، ولا يفترون عن القتال؛ لأن الله تعالى قد أخبرهم أن الواحد منهم يقاوم اثنين من المشركين، وكذلك المشركون إذا رأوا المسلمين أقل مما كانوا لا يمتنعون عن القتال؛ ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، وذلك من قتل رؤسائهم وقادتهم، بإذن الله تعالى.

قال الفراء: إنما رأوهم على عددهم كما كانوا، وإنما قال: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ﴾ يعنى: مثليهم سوى عددهم، وهذا مثل قول الرجل - وعنده درهم - : أنا أحتاج إلى مثلى هذا الدرهم، يعنى إلى مثليه سواه. والأول أصح.

وقرى: «ترونها» بالتاء (٣) فيكون خطاباً لليهود، وكان جماعة منهم حضروا قتال بدر؛ لينظروا على من الدبرة، فرأوا المشركين مثلى عدد المسلمين، ورأوا النصرة مع ذلك للمسلمين، وكان ذلك معجزة، وآية للرسول فى أعينهم. وعلى القراءة الأولى يكون الخطاب مع المسلمين فى قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِتْنِى﴾.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ لأنه نصر المؤمنين يومئذ.

﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أى: علامة لأولى البصائر فى الدين، ولذوى العقول أجمعين.

(١) فى «الأصل، وك»: فرجل. أوله فاء، وهو تصحيف.

(٢) الأنفال: ٤٤.

(٣) وهى قراءة نافع، ويعقوب، وأبى جعفر. انظر النشر (٢/٢٣٨).

الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثَ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ

قوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ قال الحسن : المَزِينُ : هو الشيطان ؛ لأن الله تعالى ذم الدنيا بأبلغ ذم ، فلا يزينه في الأعين . وقال عامة المفسرين : المَزِينُ : هو الله تعالى ، وتزيينه : أنه حُب في قلوبهم شهوة النساء والبنين ﴾ والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ ، القناطر : جمع القنطار ، وهو مال كثير ، ثم اختلفوا ؛ قال معاذ وأبى بن كعب : القنطار : ألف ومائتا أوقية ، وقال ابن عباس والضحاك : هو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم . وقال سعيد بن المسيب : هو ثمانون ألف درهم . وقال مجاهد : هو سبعون ألف دينار . وقال قتادة : هو مائة رطل من ذهب أو فضة . وقال أبو نضرة : هو ملء مَسْك ثور من ذهب أو فضة . وسمى قنطاراً ؛ من الإحكام والتوثيق ، وأما المقنطرة : فهي المجموعة المملكة . قال الفراء : القناطر ثلاثة ، والمقنطرة تسعة .

قوله : ﴿ والخيول المسومة ﴾ قال مجاهد : هي الحسان المطهَّمة ، وقال سعيد ابن جبیر : المسومة : الراعية . يقال : أسام الخيل من الرعى . وفيه قول ثالث ، المسومة : المعلمة من السیما ، وهي العلامة . منهم من قال : سیماها : الشبه . ومنهم من قال : سیماها (١) الكى ﴾ والأنعام ﴾ : هي الإبل والبقر والغنم ﴾ والحرث ﴾ : هي الأراضي المهيأة للزراعة ﴾ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ فيه إشارة إلى أنه متاع يفنى .

﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ فيه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة ، ثم أكدّه

بقوله تعالى : ﴿ قل أُوْنِبْتُكُمْ بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ... ﴾ وقرئ « رُضوان » بضم الراء (٢) ، وهما في المعنى سواء يقال : رضى يرضى رضاءً ورضواناً . ورضواناً ،

(١) من « ك » .

(٢) هي قراءة أبى بكر . انظر النشر (٢ / ٢٣٨) .

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بَالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾
الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ

وفى الخبر عن النبي ﷺ: «أن أهل الجنة؛ إذا دخلوا الجنة يقول الله تعالى: إن لكم عندى موعداً، وأنا منجزكموه، فيقولون: قد أعطيتنا كل ما نتمنى، فما هو يارب؟ فيقول: أنزل عليكم رضوانى ولا أسخط عليكم أبداً» (١).

قوله تعالى: ﴿والله بصير بالعباد الذين يقولون﴾ فقلوه: ﴿الذين يقولون﴾ يحتمل أن يكون فى موضع الخفض، وتقديره: بالعباد الذين يقولون، ويحتمل أن يكون فى موضع الرفع، وتقديره: يقولون على الابتداء، ويحتمل أن يكون فى موضع النصب، وتقديره: أعنى: الذين يقولون: ﴿ربنا إنا آمنة فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾.

﴿الصابرين﴾ يحتمل أن يكون فى موضع الخفض، ويحتمل فى موضع النصب، يعنى: الصابرين على الشدائد والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصى ﴿والصادقين﴾ الذين استقامت أحوالهم وأفعالهم ﴿والقانتين﴾: المقيمين على الطاعة، المداومين عليها ﴿والمنفقين﴾ يعنى: المتصدقين، قيل: فى الجهاد، وقيل: فى كل أبواب البر ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ قال ابن عباس: هم المصلون بالليل. وقال أنس: هم السائلون بالمغفرة. وقال زيد بن أسلم: المصلون صلاة الصبح فى الجماعة، وإنما قيده ﴿بالأسحار﴾ لقرب صلاة الصبح من السحر.

قوله تعالى: ﴿شهد الله﴾ أى: بين وأعلم؛ وكل شاهد مبين ومعلم ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ لنفسه بالوحدانية؛ وذلك أن وفد نجران قد أنكروا وحدانيته، وهذه الآية من الآيات التى نزلت فى شأنهم، والحجاج عليهم ﴿والملائكة﴾ أى: وشهدت الملائكة، ﴿وأولوا العلم﴾ قيل: هم علماء بنى إسرائيل، وذلك مثل: عبد الله بن سلام، ومن

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري. رواه البخاري (٤٢٣/١١) رقم ٦٥٤٩، وطرفه فى رقم ٧٥١٨، ومسلم (٢٤٦/١٧) رقم ٢٨٢٩.

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ

آمن معه، وقيل: هم المهاجرون والأنصار، وقيل: هم جميع علماء الأمة.

﴿قَائِمًا﴾ نصب على الحال، فهو الله تعالى قائم بتدبير الخلق ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، يقال: قَسَطَ يَقْسِطُ إذا جَارَ. وَأَقْسَطَ يُقْسِطُ؛ إذا عدل، فالقاسط: الجائر، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(١) والمقسط: العادل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمَقْسِطِينَ﴾^(٢).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ويقرأ: «أَنْ الدِّينَ» بفتح الألف، فمن قرأ بكسر الألف؛ فهو على الابتداء وقرأ الكسائي بالنصب،^(٣) وتقديره: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام؛ فإنه لا إله إلا هو والإسلام: هو الانقياد والاستسلام، وقد يكون مجرد الاستسلام من غير العقيدة فرقا بينه وبين الإيمان على ما سيأتى.

والإسلام المعروف فى الشرع: هو الإتيان بالشهادتين مع سائر الأركان الخمس، وفى الأخبار: «أنه يؤتى بالأعمال يوم القيامة، فيؤتى بالصلاة على صورة، فتقول: يارب، إني الصلاة، فيقول الله تعالى: إنك بخير، ويؤتى بالزكاة على صورة، فتقول: يارب، إني الزكاة، فيقول الله: إنك بخير، وهكذا الصوم والحج، ثم يؤتى بالإسلام على أحسن الصور، فيقول: يارب، إني الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك إلى خير، بك أخذ اليوم وبك أعطى».

وحكى عن غالب القطان أنه قال: أتيت الكوفة للتجارة فنزلت قريباً من الأعمش، فكنت أختلف إليه وأسمع منه الحديث، فقصدت منه ليلة أن أنحدر منه إلى البصرة، فوجدته يتعجد فى المسجد، فمر بهذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ

(١) الجن: ١٥.

(٢) المائدة: ٤٢.

(٣) قرأ الكسائي بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها. انظر النشر (٢/٢٣٨).

﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ

وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴿١٨﴾ ثم قال: وأشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة؛ لتكون وديعة لى عنده، ثم قال: ﴿١٩﴾ إن الدين عند الله الإسلام ﴿١٨﴾ كرره مرارا، فقلت فى نفسى: لقد سمع فيه شيئا، فمكثت، وصليت معه الصبح، ثم قلت له: مررت بهذه الآية، وكنت تكررها! فقال: أما بلغك ما ورد فيها؟!

قلت: أنا عندك منذ سنتين ولم تحدثنى، وقد قصدت الانحدار إلى البصرة، فقال: والله لا أحدثك سنة، فمكثت بالكوفة وكتبت على بابك ذلك اليوم، فلما تمت السنة أتيتك، فقلت: يا أبا محمد، قد تمت السنة. فقال: حدثنى أبو وائل، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى - ﷺ - أنه قال: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله تعالى: إن لعبدى هذا عندى عهداً (وأنا) (١) أحق من وفى بالعهد، ادخلوا عبدى الجنة» (٢).

قوله تعالى: ﴿١٨﴾ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴿١٨﴾ يعنى: اليهود والنصارى ﴿١٨﴾ إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴿١٨﴾ أى: حسداً بينهم. ﴿١٩﴾ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴿١٩﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿١٩﴾ فإن جادلوك ﴿١٩﴾ أى: (٣) فإن جادلوك ﴿١٩﴾ فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴿١٩﴾ أى: قصدت بعبادتى الله تعالى ﴿١٩﴾ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴿١٩﴾ يعنى: اليهود والنصارى ﴿١٩﴾ والأمين ﴿١٩﴾ يعنى: المشركين.

(١) فى «ك»: وإنى.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير (١٩٩/١٠)، وأبو نعيم فى الحلية (١٨٧/٦ - ١٨٨)، والعقيلي فى الضعفاء

(٣٢٥/٣) وابن عدى فى الكامل (٣٥/٥ - ٣٦)، والخطيب فى تاريخه (١٩٣/٧ - ١٩٤) وابن الجوزى

فى العلل (١١٠/١ - ١١١) وقال الذهبى فى الميزان (٣٣١/٣) الآفة من عمر؛ فإنه متهم بالوضع. وقال

الهيثمى فى المجمع (٣٢٩/٦): وفيه عمر بن المختار وهو ضعيف.

(٣) ليست فى «ك».

ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ

﴿أأسلمتم﴾ يعنى : أسلموا، وقيل : ذكره على التهديد؛ كما يقال : أقبلت هذا منى؟ على وجه التهديد ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ أى : عليك تبليغ الرسالة وليست عليك الهداية ﴿والله بصير بالعباد﴾ بالضال منهم والمهتدى .

وتلخيص معنى الآية : أن الله تعالى يقول : فإن جادلوك بالباطل، فقل : أسلمت وجهى لله، أى : أخلصت عملى لله، أو قصدت بعبادتى إلى الله الذى تقرون له (١) بالخلق والتربية؛ فإنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم ومربهم، فأنا أقصد إليه بعبادتى ولا أتبع هواى كما تتبعون أهواءكم .

ثم قال : ﴿وقل للذين أتوا الكتاب والأمةين أأسلمتم﴾ أى : أسلموا . كما قال : ﴿فهل أنتم منتهون﴾ (٢) أى : انتهوا، وإنما سمى المشركين أمةين؛ لأنهم لم يكونوا قراء، وقيل : نسبهم إلى أم القرى وهى مكة لسكونهم فيها .

قوله تعالى : ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ أراد به اليهود من بنى إسرائيل . ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ إنما قال : بغير حق تأكيداً؛ لأن قتل النبيين لا ينقسم إلى الحق والباطل .

وروى أبو عبيدة بن الجراح، عن النبى ﷺ أنه قال : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبى» . ثم روى فى هذا الخبر أنه قال : «قتلت بنو إسرائيل اثنين وأربعين نبياً فى ساعة واحدة، فقام إليهم مائة واثنا عشر رجلاً من زهادهم وعبادهم، وأمروا بالمعروف، فقتلوهم» (٣) فهذا قوله تعالى : ﴿ويقتلون الذين

(١) ليست فى الأصل، ولا «ك» .

(٢) المائة : ٩١ .

(٣) رواه البزار فى مسنده (١٠٩/٤ - ١١٠ رقم ١٢٨٥)، وابن جرير فى تفسيره (١٤٤/٣ - ١٤٥)، وابن أبى حاتم فى تفسير «آل عمران» (١٦١/١ - ١٦٢ رقم ٢٧٦)، والبخارى فى تفسيره (٢٨٨/١) من حديث أبى عبيدة وقال الهيثمى فى المجمع (٢٧٥/٧) : وفيه من لم أعرفه اثنان .

يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ

يأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴿١﴾ أى : بالعدل ﴿٢﴾ فبشرهم بعذاب أليم ﴿٣﴾ وإنما خاطب أبناءهم به ، مع أن (الجناية) (١) وجدت من آبائهم ؛ (لأنهم) (٢) رضوا بفعلهم ، ودانوا بدينهم ، فاستوجبوا هذا (العذاب) (٣) .

قوله تعالى : ﴿١﴾ أولئك الذين حبطت أعمالهم ﴿٢﴾ أى : بطلت ، والحبوط والبطلان ، فى الدنيا والآخرة ، وبطلان العمل فى الدنيا : ألا يقبل ، وفى الآخرة : أنه لا يجازى عليه بالثواب ، ﴿٣﴾ وما لهم من ناصرين ﴿٤﴾ من يمنع عنهم العذاب .

قوله تعالى : ﴿١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴿٢﴾ قيل : ورد هذا فى يهود بنى قريظة والنضير ؛ «فإن النبى ﷺ أتى بيت مدارسهم ، فقال له نعيم بن عمرو بن الحارث بن زيد : على أى ملة أنت ؟ فقال ﷺ : على ملة إبراهيم . فقال نعيم : إن إبراهيم كان يهودياً . فقال ﷺ : بينى وبينكم التوراة ، أخرجوا التوراة . فأبوا أن يخرجوها» (٤) ، فهذا هو قوله ﴿١﴾ يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴿٢﴾ يعنى : التوراة .

وفيه قول آخر : أن الآية فى نصارى وفد نجران ، وقوله ﴿١﴾ يدعون إلى كتاب الله ﴿٢﴾ يعنى : القرآن ليحكم بينهم .

﴿٣﴾ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴿٤﴾ وذلك أن بعضهم قد أسلموا .
قوله - تعالى - : ﴿١﴾ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ﴿٢﴾ يرجع هذا

(١) فى «ك» : الخيانة .

(٢) ليست فى «الأصل» ، ولا «ك» .

(٣) فى «ك» العتاب .

(٤) رواه ابن جرير فى تفسيره (١٤٥ / ٣) من حديث ابن عباس مرفوعاً .

مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ

إلى اليهود، وقد ذكرناه من قبل .

﴿وغيرهم في دينهم﴾ الغرور : هو الإطماع فيما لا يحصل منه شيء، والغرور : الشيطان، وغر الثوب : طيه، فيقال : أعد الثوب إلى غره، أى : إلى طيه، والغرور : ركوب الخطر. ﴿ما كانوا يفترون﴾ الافتراء : اختلاق الكذب؛ ومنه : الفرية : تسوية الكذب، قال الشاعر:

وَلَا أَنْتَ تَفَرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضَ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفَرِي

أى : لا يكذب ولا يسوى .

قوله تعالى : ﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ أى : فكيف حالهم ﴿إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ من الجزاء ﴿وهم لا يظلمون﴾ .
قوله تعالى : ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ فى سبب نزول الآية قولان : أحدهما : أنه لما فتح مكة وعد أصحابه ملك فارس : فسمعه اليهود، وقالوا : هيهات فارس والروم أعز وأمنع جانباً مما تظنون؛ فنزلت هذه الآية .

وقال الحسن : إنه ﷺ سأل ربه لأصحابه ملك فارس و الروم .

فأما قوله : ﴿قل اللهم﴾ فأصله : يا الله؛ فلما حذف حرف النداء زيدت الميم فى آخره، قال الفراء : للميم فيه معنى، ومعناه : يا الله، أعنا بالمغفرة أى : اقصدنا .

﴿مالك الملك﴾ تقديره يا مالك الملك، ومعناه : مالك العباد؛ وما ملكوه، وقيل : أراد بالملك : النبوة، وقيل : مُلْكُ السموات والأرض . ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ أى : من تشاء أن تؤتيه من المسلمين . ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أى : ممن تشاء أن تنزعه، وهم فارس والروم . ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ فيه ثلاثة أقوال :

كُلِّ شَيْءٌ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولَجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتُولَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

أحدهما : تعز من تشاء بالنصر، وتذل من تشاء بالقهر.

والثاني : تعز من تشاء بالغنى، وتذل من تشاء بالفقر.

والثالث : تعز من تشاء بالهداية، وتذل من تشاء بالضلالة.

﴿بَيْدِكَ الْخَيْرُ﴾ أى : بيدك الخير والشر، كما قال : ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾^(١)

أى : تقيكم الحر والبرد، فاكتفى بأحد المذكورين عن الآخر.

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقد ورد فى فضل هذه الآية من الأخبار : ماروى عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن على، عن النبى ﷺ أنه قال : « فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، وآيتان من آل عمران - شهد الله، وهذه الآية - متشفعات لمن قرأها يوم القيامة، ليس بينها وبين الله حجاب ».^(٢) وروى فى هذا الخبر : أنه قال : « لما أنزل الله تعالى هذه الآيات تعلقن بالعرش، وقلن : يارب، تهبطنا إلى أرضك وعبادك، فقال الله تعالى : « وعزتى وجلالى ما قرأكن عبد من عبادى إلا أسكنته جنتى ؛ على ما كان عليه، وقضيت له كل يوم سبعين حاجة، أدناها المغفرة »^(٣).

قوله تعالى : ﴿تُولَجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتُولَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ الإيلاج : الإدخال، ومعناه : تنقص من أحدهما وتزيد فى الآخر، وقيل : معناه : تغطى الليل بالنهار، والنهار بالليل.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قال الحسن : معناه : تخرج

(١) النحل : ٨١.

(٢) رواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (رقم ١٢٤)، وابن حبان فى المجروحين (١/٢٢٣)، وابن الجوزى فى الموضوعات (١/٢٤٥)، وقال ابن حبان فى ترجمة الحارث بن عمير : كان يروى عن الأثبات الموضوعات، ثم ساق له هذا الحديث، وقال الذهبي فى الميزان (١/٤٢٠) : قال ابن حبان : موضوع لا أصل له. وقال ابن الجوزى : موضوع تفرد به الحارث بن عمير. وقال السيوطى فى اللآلئ (١/٢٢٨) : موضوع. وانظر ما نقله السيوطى من كلام الأئمة على هذا الحديث وشواهد فى اللآلئ (١/٢٢٨ - ٢٣٣).

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، والقول الثانى : تخرج النطفة من الحى، والحى من النطفة، وفيه قول غريب : تخرج الفطن الكيس من البليد الفاجر، والبليد من الفطن؛ لأن البليد ميت فهماً؛ والفطن حى فهماً. ويقرأ ﴿من الميت﴾ : مخففاً ومشدداً، ^(١) وفرق نحاة الكوفة بين الميت والميت، فقالوا: الميت - بالتشديد - : هو الحى الذى يموت، والميت مخففاً : هو الذى مات؛ واستدلوا بقوله تعالى ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ ^(٢) وأنكر ذلك نحاة البصرة وقالوا : هما بمعنى واحد .

وأنشد المبرد لبعض الشعراء :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَنْ يَعِيشُ كَيْبًا ^(٣) كَاسِفًا بِالْهَلَاكِ قَلِيلَ الرِّجَاءِ

فجمع بين الميت والميت على معنى واحد .

﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ : من غير تضيق ولا تقتير .

قوله تعالى : ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ هذا فى قوم مخصوصين، أسلموا على موالاة اليهود والمشركين، فنهاهم الله عن ذلك، وهو معنى قوله : ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ ^(٤) .

﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء﴾ أى : ليس من حزب الله ﴿إلا أن

(١) قرأ أبو جعفر، ونافع، وحزمة، والكسائى . وخلف وحفص، بالتشديد، وقرأ الباقر بالتخفيف، وانظر النشر (٢٢٤/٢) .

(٢) الزمر : ٣٠ .

(٣) كذا فى «الأصل»، و«ك» . وفى لسان العرب (٢/٩١ مادة : موت) : شقياً . وعزا البيت لعدى بن الرعاء .

(٤) المجادلة : ٢٢ .

إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُخَفُوا

تتقوا منهم تقاة ﴿٢٨﴾ وقرئ: تَقِيَّةٌ (١)، ومعناها واحد، يعنى: إلا أن يقع فى أيديهم، فيخافهم، فيوافقهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان، فلا بأس به، ولكن لو صبر حتى قتل، فله من الأجر العظيم، ما الله به عليم.

وقد روى: «أن مسيلمة الكذاب - لعنه الله - أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، فقال: أتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم، تقية منه، فخلى سبيله. ثم قال للآخر: أتشهد أن محمدا رسول الله فقال: نعم نعم نعم، قال: أتشهد أنى رسول الله، فقال: أنا أصم، فقتله؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فذكر درجة الذى صبر على القتل، وقال: إن الأول أخذ برخصة الله.»

وقد صح عن رسول الله: أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (٢). وقال ﷺ: «إن أفضل الشهداء بعد شهداء أحد: من قام إلى سلطان جائر وأمره بالمعروف، فقتله عليه» (٣) (٤).

قوله - تعالى - : ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: يخوفكم إياه ﴿وَالِلَّهِ﴾

(١) هى قراءة يعقوب. انظر النشر (٢٣٩/٢).

(٢) رواه أبو داود (١٢٤/٤) رقم ٤٣٤٤ والترمذى (٤٠٩/٤) رقم ٢١٧٤، وأحمد فى مسنده (٦١، ١٩/٣) جميعهم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا. وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقال: وفى الباب عن أبى أمامة. قلت: حديث أبى أمامة رواه الإمام أحمد (٢٥٦، ٢٥١/٥)، وابن ماجه (١٣٣٠/٢) رقم ٤٠١٢. ورواه النسائى (١٦١/٧) رقم ٤٢٠٩، وأحمد (٣١٥/٤) من حديث طارق بن شهاب مرسلا. وانظر السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (٤٩١).

(٣) كذا فى «الأصل» و«ك» وسيكره المصنف بعد ذلك، وفيه: غيلة.

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وروى الطبرانى فى الأوسط - كما فى مجمع البحرين (٦/٣١٤) رقم ٣٧٦٢، و (٧/٢٣٥) رقم ٤٣٧٥ - عن ابن عباس مرفوعا: سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله. وقال الهيثمى فى المجمع (٩/٢٧١): فيه ضعف.

قلت: ورواه الحاكم فى مستدركه (٣/١٩٥) عن جابر مرفوعا وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الدهبى بأن فى إسناده الصغار، ولا يدرى من هو. والخطيب فى تاريخه (٦/٣٧٧). وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٣٧٤).

أَمَّا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

لمصير ﴿أى: المرجع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا صَدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ أى: يجازى عليه ﴿ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أى: محضر لها ما عملت من الخير والشر، فتسر بما عملت من الخير.

﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾ أى: غاية مديدة، قال السدى: ما بين المشرق والمغرب. وفى الأخبار: أن الأعمال يؤتى بها يوم القيامة على صور فما كان منها حسنا، فعلى الصورة الحسنة، وما كان قبيحا، فعلى الصورة القبيحة.

﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ ومن رأفته أن حذرهم، ورغبهم ورهبهم، ووعدهم وأوعدهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فى سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما: أنه خطاب لليهود والنصارى من وفد نجران، وذلك أنهم قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزل قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ والثانى: أنه خطاب لمشركى قريش؛ فإنه ﷺ رآهم يعبدون الأصنام؛ فقال لهم: «خالفتم ملة أبيكم إبراهيم، فقالوا: إنما نعبدكم تقربا إلى الله؛ فإننا نحبه؛ فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ
﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

والله غفور رحيم ﴿١﴾.

واعلم أن محبة الله العبد، ومحبة العبد الله لا يكون بلذة وشهوة، ولكن محبة العبد في حق الله : هو إتيان طاعته، وابتغاء مرضاته، واتباع أمره، ومحبة الله في حق العبد : هو العفو عنه، والمغفرة، والثناء الحسن، وأكدده قوله تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ؛ بين أن محبته في طاعته وطاعة رسوله .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ، فإن قال قائل : لِمَ كرر اسم الله مرارا، وكان يكفيه : أن يقول فإنه لا يحب الكافرين ؟ قيل : هو على عادة العرب ؛ فإن من عادتهم أنهم إذا عظموا شيئا كرروا ذكره، وأنشد سيبويه في مثل ذلك :

لا أرى الموت سبق الموت شيء نغص الموت زلته الغنى والفقر (٢)

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ الاصطفاء : الاختيار . والصفوة : الخيرة ؛ ولم (٣) اختار آدم ؟ اختلفوا ؛ فمنهم من قال : اختاره للدين، ومنهم من قال : اختاره للنبوة . فإن قال قائل : إلى من كان مبعوثا ؟ قيل : إلى الملائكة ؛ حتى علمهم الأسماء، وإلى أولاده . قال : وآل إبراهيم : هم إسماعيل وإسحاق ويعقوب .

وآل عمران : موسى وهارون، وآل عمران من آل إبراهيم، وقيل : أراد به عيسى ؛ لانه ابن مريم بنت عمران ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي أهل زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ قيل : هو مشتق من ذرأ بمعنى : خلق، وقيل : هو من الذر ، لأنه خلقهم ؛ واستخرجهم من صلب آدم كالذر، والأبناء يسمون ذرية، وكذلك الآباء، قال الله تعالى ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي

(١) أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٧٣ عن ابن عباس بطوله .

(٢) كذا وقع البيت فى «الأصل» و «ك» . وفى تفسير القرطبى (٤/ ٥٨) .

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقر

(٣) فى «الأصل» ، و «ك» : وم . بميمين . والصواب ما أثبتناه .

﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

الفلك المشحون ﴿١﴾ يعني: آباءهم، والأبناء: ذرية، لأنه ذرأهم، والآباء ذرية؛ لأنه ذرأ الأبناء منهم، ﴿بعضها﴾ (٢) من بعض ﴿في التفاضل، وقيل: في التناسل.﴾
﴿والله سميع﴾ بما قالوا ﴿عليم﴾ بما اضمروا.

قوله تعالى: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ وهى: حنة زوجة عمران، وكانت أختها تحت زكريا ﴿رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً﴾ قال الشعبى: معناه مخلصاً لعبادة الله تعالى. وقال مجاهد معناه: مسمى لخدمة البيت، مفرغاً لها عن سائر الأشغال.

﴿فتقبل منى إنك أنت السميع العليم﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى﴾ وذلك أن زوجها عمران كان قد (عاتبها) (٣). على ما نذرت، وقال لها: لاتدرين أنه يخلق ولدك ذكراً أو أنثى، وقد نذرت مطلقاً.

﴿والله أعلم بما وضعت﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن علمه ويقراً «والله أعلم بما وضعت» (٤) على الخبر؛ وذلك من قول المرأة ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ فإن الذكر أقوم وأقوى لخدمة البيعة من الأنثى، وقيل: لأنه أبعد عن الموانع من العبادة بخلاف الأنثى، يمنعها الحيض والنفاس.

﴿وإنى سميتها مريم﴾، فإن قال قائل: ما معنى قولها: وإنى سميتها مريم؟ قيل: حتى تعرف هل وقع ذلك الاسم برضا الله تعالى حتى يغير أو يقرر.

(١) يس: ٤١.

(٢) فى «الأصل»، و«ك»: بعضاً.

(٣) فى «الأصل» و«ك»: عاقبها عاتبها. ولعله من الناسخ.

(٤) هى قراءة ابن عامر، ويعقوب وأبى بكر، بإسكان العين وضم التاء، وقرأ الباقون بفتح العين وإسكان التاء. انظر

النشر (٢/٢٣٩).

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ

﴿وَأِنِّي أَعِيزُهَا بِكَ وَذَرِيتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فالشيطان : المطرود، والرجيم : المرجوم بالشهب، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من ولد يولد إلا ويطعن الشيطان في خاصرته؛ فيستهل صارخا إلا مريم وابنها، فإنه ضربهما فوقع الضرب في الحجاب، وقرأ قوله تعالى ﴿وَأِنِّي أَعِيزُهَا بِكَ وَذَرِيتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾»^(١).

قوله تعالى : ﴿فتقبلها ربهَا بقبول حسن﴾ أى : رضى بها وقبلها ﴿وأنبتها نباتا حسنا﴾، أى وأنبتها فنبتت نباتا حسنا.

قال أبو العباس بن عطاء الصوفى^(٢) : لما أنبتها الله نباتا حسنا، فانظروا إلى ثمرته كيف أثمر النبات؟ يعنى : عيسى صلوات الله عليه.

﴿وكفلها﴾ - مشدد - ﴿زكريا﴾ بنصب الألف، وتقرأ مخففا «وكفلها زكرياء» بضم الألف^(٣)، ومعنى الكفالة : الضم، يعنى : ضمها زكرياء إلى نفسه، ومن قرأ بالتشديد، معناه : ضمها الله إلى زكريا، وقال النبي ﷺ : «أنا وكافل اليتيم كهاتين»^(٤).

ومن الأسباب التى خُصَّ بها زكريا بكفالة مريم؛ أن خالتها كانت تحتة، وهى أخت حنة امرأة عمران، ولكفالة زكريا مريم قصة معروفة ستأتى فى سورة مريم إن شاء الله تعالى .

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ يقرأ «زكريا» بالمد والقصر^(٥)، والمحراب :

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٦/ ٣٨٨ - ٣٨٩ رقم ٣٢٨٦، وطرفاه فى ٣٤٣١، ٤٥٤٨) ومسلم (١٥/ ١٧٤ رقم ٢٣٦٦).

(٢) فى «الأصل»، «ك» : الصونق. آخره قاف. وهو تحريف.

(٣) اختلف القراء فى (وكفلها) فقراء الكوفيون - حمزة، والكسائى، وأبو بكر - بتشديد الفاء، وقرأ الباقون بتخفيفها.

(٤) رواه البخارى (٩/ ٣٤٩ رقم ٥٣٠٤) وطرفه فى [٦٠٠٥]، وأبو داود (٤/ ٣٣٨ رقم ٥١٥٠)، والترمذى (٤/ ٢٨٣ رقم ١٩١٨)، وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٣)، وابن حبان - الإحسان - (٢/ ٢٠٧ رقم ٤٦٠) كلهم من حديث سهل بن سعد، وفى الباب عن أبى هريرة، وأبى أمامة، ومرة الفهرى.

(٥) واختلفوا فى (زكريا) أيضاً، فقرأ حمزة، والكسائى، وخلف، وحفص بالقصر من غير همز، وقرأ الباقون بالمد، والهمز؛ إلا أن أبابكر نصبه هاهنا بعد (كفلها) على مفعول ثانٍ لـ (كفلها) ورفع الباقون ممن خفف.

انظر النشر (٢/ ٢٣٩).

يَا مَرْيَمُ أَنِّي لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾
هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

غرفة يرتقى إليها بالسلم، وكان زكريا قد اتخذ لمريم مثل تلك الغرفة، وكان يرقى إليها بالسلم، قال الشاعر فى معناه:

رَبَّةٌ مَحْرَابٍ إِذَا جِئْتَهَا لَمْ أَلْقِهَا أَوْ أَرْتَقِى سُلَّمًا (١)

أى: ربة غرفة، وقيل: المحراب: أشرف المجالس، وقيل: هو المحراب المعروف.
﴿وجد عندها رزقاً﴾ والرزق: ما يؤكل، قال قتادة: فأكهة الشتاء فى الصيف،
فأكهة الصيف فى الشتاء، كان قد رآها عندها، قال الحسن: حين ولدت مريم لم
تلقم ثديا، وكان يأتيها الله تعالى برزقها.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا﴾ قال أبو عبيدة: معناه: من أين لك هذا؟! وأنكرت
النحاة هذا، وقالوا: هذا تساهل من أبى عبيدة، وبينهما فرق، فـ«أنى» للسؤال عن
الجهة، و«أين» للسؤال عن المكان، وأنشد المبرد لبعضهم.

أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ آنَكَ الطَّرْبُ

فرق بينهما، قوله: ﴿أنى لك هذا﴾ أى: من أى جهة لك هذا؟! ﴿قالت هو من
عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

قوله تعالى: ﴿هناك دعا زكريا ربه﴾ وذلك أن زكريا لما رأى مريم يأتيها رزقها
فى غير حينه نحو فاكهة الصيف فى الشتاء - طمع أن يرزق الولد فى غير حينه -
على الكبير - فدعا الله أن يرزقه ولدا، وكان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وبلغت امرأته
ثمان وتسعين سنة.

﴿قال رب هب لى من لدنك﴾ من عندك ﴿ذرية طيبة﴾ أى: ولدا صالحا تقيا
نقيا، والذرية تشتمل على الذكر والأنثى، وإنما قال: ﴿طيبة﴾ بنعت المؤنث على لفظ

(١) فى «الأصل»، و«ك»: أو ألتقى السلما. وهو تصحيف. وما أثبتناه من لسان العرب (مادة: حرب).

وفى تفسير القرطبى (٤/٦٦): حتى أرتقى سلماً.

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنْ

الذرية.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، ويقرأ: «فناداه الملائكة» بالألف^(١) واختلفوا في المنادى، منهم من قال: كان جبريل. ومنهم من قال: جمع من الملائكة ﴿وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك﴾ يقرأ «إِنْ» بكسر الألف وفتحها^(٢)، فمن قرأ بالكسر، فتقديره: فنادته الملائكة وقالوا: إِنَّ الله يبشرك، ومن قرأ بالفتح، فهو على النسق، ﴿يبشرك﴾ يقرأ مخففا ومشددا^(٣)، وهما في المعنى سواء.

والبشارة: خبر سار يظهر أثره على بشرة الوجه، ﴿يبشرك بيحيى﴾ سماه يحيى قبل أن يولد، ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قيل: مُصَدِّقًا بكتاب الله وكلامه. وقيل: معناه مُصَدِّقًا بعمسى، وهو كلمة الله فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: «كَلِمَةُ اللَّهِ» لا يكون مخلوقا، وقد أنكرنا على النصارى قولهم: «المسيح ابن الله»، وقولهم: «إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ»، فكيف نعرف أن عيسى كلمة الله؟ قيل: فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كلمة الله على معنى: أنه يكون بكلمة من الله حيث قال له: «كن فكان»، من غير سبب ولا علة، وصنع بشر وإلقاء نطفة.

الثاني: أنه كلمة الله على معنى: أنه يهتدى به، كما يهتدى بكلام الله.

والثالث: أن الله تعالى كان قد أخبر سائر الأنبياء، ووعدهم في كتبه أنه يخلق نبيا بلا أب، ووعد مريم أنه يولد لها ولد بلا أب، فلما تكون عيسى سماه كلمة؛ لأنه حصل بتلك الكلمة، وذلك الوعد، وهو كما تقول العرب: أنشدني كلمتك، أى قصيدتك، وقيل لحسان: إِنَّ الْخَوْدِيرَةَ أَنْشَأَ قَصِيدَةً، فقال: لعن الله كلمته، أى:

(١) هي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف. انظر النشر (٢/ ٢٣٩).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة بكسر الهمزة، وقرأ الباقر بالفتح. انظر المصدر السابق.

(٣) قرأ حمزة، والكسائي بفتح الباء، وفتح الشين وضماها، وقرأ الباقر بضم الباء، وتشديد الشين المكسورة.

انظر المصدر السابق.

اللَّهُ وَسِيدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْتَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ

قصيدته، فلما حصلت القصيدة بكلمته سمى ذلك كلمة.

قوله: ﴿وسيدا وحصورا ونبييا من الصالحين﴾ أما السيد: قال سعيد بن جبير: السيد: التقى، وقال مجاهد: هو الكريم، وقيل: هو العليم الذى لا يغضبه شىء، وقيل: هو الذى يفوق قومه فى جميع خصال الخير.

والحصور: قال سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك وعطاء وجماعة: هو الذى لا يأتى النساء، والحصور بمعنى: المحصور، وكان ممنوعا من النساء، وهو مثل قول الشاعر

فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً
سُودًا كَخَافِيَةِ الْغُرَابِ الْأَسْحَمِ

فالحلوبة بمعنى: المحلوب، وقال سعيد بن المسيب: كان له مثل هدبة الثوب، وقد تزوج مع ذلك؛ ليكون أغض لبصره، وقال الشعبى: الحصور العنين، وفيه قول آخر: الحصور: هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه، وهذا يوافق قول الشافعى فى مسألة التخلّى لعبادة الله.

واختاروا هذا القول لوجهين: أحدهما: أنه يكون أقرب إلى استحقاق الثناء، لأن الكلام خرج مخرج الثناء.

والثانى: أنه يكون أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء؛ لبعدهم عن الآفات.

قوله تعالى: ﴿قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقرة﴾ وإنما قال: ﴿بلغنى الكبر﴾؛ لأن الكبر فى طلب الإنسان، فإذا أصابه فقد بلغه.

وأما العاقر: فهى التى عقم رحمها من الكبر، فإن قيل: كان شاكا فى وعد الله تعالى حين قال: ﴿رب أنى يكون لى غلام﴾ قيل: إنما قاله على سبيل التواضع، يعنى: مثلى على هذا الكبر من مثل هذه العجوز يكون له الولد، وقيل معناه: كيف يكون لى هذا الغلام؟ أتردنى لحالة الشباب، أم يكون الغلام على حال الكبر؟.

﴿قال كذلك يفعل الله ما يشاء﴾.

آيَتِكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكَّرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءٍ

قوله تعالى : ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى : علامة . قيل : إنما سأل العلامة ؛ لأن إبليس وسوس إليه أن الذى ناداك هو الشيطان ، دون الملك وكان يديم عليه وسوسته ، فسأل العلامة ؛ دفعا لتلك الوسوسة . وقيل : إنما سأل العلامة ؛ لمعرفة وقت الولادة حتى يزداد لله (١) شكرا .

﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام ﴾ وقيل : [إن الله أمسك] (٢) لسانه وحبس عنه الكلام ثلاثة أيام ، وهو سوى صحيح ؛ وعليه دلّ قوله تعالى فى سورة مريم ﴿ ثلاث ليال سويا ﴾ (٣) .

﴿ إلا رمزا ﴾ أى : إشارة ، والإشارة تكون باللسان ، وتكون باليد ، وتكون بالعين والمراد هاهنا : الإشارة بالإصبع المسبحة ، قال قتادة : إنما أمسك لسانه عن الكلام عقوبة له على ما سأل من الآية بعدما أوحى الله تعالى إليه ، وشافهته الملائكة بالبشارة .
﴿ واذكر ربك كثيرا ﴾ قيل : إنما أمسك لسانه عن الكلام مع الناس ، ولم يمسكه عن ذكر الله تعالى ، فأمره بالذكر .

﴿ وسبح بالعشى والإبكار ﴾ المراد بالتسبيح : الصلاة ، وأما العشى : ما بين زوال الشمس إلى غروب الشمس ، ومنه سُمى صلاة الظهر والعصر صلاتى العشى ، وأما الإبكار : ما بين طلوع الفجر إلى الضحى الأعلى .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يامريم ﴾ أى : واذكر إذ قالت الملائكة : ﴿ يامريم إن الله اصطفاك ﴾ اختارك وطهرك من الحيض والنفاس ، وقيل : من الذنوب . ﴿ وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ منهم من قال : على نساء عالمى زمانها ، ومنهم من قال :

(١) فى الأصل : الله ، وهو خطأ من الناسخ .

(٢) فى الأصل : إنه أمسك الله . وما أثبتناه من « ك » .

(٣) مريم : ١٠ .

الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ

على (جميع نساء) (١) العالمين؛ فى أنها وكَدَتْ بلا أب، ولم يكن ذلك لأحد من نساء العالم.

قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أى: أطيعى ربك، وقومى لطاعته. والقنوت: طول القيام، قال مجاهد: معناه أطيلى (٢) القيام لربك، وقيل: إنها قامت حتى انتفخت قدماها وتورمت. وسمى القنوت فى الصلاة؛ لأنه فى حال القيام، وعن النبى ﷺ «أنه سئل عن أفضل الصلاة، فقال: طول القنوت» (٣) أى: طول القيام.

﴿واسجدى واركعى مع الراكعين﴾ قيل: إنما قدم السجود على الركوع؛ لأنه كان كذلك فى شريعتهم، وقيل: لا، بل الركوع قبل السجود فى جميع الشرائع، وليست الواو للترتيب، بل للجمع، ويجوز أن يقول الرجل: رأيت زيدا وعمراً، وإن كان قد رأى عمراً قبل زيد، ويجوز أن نقول: رأيت عمراً وزيداً أى زيداً وعمراً، قال الشاعر:

ألا يانخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

أى: عليك السلام ورحمة الله، فكذلك قوله: ﴿واسجدى واركعى﴾ أى: واركعى واسجدى، وإنما قال: مع الراكعين، ولم يقل: مع الراكعات؛ ليكون أعم وأشمل، وقيل معناه: مع المصلين فى الجماعة.

قوله - تعالى - : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يقول محمد ﷺ : ذلك من أخبار الغيب نوحيه إليك ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ فالأقلام: السهام، وإنما سُمى قلماً؛ لأنه يقطع ويبرى. وأصل القلم: القطع، ومنه قلم الظفر.

(١) فى «ك»: نساء جميع.

(٢) فى «الأصل»: أطيل، وفى «ك»: أطول.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه (٥٢/٦ رقم ٧٥٦)، والترمذى (٢٢٩/٢ رقم ٣٨٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه

(١/٤٥٦ رقم ١٤٢١) جميعهم من حديث جابر.

لَدَيْهِمْ إِذِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بَكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ

والقصة فى ذلك: أنهم تشاحنوا واختصموا فى كفالة مريم، فقال زكريا: أنا أولى بكفالتها منكم؛ لأن خالتها عندى، وقال أحبارهم - وقيل: أولياؤهم - نحن أولى بكفالتها؛ لأن أباهما كان إمامنا وحبرنا، فاقترعوا واستهموا، على أن من يثبت قلمه فى الماء وصعد، فهو أولى بكفالتها، فألقوا الأقلام على الماء، وعلى كل قلم اسم واحد منهم، فأنحدرت أقلامهم تجرى فى الماء، وجرى قلم زكريا مصعدا إلى أعلى الماء، قيل: غرقت أقلامهم، وارتد قلم زكريا، وبقي فوق الماء، وقيل: إنما اختصموا فى كفالتها؛ لأنه كان قد أصابهم قحط وأزمة، وكانت تضيق بهم النفقة؛ فاستهموا على كفالتها تدافعا حتى أن من خرج سهمه هو الذى يعولها، وينفق عليها، والأول أصح وأشهر.

قوله تعالى: ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بَكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴿٤٥﴾ قيل: إن الملائكة قالوا لها ذلك مشافهة وعيانا.

﴿٤٤﴾ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴿٤٥﴾ قال ابن عباس: إنما سمي مسيحا؛ لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برئ، وقال الحسن وقتادة: سمي مسيحا؛ لأنه مسح بالبركة، وقيل: المسيح: الصديق، ويكون المسيح بمعنى: الكذاب، وهو من الأضداد، وقيل: سمي مسيحا؛ لأنه كان يمسح وجه الأرض، ويسيح فيها، وقيل: إنما سمي مسيحا؛ لأنه ممسوح القدم لأخمص قدميه، ومنه قول الشاعر:

بَاتَ يَقَاسِيهَا غُلَامٌ كَالزَّلَمِ خَدِيجُ السَّاقِينِ مَمْسُوحُ الْقَدَمِ

ومن ذلك سمي الدجال مسيحا؛ لأنه مسح أحد شقى وجهه، لاعين له. ﴿٤٤﴾ وجيها فى الدنيا والآخرة ﴿٤٥﴾ أى: رفيعا ذا جاه عند الله ﴿٤٥﴾ ومن المقربين ﴿٤٥﴾ ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ﴿٤٥﴾ أما كلامه فى المهد هو قوله فى سورة

فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ

مريم ﴿إني عبد الله﴾ (١) وأنكر النصارى كلامه في المهد سيأتى بيانه، وأما كلامه وهو كهل، قيل: هو إخباره عن الأشياء المعجزة، وقيل: هو كلامه بعد نزوله من السماء.

والكهل: قيل: هو ما فوق الغلام، ودون الشيخ، وهو ابن أربع وثلاثين سنة، وأصله: الطول، ومنه: اكتهل النبات إذا طال.

قوله تعالى: ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر﴾ قالت ذلك تعجباً؛ إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد بلا أب ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن، فيكون﴾ أى: لا يعسر عليه شىء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

قوله تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب﴾ يقرأ: بالياء، والنون (٢)، والكتاب: الخط ﴿والحكمة﴾: العلم والفقه، ﴿والتوراة والإنجيل﴾ علمه الله التوراة والإنجيل، ﴿ورسولاً إلى بنى إسرائيل﴾. منهم من قال: كان رسولا فى حالة الصبا، ومنهم من قال: إنما كان رسولا بعد البلوغ.

﴿أنى قد جئكم بآية من ربكم﴾ معناه: بآيات من ربكم، وإنما اكتفى بذكر الآية؛ لأن الكل دال على شىء واحد.

﴿أنى أخلق لكم من الطين﴾ أى: أقدر وأصور ﴿كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ قيل: إن عيسى قال لهم: أى شىء أشد خلقاً؟ قالوا: الحفاش، فقدر من الطين حفاشا وصوره، ونفخ فيه؛ فقام يطير بإذن الله.

(١) مريم: ٣٠.

(٢) قرأ نافع، وأبو جعفر، وعاصم، ويعقوب بلىاء. وقرأ الباقون بالنون. انظر النشر (٢/ ٢٤٠).

مَنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ قال أبو عبيد: الأكمه الذى ولد أعمى، وقيل: هو الأعمش الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾: الذى به وضح ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: قد أحيا أربعة: عازر وابن العجوز وبنت العاشر وسام بن نوح عليه السلام.

فأما عازر: فكان صديقا لعيسى، فَأُخْبِرَ بموته، فدعا الله تعالى فأحياه [الله] (١)، وأما ابن العجوز: كان على السرير يحمل إلى المقبرة، فرآه عيسى، فأمر بوضع السرير، ودعا فأحياه، فأخذ كفانه (٢)، ولبسها ورجع إلى البيت، وأما بنت العاشر: فقد كان رجل يأخذ العشور، ماتت له ابنة فدعا الله فأحيها، وأما سام بن نوح فإن عيسى جاء (٣) إلى قبره ودعا (الله فأحياه) (٤)، فقام إليه وقال: أقامت القيامة؟! وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة.

فقال: لا، أنا عيسى بن مريم؛ فكلمه؛ ومات من ساعته، وأما الثلاثة الذين أحياهم عاشوا، ووُلِدَ لَهُمْ.

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ كان عيسى يخبر الرجل بما أكل فى بيته البارحة، وما يأكل اليوم، وما ادخره للعشاء، وقيل: إنه كان فى المكتب يخبر الصبى بما أكل، وما خبأت له أمه من الطعام، حتى كان الصبى يأتى إلى أمه، فيبكى حتى تعطيه الطعام، فيحمله إلى عيسى، فحبسوا الصبيان عن المكتب، فجاء عيسى فى طلبهم، وكانوا فى دار، فقال: من هؤلاء الذين فى الدار؟ فقبل: خنازير، فقال عيسى: يكونون كذلك؛ فصاورا خنازير بأمر (٥) الله - نعالى - ﴿إِنْ فِى ذَلِكَ لَآيَةٌ

(١) من «ك».

(٢) فى «ك»: لباسه.

(٣) فى «ك»: صار.

(٤) تكررت فى «ك».

(٥) فى «ك»: بإذن.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ

قوله تعالى : ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ يعني : وأكون مصدقاً، ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ قال أبو عبيدة : أراد بالبعض : الكل، يعني : كل الذي حرم عليكم، ومثله قول الشاعر :

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أى : كل النفوس، وقيل : هو على حقيقته، وقد كان أحل لهم بعض ما حرم عليهم فى التوراة من لحوم الإبل وثرونها^(١).

﴿وجئتمكم بآية من ربكم﴾ يعني : بآيات كما بينا، ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿أى : طريق واضح.

قوله تعالى : ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أى : أبصر ووجد منهم الكفر؛ قال : ﴿قال من أنصارى إلى الله﴾ قيل معناه : من أنصارى مع الله، وقال النحويون : «إلى» فى موضعها، وليست بمعنى «مع»، وإنما معناه : من يضم نصرته إلى نصره الله لى ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ قال ابن أبى نجيح : الحواريون : كانوا قوما قصارين، سموا بذلك لأنهم كانوا يقصرون الثياب .

وقيل : كانوا صيادين يصطادون السمك . والصحيح أن الحواري : صفوة كل شىء وخالصته، ومنه قوله ﷺ فى الزبير : «هو ابن عمتى وحوارى من أمتى»^(٢)، أى :

(١) الثروب : هو الشحم الرقيق الذي يغشى الكرش والأمعاء . النهاية ٢٠٩ / ١ .

(٢) رواه النسائى فى الكبرى (٥ / ٦٠ / رقم ٨١١٢، وأحمد (٣ / ٣١٤) . وابن أبى شيبه (١٢ / ٩٢) والخطيب فى تاريخه (٥ / ١٢٦) من حديث جابر .

ورواه البخاري (٧ / ٩٩ رقم ٣٧١٩)، ومسلم (١٥ / ٢٦٨ رقم ٢٤١٥) من حديث جابر أيضاً مرفوعاً : «إن لكل نبي حوارياً، وإن حوارى الزبير بن العوام» .

أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾
رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ
خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ ارْفَعْكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ

صفوتي وخالصتي .

وأصل الخواري : النقاء والنظافة؛ فسموا خواريين؛ لنقاء قلوبهم، ومنه يقال لنساء
الأمصار : خواريات . قال الشاعر :

فقل للخواريات يبيكين غيرنا ولا تبكين إلا الكلاب النوايح

ومنه الخبز الخواري؛ لنقاوته وبياضه .

وأما قوله : ﴿ نحن أنصار الله ﴾ لأنهم إذا نصروا عيسى، فكأنهم نصروا الله
﴿ آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قيل :
مع الشاهدين من أمة محمد؛ لأنهم يشهدون للرسول بالبلاغ، وقيل : من الشاهدين
على نبوة عيسى .

قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ المكر من العبد : الخب والخداع، ومن الله
تعالى : أن يأخذ العبد بغتة من حيث لا يعلم، وإنما سماه مكرًا - على المقابلة - لأنه
جزاء مكرهم : كما قال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ ^(١) والمراد بمكرهم هاهنا : أنهم
احتالوا لقتل عيسى، فقال رجل : ألا أدلكم على البيت الذي فيه عيسى، فجاءوا معه
البيت الذي كان فيه عيسى، فرفعه الله إلى السماء، وألقى شبه عيسى على من دلهم
عليه، فأخذوه، وهو يصيح : لست بعيسى، فقتلوه، وقيل : إن الدال كان واحدا من
الخواريين؛ فذلك مكر الله ﴿ والله خير الماكرين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ﴾ أى : واذكر قول الله لعيسى :
إني متوفيك ﴿ ورافعك إلي ﴾ . فإن قال قائل : ما معنى التوفى، وعيسى فى الأحياء

(١) الشورى : ٤٠ .

كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ

على زعمكم؟ قلنا: فيه أقوال، قال الحسن البصري: معناه: إني قابضك من الأرض، وهو صحيح عند أهل اللغة، فيقال: توفيت حقي من فلان. أى: قبضت.

قال الأزهرى: كأنه يقول: إني متوفى عدد آبائك فى الأرض، وكل شيء تم فهو متوفى، ومستوفى، وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: إني رافعك إلى ومتوفيك» أى: بعد النزول من السماء.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليهبطن عيسى بن مريم حكما مقسطا يكسر الصليب ويقتل الخنزير»^(١)، وفى رواية: «أنه يقتل الدجال بباب لد»^(٢) من دمشق، وفى الأخبار: أنه يعيش بعد ذلك فى الأرض سبع سنين،^(٣) ويتزوج، ويولد له. ثم يموت، ويصلى عليه المؤمنون من هذه الأمة^(٤).

وهذا التقديم والتأخير الذى ذكرنا فى الآية محكى عن ابن عباس وله قول آخر: أن الآية على حقيقة الموت، وأن عيسى قد مات، ثم أحياه الله تعالى ورفعته إلى السماء.

قال وهب بن منبه: أماته الله ثلاث ساعات من النهار، ثم أحياه الله، ورفعته إليه، وقال الربيع بن أنس: التوفى: هو النوم، وكان عيسى قد نام، فرفعه الله نائما إلى السماء، والمعروف: القولان الأولان.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رأيت ابني الخالة: عيسى، ويحيى فى السماء الثانية ليلة المعراج»^(٥)، وروى أيضا: «أنه رآهما فى السماء الدنيا» والأول

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة . رواه البخاري بطوله (٥٦٦/٦ رقم ٣٤٤٨)، ومسلم (٢/٢٤٩ رقم ١٥٥).

(٢) رواه مسلم (١٨/٨٥-٩٤ رقم ٢١٣٧، وأبو داود (٤/١١٧ رقم ٤٣٢١)، والترمذى (٤/٤٤٢-٤٤٥ رقم ٢٢٤٠، وابن ماجه (٢/١٣٥٦-١٣٥٩ رقم ٤٠٧٥) وأحمد فى مسنده (٤/١٨١-١٨٢) كلهم من حديث النواس بن سمعان به وقوله «من دمشق» ليس فى الحديث، بل هو تفسير منه، وهو خطأ، انظر شرح مسلم للنووى (١٨/٩١)، ومعجم البلدان (٥/١٧).

(٣) ثبت هذا عند مسلم (١٨/٩٩-١٠٢ رقم ٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو..

(٤) رواه أبو داود (٤/١١٧-١١٨ رقم ٤٣٢٣)، وأحمد (٢/٤٠٦-٤٣٧)، والطبرى (٦/١٦-١٧) وابن حبان (١٥/٢٣٣-٢٣٤ رقم ٦٨٢١) والحاكم (٢/٥٩٥) وصححه من حديث أبي هريرة.

(٥) متفق عليه من حديث أنس، عن مالك بن صعصعة، رواه البخارى (٦/٣٤٨-٣٥٠ رقم ٣٠٢٧) وأطرافه فى (٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧)، ومسلم (٢/٢٩٠-٢٩٣ رقم ١٦٤).

بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ

أصح، وقال عليه الصلاة والسلام: «رأيت المسيح بن مريم يطوف بالبيت» (١) فدل
على أن الصحيح أنه في الأحياء، وفي أخبار المعراج: «أن النبي ﷺ لقي آدم في
السماء الأولى وعيسى في السماء الثانية ويوسف في السماء الثالثة، وإدريس في
السماء الرابعة وهارون في السماء الخامسة وموسى في السماء السادسة، - وفي رواية
السماء السابعة - وإبراهيم في السماء السابعة» (٢).

قوله: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أى: مخرجك من أرجاسهم وأنجاسهم،
﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾.

وقيل: أراد به النصارى، وهم فوق اليهود إلى يوم القيامة، واليهود أذل الفريقين؛
قد ذهب ملكهم، فلا يعود أبدا، وملك النصارى دائم إلى قريب من قيام الساعة،
وقيل: أراد بالذين اتبعوه: أمة محمد ﷺ؛ حيث صدقوه ووافقوه على دين التوحيد،
فهم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

وفيه قولان: أحدهما: أنهم فوقهم بالحجة.

والثاني: بالعز والغلبة، وقد قال ﷺ: «أنا أولى بعيسى بن مريم، ليس بينى وبينه
نبي» (٣).

﴿ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

قوله تعالى: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة﴾

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر في حديث طويل، رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٥٥٠) رقم ٣٤٤٠
وأطرافه في ٣٤٤١، ٥٩٠٢، ٦٩٩٩، ٧٠٢٦، ٧١٢٨)، ومسلم (٢/ ٣٠٢ - ٣٠٧) رقم ٦٦٩.

(٢) تقدم تخريجه في رقم (٥)، ورواية: أنه رأى موسى في السماء السابعة، أخرجها البخاري من حديث
شريك عن أنس (١٣/ ٤٨٦) رقم ٧٥١٧) وهو عند مسلم (٢/ ٢٨٣) رقم ١٦٢) ولكن لم يسرده.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (٦/ ٥٥٠ - ٥٥١) رقم ٣٤٤٢ وطرفه في ٣٤٤٣)، ومسلم
(١٥/ ١٧٣ - ١٧٤) رقم ٣٣٦٥).

أَجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ
﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

والعذاب فى الدنيا: القتل والأسر والجزية، والعذاب فى الآخرة: عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ أى: جزاء أعمالهم ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أى: لا يرحم الكافرين، ولا يثنى عليهم بالجميل.

قوله تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات﴾ يعنى: القرآن ﴿والذكر الحكيم﴾ أى: الذكر ذى الحكمة، وقيل: الذكر المحكم الذى لا يتخلله الفساد.

قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾؛ سبب نزول الآية ما روى: أن وفد نجران لما قدموا على النبى ﷺ قال لهم: «أسلموا، فقالوا: نحن مسلمون، قال: كذبتهم؛ يمنعكم من ذلك ثلاث: قولكم إن الله اتخذ ولدا، وسجودكم للصليب، وأكلكم الخنزير، فقالوا: من أبو عيسى؟ فنزلت هذه الآية»^(١)، وفى الآية دليل عليهم، ورد لقولهم، فقوله: ﴿إن مثل عيسى﴾ أى: صفة عيسى ﴿عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾، يعنى: إن خلق عيسى بلا أب مثل خلق آدم بلا أب، ولا أم، وخلق عيسى بلا أب ليس بأبدع من خلق آدم بلا أب ولا أم.

فأما قوله: ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ راجع إلى آدم، فإن قال قائل: لما ذكر أنه خلقه من تراب، فما معنى قوله بعده ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ بعد الخلق؟ قيل: معناه: خلقه من تراب، ثم أخبركم أنى قلت له: كن، فكان من غير ترتيب فى الخلق: كما يكون فى أولاده، وهو مثل قول الرجل: أعطيتك اليوم درهما، ثم أعطيتك أمس درهما، أى: ثم أخبرك أنى أعطيتك أمس درهما.

قوله تعالى: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾، فإن قيل: أكان شاكا فى الحق حتى نهاه عن الشك؟ قيل: الخطاب مع النبى، والمراد به: الأمة، وقيل: معناه: قل للشاك فيه: الحق من ربك فلا تكن من الشاكين.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ

واعلم أن فيما سبق من التمثيل على جواز القياس دليل، على أن القياس هو رد فرع إلى أصل بنوع شبه، وقد رد الله تعالى عيسى إلى آدم بنوع؛ فدل على جواز القياس. والمثل: هو ذكر سائر يستدل به على غيره في معناه.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أى: جادلَكَ فى الحق ﴿من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين﴾.

هذا فى دعاء النبى ﷺ بنى نجران إلى المباهلة، روى سعد^(١) بن أبى وقاص: «أن النبى ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين وفاطمة وعلى، ثم دعاهم إلى المباهلة»^(٢).

فقوله: ﴿ندع أبناءنا﴾ أراد به: الحسن والحسين، وقوله: ﴿ونساءنا﴾ يعنى: فاطمة، وأنفسنا يعنى: نفسه وعلى، فإن قال قائل: كيف قال: ﴿وأنفسنا﴾ وعلى - رضى الله عنه - غيره؟ قيل: العرب تسمى ابن عم الرجل نفسه، وعلى كان ابن عمه، وقيل: ذكره على العموم لجماعة أهل الدين. والابتهال: الالتعان، ومنه البهلة: وهى اللعنة، يقال:

عليك بهلة الله، أى: لعنة الله، والابتهال: الاجتهاد فى دعاء اللعنة.

واللعنة: الإبعاد والطرْد عن الرحمة بطريق العقوبة، قال لبيد:

وكهول سادة من عامرٍ نظر الدهر إليهم فابتهل

أى: نظر الدهر إليهم بالهلاك فأفناهم باجتهاد فيه.

وفى القصة وكهول «أن النبى ﷺ لما دعاهم إلى الابتهال، وجعل اللعنة على

(١) فى «ك»: سعيد وهو خطأ.

(٢) رواه مسلم بطوله (٢٥١/١٥) رقم ٢٤٠٤، والترمذى (٢١٠/٥) رقم ٢٩٩٩ وقال: حسن غريب صحيح

و(٥٩٦/٥) رقم ٣٧٢٤، وأحمد (١٨٥/١).

الْعِلْمُ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ

الكاذب من الفريقين، فقال الأسقف لهم: لاتباهلوا؛ فإنكم لو ابتهلتهم؛ لاضطرم عليكم الوادى نارا، فقالوا للنبي ﷺ: وهل غير المباهلة؟ قال: الإسلام أو الحرب أو الجزية، فقبلوا الجزية، وانصرفوا^(١)، وقال النبي ﷺ: «لو تلاعنوا لصاروا قردة وخنازير»^(٢) وفى رواية «لو تلاعنوا لم يبق فى الدنيا نصرانى ولا نصرانية إلى يوم القيامة»^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أى: النبأ الحق ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ «مَنْ» صلة، وتقديره: وما إله إلا الله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: أعرضوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: بمن يفسد منهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الخطاب مع اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ العرب تسمى كل قصة لها شرح: كلمة، ومنه سميت القصيدة: كلمة.

﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: عدل، ومنه قول زهير بن أبى سلمى:

(١) رواه الحاكم فى مستدركه (٥٩٤/٢)، وابن مردويه (تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٠ - ٣٧١) وعزاه السيوطي فى الدر (٤٣/٢) لهما ولأبى نعيم فى الدلائل من حديث جابر بمعناه، وفيه قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَذَابَ قَدْ أَظْلَمَ نَجْرَانًا». وقوله: «لو ابتهلتهم؛ لاضطرم عليكم الوادى نارا، هو من قوله - ﷺ -.

وقال الحافظ ابن كثير (١/ ٣٧١): وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلًا، وهذا أصح، وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

قلت: راجع تخريج حديث وفد نجران الذى تقدم فى أول السورة.

(٢) لم أقف عليه مرفوعاً، وإنما جاء فى سياق حديث رواه ابن جرير (٣/ ٢١٣) من حديث علباء بن أحمد الششكري مرسلًا، فى مباهلة النبي ﷺ اليهود «فقال شاب منهم: ويحكم، أليس عهدكم بالأمس إخوانكم الذين مسحوا قردة وخنازير، لا تلاعنوا فانتهاوا».

(٣) رواه ابن جرير (٣/ ٢١٢)، وعبد بن حميد، وأبو نعيم فى الدلائل - كما فى المنثور - (٢/ ٤٦) بمعناه، ولفظه: لو فعلوا لاستؤصلوا عن جديد الأرض».

الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

يُسَوِّى بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ
وَبَيْنَكُمْ بَنَى عَمْرُو لِقَاءُ

أَرُونِي خُطَّةً لَا ضِيْمَ فِيهَا
فَإِن تُرِكَ السَّوَاءُ فَلَيْسَ بِنَبِيٍّ

وأراد بالسواء: العدل.

﴿ألا نعبد إلا الله﴾ سبب هذا: أن اليهود قالوا: لا يريد محمد منا إلا أن نعبد، وكذلك قالت النصارى؛ فنزلت الآية ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾، معناه: تعالوا إلى أمر نستوى فيه: وهو أن لانعبد إلا الله، ولنتفق جميعا على عبادته ﴿ولانشرك به شيئا﴾.

﴿ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾ قال عكرمة: أى: لا يسجد بعضنا لبعض؛ فإن من سجد لغيره فقد اتخذه ربا.

وقيل: هو طاعة الخلق فى معصية الخالق ﴿فإن تولوا﴾ أى: فإن أعرضوا ﴿فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أى: بهذه الكلمة وهذا الأمر.

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم﴾ سبب نزول الآية: أن اليهود والنصارى اختصموا [إلى] (١) النبى ﷺ فى إبراهيم، فقالت اليهود: هو منا، وقالت النصارى: لا، بل منا؛ فنزل قوله: ﴿لم تحاجون﴾ لم تجادلون ﴿فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ (٢)، معناه أن اليهودية محرفة من التوراة، والنصرانية محرفة من الإنجيل، والتوراة والإنجيل أنزلتا بعد إبراهيم.

فكيف تدعون أنه على اليهودية أو على النصرانية؟ وأما التوراة والإنجيل فقد ذكرنا

(١) كذا في «ك»: إلى وفى «الأصل»: الذى وهو خطأ.

(٢) رواه ابن جرير (١٢١٦/٣)، والبيهقي فى الدلائل (٣٨٤/٥) عن ابن عباس رضى الله عنه، وعزاه السيوطي أيضا فى الدرر (٤٥/٢) لابن إسحاق.

ورواه ابن جرير (٢١٦/٣، ٢١٧) عن قتادة، والربيع، والشعبي جميعهم مرسلا.

﴿٦٥﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ

اشتقاقها، وقيل: ليس لهما اشتقاق، وهما اسمان بالسريانية.

قوله تعالى ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ «ها» للتنبيه، ومعناه: يا هؤلاء، أنتم ﴿حاججتم﴾ جادلتم ﴿فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ أى: جادلتم فى أمر موسى وعيسى، وادعيتم أنا على دين موسى وعيسى، وقد أنزلت أمره عليكم، فلم تجادلون فى أمر إبراهيم، ولم أنزله عليكم، ولا علم لكم به؟! ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا﴾ أخبر الله تعالى أنه ليس على ما ادعوا من اليهودية و[لا] ^(١) النصرانية، ﴿ولكن كان حنيفا مسلما﴾.

والحنيف: هو المائل إلى الدين، المستقيم عليه، ومنه: الأحنف: وهو المائل القدم، وقال مجاهد: الحنيف: المتبع، وقال الضحاك: الحنيف: الحاج. فإن قال قائل: لم قال ﴿حنيفا مسلما﴾ والمسلم: هو الذى يكون على جميع ما أتى به محمد رسول الله ﷺ، وإبراهيم لم يكن على جملة شريعته؟

قيل: قد كان على بعض شريعته؛ فيكون بذلك مسلما؛ كمن مات من هذه الأمة فى بدء الأمر، كان مسلما ببعض شريعته؛ فإنها إنما تمت، واستقرت فى آخر الأمر، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿مسلما﴾ بمعنى: الانقياد من قوله: ﴿أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ ^(٢)؛ فلذلك قال: ﴿حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾.

قوله تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾: من اتبعه فى زمانه. ﴿وهذا النبى﴾ يعنى: محمدا ﷺ ﴿والذين آمنوا﴾ يعنى: من هذه الأمة ﴿والله ولى المؤمنين﴾.

قوله تعالى: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب﴾ أى: تمنى طائفة من أهل

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلُونَكُم مَّا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

الكتاب. ﴿لو يضلونكم﴾ لو يردونكم إلى الضلالة، وما هم عليه من اليهودية والنصرانية ﴿وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ فيه قولان: أحدهما: معناه: لم تكفرون بنعت محمد وصفته، وأنتم تشاهدونه في التوراة والإنجيل؟!.

والثاني: معناه: لم تكفرون بما يأتي [به] ^(١) محمد من الدلالات والمعجزات، وأنتم تقررون بمثلها مما أتى به موسى وعيسى!.

قوله - تعالى - : ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ معناه: لم تخلطون الإيمان بعيسى - وهو الحق - بالكفر بمحمد ﷺ - وهو الباطل - ؟ وقيل معناه: لم تغطون «الحق» من نعت محمد بالتغيير «الباطل»!.

قوله تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ أما وجه النهار: أوله، ومنه قول الشاعر:

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

أى: أول النهار، وهذا في اليهود، قالوا: نؤمن بمحمد في أول النهار، ثم نكفر به في آخر النهار؛ حتى (يتهمه) ^(٢) الناس (ويقولوا) ^(٣): قد ظهر منه شيء؛ حتى كفروا به، وقيل: إنهم قالوا: نصدقه في البعض، ونكذبه في البعض؛ حتى يقول الناس: صدقوه فيما كان صادقا، وكذبوه فيما كان كاذبا (فيستريبون) ^(٤) بحاله.

(١) ليست في «الأصل»، ولا «ك».

(٢) في «ك»: نريب.

(٣) في «ك»: يقولون.

(٤) في «ك»: فيستريبون.

﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ
وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا مَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى
اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

﴿لعلهم يرجعون﴾ أى: من تَبِعَهُ فى دينه، ويكون وجه النهار وآخره بمعنى:
البعض على القول الثانى .

قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا مَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أى: لا تصدقوا إلا من تبع
دينكم، «واللام» فيه زائدة كما قال: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَّكُمْ﴾ (١) أى:
ردفكم . وهذا فى اليهود أيضا، قالوا: لا تصدقوا إلا من وافقكم فى ملتكم .

ثم ابتدأ الله تعالى فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ أى: إن البيان بيان الله .
﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ أى: لا يؤتى أحد مثل ما أُوتِيتُمْ، يقوله للمسلمين .
﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أى: ولا يحاجونكم عند ربكم؛ فإن الحجة لكم
عليهم، وليست لهم عليكم عند الله .

وقال محمد بن يزيد المبرد: فى الآية تقديم وتأخير: قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ أى:
لا تصدقوا ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من الدلالات والآيات من المن والسلوى
ونحوه .

﴿إِلَّا مَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إلا لمن وافقكم فى اليهودية ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾
أى إن صدقتموهم، يحاجونكم يوم القيامة عند ربكم، فيقولون: نحن مثلكم، أو
خير منكم، فلا تصدقوهم حتى لا يحاجوكم عند ربكم . إلى هاهنا كلام اليهود ثم
ابتدأ الله تعالى فقال: ﴿قُلْ: إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ وقيل: معناه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا
مَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أى: ولا تصدقوا أن النبوة فى غير بنى إسحاق، وأنها فى بنى
إسماعيل .

[قوله تعالى] (٢) ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ

(١) النمل: ٧٢ .

(٢) من «ك» .

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ
إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بَأْنَهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

برحمته من يشاء ﴿٧٣﴾ قال ابن عباس: هو الدين. وقال مجاهد: هو النبوة. وقال ابن جريج: هو القرآن والإسلام ﴿٧٤﴾ والله ذو الفضل العظيم ﴿٧٥﴾.

قوله تعالى: ﴿٧٣﴾ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ﴿٧٤﴾ قد ذكرنا الأقوال في القنطار، وقال عطاء بن أبي رباح: هو ست آلاف دينار.
وهذا في عبد الله بن سلام؛ أودعه رجل ألفين ومأتى أوقية من الذهب فأدى الأمانة (١) فيه.

﴿٧٤﴾ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ﴿٧٥﴾ هذا في فنحاص بن عازوراء اليهودي؛ أودعه رجل ديناراً فخان فيه.

﴿٧٥﴾ إلا ما دمت عليه قائماً ﴿٧٦﴾ أى: لا يؤده إليك إلا مادمت على رأسه قائماً تطالبه. وقيل: أراد بالقيام: الإلحاح والمطالبة.

﴿٧٦﴾ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴿٧٧﴾ قالت اليهود: ليس علينا في أخذ أموال العرب حرج، كأنهم استحلوا أموال الأميين: وهم العرب، محمد وأصحابه.

﴿٧٧﴾ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴿٧٨﴾ بلى ﴿٧٩﴾ عليهم سبيل؛ ذكره جواباً لقولهم.

قالت النحاة: وهو وقف تام، ثم ابتداء، فقال: ﴿٧٨﴾ من أوفى بعهده واتقى ﴿٧٩﴾ قال ابن عباس: واتقى الشرك ﴿٨٠﴾ فإن الله يحب المتقين ﴿٨١﴾ الموحدين.

قوله تعالى: ﴿٨٠﴾ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴿٨١﴾ روى أبو وائل - وهو شقيق بن سلمة - عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين كاذبة؛ ليقطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان،

(١) في «ك»: الثانية. وهو تحريف.

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ

وتلا هذه الآية قال : وكان الأشعث بن قيس حاضرا، فقال : فى نزلت الآية، وذكر قصة» وهذا حديث فى الصحيحين^(١)، ورواه مسلم فى صحيحه برواية أخرى، وزاد فيه أنه : « قيل : يارسول الله، وإن كان فى شىء يسير؟ قال : وإن كان فى قضيب من أراك »^(٢).

وروى مسلم أيضا فى كتابه برواية ثالثة عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم [ولهم عذاب أليم] »^(٣) : المنان بما أعطى والمسبل إزاره، والمنفق سلعته باليمين الكاذبة »^(٤).

فقلوه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى : شىء قليل من حطام الدنيا ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أى : لاحظ لهم فيها .

﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ أى : ولا يكلمهم كما يكلم المؤمنين؛ وقد صح أنه جل جلاله - يكلم المؤمنين يوم القيامة من غير ترجمان^(٥)، وقيل : هو بمعنى : الغضب، كما يقال : أنا لا أكلم فلانا، إذا كان غضبانا عليه ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى : لا ينظر إليهم بالرحمة .

﴿وَلَا يَزَكِّيهِمْ﴾ لا يثنى عليهم بالجميل، ولا يطهرهم من الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٤١/٥) رقم ٢٣٥٦، (٢٣٥٧)، والحديث رقم ٢٣٥٦ أطرافه فى : ٢٤١٦، ٢٥١٥، ٢٦٦٦،

٢٦٦٩، ٢٦٧٣، ٢٦٧٦، ٤٥٤٩، ٦٦٥٩، ٦٦٧٦، ٧١٨٣، ٧٤٤٥)، والحديث رقم ٢٣٥٧ أطرافه فى : ٢٤١٧،

٢٥١٦، ٢٦٦٧، ٢٦٧٠، ٢٦٧٧، ٤٥٥٠، ٦٦٦٠، ٦٦٧٧، ٧١٨٤). ورواه مسلم (٢٠٨/٢) رقم ١٣٨).

(٢) رواه مسلم من حديث أبى أمامة - رضى الله عنه (٢٠٧/٢) رقم ١٣٧).

(٣) من «ك». (٤) رواه مسلم من حديث أبى ذر - رضى الله عنه - (١٥٠/٢) رقم ١٠٦).

(٥) متفق عليه من حديث عدى بن حاتم، رواه البخارى (٣٣٠/٣) رقم ١٤١٣ وانظر أطرافه فى ١٤١٧، ٣٥٩٥، ٦٠٢٣،

٦٥٣٩، ٦٥٤٠، ٦٥٦٣، ٧٤٤٣، ٧٥١٢) ومسلم (١٤١/٧) رقم ١٠١٦) ولفظ مسلم «ما منكم من أحد إلا سيكلمه

الله، ليس بينه وبينه ترجمان...» الحديث.

الْقِيَامَةَ وَلَا يَزَكِيَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أى: يغيرون، ويحرفون الكتاب بالسنتهم. وقيل: يعدلون بالسنتهم عن الكتاب ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ لتظنوه ﴿مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾ سبب نزول الآية: «أن اليهود والنصارى اجتمعوا عند النبی ﷺ واختصموا في إبراهيم، فقالت كل فرقة: هو منا، فقال ﷺ: كذبتن؛ فغضبوا، وقالوا: يا محمد، لا تريد منا إلا أن نتخذك ربا؛ فنزلت الآية» (١).

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الأحكام، والحكمة: السنة ﴿وَالنَّبُوءَ﴾ المنزلة الرفيعة بالأنبياء.

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: عبيدا لى من دون الله وقيل: أراد بالبشر: عيسى - صلوات الله عليه - لأنهم كانوا يدعون أن عيسى أمرهم أن يعبدوه، ويتخذوه ربا، فقال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ يعنى: عيسى.

﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ يعنى: الإنجيل ﴿وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾ ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب.

قال سعيد بن جبیر: الربانى: الفقيه العالم الذى يعمل بعلمه. وقال الضحاك: الربانى: العالم الحكيم. وفى الخبر: «كونوا علماء حلما» (٢).

والربانى من طريق المعنى: هو أن يكون على دين الرب وعلى طريق الرب.

(١) سبق تخريجه عند قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية.

(٢) روى هذا عن ابن عباس، وابن مسعود موقوفاً عليهم. انظر الدر المنثور (٢/ ٥٢).

وَالنَّبُوءَةُ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ

وقيل: هو من التربية، فالرباني هو الذى ربي^(١) بصغار العلم حتى بلغ كبارها، وروى: ابن عباس لما توفى، قام محمد بن الحنفية على قبره، وقال: اليوم مات رباني هذه الأمة.

وقال مجاهد: الربانيون فوق الأحرار؛ فالأحبار: العلماء، والربانيون: الذين جمعوا مع العلم البصيرة بسياسة الناس.

﴿بما كنتم تعلمون الكتاب﴾ - بالتشديد - من تعليم القرآن، وبالتخفيف من العلم^(٢).

﴿وبما كنتم تدرسون﴾ تقرأون.

قوله تعالى: ﴿ولا يأمركم﴾ يقرأ بالرفع على الابتداء، أى: ولا يأمركم الله، ويقرأ بنصب الراء على النسق^(٣)، أى: ولا يأمركم ذلك البشر ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ فالنصارى: هم الذين اتخذوا النبيين أرباباً، والصابئون: هم الذين اتخذوا الملائكة أرباباً.

﴿أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أى: لا يأمركم بالكفر بعد الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ قرأ ابن مسعود: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب» ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾: هو أحد القولين فى معنى القراءة المعروفة، قال ابن عباس: معنى الآية: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب مع النبيين. قال ابن عباس: لما استخرج الله الذرية من صلب آدم كالذر،

(١) فى «ك»: ولي.

(٢) قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائى، وعاصم (تُعَلِّمُونَ) بضم التاء، وفتح العين وكسر اللام مشددة، وقرأ الباقون (تُعَلِّمُونَ) بفتح التاء واللام وإسكان العين مخففاً.

انظر النشر (٢/ ٢٤٠).

(٣) قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمز، وخلف، ويعقوب، بنصب الراء.

وقرأ الباقون بالرفع. انظر المصدر السابق.

بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

والأنبياء كانوا فيهم كالمصابيح والسرچ، أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن يصدقوه، وينصروه إن أدركوه. فهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾، وقرأ حمزة «لما آتيتكم» مخففا بكسر اللام، وقرأ غيره: «لَمَّا آتَيْتُكُمْ» بفتح اللام مشددا، والقراءة المعروفة: بفتح اللام مخففا (١)، ومعناه: للذي آتيتكم بمعنى الخبر.

وقيل: معناه: لئن آتيتكم بمعنى: الشرط، ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ يعني: محمدا ﷺ.

﴿قَالَ أَقْرَرْتُمْ﴾ أى: أقروا ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أى: عهدى. والإصر: العهد الثقيل ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وقال الضحاك: إنما أخذ الميثاق على النبيين خاصة كما نطقت به الآية، فأخذ الميثاق على كل نبي أن يؤمن بالذى يأتى بعده من الأنبياء وينصره، فأخذ الميثاق على موسى - صلوات الله عليه وسلم - أن يؤمن بعيسى، وعلى عيسى أن يؤمن بمحمد ونحو ذلك.

ثم قال: ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ يطلبون، يقرأ بالياء والتاء (٢).

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال ابن عباس: لما خاطبهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (٣) أسلم الكل، وقالوا: بلى، ولكن بعضهم قالوا: بلى،

(١) انظر النشر (٢٤١/٢).

(٢) قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وحفص بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالتاء الفوقية. انظر النشر (٢٤١/٢).

(٣) الأعراف: ١٧٢.

وَالِيهِ يَرْجِعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

طوعا وبعضهم كرها. وقيل: أسلم من فى السموات طوعا، وأسلم من فى الأرض كرها وطوعا، وبعضهم طوعا، وبعضهم كرها؛ لخوف السيف ﴿وإليه ترجعون﴾.

قوله تعالى: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ لما ذكر الملك والأديان، واضطراب الناس فيها، أمر رسوله أن يقول: ﴿آمنا بالله...﴾ الآية، وقد ذكرنا معنى الأسباط وما قيل فيه ﴿وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ وحق لمن يبتغى غير دين الإسلام أن يصبح غدا من الخاسرين.

قوله تعالى: ﴿كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات﴾ يعنى: لايهديهم الله، وهو مثل قول عبد الله بن قيس الرقيات (١):

كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا تَشْتَمِل السَّامُ غَارَةَ شَعْوَاءُ؟

أى: لانوم لى على الفراش.

والآية نزلت فى الحارث بن أوس بن الصامت؛ فإنه ارتد عن الإسلام، ولحق بمكة، وأقام مدة، ثم أرسل إلى المسلمين فى أن يرجع إلى الإسلام؛ فنزلت الآية ﴿كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم﴾.

قال الزجاج: يعنى: أنهم يستحقون الضلالة، ولا يستحقون الهداية ﴿والله لايهدى القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾.

(١) فى «ك»: الرقبان. وهو خطأ.

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ

فإن قال قائل: لم قال: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فكذلك يتناول نفسه أيضاً، فكيف يلعن على نفسه؟ قيل: أراد في القيامة يلعن بعضهم بعضاً، ويلعنون أنفسهم. وقيل: إنهم يلعنون الظالمين والكافرين؛ فذلك لعنهم على أنفسهم؛ لأن من لعن الظالمين والكافرين، وهو ظالم وكافر فقد لعن نفسه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعنى بهذا: الحارث بن أوس؛ فإنه تاب وأسلم فقبلت توبته.

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ هذا في قوم كانوا مع الحارث بن أوس وارتدوا، فلما رجع هو إلى الإسلام أمسكوا عن الإسلام أولئك القوم، وقالوا: نترى الدهر بمحمد، فإن ساعده الزمان، ونفذ أمره نرجع إلى دينه؛ فنزلت الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ أى: ارتدوا عن الإسلام بعد إيمانهم ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بقولهم: إنا نترى محمد ريب المنون ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال أبو العالية: لأنهم لم يكونوا محققين للتوبة، بل كانوا متربصين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ وقيل: أراد به: الذين كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بَعِيسَى؛ أَزْدَادُوا كُفْرًا بِمُحَمَّدٍ ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ عند الناس ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوْ افْتَدى بِهِ﴾ يعنى: لو افتدى به، و«الواو» زائدة مقحمة، وقيل: تقدير الآية: فلن يقبل من أحدهم أن يتبرع بمِلءِ الأرض ذهباً، ولو افتدى به أيضاً لا يقبل ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ قال ابن مسعود وعمر بن ميمون

مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا

ومسروق بن الأجدع أبو عائشة: البر: الجنة هاهنا. وقيل: هو العمل الصالح. وقيل: هو الثواب، وفي الخبر: «عليكم بالصدق؛ فإنه يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار» (١).

﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قيل: أراد بالإِنفاق: أداء الزكاة. وقيل: أداء جميع الصدقات. وقيل: كل إنفاق يبتغى به مرضات الله تعالى ينال به هذا البر.

وروى أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة: «يارسول الله، إني أرى الله يسألنا أموالنا، فأشهدك أني جعلت حائط كذا لله تعالى فقال ﷺ: أقسمه بين الفقراء قرابتك، فقسمه بين أبي وحسان» (٢).

وروى أن ابن عمر - رضي الله عنه - اشترى جارية كان قد هويها، فلما نظر إليها أعتقها، وزوجها رجلاً، وتلا قوله تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ أي: يعلمه، أي: يجازى عليه.

قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل﴾ سبب نزول الآية: أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها، فلست على ملة إبراهيم؛ فنزلت الآية ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ يعني: ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان (الكل) (٣)

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود، رواه البخاري (١٠/٥٢٣ رقم ٦٠٩٤) ومسلم (١٦/٢٤١ رقم ٢٤٣ رقم ٢٦٠٧).

(٢) متفق عليه من حديث أنس، رواه البخاري (٣/٣٨١ رقم ١٤٦١، وأطرافه في ٢٣١٨، ٢٧٥٢، ٢٧٥٨، ٢٧٦٩، ٤٥٥٤، ٤٥٥٥، ٥٦١١) ومسلم (٧/١١٦ - ١١٩ رقم ٩٩٨) مع اختلاف في ألفاظه.

(٣) ليست في «ك».

بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ

حلالاً له ولبنى إسرائيل، وإنما حرمها يعقوب على نفسه قبل نزول التوراة، يعنى : أن حرمتها ليست فى التوراة، ولا فى شرع إبراهيم، وإنما هو شيء حرمه إسرائيل على نفسه، وسبب تحريمه ذلك على نفسه : أنه اشتكى عرق النساء، وكان له من ذلك زقاء – أى صياح – فقال : إن شفى الله الله منه لأحرمن أحب الطعام إلى لحوم الإبل وألبانها، فشفاه الله؛ فحرمها على نفسه.

﴿ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ طالبهم بالإتيان بالتوراة حجة على ما ادعوا فلم يأتوا بها؛ إذ لم يكن تحريمها فى التوراة، فعجزوا عن الإتيان بالتوراة وكان ذلك كالمعجزة للرسول عليهم.

قوله تعالى : ﴿ فممن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ وقد ذكرنا معنى الافتراء والظلم.

قوله تعالى : ﴿ قل صدق الله ﴾ يعنى : فيما أخبر وأنزل ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وإنما دعاهم إلى اتباع ملة إبراهيم؛ لأن فى اتباع ملته اتباعه، وفى اتباعه اتباع ملته، ﴿ وما كان من المشركين ﴾.

قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ﴾ روى أبو ذر : « أنه سأل رسول الله ﷺ أى المساجد وضع أولاً؟ فقال : المسجد الحرام. (قلت) (١) : ثم أى؟ قال : المسجد الأقصى، قلت : كم بينهما؟ قال : أربعون عاماً، ثم قال : أينما أدرتكم الصلاة، فصل؛ فإنه لك مسجد » (٢).

وروى خالد بن عرعة عن على – رضى الله عنه – أنه قال : أراد به : أن أول بيت وضع للناس مباركاً مع الرحمة والبركة، والآيات البينات للذى ببكة.

وقيل : أول ما خلق الله تعالى من الأرض موضع البيت، ثم منه خلق جميع الأرض،

(١) فى «ك» : فقلت.

(٢) متفق عليه، رواه البخارى (٤٦٩/٦ رقم ٣٣٦٦، وطرفه فى ٣٤٢٥)، ومسلم (٤/٣-٥ رقم ٥٢٠).

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

وأول ما خلق من الجبال جبل أبي قبيس .

وفى القصص: أن الله تعالى أمر الملائكة ببناء البيت قبل خلق آدم بألفى عام، وكانت الملائكة يحجونه، فلما حجه آدم، قالت الملائكة: بَرَّ حَجُّكَ، حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. وأما بكة فالصحيح: أن بكة ومكة بمعنى واحد، وهو قول ابن عباس، ومثله: طين لازب ولازم، وسَمَلُ رأسه وسَبَلُ بمعنى واحد.

وقيل: (إنه) ^(١) موضع البيت، ومكة جميع القرية. وقيل: إنما سميت بكة؛ لأن الناس يتباكون فيها، أى: يزدحمون، ومنه قول الشاعر:

إِذَا الشَّرِيبُ أَخَذَتْهُ أَكَّةُ فَخَلَّه حَتَّى يَبُكَ بَكَّةُ

وقوله: ﴿مباركا وهدي للعالمين﴾ أى: وضع ذلك البيت ذا بركة وهدى للعالمين. ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ قرىء: «فيه آية بينة» على الوجدان، وهى مقام إبراهيم، والمعروف: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾.

من تلك الآيات: مقام إبراهيم: وهو الحجر الذى فيه أثر أصابع قدم إبراهيم، وكان قد بقى أثره فيه، فاندرس من كثرة المسح بالأيدى، وقيل مقام إبراهيم: جميع الحرم.

ومن الآيات فى البيت أيضا: أن الطير يطير فلا يعلو فوقه، كذا قيل، ومنها: أن الجارحة إذا قصدت صيدا، فإذا دخل الصيد الحرم كفت عنه، ومنها: أنه ما قصده جبار إلا قصمه الله - تعالى -، ومنها: أن المطر إذا أصاب الركن اليمانى؛ (كان الخصب باليمن، وإن أصاب جانب الشام) ^(٢)؛ كان الخصب بالشام، وإن أصاب جميع الجوانب كان الخصب جميع الجوانب.

وسبب هذا أن اليهود قالوا: قبلتنا أولى من قبلتكم؛ فبين الله تعالى للمسلمين شرف قبلتهم؛ فإنها خصت بأشياء ليست تلك لقبلتهم، وأن بيت المقدس قد حرق وهدم، وأما الكعبة فما قصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ قال ابن عباس: هو (الجانى) ^(٣) يدخله، فيصير آمنا عن القتل فيه، ولكنه لا يؤاكل

(٢) ليست فى «ك» .

(١) فى «ك»: إن بكة .

(٣) فى «ك»: الخائف .

عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ

ولايشارب، ولايباع ولايشارى حتى يخرج فيقتل.

وقال الحسن وقتادة وعامة المفسرين - وهو الأصح - : إنه أراد الأمن عن تخطف الكفار بالقتل والغارة. وقيل: أراد به: ومن دخله كان آمناً فى القيامة من العذاب.

قوله - تعالى - : ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ قد ذكرنا معنى الحج.

﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ روى الحسن مرسلًا عن النبى ﷺ «أنه سئل عن الاستطاعة، فقال: الزاد والراحلة»،^(١)، وروى ابن عمر «أنه ﷺ سئل أى الحاج أفضل^(٢)؟ فقال: الشعث، التفل. فقيل: أى الحج أفضل؟ فقال: العج، والثج. قيل: ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة»^(٣).

وقال مالك: الاستطاعة بقوة البدن، فمتى وجد الزاد، وقوى على المشى لزمه الحج، والأصح أن الاستطاعة: هى القدرة على ما يوصله إلى الحج، فمنها: الزاد، والراحلة، ومنها: أمن الطريق، ونفقة الأهل، ونحو ذلك.

﴿ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾ الأصح: أنه أراد بالكفر: إنكار وجوب الحج، وقيل: «إنه لما نزل (قوله: ﴿ولله﴾)^(٤) على الناس حج البيت﴾ جمع رسول الله

(١) رواه ابن أبى شعبة فى مصنفه (٩٠/٤)، وابن جرير فى تفسيره (١٢/٤)، وسعيد بن منصور فى سننه (١٠٧٦/٣ رقم ٥١٨)، والدارقطنى فى سننه (٢١٨/٢)، والبيهقى (٣٢٧/٤).

(٢) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

(٣) رواه الترمذى (١٧٧/٣ رقم ٨١٣ مختصراً، و٢٠٩/٥-٢١٠ رقم ٢٩٩٨) بآتم مما هاهنا) وابن ماجه (٩٦٧/٢ رقم ٢٨٩٦)، والشافعى فى مسنده (٢٨٤/١) وابن أبى شعبة (٩٠/٤) والدارقطنى (٢١٧/٢)، والبيهقى (٣٣٠/٤). وقال الترمذى فى الموضع الأول: هذا حديث حسن، والعمل عليه عند أهل العلم: أن الرجل إذا زاد وراحلة وجب عليه الحج.

وقال فى الموضع الثانى: هذا حديث لا نعرفه من حديث ابن عمر إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزى المكى، وقد تكلم بعض أهل الحديث فى إبراهيم بن يزيد من قبل حفظه.

وقال ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١٣/٤): فأما الأخبار التى رويت عن رسول الله ﷺ فى ذلك بأنه الزاد والراحلة، فإنها أخبار فى أسانيدنا نظر، ولا يجوز الاحتجاج بمثلها فى الدين.

(٤) فى «ك»: قول الله.

﴿١٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

ﷺ من جميع الأديان، وقال: إن الله كتب عليكم الحج أيها الناس فحجوا، فصدقه المؤمنون، وكذبه الكافرون؛ فنزل قوله: ﴿ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾ أى: لا يخفى عليه ما تعملون، ويجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن﴾ أى: (لم تمنعون من آمن عن سبيل الله) (٢) بكتمان نعت محمد ﷺ تبغونها عوجاً أى: تطلبون الزيف عن السبيل، والعدول عنها بتغيير صفة محمد ﷺ وأنتم شهداء ﷻ يعنى: أنتم عالمون أنه حق؛ على ما ورد نعته وصفته ﷺ وما الله بغافل عما تعملون ﷻ.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ يعنى: يردونكم إلى اليهودية والنصرانية.

قوله تعالى: ﴿وكيف تكفرون﴾ قال الأخفش سعيد بن مسعدة: على أى حال تكفرون؟!، وقال غيره: لم تكفرون؟! ﷻ وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﷻ.

فإن قال قائل: منعه إياهم عن الكفر؛ يكون الرسول فيهم، يوهم إباحة الكفر فى حال لا يكون الرسول فيهم، قيل: ولا يخلو حال من كون الرسول فيهم، فإنه اليوم وإن كان خارجاً من بينهم، فشرعه قائم بينهم، فيكون كأنه فيهم.

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ أى: ومن يمتنع بالله، قيل: ومن يثق بالله، فقد أرشد إلى طريق مستقيم.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ قال ابن مسعود: هو أن

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (٤٩/٧-٥٠)، وسعيد بن منصور (٣/١٠٧٤ رقم ٥١٥). وزاد السيوطى فعزاه فى الدر (٦٣/٢) لعبد بن حميد، وابن المنذر. كلهم عن الضحاك مرسلاً.

(٢) فى «ك»: لم تمنعون عن سبيل الله من آمن.

يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. وقال قتادة: (الآية) (١) منسوخة بقوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ (٢) قال أهل المعاني: لا يستقيم النسخ فيه، وقوله ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ (٢) تفسير لهذه الآية؛ لأن من أطاع الله في وقت وجوب الطاعة، وذكره في وقت وجوب الذكر، وشكره في موضع وجوب الشكر، فقد اتقى الله حق تقاته.

وهذا لم يصبر منسوخا، وقوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ (٢) موافق له؛ لأن التقوى إن كان في موضع الأمر والوجوب، والأوامر والواجبات على قدر الاستطاعة، فتكون إحدى الآيتين موافقة للأخرى، فلا يستقيم فيه النسخ.

﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، فإن قال قائل: كيف نهاهم عن الموت على الكفر، والموت لا يدخل تحت الأمر والنهي؟! قيل: معناه: دوموا على الإسلام، حتى إذا وافاكم الموت ألقاكم على الإسلام، هذا كما يقول الرجل لغيره: لا أريتك تفعل كذا. معناه: لا تفعل كذا، حتى إذا رأيتك (لا) (٣) أراك على فعله.

قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا﴾ قال ابن عباس: حبل الله: هو العهد. وقال قتادة (والسدى) (٤): حبل الله: القرآن. وفي الخبر «القرآن: حبل ممدود (طرف)» (٥) بيد الله وطرف بأيديكم» (٦) وقيل: الحبل: الطريق، حبل الله: طريق الله، وأنشدوا في ذكر الناقة قول الشاعر:

(١) في الأصل و «ك»: الآبائية، وهو خطأ.

(٢) ليست في «ك».

(٣) ليست في «ك».

(٤) ليست في «ك».

(٦) رواه ابن أبي شيبة (٤٨١/١٠ رقم ١٠٠٥٥)، وعبد بن حميد، كما في المنتخب (ص ١٧٥ رقم ٤٨٣)، والطبراني في الكبير (١٨٨/٢٢ رقم ٤٩١)، وابن حبان - الإحسان - (١/٣٢٩ - ٣٣٠ رقم ١٢٢) والبيهقي في الشعب (٤/٥٠١ رقم ١٧٩٢) كلهم من حديث أبي شريح الخزاعي، وقال الهيثمي في المجمع (١٩٧/١): رجاله رجال الصحيح. وقال البيهقي في الشعب: ورواه الليث بن سعد، عن سعيده المقيري. عن نافع بن جبير، عن النبي ﷺ مرسلا. قال البخاري هذا أصح. وانظر علل ابن أبي حاتم (٢/٥٦ رقم ١٦٥٣). وروى بنحوه عن علي بن أبي طالب مرفوعاً نسبة الحافظ ابن حجر في المطالب لإسحاق بن راهويه وقال: هذا إسناد صحيح - المطالب (٤/٦٥ رقم ٣٩٧٢) - وفي الباب عن جماعة من الصحابة.

حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ
عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنَّ

وَإِذَا أُجْوزُهَا حَبَالُ قَبِيلَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْأُخْرَى إِلَيْكَ حَبَالُهَا^(١)

أى: طريقها. وأصل الحبل كل ما يوصلك إلى الشيء، فتفوز به، والعهد: حبل،
والقرآن: حبل، (ومنه) ^(٢) الحبل المعروف؛ لأنه يوصل إلى المقصود.

﴿ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم﴾ سبب نزول الآية ما روى «أن رجلين:
أحدهما من الأوس، والآخر من الخزرج تسابا، فدعا كل واحد منهما قبيلته؛ فثار
الحيان، وضربوا بأيديهم إلى السيوف، وكاد يكون بينهم قتال، فبلغ ذلك رسول الله
ﷺ فخرج عليهم وهو على حمار، وقام بينهم؛ فنزلت الآية، وتلا عليهم، فبكوا،
ومشى كل واحد إلى صاحبه وتعانقوا، واصطلحوا وكفوا عن القتال» ^(٣)، قال جابر:
ما كان يوم أقبح أولا من ذلك اليوم، ولا أحسن آخر من ذلك اليوم. فقلوه:
﴿ولا تفرقوا﴾ الخطاب معهم ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ يعنى: بالإسلام وبعث
الرسول وإنزال الكتاب.

﴿إذ كنتم أعداء﴾ لأن الأوس والخزرج كان بينهم قتال [دام] ^(٤) مائة وعشرين
سنة ﴿فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ يعنى: بالإسلام ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ (أى: فى
الدين) ^(٥).

﴿وكنتم على شفا حفرة﴾ أى: طرف حفرة ﴿من النار فأنقذكم منها﴾.

وقيل: نزلت الآية فى مشركى العرب، والأول [أصح وهو] ^(٦) قول عكرمة.
﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ أى: ترشدون، وتسلكون طريق الحق.

(١) وقع البيت فى لسان العرب (مادة: حبل) كما يأتى:

وَإِذَا تَجَوَّزَهَا حَبَالُ قَبِيلَةٍ أَخَذَتْ مِنَ الْآخَرَى إِلَيْكَ حَبَالُهَا.

(٢) فى «ك»: فمنه.

(٣) رواه ابن جرير عن عكرمة مرسلا.

(٤) فى «الأصل»، و«ك»: دائم.

(٦) ما بين المعكوفين تكرر بالأصل، وك.

(٥) فى «ك»: يعنى بالدين.

مَنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ

قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ أى: كونوا أمة، وكلمة «من» - فيه - للجنس، لا للتبويض، وهو مثل قوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ (١) والمراد به الاجتناب من جنس الأوثان كلها لا من بعض الأوثان، كذلك قوله: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ أى: كونوا أمة ﴿يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ أى: وأنتم المفلحون.

قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ يعنى: اليهود والنصارى.

﴿من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه﴾ يعنى: وأولئك لهم عذاب عظيم يوم القيامة، ثم وصف ذلك اليوم، فقال: ﴿يوم تبيض وجوه﴾ يعنى: بالتوحيد ﴿وتسود وجوه﴾ بالشرك. وقيل: تبيض وجوه بالسنة، وتسود وجوه بالبدعة. وقيل: أراد به: فى الدنيا تبيض وجوه بالقناعة، وتسود وجوه بالطمع. والأول أصح، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة...﴾ (٢) الآية.

وفى رواية أبى أمامة عن النبى ﷺ «تسود وجوه الخوارج» (٣). ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ أى: يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟! فإن قال قائل: كيف كفروا بعد الإيمان ولم يكونوا مؤمنين قط؟ قيل أراد به إيمان يوم الميثاق، وكفروا بعده.

(١) الحج: ٣٠.

(٢) عبس: ٣٨-٣٩.

(٣) رواه الترمذى (٢١٠/٥ رقم ٣٠٠٠) بطوله، وقال: حسن، وابن ماجه (١/٦٢ رقم ١٧٦)، وأحمد

(٥/٢٦٢)، وعبد الرزاق فى مصنفه (١٠/١٥٢ رقم ١٨٦٦٣)، وابن أبى شعبة (١٥/٣٠٧-٣٠٨ رقم

١٩٧٣٨)، وابن أبى حاتم فى تفسير «آل عمران» (١/٤٦٥ رقم ١١٤٤)، والطبرانى فى الكبير (٨/٢٦٧

رقم ٨٠٣٣) وأعادته فى غير موضع من كتابه، كلهم من حديث أبى أمامة مرفوعا.

إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

وقيل: أراد به: اليهود؛ آمنوا بما كان فى التوراة من نعت محمد، ثم كفروا، وغيروا. ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

قوله تعالى: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم فى رحمة الله﴾ أى: فى ثواب الله ﴿هم فيها خالدون﴾.

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين﴾ لأنه يعاقب من يعاقب عن استحقاق بالعدل ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾.

قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة﴾ فإن قال قائل: ما معنى قوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ ومتى كانوا بتلك الصفة؟ قيل: أراد به: كنتم خير أمة فى اللوح المحفوظ. وقيل: أراد به صرتم خير أمة إذا آمنتم. وقيل: يقال لهم يوم القيامة: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ فالمعروف: ما عرفه الشرع، والمنكر: ما أنكره الشرع. وفى الحديث: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو يوشك أن يعمكم الله بعقابه»^(١)، وقال ﷺ: «أفضل الشهداء بعد شهداء أحد: رجل قام إلى إمام جائر، فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله عليه»^(٢)

قوله: ﴿وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم﴾ وهذا لاشك فيه. ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ لأنه آمن بعضهم، وكفر أكثرهم.

(١) رواه أبو داود (١٢١/٤ - ١٢٢ رقم ٤٣٣٦، ٤٣٣٧)، والترمذى (٢٣٥/٥ رقم ٣٠٤٧)، وابن ماجه (١٣٢٨/٢ رقم ٤٠٠٦)، وأحمد (٣٩١/١) والطبرانى فى الكبير (١٤٥/١٠ - ١٤٦ رقم ١٠٢٦٤، ١٠٢٦٨)، والبيهقى فى الكبرى (٩٣/١٠) كلهم من حديث ابن مسعود، بعضهم اختصره، وبعضهم ذكره بطوله، وقد اختلف فى أسانيده انظر علل الدارقطنى (٢٨٥/٥ - ٢٨٨ رقم ٨٨٩) والسلسلة الضعيفة رقم (١١٠٤).

(٢) سبق تخريجه فى أول هذه السورة.

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُوَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ يعني: لا يضرّونكم بأكثر من أذى وهو إضرار يسير، وأذى توقيعه باللسان.

﴿وَإِنْ يُقَاتِلُونَكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ﴾ أى: يهزمون وتكون النصره لكم عليهم.

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ يعني: ذل الكفر: بالقتل، والسبى، والاعتنام ﴿أَيْنَ مَا تَقِفُوا﴾ أى: وجدوا.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ يعنى: عهد الذمة ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ وهو عهد الأمان، يعنى: أنهم يقتلون، ويؤسرون، إلا أن تكون لهم ذمة أو أمان.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ رجعوا واحتملوا غضب الله، (وقيل: لزمهم غضب الله) (١) من قولهم تبأ مكان كذا أى: لزمه ﴿وَضُرِبَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أى: ذل الكفر، بزي الفقر، وذلك على اليهود، حتى لا يرى يهودى إلا على زى الفقر، وإن كان غنيا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ يعنى: (المؤمنين والكافرين) (٢) ليسوا سواء، وهذا وقف تام، ثم ابتداء ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أى: عادلة، وقيل: قائمة: مستقيمة على الحق، وقيل: الأمة: الطريقة المستقيمة، وهى طريقة الحق، وتقديره: من أهل الكتاب ذو أمة قائمة، ومنه قول النابغة:

أَكَلَفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرْكُهُ (٣)

وَهَلْ يَأْتِمَنُ ذُو أُمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ

(٢) فى «ك»: الكافرين والمؤمنين.

(١) ليست فى «ك».

(٣) كذا جاء الشطر من البيت فى «الأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب (مادة: أَم):

حَلَفْتُ! فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً

أُمَّةً قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ

أى : ذو دين وطريقة . ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل ﴾ : ساعات الليل، واحداها : إنّا، وأنا ﴿ وهم يسجدون ﴾ قال ابن مسعود : يعنى : يصلون صلاة العتمة، وقيل : أراد به الصلاة ما بين المغرب العشاء وهو فى آناء الليل .

﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ وصفهم الله تعالى وشكرهم ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أى يجازون عليه . والله تعالى إذا جازى العبد على صنيعه، فقد شكره ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ﴾ أى : لا تدفع أموالهم بالفدية، ولا أولادهم بالنصرة من عذاب الله؛ وذلك أن الإنسان يدفع عن نفسه بفداء المال، وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(قوله) (١) : ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ﴾ الصر فى الريح : البرد، وقول الشاعر :

وَالرَّيْحُ يَا وَاقِدُ رِيحُ صِرَّ

أَوْقَدَ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيَلُ قَرَّ

إِنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حَرُّ

عَسَى [ما] (٢) نَرَى نَارًا لَنْ يَمِرَّ

﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ شبه إنفاقهم بزرع اجتاحتها جائحة أو أصابته ريح باردة فأهلكته .

واختلفوا فى تلك النفقة : قال بعضهم : أراد به : إنفاق أبى سفيان يوم بدر وأحد على المشركين فى قتال المسلمين، وقيل : أراد به : إنفاق المرء الذى ينفق ماله رياء

(١) ليست فى «ك» .

(٢) ليست فى الأصل .

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا
يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ
وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ
لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا
لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ

وسمعة، لا يبتغى وجه الله ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ أى : خواص من
غير أهل ملتكم، وبطانة الرجل : خاصته، والذين يستنبطون أمره، ومنه : البطانة فى
الثوب ؛ لأنه يلى البطن والباطن، وهذا فى النهى عن موالاته الكفار ﴿ لا يألونكم
خبالا ﴾ أى : يقصرون فى (أمركم) ^(١) ، فيفسدون عليكم أمركم، والخبال : الفساد
﴿ ودوا ما عنتم ﴾ أى : يودون ما يشق عليكم، والعنت : المشقة، ومنه الأكمه
العنوت وهى الشاقة الصعود، قال السدى : أراد به : أنهم يودون ردكم إلى الكفر
والضلالة .

﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ يعنى : الوقية باللسان، ﴿ وما تخفى
صدورهم أكبر ﴾ (يعنى : الذى فى صدورهم) ^(٢) من الغيظ أعظم من الوقية
باللسان ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ها أنتم أولاء ﴾ يعنى : أنتم ياهؤلاء، ﴿ تحبونهم ﴾ أى : تحبون إيمانهم،
﴿ ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا ﴾ يعنى : باللسان .

﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ﴾ وهو عبارة عن
شدة الغيظ ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن تمسكم حسنة ﴾ أى : خصب ونصرة ﴿ تسؤهم ﴾ ﴿ وإن
تصبكم سيئة ﴾ أى : قحط وبلاء ﴿ يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا ﴾ يعنى : على

(١) فى «ك» : أموركم .

(٢) ليست فى «ك» .

كُلَّهُ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ

الشدة والبلاء ﴿لا يضرركم كيدهم شيئا﴾ ويقرأ «لا يضرركم» بكسر الضاد مخففا^(١)، والمعنى واحد ﴿إن الله بما يعملون محيط﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يعنى: واذكر إذ غدوت، ومعناه: خرجت غدوة من أهلك^(٢)، أى: من بيت عائشة ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: تنزل المؤمنين ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ يعنى: تنزلهم فى مواضع القتال ومراكزه، يقال: بوأ فلانا مكان كذا، إذا أنزله فيه، قال ابن عباس: كان النبى ﷺ يسمى لكل واحد من المسلمين مكانا من [القتال]^(٣)، و يقيمه.

وهذا كان فى حرب أحد، وهذه الآية إلى قريب من آخر السورة فى حرب أحد ﴿والله سميع عليم﴾ أى: سميع بما قاله المنافقون، عليم بما أضمرُوا؛ فيكون على وجه التهديد، وقيل: معناه: ﴿والله سميع﴾ بما قاله المؤمنون، عليم بما أضمرُوا؛ فيكون على وجه المدح.

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ يعنى: أرادت، وقصدت، والهَمُّ: القصد، وأما الطائفتان، فقد صح عن جابر أنه قال: أراد به: بنى سلمة، وبنى حارثة. والقصة فى ذلك: ما روى «أن رسول الله ﷺ شاور أصحابه فى الخروج إلى حرب أحد، فأشار بعضهم بالخروج، وبعضهم بالكث بالمدينة، فاختر الخرج، وكان جيش المسلمين ألفا، فانخذل عبد الله بن أبى بن سلول بثلاث الجيش فهت هاتان

(١) قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، وحمزة، والكسائى، وعاصم بضم الضاد، ورفع الراء وتشديدها، وقرأ الباقون بكسر الضاد، وجزم الراء المخففة.

انظر النشر (٢/٢٤٢).

(٢) فى «ك» خرجت من غدوة أهلك.

(٣) فى «الأصل»، و«ك»: القتال.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ

الطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة أن يرجعوا^(١) معهم، فثبتهما الله تعالى على المضى معه، فلم يرجعوا^(٢)، فهذا معنى قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ أى: أن تضعفا: وتجبنا ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ أى: ناصرهما ومثبتهما على الحرب.

قال جابر: ماوددنا أن تفشلا، وقال الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾^(٣) وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ يذكر عليهم منته بالنصرة يوم بدر، وهو موضع بين مكة والمدينة، وسمى بدرا باسم الموضع، وقيل: سمي بدرا باسم رجل، وقيل باسم بئر ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أى: قليل العدد؛ لأنهم كانوا يوم بدر ثلثمائة وثلاثة عشر نفرا، قال على: ولم يكن فينا فارس إلا المقداد، وكان منهم سبعة وسبعون من المهاجرين والباقيون من الأنصار، وكان صاحب راية المهاجرين أمير المؤمنين على - رضى الله عنه -، وصاحب راية الأنصار قيس بن سعد بن عباد.

وكان لهم يومئذ قليل سلاح، فمن الله عليهم بالنصرة لهم؛ مع قلة عددهم وعدتهم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ قيل: أراد به: فى يوم بدر، وقيل: فى يوم أحد، قال ابن عباس: ما قاتلت الملائكة فى المعركة إلا يوم بدر.

أى: يكفيكم ﴿أَنْ يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ الإمداد: هو إعانة الجيش بالجيش، ومنه: المدد ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا﴾ يعنى: بلى وعدكم إن تصبروا على لقاء العدو، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أى: وتحذروا مخالفة الرسول ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ قال ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين: معناه: ويأتوكم من وجوههم هذا، وقيل: معناه: من غضبهم هذا؛ لأنهم إنما رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم ليوم بدر.

(٢) رواه ابن جرير بطوله عن السدى مرسل.

(١) فى «ك»: يرجعوا.

(٣) ليست فى «ك».

آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا

﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ﴾ لم يرد به خمسة آلاف سوى ما ذكر من ثلاثة آلاف؛ لأنهم أجمعوا على أن عدد الملائكة يومئذ خمسة آلاف، فكأنه جعل ما وعدهم من ثلاثة آلاف خمسة آلاف، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(١)، ثم قال بعده: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾^(٢) ولم يرد به أربعة أيام سوى ذلك اليومين؛ لأنه قال بعده: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٣) وأجمعوا على أن خلق الكل كان في ستة أيام لا في ثمانية أيام، بل أراد به أربعة أيام مع ذلك اليومين كذا هذا.

﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ يقرأ بفتح الواو، والمراد به المُعَلِّمِينَ، ويقرأ: بكسر الواو^(٤) فيكون فعل التسويم: من الملائكة، والتسويم الإعلام بالعلامة، وهو من السومة، والسماء: وهو العلامة، واختلفوا في علامة الملائكة يومئذ كيف كانت؟ قال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل يُلقَى عليهم عمام صُفْر.

وقال الحسن: كانت عمام بيض مرسل خلف الظهر. وقال مجاهد: كانوا قد أعلموا من الصوف على أذنان الخيل ونواصيها؛ وذلك سنة في خلق الشجعان، وقد قال ﷺ: «سوموا فإن الملائكة قد سومت»^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أى: بشارة لكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أى: بوعده النصر ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ يعنى: (لا) ^(٦) تختلوا بالنصر عن الملائكة والجند، واعرفوا [أن] ^(٧) النصر من عند الله.

(١) فصلت: ٩.

(٢) فصلت: ١٠.

(٣) فصلت: ١٢.

(٤) قرأ ابن كثير، وعاصم، ويعقوب، وأبو عمرو بكسر الواو، وقرأ الباقون بفتحها.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/٢٦١، رقم ١٢٧٦٨، ١٤/٣٥٨، رقم ١٨٥١٥)، وسعيد بن منصور في سننه (٢٨٦١)، وابن جرير في تفسيره (٤/٥٤) جميعهم عن عمير بن إسحاق مرسلًا.

(٦) ليست في «ك».

(٧) ليست في «الأصل» ولا «ك».

خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ

﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا﴾ أى: قطعة منهم، ومنه أطراف الإنسان؛ لأنها قطع النفس، ثم من حمل الآية على حرب بدر، فقد كان ذلك القطع منهم يوم بدر؛ فإنه قتل منهم سبعون وأسر سبعون؛ أكثرهم رؤسائهم، ومن حمل الآية على حرب أحد، فقد قتل منهم ستة عشر فيهم أصحاب الرايات، فكانت النصره للمسلمين مالم يخالفوا أمر رسول الله، فلما خالفوا أمره ذهبت النصره عنهم.

قوله: ﴿أو يكبتهم﴾ قال أبو عبيدة: أى: يهلكهم، وقيل: معناه: يخزيهم، وهو أصح، وقيل: معناه: أو يصرعنهم، والكب والكبت: الصرع على الوجه، وفيه قول رابع: يكبتهم بمعنى: يكبدهم، وذلك أن يحزنهم حتى وصل الحزن إلى أكبادهم؛ والعرب تسمى الحزين: أسود الكبد من تأثير الحزن فيه [ومنه] ^(١) قول الشاعر:

الأعداء والأكباد سود

﴿فينقلبوا خائبين﴾ أى: لا يدركون ما أملوا، يقال: رجع فلان من الغيبة بالخيبة، إذا لم يدرك أمله.

قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ روى الزهرى، عن سالم، عن أبيه عبد الله بن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يلعن فى القنوت قوما من المشركين مدة؛ فنزل قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ فترك اللعن فى القنوت» ^(٢)، وروى أنس «أنه ﷺ شج رأسه يوم أحد، وكسرت ربايعته، وأدْمَى وجهه، وكان يأخذ الدم بكفه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم؟! فنزل قوله: ﴿ليس لك من الأمر

(١) ليست فى «الأصل» ولا «ك».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٤٢٢/٧ - ٤٢٣ رقم ٤٠٦٩ وأطرافه فى ٤٠٧٠، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦). والترمذى

(٢١٢/٥ رقم ٣٠٠٤، ٣٠٠٥)، والنسائى (٢٠٣/٢ رقم ١٠٧٨) وفى الكبرى (٣١٤/٦ رقم ١١٠٧٥)،

(١١٠٧٦)، وأحمد (٩٣/٢، ١٠٤، ١١٨، ١٤٧)، وابن خزيمة فى صحيحه (٣١٥/١ رقم ٦٢٢، ٦٢٣)

وابن حبان - الإحسان - (٣٢٥/٥ - ٣٢٧ رقم ١٩٨٧، ١٩٨٨)

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ

شئ (١) ﴿٢﴾ وقيل: أراد رسول الله ﷺ أن يدعوا عليهم بدعاء الاستئصال؛ فنزل قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ وذلك أنه تعالى علم أن فيهم من يسلم [أو يتوب] (٣) ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم﴾ إنما نصبه على نصب قوله: ﴿ليقطع طرفاً﴾ ومعناه: ليس لك من الأمر شيء؛ فإن تبت عليهم، أو عذبتهم، فأمرك متابع لأمرى، أى: إن تبت عليهم، فبرحمتى، وإن عذبتهم، فبظلمهم.

فإن قال قائل: أى اتصال لقوله: ﴿أو يتوب عليهم﴾ بقوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾؟ قيل: معناه: ليس لك من الأمر شيء، حتى يتوب عليهم، أو إلى أن يتوب عليهم، ومثله قول امرئ القيس:

فقلت لها لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنُعذراً

أى: حتى نموت، فنعذراً، ويحتمل أنه على نسق قوله: ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ليس لك من الأمر شيء. والأمر أمرى فى ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ قد ذكر الربا فى سورة البقرة، وأعاد ذكره هاهنا تأكيداً، والأضعاف المضاعفة: هو ما كانوا يفعلونه من تباعد الأجل بزيادة الدين.

﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أى: كونوا على رجاء الفلاح، يعنى: من ترك الربا

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١٢/٢٠٧ رقم ١٧٩١)، والبخارى تعليقا (٧/١٤٢٢)، والترمذى فى سننه (٥/٢١١-٢١٢ رقم ٣٠٠٢، ٣٠٠٣)، وقال: حسن صحيح، والنسائى فى الكبرى كتاب التفسير (٦/٣١٤) رقم ١١٠٧٥، (١١٧٠٦)، وابن ماجه (٢/١٣٣٦ رقم ٤٠٢٧).

(٢) فى «ك» زيادة مقحمة؛ وهى: «وذلك أنه تعالى علم أن فيهم ولعله انتقال نظر من الناسخ لما سياتى.

(٣) من «ك».

الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى

وفيه الفلاح، وفي إعطاء الربا الهلاك.

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه (١) - : « ما هلك قوم إلا وقد فشا فيهم الربا والزنا »، [و] (٢) عنه أيضا : « [كثير] (٣) الربا إلى قلة ».

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وهى معدة للكافرين؛ فإنها دار الخلود لهم ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى : كونوا على رجاء الرحمة.

قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴾ أى : بادروا إلى مغفرة ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾، قال ابن عباس : معناه : بادروا إلى التوبة التى هى سبب المغفرة. وقيل : أراد به : سؤال المغفرة. وفيه قول غريب أنه التكبيرة الأولى.

﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى : سعتها كسعة السموات والأرض.

[وفى الخبر : « أن النبى ﷺ : سئل إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض » (٤) فأين النار؟ قال - عليه الصلاة والسلام : فإذا جاء الليل، فأين يذهب النهار؟ [وإذا] (٥) جاء النهار فأين يذهب الليل؟ » (٦) ومعناه - والله أعلم - أنه حيث يشاء الله.

فإن قيل : قد قال الله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٧)، وأراد بالذى وَعَدْنَا الجنة، فإذا كانت فى السماء، فكيف يكون عرضها السموات والأرض؟ قيل : إن باب الجنة فى السماء وعرضها السموات والأرض كما أخبر.

(١) فى «ك». عنهما، وهو خطأ.

(٢) من «ك».

(٤) ليست فى «ك».

(٥) فى «ك» : فإذا، وهو خطأ.

(٦) رواه البزار - كما فى مختصر الزوائد (٢/ ٧٦ رقم ١٤٥٢)، والحاكم فى المستدرک (١/ ٣٦) من حديث أبى

هريرة مرفوعاً، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين وابن حبان فى صحيحه - الإحسان (١/ ٣٠٦ -

٣٠٧ رقم ١٠٣) وقال الهيثمى فى المجتمع (٦/ ٣٣٠) : رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح.

(٧) الذاریات : ٢٢.

مَغْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

وقيل: أراد به في القيامة، فإن الله يزيد فيها، فيصير عرضها السموات والأرض إذا (وصلت السموات والأرض) ^(١) بعضها ببعض، وأما طولها [فلا يعلمه] ^(٢) إلا الله.

﴿أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ أي: في (اليسر والعسر) ^(٣) ﴿والكاظمين الغيظ﴾ كظم الغيظ: هو أن يمتليء غيظاً؛ فيمنع نفوذه، من قولهم: كظم البعير بُجْرَتَهُ ^(٤) إذا ردها إلى جوفه، وفي الخبر: «من امتلأ غيظاً، وكظمه خيره الله في الحور العين» ^(٥).

﴿والعافين عن الناس﴾ قيل: عن الممالك سوء الأدب، وقيل: على العموم عن كافة الناس، ﴿والله يحب المحسنين﴾.

قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ مادون الزنا من القبلة، والمعانقة، واللمس، والضم، ونحوه ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذُنُوبِهِمْ﴾ سبب نزول الآية ما روى: أن رجلاً بالمدينة - يقال له: نبهان - كان ثماراً فجاءته امرأة تشتري منه التمر، فأعجبه جمالها فقبلها، فذكر الله، وندم واستغفر؛ فنزلت الآية.

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله﴾ أي: ذكروا وعيد الله ﴿فاستغفروا لذُنُوبِهِمْ ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا﴾ الإصرار هو المقام على المعصية من غير توبة، فقوله: ﴿ولم يصروا﴾ أي: ولم يقيموا، ولم يمسوا ﴿على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أن الله لا يتعاضمه العفو عن الذنب، وإن كثّر

(١) في «ك»: إذا وصلت السماء بعضها ببعض.

(٢) في «الأصل»: فلا يعلم.

(٣) في «ك»: العسر واليسر.

(٤) في «الأصل»: يجذته، وفي «ك»: لجذته.

(٥) رواه أبو داود (٤/٢٤٨ رقم ٤٧٧٧)، والترمذي (٤/٥٦٥ - ٥٦٦ رقم ٢٤٩٣) وقال: حسن غريب، وابن

ماجة (٢/١٤٠٠ رقم ٤١٨٦)، وأحمد (٣/٤٣٨، ٤٤٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/١٨٨ - ١٨٩ رقم

٤١٥، ٤١٦، ٤١٧) وفي الأوسط - كما في مجمع البحرين (٤/١٥٩ - ١٦٠ رقم ٢٢٥٥)، وفي الصغير

(٢/٢٥٠ رقم ١١١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٤٧، ٥٥)، والبيهقي في الكبرى (٨/١٦١) كلهم من

حديث معاذ بن أنس بمعناه.

وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ

الذنب، وقد روى عن معبد بن صبيحة أنه قال: صليت خلف عثمان، فلما انصرف من صلاته قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ وأنا قد صليت من غير طهارة ناسيا، وها أنا أتوضأ، فذهب (وتوضأ) (١) وأعاد الصلاة.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ذكر في هذه الآية جزاء الذاكرين، والمستغفرين، وقد ورد في الاستغفار أخبار: منها ما روى مرفوعا: «ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة» (٢).

وروى أسماء بن الحكم الفزارى عن علي أنه قال: إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا، ينفعني الله به ما شاء، وإذا سمعت من غيره (حلفته) (٣) عليه، فإذا حلف صدقته وحدثني أبو بكر - وهو صادق - أن رسول الله ﷺ قال «ما من عبد يذنب ذنبا، فتوضأ، وصلى ركعتين واستغفر (الله) (٤) إلا غفر الله له» (٥).

واعلم أن الاستغفار تسهيل للأمر على هذه الأمة، فإن الذين قبلنا كان الواحد منهم إذا أذنب ذنبا يظهر على بابه (أن اقطع) (٦) من نفسك عضو كذا، وكان لا بد له منه، وقد أخرج الله - تعالى - هذه الأمة عن الذنوب بالاستغفار؛ كرامة لهم؛ وتيسيرا عليهم.

(١) في «ك» القضاء، وهو تحريف.

(٢) رواه أبو داود (٨٤/٢ رقم ١٥١٤)، والترمذى (٥٢١/٥ رقم ٣٥٥٩) وقال: غريب؛ إنما نعرفه من حديث أبي نصيرة وليس إسناده بالقوى، والبخاري في مسنده (٢٠٥/١ رقم ٩٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٢٤/١-١٢٥ رقم ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩) والطبري في التفسير (٤/٦٤)، وابن أبي حاتم في تفسير «آل عمران» (١/٥٥٤ - ٥٥٥) كلهم من حديث أبي بكر الصديق - رضى الله عنه -.

(٣) في «ك»: فلقه. وهو تحريف واضح.

(٤) لفظ الجلالة ليس في «ك».

(٥) رواه أبو داود (٨٦/٢ رقم ١٥٢١) والترمذى (٢٥٧/٢ - ٢٥٨ رقم ٤٠٦، ٢١٢/٥ - ٢١٣ رقم ٣٠٠٦) وقال: حسن والنسائي في الكبرى (١٠٩/٦ - ١١٠ رقم ١٠٢٤٧، ١٠٢٥٠)، و(٣١٥/٦ رقم ١١٠٧٨)، وابن ماجه (٤٤٦/١ رقم ١٣٩٦) وأحمد (٢/١ - ٨، ٩، ٩٠، ١٠٠) وابن أبي شيبة (٢/٣٨٧ - ٣٨٨)، والطيالسى (ص ٢ رقم ١) والبخاري (١/٦١ - ٦٤ رقم ١١ - ٨)، وأبو يعلى في مسنده (١١/١ رقم ٢) و(١/٢٣ - ٢٦ رقم ١١ - ١٥) والطبري في التفسير (٤/٦٣)، وابن حبان (٢/٣٨٩ - ٣٩٠ رقم ٦٢٣).

(٦) في «ك»: فإذا قطع.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى

وسئل ابن المعتز: إذا كان الله - تعالى - واسع المغفرة، وسعت رحمته كل شيء فما يمنعه أن يرحم الكافر؟ فقال: إِنَّ رَحْمَتَهُ لَا تَغْلِبُ حُكْمَتَهُ. قوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ قرأ ابن مسعود: «قد مضت»، وهو بمعنى خلت. السنة: هي الطريقة المتبعة في الخير والشر.

وقد قال ﷺ في الجوس: «سئوا بهم سنة أهل الكتاب»^(١) وكانت شرا لهم.

وقال الشاعر:

وإِنَّ الْآلِيَ بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّوْا فَسُنُّوا لِلْكَرَامِ التَّأْسِيَا

قال ابن عباس: سنن [الذين]^(٢) من قبلكم، وهي وقائع الله على الكفار. وقال غيره: هي الأعلام والآثار التي كانت. وحقيقة المعنى: أنها طرائق الله في الكفار، وبقتلهم، وسببهم وتخريب ديارهم، ونحوه، قال الزجاج: ﴿قد خلت من قبلكم﴾^(٣) سنن أي: أهل سنن. ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾.

قوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ قال الشعبي: بيان من العمى، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل؛ فالبيان: هو إظهار معنى الكلام، والموعظة: هي الدعاء إلى الحق بالترغيب والترهيب.

قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ أي: ولا تضعفوا، ولا تجبنوا، ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون ﴿أي: تكون لكم العاقبة والنصرة﴾.

وقيل: إنما قال ﴿وأنتم الأعلون﴾؛ لأن المسلمين كانوا على الجبل، والمشركين في

(١) رواه مالك في الموطأ (١/٢٧٨)، والشافعي في مسنده (ترتيب المسند ٢/١٣٠ رقم ٤٣٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/٦٨-٦٩ رقم ١٠٠٢٥)، وابن أبي شيبة (٣/٢٢٤)، و(١٢/٢٤٣)، وأبو عبيد في الأموال (ص ٤٠ رقم ٧٨)، وأبو يعلى (٢/١٦٨ رقم ٨٦٢)، والبزار (٣/٢٦٤ - ٢٦٥ رقم ١٠٥٦) والدارقطني في العلل (٤/٣٠٠ رقم ٥٧٨)، والبيهقي في سننه (٩/١٨٩-١٩٠) كلهم من حديث عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - مرفوعا.

(٣) في «ك»: قبلهم.

(٢) من «ك».

وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

أسفل الجبل، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: لا تهنوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؛ لأن الإيمان يزيد القوة فلا يُورث الوهن.

قوله - تعالى - : ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ تقرأ: بفتح القاف، وضمها (١)، وقال الفراء: الْقَرْحُ - بالفتح - : الجِرَاحَةُ، والقَرْحُ: الألم، وقال الكسائي: هما عبارتان عن معنى واحد. والأكثر على القول الأول، وقوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ خطاب للمسلمين فيما مسَّهم يوم أحد ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أى: مسَّ الكفار يوم بدر (قَرْحٌ) (٢) مثل ما مسَّكم يوم أحد.

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ فتارة تكون الدولة للمسلمين على الكفار، وتارة للكفار على المسلمين، قال الزجاج: الدولة تكون للمسلمين على الكفار، وقد كانت الدولة للكفار على المسلمين؛ لما خالفوا أمر الرسول، فإن لم يخالفوا أمره كانت الدولة للمسلمين أبداً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جندنا لهم الغالبون﴾ (٣)؛ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمَ الْغَالِبُونَ﴾ (٤).

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ قرأ ابن مسعود: «وليبلَى الله الذين آمنوا»، والقراءة المعروفة: ﴿وليعلم﴾، فإن قال قائل: ما معنى قوله: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾، وهو عالم بهم أبداً؟ قيل: معناه: وليعلم الصابرين على الجهاد فى مواطن الجهاد ليعاملهم معاملة من يبتليهم؛ فيعلمهم، والعلم بالجهاد فى مواطن الجهاد إنما يقع بعد وقوع الجهاد، وقيل: العلم الأول: علم الغيب، وقوله: ﴿وليعلم﴾ يعنى: علم المشاهدة، والوقوع والمجازاة على علم الوقوع لا على علم الغيب.

﴿ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾ يعنى: أنه ما جعل اليد للكفار يوم أحد لحبه إياهم؛ ولكن ليبتليكم، ويجعلكم شهداء.

(١) قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو بكر بضم القاف، وقرأ الباقون بفتحها.

(٢) ليست فى «ك».

(٣) الصافات: ١٧٣

(٤) المائدة: ٥٦.

الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا

قوله تعالى : ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ وكل هذا على نسق قوله : ﴿ليقطع طرفا﴾ (١) (وكذلك) (٢) قوله : ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ وأما التمحيص : قيل : هو [التخليص] (٣) وهو قول الحسن، وقال مجاهد : هو بمعنى : الابتلاء، وحقيقة معنى التمحيص : التطهير من الذنوب، تقول العرب : محص عنا ذنوبنا أى : طهرنا من الذنوب .

﴿ويمحق الكافرين﴾ [معنى] (٤) الآية : أنهم إن قتلوكم؛ فذلك تطهير لكم، وإن قتلتموهم فذلك محق لهم واستتصال .

قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أى : [أحسبتم] (٥) ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أى : ولم يعلم الله الذين وقع منهم الجهاد، ﴿ويعلم الصابرين﴾ .

قوله تعالى : ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ سبب نزول الآية أن الذين تخلفوا من حرب بدر من المسلمين قالوا لما انقضت حرب بدر : لو كان لنا يوم مثله فنقاتل ونقتل ونستشهد، فلما كان يوم أحد انهزموا، وهربوا؛ فنزلت الآية .

﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ أى : سبب الموت وهو الجهاد؛ إذ لا يجوز أن يتمنى الموت بقتل الكافرين ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أى : تلقون سببه من الجهاد ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾، فإن قيل : ما معنى قوله : ﴿وأنتم تنظرون﴾، وقد قال : ﴿فقد رأيتموه﴾؟ (قيل) : (٦) يحتمل [أن تكون] (٧) الرؤية بمعنى العلم؛ فقال :

(٢) ليست فى «ك» .

(١) آل عمران : ١٢٧ .

(٣) فى «الأصل وك» : التلخيص .

(٤) ليست فى «الأصل»، ولا «ك» .

(٥) فى «الأصل وك» : حسبت .

(٦) ليست فى «ك» .

(٧) ليست فى «الأصل»، ولا «ك» .

مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ المراد بالرؤية هاهنا: التفكير، قاله الأخفش، وقيل: إنما قاله تأكيداً، وقيل: معناه: وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ سبب نزول الآية أن المسلمين يوم أحد لما وقعت الهزيمة عليهم، ووقع القتل فيهم؛ صاح الشيطان - عليه ما يستحق - : أَلَا إِنْ مُحَمَّدًا [قَدْ] ^(١) قُتِلَ، فقال المسلمون: خذوا لنا الأمان من أبي سفيان، وقال من كان في قلبه نفاق: ارجعوا إلى دينكم الأول، فإن محمداً قد قتل؛ فنزل قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ يعني: هو على رسالته ونبوته مات أو قتل، فلمْ انقلبتم على أعقابكم؟! ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى: إنما ضر نفسه، ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

وروى: أن [أنس بن النضر] ^(٢) «لما سمع قول الشيطان: إِنْ مُحَمَّدًا قُتِلَ، اخترط سيفه وتوجه إلى الكفار، وقال: إِنْ قَاتَلَ مُحَمَّدٌ وَقُتِلَ، ووصل إلى ما وصل، فأنا أقاتل حتى أقتل، وأصل إلى ما وصل إليه، فقاتل حتى قتل».

وقال كعب بن مالك: أنا أول من رأى رسول الله ﷺ يوم أحد بعد صياح الشيطان، عرفته بعيني تحت المغفر، فقلت: هذا رسول الله ﷺ حى، فأشار إلىَّ أَنْ اسْكُتَ ^(٣).

(١) من «ك».

(٢) فى «الأصل وك»: النضر بن أنس. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وهو عم أنس بن مالك، انظر ترجمته فى الإصابة (٨٤/١).

(٣) ذكره ابن هشام فى سيرته (٢٦/٣): قال ابن إسحاق: ذكر لى ابن شهاب الزهري، يعنى مرسلاً.

مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ
مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي

قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ تقديره: وما كانت نفس
لتموت إلا بإذن الله بقضائه وقدره ﴿كتابا مؤجلا﴾ تقديره: كتب كتابا مؤجلا .

﴿ومن يرد ثواب الدنيا نُؤْتِه مِنْهَا﴾ فإن قيل: نحن نرى من يريد الدنيا، فلا يؤتى؟
قيل: معناه: لا يمنع عنه ما قدر له من ثواب الدنيا بسبب كفره .

﴿ومن يرد ثواب الآخرة نُؤْتِه مِنْهَا﴾ فإن قيل: وهل يؤتى ثواب الآخرة بمجرد
الإرادة؟ قيل معناه: ومن يرد بالعمل، وهذا كما يقال: فلان يريد الجنة، أى: يعمل
للجنة ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ يعنى: المؤمنين، قال على - رضى الله عنه -: أبو
بكر إمام الشاكرين . أى: إمام المؤمنين، رضى الله عنه .

قوله تعالى: ﴿وكأين من نبى [قاتل] (١) معه ريبون كثير﴾ أى: وكم من نبى قُتِلَ
قال جرير:

وكأين بالأباطح من صديق يرانى إن أصبت هو المصابا

قال عكرمة: هذا وقف تام، ومعناه: كم نبى قُتِلَ ومعه أصحابه .

﴿فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله﴾ أى: ما جبنوا ﴿وما ضعفوا وما
استكانوا﴾ أى: ما ذلوا، وما خضعوا، وقال الحسن: ما قتل نبى فى معركة قط، وإنما
معنى الآية: وكأين من نبى قُتِلَ معه ريبون كثير، وأما القراءة الأخرى: «قاتل معه
ريبون كثير» فمعناه ظاهر، وأما الريبون قال ابن مسعود: هم ألو، وقيل: هم عشرة
آلاف . قال الحسن: الريبون من العلماء مأخوذ من الرب؛ لأنهم على دين الرب وطريقه .

قوله تعالى: ﴿والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا
ذنوبنا﴾ أى الصغائر ﴿وإسرافنا فى أمرنا﴾ أى الكبائر، ﴿وثبت أقدامنا وانصرنا على
القوم الكافرين﴾ .

(١) فى «الأصل وك»: قتل، وهى قراءة نافع، وابن كثير، ويعقوب، وأبو عمرو . انظر النشر (٢/ ٢٤٢) .

أَمْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا

قوله تعالى: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ يعنى (النصرة) (١) والغنيمة.

﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ قال ابن عباس: هو أن الله ينزل النبى وأصحابه فى قباب من در وياقوت حتى يفصل بين الخلق، وقيل: حسن ثواب الآخرة: أن يجازيهم على عملهم ويزيدهم من فضله ﴿والله يحب المحسنين﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى: اليهود والنصارى ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ يعنى: إلى اليهودية والنصرانية.

وقيل: أراد به المنافقين الذين قالوا يوم أحد: ارجعوا إلى دينكم الأول؛ فإن محمدا قد قتل، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يردوكم على أعقابكم فتنبطوا خاسرين﴾ أى: مغبونين. ﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾.

قوله تعالى: ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ يعنى: الخوف، قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (٢) ﴿بما أشركوا بالله﴾ أى: بشركهم بالله ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ أى: الذى لم ينزل به حجة، والسلطان: الحجة، قال الله تعالى ﴿هلك عنى سلطانيه﴾ (٣) أى: حجتى.

﴿ومأواهم النار﴾ مكانهم النار ﴿وبعس مثنوى الظالمين﴾ سبب نزول الآية: أن الهزيمة لما وقعت على المسلمين يوم أحد، ووقع القتل فيهم، تشاور المشركون فيما بينهم، وأجمعوا على أن يعودوا للقتال، فيستأصلوا محمدا وأصحابه فألقى الله تعالى الرعب فى قلوبهم، فمروا على وجوههم لايلوون على شىء حتى بلغوا مكة، فذلك قوله تعالى: ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾.

(١) فى «ك»: النصر.

(٢) متفق عليه من حديث جابر، رواه البخارى فى صحيحه (١/٥١٩ رقم ٣٣٥)، ومسلم (٥/٥٠٥ رقم ٥٢١).

(٣) الحاقة: ٢٩

وَمَا وَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ

قوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ أي : وعده صدقكم بالظفر والنصرة ؛ وقد كانت النصرة في الابتداء للمسلمين يوم أحد ﴿ إذ تحسونهم بإذنه ﴾ أي : تقتلونهم بقضاء الله وقدره ، والحس : القتل ، ومنه قول الشاعر :

تَحُسُّهُمْ السُّيُوفُ كَمَا تَسَامَى
لهيبُ النارِ في أجَمِ الحَصِيدِ

﴿ حتى إذا فشلتكم ﴾ أي : جبنتم ، ﴿ وتنازعتكم في الأمر ﴾ تقديره : حتى إذا فشلتكم ، تنازعتكم في الأمر ، و« الواو » زائدة قاله الفراء ، وقيل : فيه تقديم وتأخير وتقديره : حتى إذا تنازعتكم في الأمر ، فشلتكم ﴿ وعصيتكم من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ يعنى : من الظفر والغنيمة .

﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ ؛ لأنهم اختلفوا على ما سذكروا ثم صرفكم عنهم ليبتلبيكم ﴾ أي : [كف] ^(١) أيديكم عنهم ؛ ليمتحنكم ، وقيل : لينزل البلاء عليكم ، ﴿ ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ ، والقصة في ذلك : « أن رسول الله ﷺ رأى في منامه : أنه لبس درعا حصينة حين نزل المشركون بأحد ؛ فأولها على المدينة ، وشاروا أصحابه في الخروج إلى أحد ، فقالوا : إن هذه بلدة ما دخل علينا فيها أحد ، ولا تبع حتى قدم وحتى يخرج إليهم ، فلبس رسول الله درعين ، ووضع المغفر على رأسه ، وخرج ؛ فندموا وعلموا أنه كان مراده أن يقيم ، فقالوا : يارسول الله ، (إنا) ^(٢) تبع لرأيك ، وطلبوا منه أن يرجع إن شاء ، فقال : ما كان لنبي إذا لبس لامته أن ينزعها حتى يقاتل ، أو يحكم الله .

ومضى معه ألف نفر ، فانخذل عبد الله بن أبي بن سلول [وأصحابه] ^(٣) بثلاث الجيش ثلاثمائة نفر ، وبقي سبعمائة ، فلما وصل إلى أحد بعث قوما من الرماة ، وأجلسهم على موضع من جبل يخاف منه الكمين ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير الأنصاري .

(١) في «الأصل وك» : كَيْفَ .

(٢) ليست في «ك» .

(٣) من «ك» .

الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ

ثم ابتداء القتال مع المشركين، فظفر عليهم، وقتل جماعة من رؤسائهم، وانهزموا، ولاح الظفر للمسلمين، وساروا في أثرهم للغنيمة، فلما رآه الرماة، فقالوا: إن المشركين قد انهزموا، ولاح الظفر حتى نسير على أثرهم؛ ونغنم، فقال عبد الله بن جبير: لا تفارقوا هذا المكان؛ فإن رسول الله ﷺ أمركم أن تلمزوا هذا المكان، فالزموه، فاختلفوا عليه، وذهب أكثرهم، وبقي عبد الله بن جبير مع نفر قليل من أصحابه.

فلما عرى موضع الكمين عن الرماة، خرج عليهم خالد بن الوليد من الكمين، وحمل عليهم بالقتل، فاستشهد عبد الله بن جبير، ومن بقى معه، وعاد المشركون للقتال، ووقع القتل في المسلمين، وقتل منهم سبعون نفرا، وانهزم الباقون، وبقي مع رسول الله ﷺ نفر قليل، فذلك قوله ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أى: في الابتداء بالظفر والنصرة ﴿إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر﴾ يعنى: أولئك الرماة الذين اختلفوا، ﴿وعصيتم﴾ يعنى: عصيتم الرسول، وخالفتم أمره ﴿من بعد ما أراكم﴾ يعنى: من بعد أن أراكم الله تعالى ﴿ما تحبون﴾ من الظفر ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ هم الذين ذهبوا للغنيمة، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾: الذين صبروا مع عبد الله بن جبير^(١).

قال ابن مسعود: ما علمنا أن أحدا منا يريد الدنيا حتى أنزل الله هذه الآية.

﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ يعنى: في الوقعة الثانية حين عاد المشركون، وهذا دليل لأهل السنة على: أن أفعال العباد مخلوقة؛ حيث نسب الله تعالى هزيمة المسلمين إلى نفسه مع وقوع الفعل منهم، فقال: ﴿ثم صرفكم عنهم﴾.

قوله تعالى: ﴿إذ تصعدون﴾ ويقرأ: بفتح التاء والعين^(٢). فالإصعاد: هو المشى في مستوٍ من الأرض، والصعود: المشى في مرتفع من الأرض.

(١) أورده السيوطي في الدر مطولا (٧٥/٢ - ٧٦) وعزاه لابن إسحاق وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر

عن جمع، كل قد حدث ببعض الحديث عن يوم أحد وانظر ابن جرير (٨١ / ٤ - ٨٥).

(٢) هي قراءة أبي رجاء العطاردي، وأبي عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقتادة بفتح التاء، والعين، يعنى

تَصْعَدُونَ الجبل. انظر تفسير القرطبي (٢٣٩/٤).

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

والخطاب مع المسلمين الذين انهزموا، بقوله: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أى: لاتعرجون، ولا تلتفتون إلى أحد، ثم منهم من قال: (أراد بالأحد: (١) الرسول، ومنهم من قال: معناه: لاتلوان على أحد من الناس.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ يعنى: فى آخر الجيش، وكان يدعوهم: «عباد الله، إلىّ إلىّ، أنا رسول الله، فلم يلتفتوا إليه، ومضوا» (٢).

﴿فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أى: جازاكم، ثم اختلفوا، منهم من قال: الغم الأول: هو القتل، والهزيمة التى وقعت على المسلمين، والغم الثانى: هو الإرجاف من قول الشيطان: إن محمداً قد قتل. وقيل: [إن] (٣) الغم الأول: هو القتل والهزيمة، والغم الثانى: هو فوات الظفر على العدو.

وقال الزجاج: معناه: أنهم غموا الرسول بمخالفة أمره؛ فجازاهم الله تعالى بذلك الغم غم القتل والهزيمة؛ وإنما سمّاه ثواباً؛ لأنه وضعه موضع الثواب، كما قال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤) سمى العذاب: بشارة؛ لأنه وضعه موضع البشارة ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والهزيمة، منعهم الله تعالى من الحزن على شىء ابتلاهم الله به، ووعد الثواب عليه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً﴾ قيل: الأمن والأمنة (٥) بمعنى

(١) فى «ك»: أن الأحد.

(٢) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١/٦١٠ رقم ١٦٦٣) عن الحسن مرسل بنحوه، ورواه ابن جرير (٤/٨٧ - ٨٨) عن ابن عباس، وليس فيه «فلم يلتفتوا ومضوا». وعزاه السيوطى فى الدرر (٢/٩٧) أيضاً لابن المنذر عن ابن عباس. ورواه ابن جرير أيضاً عن قتادة، وعطية العوفى، والسدى بنحو رواية ابن عباس.

(٣) من «ك».

(٤) آل عمران: ٢١، والتوبة: ٣٤، والإنشقاق: ٢٤.

(٥) وقع سقط كبير من الأصل مقداره (٤ ورقات) من هذا الموضع، واعتمدنا على النسخة «ك» فقط فى ضبط النص. وسنبيّنه على آخر السقط فى موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفِّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ

واحد، وقيل: يكون مع (زوال سبب الخوف) (١)، فأما ها هنا فقال: ﴿أمنية ناعسا يغشى طائفة منكم﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: ناعسا أمانة، وقيل: هو على نظمه مستقيم، ومعنى الآية: أن الله تعالى أراد تمييز المؤمنين من المنافقين، فأوقع النعاس على المؤمنين أمانة لهم، حتى أمِنُوا، ولم يوقع على المنافقين فبقوا على الخوف.

قال أبو طلحة: أوقع الله تعالى علينا النعاس ونحن تحت الحجر.

وقيل: أوقع النعاس عليهم حتى كان يُسْقِطُ السيوف من أيديهم، وكذلك عبد الرحمن بن عوف والزبير أخبرا عن ذلك النعاس، كما أخبر أبو طلحة.

وعن الزبير أنه قال: لما أوقع الله النعاس علينا، سمعنا معتب بن قشير يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، وكنت كأني في النوم أسمع، فذلك قوله: ﴿يغشى طائفة منكم﴾ يعني: المؤمنين ﴿وطائفة قد أهتمتهم أنفسهم﴾ يعني: المنافقين ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ قال: ﴿قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾.

ثم فسر ذلك فقال: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

أى: خرج الذين كتب عليهم القتل إلى مصارعهم للموت، وفي هذا دليل على أن الأجل في القتل والموت واحد، كما قال أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾.

(١) في «ك»: سبب زوال الخوف، وما أثبتناه هو الصواب.

اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيْمَحْصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ . يعنى : الذين انهزموا من المسلمين يوم أحد؛ فإنه لما وقعت الهزيمة على المسلمين انهزم أكثرهم، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا أربعة عشر نفرا : سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، وقيل : ثلاثة عشر، ستة من المهاجرين وهم أبو بكر، وعمر، وعلى، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص .

وفى الرواية الأولى : كان السابع الزبير، وكان طلحة أشد نكاية فى الكفار يومئذ . وقيل : إن يوم أحد لطلحة، وقيل : إنه كان وقاية رسول الله ﷺ وكان قد ضُربَ على يده فشُلَّت وبقيت كذلك .

وأما سعد وهو راميه، وكان يرمى بين يديه، ويقول له الرسول : «ارم، فذاك أبى وأمى»^(١)

وأما الذين انهزموا، فقد لحق بعضهم بالمدينة منهم عثمان، ورجع بعضهم على الطريق منهم عمر؛ فذلك قوله : ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أى : طلب زلتهم، يقال : استعجل فلانا، أى : طلب عجلته، ومعناه : أن الشيطان استزلهم حتى انهزموا .

وقوله ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ يعنى : من مخالفة الرسول ﷺ ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم ﴿قال الزجاج : كان سبب انهزامهم : أن الشيطان وسوس إليهم : إن عليكم ذنوبا؛ فكرهوا القتل قبل أن يتوبوا من الذنوب؛ فذلك قوله : ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ .

(١) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص، وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما . فرواه البخارى (٦ / ١١٠) رقم

٢٩٠٥ وأطرافه فى ٤٠٥٨، ٤٠٥٩، ٦١٨٤)، ومسلم (١٥ / ٢٦١ - ٢٦٢، رقم ٢٤١١) من حديث على .

ورواه البخارى (٧ / ١٠٤) رقم ٣٧٢٥، وأطرافه فى ٤٠٥٥، ٤٠٥٦، ٤٠٥٧)، ومسلم (١٥ / ٢٦٣) رقم ٢٤١٢ من

حديث سعد بن أبى وقاص .

اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ

روى: «أن رجلا جاء إلى ابن عمر - وقيل: إلى ابن عباس، [و] (١) الأصح إلى ابن عباس (٢)، وقال: أليس عثمان لم يشهد بدرا؟ قال: نعم. فقال: أليس لم يشهد بيعة الرضوان؟ قال: نعم، قال: أليس انهزم يوم أحد؟ قال: نعم. فقال الرجل: الله أكبر.

فعرف ابن عباس أنه أراد النقص؛ فدعاه، قال: أما يوم بدر؛ فإن النبي ﷺ كان قد خلفه على ابنته، وكانت مريضة وقال له: لك أجر واحد ممن شهد، وسهم واحد ممن شهد، وهو بدرى بقول الرسول.

وأما بيعة الرضوان، فقد كان الرسول ﷺ بعث عثمان إلى مكة رسولا، ولو كان بينهم في الوادي أعز منه لبعثه، ولما بايعهم ضرب رسول الله ﷺ بشماله على يمينه، وقال: هذه يد عثمان، وهذه يدي، أما انهزامه يوم أحد، فقد عفا الله عنه، ولا عيب في شيء عفا الله عنه» (٣)

فصل

«وأما ما أصاب رسول الله ﷺ يوم أحد، فإنه كان قد هشت البيضة التي كانت على رأسه، وأدّى وجهه، وكسر [ثنيته] (٤)؛ فجاء إلى المدينة فكانت فاطمة تغسل وجهه، وعلى - رضى الله عنه - يأتي بالماء في المجن، وكان يغلب الدم، حتى أحرقت حصيرا، فلما صار رمادا، جعلوه في الجراحة فاستمسك الدم» (٥).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى: المنافقين

(١) ليست فى «ك»، والسياق يقتضيها.

(٢) بل الصحيح أنه جاء إلى ابن عمر كما سيأتى تخريجه عند البخارى فى صحيحه.

(٣) رواه البخارى (٢٧١/٦ رقم ٣١٣٠)، والترمذى (٥٨٧/٥ - ٥٨٨ رقم ٣٧٠٦) وأحمد (١٠١/٢)،

(١٢٠)، والطيالسى (ص ٢٦٤ رقم ١٩٥٨) كلهم من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٤) فى «ك»: جبينه، وهو تصحيف.

(٥) متفق عليه من حديث سهل بن سعد، رواه البخارى فى صحيحه (١/٤٢٢ رقم ٢٤٣)، وأطرافه فى ٢٩٠٣،

(٢٩١١، ٤٠٧٥، ٥٧٢٢)، ومسلم (١٢/٢٠٥ - ٢٠٧ رقم ١٧٩٠).

اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتِمْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتِمْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتُمْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

﴿وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض﴾ أراد: إخوانهم في النسب، لا في الدين ﴿ضربوا في الأرض﴾ أى: سافروا ﴿أو كانوا غزى﴾ جمع غاز ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ وهذا قول المعتب بن قشير، وعبد الله بن أبي بن سلول، وجد بن قيس؛ ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير﴾.

قوله تعالى: ﴿ولئن قُتِلْتُمْ في سبيل الله أو مُتِمْتُمْ﴾ أى: لئن خرجتم، فقتلتم، أو لم تخرجوا، فمتتم ﴿لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ من الدنيا ويطلبون الحياة لأجله.

قوله تعالى: ﴿ولئن مُتِمْتُمْ أو قُتِلْتُمْ إلى الله تحشرون﴾ يعنى: كيفما خرجتم من الدنيا، فحشركم إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله﴾ أى: فبرحمة، و«ما» للصلة، ﴿لَنْتُمْ لَهُمْ﴾ وهذه صفة المؤمنين، وقد قال ﷺ: «المؤمنون هينون لينون، كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أنخ على صخرة استناخ» (١).

﴿ولو كنتم فظا﴾ وهو الجافى ﴿غليظ القلب﴾ أى: قاسى القلب ﴿لأنفصوا﴾ لتفرقوا ﴿من حولك﴾.

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٧٩) والقضاعي في الشهاب (١/ ١١٤ - ١١٥ رقم ١٣٩) من حديث عبد الله بن عمر. وقد ساقه العقيلي في ترجمة عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد عن أبيه، وقال: أحاديثه عن أبيه مناكير غير محفوظة أ.هـ.

ورواه ابن المبارك في الزهد (ص ١٣٠ رقم ٣٨٧) والقضاعي في الشهاب (١/ رقم ١٤٠) عن مكحول مرسلاً.

ورواه أحمد في الزهد (٣٨٦ - ٣٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٨٠) عن مكحول قوله.

وللحديث شاهد من حديث العرياض بن سارية، رواه ابن ماجة (١/ ١٦ رقم ٢٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦) وغيرهما.

عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ﴿١٦٢﴾ المشاورة هى استخراج الرأى، وكانت المشاورة جائزة للنبي ﷺ فى أمور الدنيا، فأما فى أمور الدين فعلى التفصيل، إن كان فى شيئين يجوز كلاهما، جازت المشاورة، كما شاورهم فى أسارى بدر، حيث كان يجوز القتل والفداء.

والثانى: فى أمور ثبتت نصاً، كالصوم والصلاة، لا تجوز فيها المشاورة.

الثالث: فى شىء لانس فيه، فهو بناء على أن اجتهاده هل كان سائغاً أم لا؟ فإن ساغ اجتهاده، جازت مشاورته، وإلا فلا.

ولأى كان يشاور؟ قال الضحاك: ليقتردى به، وليستن بسنته، وهو قول سفيان الثورى، وقال قتادة: تطيباً لقلوبهم.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا تتوكل على المشاورة، وإنما توكل على الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الخذلان: الامتناع عن النصرة عند الحاجة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ يقرأ بقراءتين^(١)، فمن قرأه: بفتح الياء وضم الغين، فمعناه: أن يخون.

قال ابن عباس: سبب نزول الآية: أنه يوم بدر فقدت قطيفة حمراء، فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: الرسول أخذها؛ فنزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

وقال محمد بن كعب القرظى: معناه: وما كان لنبي أن يكتسب شيئاً من الوعى، ويخون فيه.

وفيه قول ثالث: «أن النبي ﷺ كان قد بعث طلّاع، فهم ألا يعطيهم من الغنائم

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بفتح الياء وضم الغين، وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح الغين. انظر النشر

﴿١١﴾ أَقْمَنَ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ

شيئا؛ فنزل قوله: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾^(١) قال قتادة: أن يخان منه، أي: لا تخونوه، وقيل معناه: أن ينسب إلى الغلول، وقيل معناه: أن يلقي غلا، وهذا غريب من معنى القراءة الأولى. والغُلُول: الخيانة، والغُل: الحقد، والغَلَل: الماء الذي يجري بين الشجر، ومنه قول الشاعر:

لَعِبَ [السُّيُولُ]^(٢) به فأصبح مأوه غَلَلًا [يخلل]^(٣) في أصول
الخُرُوع

وفى الخبر: أن النبي ﷺ قال: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ونصيحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»^(٤).

﴿ومن يغفل﴾ أي: ومن يخن ﴿يأت بما غل يوم القيامة﴾ قيل: يأتي ما غل بعينه يوم القيامة، وذلك معنى قوله ﷺ فيما روى عنه: «لألقين أحدكم يوم القيامة، وعلى رقبته فرس له حمحة قد غله، فيقول: يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أغني عنك من الله شيئا، ألا قد بلغت، ولألقين أحدكم يأتي يوم القيامة، وعلى رقبته شاة لها ثغاء، قد غلها، فيقول يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أغني عنك من الله شيئا، ألا قد بلغت، ولألقين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته بعير له رغاء، قد غله، فيقول: يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أغني عنك من الله شيئا ألا قد بلغت»^(٥).

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/٤١٣ رقم ١٥٠٧٨)، وابن جرير (٤/١٠٣) عن الضحاك مرسلًا إلا أنه قرأ: «وما كان لنبي أن يغفل».

(٢) في «الأصل وك»: السيف، وما أثبتناه من لسان العرب (مادة: غلل) وفيه أيضًا: يُقَطَّع في أصول الخروع بدلًا من يُخلل.

(٣) كذا في «الأصل وك» وفي لسان العرب.

(٤) رواه ابن ماجه (١/٨٤ رقم ٢٣٠)، وأحمد (٥/١٨٣)، والدارمي (١/٨٦ - ٨٧ رقم ٢٢٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٥/٤٥ رقم ٩٤)، والطبراني في الكبير (٥/١٤٣ رقم ٤٨٩٠)، و (١٥٤ - ١٥٥ رقم ٩٢٥) وابن حبان في صحيحه (١/٢٧٠ رقم ٦٧)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/٣٨ - ٣٩) كلهم من حديث زيد بن ثابت.

قال ابن أبي عاصم: وفيه عن جبير بن مطعم، وابن مسعود، ومعاذ، وأنس.

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة. رواه البخاري (٦/٢١٤ - ٢١٥ رقم ٣٠٧٣)، ومسلم (١٢/٢٩٩ - ٣٠٠ رقم ١٨٣١).

﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ

والقول الثانى : أنه أراد به : يأتى بإثم ما غل يوم القيامة، وفى الخبر: « أن رجلا كان على ثقل^(١) رسول الله ﷺ، فاستشهد فقال الناس هو فى الجنة، فقال النبى ﷺ : هو فى النار؛ فَطُلِبَ، فإذا هو قد غلَّ عباءة من المغنم. » (٢)

﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ أى : جزاء ما كسبت، فالجزاء مضمرة فيه وهم لا يظلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ يعنى : ترك الغلول ﴾ كمن باء بسخط من الله ﴾ يعنى : بالغلول، وقيل معناه : أفمن اتبع رضوان الله بموافقة الرسول، كمن باء بسخط من الله بمخالفة الرسول ﴾ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ قال مجاهد : لهم درجات عند الله، يعنى : المؤمنين، وقال غيره : تقديره : هم ذُؤُوا درجات عند الله، يعنى : المؤمنين والمنافقين، فالْمُؤْمِنُونَ ذُؤُوا الدرجات الرفيعة، والمنافقون ذُؤُوا الدرجات الخسيسة، ومثله قول الشاعر :

أَنْصَبَ لِلْمَنِيَّةِ تَعْتَرِيهِمْ رَجَالِي، أَمْ هُمُورُ دَرَجِ السَّيُولِ (٣)

أى : ذُؤُوا درج السيول . ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾

قوله - تعالى - : ﴿ لقد مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : أنعم، والمنة : النعمة، والمن : القطع؛ ومنه قوله - تعالى - : ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ (٤) أى : غير مقطوع، وسُميت النعمة منة، لأنها مقطوعة عن الحن والشدائد .

وقوله تعالى : ﴿ إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ قيل : هذا فى العرب خاصة؛

(١) قال ابن الأثير هو : متاع السفر . انظر النهاية (مادة : ثقل) .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٦/ ٢١٦ رقم ٣٠٧٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٠ رقم ٢٨٤٩) وابن أبى شيبه

(١٢/ ١٥٣٧٣)، وسعيد بن منصور فى سننه (٢/ ٣ رقم ٢٧٢٠) جميعهم من حديث عبد الله بن عمرو،

ووقع عند ابن أبى شيبه : عبد الله بن عمر، وهو تصحيف .

(٣) فصلت : ٨

(٤) كذا وقع البيت فى لسان العرب « مادة : درج » وعزاه ابن منظور لسيبويه . وفى « ك » وقع تحريف كثير فى البيت .

بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

لأن الرسول بُعث من بنى إسماعيل إلى العرب، وقيل: هو على العموم فى حق الكافة؛ فإنه بعث بشراً مثلهم.

وموضع المنة فى بعثه من أنفسهم للعرب: أنه كان شرفاً لهم، حيث بعث الرسول منهم، وأيضاً فإن القرآن نزل بلسان العرب؛ إذ كان الرسول عربياً، وكان التعلم أسهل عليهم؛ لكونه أقرب إلى أفهامهم، فالمنة فى السهولة عليهم، ولأنه لما نشأ فيهم، وعرفوا صدقه وأمانته، وكان أمياً مثلهم ما كان يحسن الخط، ولا يعلم شيئاً، ولا سافراً، ثم أتى بكتاب يخبر عن القرون الماضية وقصص الأولين، ووافق الكتب المنزلة قبله، كان أقرب إلى قلوبهم، فكان يسهل طريق الإيمان عليهم.

وقوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى: يشهد بتزكية سائر الأمم، ويجعلهم أذكىاء، وقيل: يطهرهم من الذنوب ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ يعنى: القرآن ﴿والحكمة﴾، قال ابن عباس: الفقه والشرائع، وقال غيره: الحكمة: السنة.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: ما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ يعنى: يوم أحد ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ يعنى: يوم بدر: نزلت الآية فى تسليّة المؤمنين، وذلك: أن يوم أحد قتل من المسلمين سبعون، وقد أصاب المسلمون منهم يوم بدر سبعين بالقتل، وسبعين بالأسر، فذلك مثلهم، فجعل الأسر مثل القتل؛ حيث جعل القتلى والأسرى يوم بدر مثلى قتلى أحد.

﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ من أين هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أى: بمخالفة الرسول منكم. وعن عمر - رضى الله عنه - أنه قال فى تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أى: باختياركم الفداء؛ وذلك أن النبى ﷺ خير المسلمين يوم [بدر] ^(١) فى الأسارى بين القتل والفداء، وقال لهم: «إن اخترتم الفداء أصيب

الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ

منكم بعدتهم في العام القابل، فاختراروا الفداء، وقالوا: نتقوى به على العدو، ويستشهد منا» (١) فذلك قوله: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أى: باختياركم، وهو قول على - رضى الله عنه - ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾.

قوله تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان﴾ يعنى: يوم أحد ﴿فبإذن الله﴾ أى: بعلم الله، وروى «أنه ﷺ - لما نزل المشركون بأحد رأى فى منامه أن بقرا ينحر» (٢)، فأوله على أن يستشهد بعض أصحابه. ورأى أن سيفه ذا الفقار انقصم فأوله على قتل حمزة، ورأى كأن كبشا أغبر قتل فأوله على قتل مبارز الكفار، فقتل يوم أحد مبارزهم عثمان بن طلحة العبدري من بنى عبد الدار» (٣).

﴿وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا﴾ يعنى: علم المشاهدة، وإن كان علمهم علم الغيب.

﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا﴾ قائل ذلك القول: عبد الله بن حرام أبو جابر، قال للمنافقين: قاتلوا فى سبيل الله، وإن لم تقاتلوا لأجل الدين، فادفعوا عن الأهل والحريم.

﴿قالو لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ فرجعوا وهم يقولون: لاقتال، لا قتال؛ حتى يفشل المسلمون ﴿هم لل كفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ يعنى: بعد رجوعهم ومقاتلتهم تلك؛ لأنهم كانوا من قبل من المؤمنين فى الظاهر؛ وإن كانوا منافقين فى الباطن، فلما فارقوا المؤمنين صاروا أقرب إلى الكفر منهم للإيمان.

(١) رواه الترمذى (١١٤/٤ - ١١٥ رقم ٥٦٧)، والنسائى فى الكبرى (٢٠٠/٥ رقم ٨٦٦٢) والطبرى فى التفسير (١١٠/٤)، والبزار فى مسنده (١٧٦/٢ رقم ٥٥١)، والدارقطنى فى العلل (٣١-٣٣) كلهم من طريق عبدة السلماني عن على. ورواه ابن أبى شيبه (٣٦٨/١٤ رقم ١٨٥٣٣)، والطبرى (١٨٠/٤) عن عبدة مرسلًا، وقال الدارقطنى فى العلل: والمرسل أشبه بالصواب.

(٢) هذا آخر موضع السقط الكبير الذى وقع فى النسخة «الأصل» والذى استدركناه من النسخة «ك».

(٣) متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى بنحوه رواه البخارى (٧٥/٦ رقم ٣٦٢٢)، وأطرافه فى ٣٩٨٧، ٤٠٨١، ٧٠٣٥، ٧٠٤١) ومسلم (٤٥/١٥ - ٤٦ رقم ٢٢٧٢)، وفى الباب عن ابن عباس وأنس وجابر.

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾ .

قوله تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ يعني: في النسب لا في الدين، وهم المنافقون، قالوا للمسلمين: لو قعدوا (كما قعدنا لما قتلوا) (١)، كما لم نقتل، فذلك قوله: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ يعني: إن قدرتم على دفع القتل، وتقدرون على دفع الموت، فادفعوا الموت عن أنفسكم. والدرء: الدفع، ومنه قول الشاعر:

أَقُولُ وَقَدْ دَرَأْتُ لَهَا وَضِيئِي أَهَذَا دِينُكُمْ أَبَدًا وَدِينِي (٢)؟

قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أَمْواتًا﴾ سبب نزول الآية: أن أصحاب رسول الله ﷺ لما استشهدوا يوم أحد، كان الناس يقولون: مات فلان؛ ومات فلان، فنزل قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قيل معناه: يؤولون أحياء يوم القيامة. إلا أن هذا ضعيف؛ لأنه لا يبقى لهم فيه تخصيص، والأصح: أنه على معنى ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلف من ثمار الجنة - وفي رواية: تأكل، وفي رواية: تسرح في الجنة فترد مياهاها - ثم تأوى إلى قناديل من ذهب معلقة من العرش» ورواه مسلم في صحيحه، وزاد «إن الله تعالى اطلع عليهم اطلاعة، فيقول: تمنوا علي، فيقولون: ماذا نتمنى وقد أعطينا هذا؟! فيقول: تمنوا علي، فيقولون: وماذا نتمنى وقد أعطينا هذا؟! فيقول: تمنوا علي، فيقولون: نتمنى أن نرد إلى الدنيا ونقتل في سبيلك ثانيا» الحديث (٣).

(١) في «ك»: كما قعدوا لقتلنا.

(٢) هكذا وقع البيت في «الأصل وك»، وفي لسان العرب (مادة: وذن):

أهذا دأبه أبداً ودينى؟

تقول إذا درأت وضيئى

(٣) تقدم تخريجه.

وعزاه للمثقب العبدى

فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

وفى رواية ثالثة: «أن النبي ﷺ رأى جابرا حزينا، وقتل أبوه عبد الله بن حرام يوم أحد، فقال: ما لى أراك حزينا، إن الله تعالى لم يكلم أحدا، إلا من وراء حجاب، وقد كلم أباك كفاحا، فقال: تمن على ..» (١) الحديث.

وروى: «أن شهداء أحد قالوا: من يبلغ نبينا وإخواننا ما وصلنا إليه؟ فقال الله تعالى: أنا أبلغهم - وفى رواية: أنا رسولكم - وأنزل هذه الآية» (٢).

﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ قيل معناه: أنه يُدْفَعُ إليهم كتاب فيه أسماء إخوانهم الذين يستشهدون من بعدهم، فيستبشرون بهم.

وقوله: ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ وقُدِّرَ عليهم أن يلحقوا بهم. فيه قول آخر، أن الشهداء يقولون: ياليت إخواننا أُصيبوا مثل ما أُصِبْنَا؛ فيصلون إلى ما وصلنا؛ فذلك قوله: ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم﴾ أى: بأن لا خوف عليهم ﴿ولا هم يحزنون﴾.

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ وقيل: أراد بالنعمة: قدر الكفاية، وبالفضل: ما زاد على الكفاية، ومعناه: لا يُضَيَّقُ عليهم، بل يوسِّعُ فى العطاء، وقيل: ذَكَرَ الفضل تأكيداً للنعمة، ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ قرأ ابن مسعود: «والله لا يضيع أجر المؤمنين».

قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ قيل: سبب نزول الآية: أن أبا سفيان

(١) رواه الترمذى (٢١٤/٥ - ٢١٥ رقم ٣٠١٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٦٨/١) رقم ١٩٠، و (٩٣٦/٢) رقم ٢٨٠٠، وأحمد (٢٦١/٣) وابن أبى عاصم فى السنة (٢٦٧/١) رقم ٦٠٢، وابن خزيمة فى التوحيد (٣٧٩) والحميدى فى مسنده (١٢٦٥/٢) رقم ١٢٦٥، وأبو يعلى (٢٠٠٢/٤)، والحاكم (٢٠٠٤/٣) رقم ٢٠٠٤، وصححه وتعقبه الذهبي بأن فيه المفصل بن صدقة، قال النسائى: متروك وابن حبان فى صحيحه (٤٩٠/١٥) رقم ٤٩١ - ٤٩٢، والبيهقى فى الدلائل (٢٩٨/٣) كلهم من حديث جابر، رضى الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (١٥/٣) رقم ٢٥٢٠، وابن جرير (١١٣/٤) من حديث ابن عباس مرفوعاً مطولاً.

ورواه ابن جرير أيضاً عن قتادة، والربيع، والضحاك جميعهم مرسلًا، وعن قيس بن مخزومة مرفوعاً. وعزه السيوطى فى الدر (١٠٦/٢) لآل المنذر، عن محمد بن قيس بن مخزومة مرسلًا.

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

لما رجع إلى مكة يوم أحد، قال الكفار بعضهم لبعض فى الطريق: نرجع؛ فنستأصل محمدا وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: من ينتدب إلى الخروج، فانتدب سبعون نفرا فيهم أبو بكر والزبير.

وقد قالت عائشة لعروة: إن أبويك من الذين استجابوا لله والرسول، وأرادت أن أبا بكر والزبير كانا فى السبعين، فخرجوا إلى حمراء الأسد [وهم] (١) على ثمانية أميال من المدينة، فلما وصلوا (فإذا الله كان قد ألقى) (٢) الرعب فى قلوب المشركين، وكانوا مضوا إلى مكة (٣).

وقال ابن عباس (قولا آخر) (٤): أن أبا سفيان لما أراد أن يرجع يوم أحد، قال: موعدنا وموعدكم العام القابل ببدر، ثم لم يتفق له الخروج فى العام القابل، وخرج رسول الله ﷺ لموعده إلى بدر مع أصحابه، فأولئك الذين استجابوا لله والرسول (٥).

﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾ يعنى: الألم يوم أحد، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ باستجابة الرسول، ﴿واتقوا﴾ يعنى مخالفة الرسول ﴿أجر عظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ هذا قول نعيم بن مسعود الأشجعى، والقصة فى ذلك: «أن أبا سفيان لما لم يتفق له الخروج لموعده ببدر بعث بنعيم بن مسعود الأشجعى إلى المدينة، وقال له: ثبط

(١) كذا فى «ك»، وفى «الأصل»: وهو.

(٢) كذا فى «الأصل»، وفى «ك»: كان الله قد ألقى.

(٣) رواه البخارى بنحوه من حديث عائشة (٦/٤٣٢ رقم ٤٠٧٧)، وبدون ذكره: «فخرجوا إلى حمراء الأسد... إلخ».

ورواه مسلم فى صحيحه (١٥/٢٧٢ رقم ٢٤١٨) مختصراً.

(٤) فى «ك»: قول آخر، وهو خطأ.

(٥) رواه النسائى فى الكبرى (٦/٣١٧ رقم ١١٠٨٣)، والطبرانى فى الكبير (١١/٢٤٧ رقم ١١٦٣٢) من طريق عكرمة،

عن ابن عباس. قال الهيثمى فى المجمع (٦/١٢٤): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور وهو ثقة.

ورواه ابن جرير (٤/١٢٠)، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم - كما فى الدرر (٢/١١٥) - جميعهم عن

مجاهد مرسلًا.

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَنِ اللَّهُ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ

أصحاب محمد عن الخروج؛ كيلا يظنوا أن بنا فشلا ولك عشر من الإبل، فجاء إليهم، وكان النبي ﷺ وصحابته يتهيئون للخروج، فقال لهم: تخرجون إليهم! قد خرجوا إليكم في العام الماضي، وفعلوا بكم ما فعلوا في بيوتكم، والله لو خرجتم إليهم لايعود أحد منكم، فقال ﷺ وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولم يمتنعوا من الخروج» (١).

فقوله: ﴿الذين قال لهم الناس﴾ هو نعيم بن مسعود وحده، هذا قول عكرمة ومجاهد ومقاتل والكلبي، وقال ابن عباس: هو قول نفر قليل من عبد القيس، وقوله: ﴿فزادهم إيمانا﴾ منهم من قال معناه: زادهم إيمانا بتفويضهم، وقولهم: حسبنا الله ونعم الوكيل، وقيل معناه: زادهم يقينا بما وعدهم الله من النصر، ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، قال ابن عباس: وهذا قول إبراهيم حين ألقى في النار، فإنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾ معنى الآية: «أن النبي ﷺ وأصحابه خرجوا الموعد أبي سفيان إلى بدر، وهو مجمع سوق العرب، فلم يلقوا هنالك (أحدا)» (٢) إذ لم يتفق (خروجهم) (٣)، فاتجروا هنالك، وربحوا، وانصرفوا» (٤) فذلك قوله: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾ فالنعمة: العافية، والفضل: ربح التجارة ﴿لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يخوف أوليائه﴾ فالشيطان: كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس، والمراد بالشيطان هاهنا: نعيم بن مسعود، وقيل: هو الشيطان

(١) رواه الطبري (١٢٠/٤) بمعناه، عن ابن عباس. وانظر الدر المنثور (١١٢/٢ - ١١٦).

(٢) في «ك»: أحد، وهو خطأ.

(٣) ليست في «ك».

(٤) تقدم تخريجه في الحديث الذي قبله.

يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ

المعروف؛ فإنه وسوس إليهم: أن لا تخرجوا لذلك الوعد.

وقوله: ﴿يخوف أوليائه﴾ قال إبراهيم النخعي: تقديره: يخوفكم أوليائه أى: من أوليائه، وهم الكفار، وقال أهل المعانى: هو قول حسن.

وقال الفراء: معناه: يخوفكم بأوليائه، وكذا قرأ أبى بن كعب. (ومثله) ^(١) قوله تعالى: ﴿لينذر بأسا شديدا﴾ ^(٢) أى: ببأس شديد، وقال الشاعر:

أمرتكَ الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتكَ ذا مال وذا نسب

أى: أمرتكَ بالخير، فنزع الباء ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾

قوله تعالى: ﴿ولا يحزنك﴾ ويقرأ: «ولا يحزنك» بضم الياء ^(٣)، ومعناها واحد.

﴿الذين يسارعون فى الكفر﴾ يعنى: قول الذين يسارعون فى الكفر.

﴿إنهم لن يضرروا الله شيئا﴾ أى: لن ينقصوا الله شيئا ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة﴾ أى: نصيبا فى الآخرة ﴿ولهم عذاب عظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾ أى: استبدلوا وكل شراء استبدال، وليس كل استبدال شراء ﴿لن يضرروا الله شيئا﴾ أى: لن ينقصوا الله شيئا ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ أى: لا يظنن، من الحسابن: الظن ﴿أنما نملئ لهم خيرا لأنفسهم﴾ الإملاء: إطالة العمر، والإمهال: التأخير، ويقال لليل والنهار: ملوان.

(١) ليست فى «ك».

(٢) الكهف: ٢.

(٣) قرأ نافع بضم الياء، وكسر الزاى، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم الزاى، انظر النشر (٢/ ٢٤٤).

لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا

﴿إنما نملئ لهم ليزدادوا إثما﴾ أى: إنما نطيل عمرهم ليزدادوا إثما. روى الأسود عن ابن مسعود: «ما من أحد إلا والموت خير له؛ برا كان أو فاجرا: أما البر، لقوله تعالى: - ﴿وما عند الله خير للابرار﴾ (١) وأما الفاجر؛ لقوله تعالى: ﴿إنما نملئ لهم ليزدادوا إثما﴾؛ وذلك أنه إذا ازداد إثما اشتدت عقوبته» ﴿ولهم عذاب مهين﴾.

قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ يعنى: على اختلاط المنافقين بكم؛ فإنهم كانوا مختلطين بالمؤمنين ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ قال مجاهد: حتى يميز الكافر من المؤمن، وقال قتادة: حتى يميز المنافق من المؤمن، ويُقرأ: حتى «يُمَيِّز» مشددا (٢) يقال: ماز يَمِيْزُ، وَمِيْزٌ يُمِيْزُ، بمعنى واحد. وفى الحديث: «من ماز أذى من الطريق، فهو له صدقة» ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ سبب نزوله: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، أخبرنا بمن يموت على الإيمان، ومن يموت على الكفر؛ فنزل قوله: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ يعنى: فيطلع على الغيب بما شاء، وهذا كما قال فى آخر سورة الجن: ﴿فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾ (٣) ﴿فأمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم﴾.

قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم﴾ يعنى: هو يكون خيرا لهم ﴿بل هو شر لهم﴾ فى معنى الآية قولان: أحدهما: أنه فى اليهود، حيث كتموا نعت محمد، وبخلوا به؛ فعلى هذا معنى قوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ أى: إثم ما بخلوا به يوم القيامة، والقول الثانى: أن الآية فى

(١) آل عمران: ١٩٨.

(٢) قرأ يعقوب، وحمزة، والكسائى، وخلف بضم الياء الأولى، وتشديد الياء الأخرى وقرأ الباقون بالفتح، والتخفيف. انظر النشر (٢/ ٢٤٤).

(٣) الجن: ٢٦ - ٢٧.

بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

مانعى الزكاة، وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ على حقيقته، وهو معنى ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من منع الزكاة جاء يوم القيامة، فيمثل له ماله شجاعاً أقرع فيطوق في رقبتة، [فينهسه]»^(١) من قرنه إلى قدميه ثم قرأ هذه الآية»^(٢).

﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ فإن قال قائل: كيف يكون له ميراث السموات والأرض؟ قيل: العرب تسمى كل ما انتقل من أحد إلى غيره ميراثاً بأى سبب كان، فلما خلصت السموات والأرض لله تعالى بعد هلاك العباد، سماه ميراثاً، كأنه انتقل منهم إليه ﴿والله بما تعملون خبير﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قيل: سبب نزول الآية: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾^(٣) قالت اليهود: إن الله يستقرض منا أموالنا؛ فإذا هو فقير ونحن أغنياء وما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولكن تمويها على المسلمين، وتشكيكا لهم فيما جاء به محمد رسول الله ﷺ، فنزل قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وفيه قول آخر: أنه عليه [الصلاة و] ^(٤) السلام لما استعان بيهود بنى قينقاع فى الحرب، قالوا: إن الله فقير إذن؛ حيث يستعين بنا فى نصرته دينه، ونحن أغنياء؛ فنزلت الآية.

﴿سنكتب ما قالوا﴾: هو الكتابة فى صحائف الأعمال، وقيل: معناه: نحصى ما قالوا نجازى عليه، ويقرأ: «سَيُكْتُبُ مَا قَالُوا» بضم الياء^(٥). ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ بالرفع^(٦) أى: ويكتب قتلهم الأنبياء ﴿بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أى:

(١) فى «ك»: فينهسه بالشين المعجمة وكلاهما بمعنى واحد.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٣١٥/٣ رقم ١٤٠٣، ٤٥٦٥، ٤٦٥٩، ٦٩٥٧)، والنسائي (٣٩/٥ رقم ٢٤٨٤)، وأحمد (٢٧٩/٢، ٣١٦، ٣٥٥، ٣٧٩، ٤٨٩، ٥٣٠) وابن حبان فى صحيحه (٥٠/٨ رقم ٣٢٥٨).

جميعهم من حديث أبى هريرة مرفوعاً بنحوه.

وفى الباب عن ابن مسعود، وابن عمر، وغيرهم.

(٤) من «ك».

(٥) قرأ حمزة بالياء وضمها، وفتح التاء، وقرأ الباقون بالنون وفتحها، وضم التاء انظر النشر (٢٤٥/٢).

(٦) هى قراءة حمزة - برفع اللام - وقرأ الباقون بفتح اللام على النصب. انظر المصدر السابق.

وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ

بعذاب النار؛ لأن عذاب النار محرق.

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ يعنى : بما قدمتم، وذكر أيديكم تأكيداً.

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ يعنى : أنه يفعل ما يفعل بهم؛ مجازاة لهم على أعمالهم.

قوله تعالى : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ الآية فى اليهود، قال السدى : كان الله تعالى عهد إلى اليهود : أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار سوى عيسى ومحمد ﷺ، فإنه أمرهم أن يؤمنوا بهما من غير هذه الشريطة.

وقال غيره : كانوا يتقربون بالقربان، ثم يأخذون أطايب لحمه، فيضعونها فى بيت، ثم يقوم نبیهم فى ذلك البيت يناجى ربه، فتأتى نار بيضاء لها حفيف من السماء، فتأكله، ويكون ذلك علامة قبول القربان.

﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ﴾ أى : بالدلالات والمعجزات ﴿ وبالذى قُلْتُمْ ﴾ يعنى : من الإتيان بقربان تأكله النار.

﴿ فلم قتلتموهم ﴾ أى : فلم كذبتموهم، وقتلتموهم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى دعوتكم ذلك العهد.

قوله تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات ﴾ أى : بالدلالات والمعجزات ﴿ والزبر ﴾ : جمع الزبور وهو كتاب فيه الحكمة، وبه سمى كتاب داود : زبوراً، وفى مصحف أهل الشام « وبالزبر »^(١).

فإن قال قائل : أى فرق بين الزبر والكتاب ؟ وقد قال : ﴿ والزبر والكتاب المنير ﴾

(١) هى قراءة ابن عامر بزيادة باء بعد الواو انظر النشر (٢/ ٢٤٥).

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ تَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا قِيلَ: الْكِتَابُ اسْمٌ لِمَا كُتِبَ، وَضُمَّ بَعْضُ الْكَلِمَاتِ فِيهِ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الْكُتُبِ (وهو) (١) الضم، وأما الزبر: مأخوذ من الزبر وهو الزجر، فالزبور: كتاب فيه مزاجر.

قوله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ والذوق في الموت مجاز، وحقيقة الذوق: هو الإحساس بالشيء؛ فلما كان يحس بالموت، سماه ذوقاً مجازاً، قال الشاعر:

من لم يمت عِبْطَةً يَمِتْ هَرَمًا الموت كأس وكل الناس ذائقها (٢)

فإن قال قائل: لا يخفى أن كل نفس تموت، فأيش الفائدة في قوله: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾؟ قيل: أراد به: التزهيد في الدنيا، يعنى: أن النفوس إلى الفناء؛ فتزهّدوا في الدنيا، ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾.

﴿فمن زحرج عن النار﴾ أى: نجى، وبعد عن النار ﴿وأدخل الجنة فقد فاز﴾ أى: نجا ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ لأنها تغرّ الإنسان، وهى إلى الانقطاع.

قوله تعالى: ﴿تَبْلُونَ﴾ أى: لتختبرن، وقيل: لتصابن ﴿فى أموالكم وأنفسكم﴾ فى أموالكم بالإنفاق، وأنفسكم بالجهد، وقيل: فى أموالكم (وأنفسكم بالمصائب والأمراض، وقال بعض أصحاب الخواطر: فى أموالكم) (٣) بالمنع عن الحق، وأنفسكم باتباع الهوى.

﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ قال الزهرى: هذا فى كعب بن الأشرف، كان يهجو النبى ويُسَمِّعُ الْمُسْلِمِينَ هَجَاهُ، وقيل: هو قول اليهود: عزيز ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وقيل: هو قول أولئك الذين قالوا: إن الله فقير.

(١) فى «ك»: إلى. وهو خطأ.

(٢) كذا وقع الشطر الثانى فى «الأصل، وك».

وفى لسان العرب (مادة: عبط): للموت كأس والمرء ذائقها.

وعزا البيت لأمية بن أبى الصلت. وفسر «هبطة»: أى: شاباً، وقيل شاباً صحيحاً.

(٣) ليست فى «ك».

فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

﴿وإن تصبروا﴾ يعنى: على الأذى ﴿وتتقوا﴾ يعنى: من مخالفة الرسول ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أى: من حقائق الأمور، وشدائدها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ قيل: أراد به: اليهود، أخذ الله ميثاقهم أن يبينوا نعت محمد للناس ولا يكتُمونه. وقيل: هو فى جميع العلماء، أخذ الله ميثاق العلماء: أن يبينوا العلم للناس ولا يكتُمونه، وفى الحديث: «من سئل عن علم، فكتمه، ألجم بلجام من نار» (١).

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أى: تركوه وراء ظهورهم ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى: الرشاء ﴿فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ يعنى: اليهود، بما أوتوا أى: العلم والكتاب، ولم يقوموا بموجبه وما يقتضيه، وقيل: هو فى المنافقين يفرحون بما أوتوا من التخلف عن رسول الله ﷺ (٢).

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ (يعنى): (٣) بالأعذار الكاذبة، ﴿فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أى: بمنجاة من العذاب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وروى أن مروان بعث إلى عائشة: هلكننا إذن؛ فإننا نفرح بما نأتى، ونحب أن نحمد بما لم نفعل؛ والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فذكرت عائشة أن الآية فى اليهود.

(١) رواه أبو داود (٣٢١/٣) رقم ٣٦٥٨، والترمذى (٢٩/٥) رقم ٢٦٤٩ وقال: حسن، وابن ماجه (٩٦/١) رقم ٢٦١، وأحمد (٢٦٣/٢) رقم ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥، والطيالسى (رقم ٢٥٣٤)، وابن أبى شيبه (٥٥/٩) وابن حبان فى صحيحه (٢٩٧/١) رقم ٩٥، والحاكم فى مستدركه (١٠١/١) وصححه، جميعهم من حديث أبى هريرة مرفوعا. وقال الزيلعى فى تخريجه للكشاف (٢٥٥/١) رقم ٢٦٨، روى من حديث أبى هريرة وأنس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وابن عباس، وابن مسعود، وطلق بن على، وابن عمر، وأبى سعيد الخدرى، وجابر، وعائشة.

(٢) من «ك».

(٣) فى «ك»: أى.

قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ

قوله تعالى: ﴿ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير﴾ ذكر هذا ردًا لقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء.

قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار﴾ يعني: أن فيها دلالات على وحدانيته لذوى العقول.

قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم﴾ روى ابن مسعود وعمران بن الحصين أن النبي ﷺ قال: «صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنبك تومئ إيماء»^(١) فهذا معنى الآية.

وقيل: معناه: الذين يوحدون الله على كل حال.

﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ فيستدلون به على وحدانيته، وفي الحديث: «تفكروا في الخلق، ولا تتفكروا في الخالق»^(٢).

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ أى: عبثًا، وقيل: (باطلا)^(٣) أى: بباطل.

﴿سبحانك﴾: هو للتنزيه عن كل سوء ﴿فقنا عذاب النار﴾ روى عن ابن عباس: أنه قال: «بت عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ وأهله على عرض الوسادة، وأنا

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٢/ ٦٨٠ - ٦٨١ رقم ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧)، وأبو داود (١/ ٢٥٠ رقم ٩٥٢) والترمذى (٢/ ٢٠٨ رقم ٣٧٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣)، وأحمد (٤/ ٤٢٦)، وابن خزيمة فى صحيحه (٢/ ٩٧٩)، والحاكم (١/ ٣١٥) وصححه على شرط الشيخين، جميعهم من حديث عمران ابن حصين.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط - مجمع البحرين (١/ ١٠٨ رقم ٧١) - وابن حبان فى المجروحين (٣/ ٨٣ - ٨٤)، وابن عدى فى الكامل (٧/ ٩٥)، وأبو الشيخ فى العظمة (ص ١٧٧ رقم ١) كلهم من حديث ابن عمر، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٨٤): وفيه الوازع بن نافع وهو متروك.

وفى الباب عن: عبد الله بن سلام، وابن عباس، وأبى ذر، وأبى هريرة، وعمر بن مرة. وقال السخاوى فى المقاصد (ص ٢٦١): وأسانيده ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة. وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٧٨).

(٣) ليست فى «ك».

مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

على طولها، ثم قام من الليل، وقرأ هذه الآيات العشر^(١) وفي رواية قال: «سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، وقرأ هذه الآيات العشر إلى آخر السورة».

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أي: أهلكته. فإن قال قائل: أَلَسْتُمْ تقولون: إن المؤمنين يدخلون النار، ولا يخلدون فيها، فكيف يكون ذلك إهلاكاً؟ قيل: قال قتادة: معنى الآية: إنك من تدخل النار للخلود فقد أخزيتَهُ أي: أهلكته، وقال الضحاك: معنى الآية ﴿إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أي: فضحته، وهتكت ستره؛ فعلى هذا يستوى فيه كل من دخل النار وإن لم يخلد فيها ﴿وما للظالمين من أنصار﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أكثر المفسرين على أن المنادي: هو الرسول، وقيل: هو القرآن قاله محمد بن كعب القرظي. لأن كثيراً من الناس لم ير الرسول ولم يسمعه.

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: كبائرنا ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أي: صفائرتنا، وقيل: الذنوب: المعاصي، والسيئات: التقصير في الطاعات.

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ البر المطيع، وفي الآثار: إن البر لا يؤذى الذر. يعني: النمل الصغار الحمر.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي: على السنة رسلك ﴿ولا تخزننا يوم القيامة﴾ أي: لا تفضحننا، ولا تهلكنا.

﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وهو على سبيل المدح له؛ لأننا على القطع نعلم أنك لا تخلف الميعاد.

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس، رواه البخاري في صحيحه (١/٣٤٤ - ٣٤٥ رقم ١٨٣ وأطرافه في

١١٩٨٢، ٤٥٦٩، ٤٥٧٠، ٤٥٧١، ٤٥٧٢، ٧٤٥٢)، ومسلم (٦/٦٤ - ٧٦ رقم ٧٦٣).

﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۚ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغْرَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزْلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ

قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾
 روى أن أم سلمة قالت لرسول الله ﷺ: إني أرى الله لا يذكر النساء في القرآن، فنزل قوله: ﴿من ذكر أو أنثى﴾.

﴿بعضكم من بعض﴾ أي: كلكم كنفس واحدة، فلا أضيع عمل واحد منكم.
 ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «وقتلوا وقتلوا»^(١) ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ أي: جزاء من عند الله، ﴿والله عنده حسن الثواب﴾.

قوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ يعني: على مرادهم، فإن مصيرهم إلى النار ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ وفيه دليل على أن أقل القليل من الجنة خير من الدنيا، وفي الحديث: «لموضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٢).

قوله تعالى: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله﴾ النزل هو ما يعد للضيف من النعمة؛ فسمى الله تعالى ما

(١) وهى قراءة خلف أيضاً، وقرأ ابن كثير، وعامر بتشديد التاء من «قُتِلُوا»، وقرأ الباقر بالتخفيف. انظر النشر

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٦/١٠٠ رقم ٢٨٩٢، وأطرافه فى ٢٧٩٤، ٣٢٥٠، ٦٤١٥)، والترمذى (٤/

١٥٤ - ١٥٥ رقم ١٦٤٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/١٤٤٨ رقم ٤٣٣٠)، وأحمد (٣/٤٣٣)

و(٥/٣٣٠، ٣٣٧، ٣٣٩) جميعهم من حديث سهل بن سعد الساعدي، وفى الباب عن أنس، وأبى هريرة.

الْكِتَابَ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

أعده للمؤمنين من نعيم الجنة: نزلا من عند الله ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾

قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ قيل: أراد النجاشي، وروى أنه لما مات قال النبي ﷺ لأصحابه: «صلوا على أخ لكم مات، وهو أصحمة النجاشي»^(١) فقال المنافقون: انظروا يصلى على علق من النصارى ويدعوه؛ فنزلت الآية.

وقيل: هو في عبد الله بن سلام، ومن أسلم معه؛ فذلك قوله: ﴿لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ أى: متواضعين لله ﴿لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ يعنى: على الجهاد، ﴿وصابروا﴾ أى: مع الأعداء ﴿ورابطوا﴾ أى: فى الثغور بالملازمة، وقيل: اصبروا على دينكم، وصابروا مع الأعداء، وابطوا بالمحافظة على الصلوات، وفى الحديث: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به السيئات، ويرفع الله به الدرجات، قيل: بلى يارسول الله، قال: إسباغ الوضوء فى السُّبُرَات»^(٢)، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(٣).

﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أى: كونوا على رجاء الفلاح.

(١) متفق عليه بنحوه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى فى صحيحه (٣/١٣٩ رقم ١٢٤٥، ١٣١٨، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٣٣، ٣٨٨٠، ٣٨٨١) ومسلم فى صحيحه (٧/٣٥ - ٣١ رقم ٩٥١). وفى الباب عن أبى حذيفة بن أسيد ومجمع وعن جابر وعن عمران ابن حصين، ومجمع بن جارية، وراجع الإرواء (رقم ٧٢٧).

(٢) السيرات: جمع سيرة بسكون الباء، وهى شدة البرد. النهاية (٢/٣٣٣).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه (٣/١٧٩ - ١٨٠ رقم ٢٥١)، والترمذى (١/٧٢ - ٧٤ رقم ٥٢، ٥١) وقال: حسن صحيح، والنسائى (١/٨٩ - ٩٠ رقم ١٤٣)، وأحمد فى مسنده (٢/٢٧٧، ٣٠٣) جميعهم من حديث أبى هريرة مرفوعا.

تفسير سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

قال: اعلم أن هذه السورة تسمى: سورة النساء، وتسمى سورة الأحكام، وهى مدنية على قول أكثر المفسرين، إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتَ إِلَى أَهْلِهَا﴾^(١)؛ فإن هذه الآية نزلت بمكة فى مفاتيح الكعبة، وأورد النحاس أن السورة مكية.

وفى الحديث: «من قرأ سورة البقرة، وآل عمران^(٢)، والنساء فى ليلة؛ كتب من القانتين»^(٣)، وعن عمر - رضى الله عنه - قال: تعلموا سورة البقرة، والنساء، والمائدة، وسورة النور، والأحزاب؛ فإن فىهن الفرائض.

(١) النساء: ٥٨.

(٢) ليست فى «ك».

(٣) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (١٦٨ رقم ٤٣٣)، وسعيد بن منصور فى سننه (التفسير ٣ / ١٠٢٣ رقم ٤٨٥)، ومن طريقه البيهقى فى الشعب (٥ / ٣٥٩ - ٣٦٠ رقم ٢٢٠١)، ولكن فىهما: «كان من الحكماء»، جميعهم من طريق سعيد بن جبير، عن عمر موقوفا. قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (١ / ٣٤): فيه انقطاع.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ قال علقمة: كل ما نزل في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فإنما نزل بمكة، وكل ما ورد في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فإنما نزل بالمدينة .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا ﴾ «يا» للنداء، و«أى» للإشارة، و«ها» للتنبيه ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ وقرأ ابن مسعود: « اتَّقُوا (الله) (١) رَبَّكُمْ » .

بدأ من السورة بالوعظ والتحذير، فقال : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، وأراد بالنفس الواحدة آدم - صلوات الله عليه - وإنما قال : ﴿ وَاحِدَةٍ ﴾ على التأنيث؛ لأجل اللفظ؛ لأن النفس مؤنثة، وهذا مثل قول الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

وإنما قال : ولدته للفظ الخليفة، وإن كان معناه الذكر ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى : حواء، وسميت حواء؛ لأنها خلقت من حى، وفى القصص : أن الله تعالى خلق حواء من ضلع لآدم فى جنبه الأيسر يسمى : «القصيراء» وفى الخبر المعروف « أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن أردت أن تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمعت بها على اعوجاج » (٢) وقيل : إن حواء خلقت من التراب .

وقوله : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ معناه : وخلق من جنسها زوجها، يعنى : التراب، والأصح الأول . وفى الخبر : أن الله تعالى لما خلق آدم ألقى عليه النوم، ثم أخذ ضلعا من أضلاعه، وخلق منه حواء، فجلست بجنبه، فلما انتبه رآها جالسة بجنبه، وقيل : إنه لم يؤذه أخذ الضلع شيئا، ولو آذاه لما عطف رجل على امرأة أبداً .

وعن ابن عباس : أن الله تعالى خلق الرجل من التراب؛ فهمه فى التراب، وخلق

(١) لفظ الجلالة ليس فى «ك» .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٩/ ١٦٠ - ١٦١ رقم ٥١٨٤، وأطرافه فى ٣٣٣١ .

(٥١٨٦)، ومسلم (١٠/ ٨٣ - ٨٤ رقم ١٤٦٨) بنحوه .

وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ

المرأة من الرجل، فهمها في الرجل؛ فاحبسوا نساءكم.

﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ ذكر هذا كله لبيان القدرة؛ وإظهار المنة ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به﴾ أى: تسألون به، وذلك مثل قول الرجل: أسألك بالله، ونشدتك بالله، وقيل: معناه: واتقوا الله الذي تعاهدون به، وذلك أن تقول: عليك عهد الله، وعلى عهد الله، ونحو ذلك.

وأما قوله: ﴿والأرحام﴾ قرأ حمزة: «الأرحام» بكسر الميم^(١) وتقديره: تساءلون به وبالأرحام، قال إبراهيم النخعي: تقول العرب: نشدتك بالله وبالرحم. وضعفوا هذه القراءة، والقراءة المعروفة: بنصب الميم، وتقديره: واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

وفى الخبر: يقول الله - تعالى -: «أنا الرحمن، وخلقت الرحم، واشتقت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»^(٢).

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يعمر الكفار، ويكثر أموالهم، ولم ينظر إليهم منذ خلقهم؛ بغضا لهم، فقليل: ثم ذاك يارسول الله؟ قال: بصلة الأرحام»^(٣).

﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أى: حفيظاً.

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أراد به: دفع المال إليهم بعد البلوغ،

(١) انظر النشر (٢/٢٤٧).

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد (ص ٢٥ رقم ٥٣)، وأبو داود (٢/٣٣ رقم ١٦٩٤، ١٦٩٥)، والترمذى

(٤/٢٧٨ رقم ١٩٠٧) وقال: صحيح، والإمام أحمد (١/١٩٤)، وابن حبان فى صحيحه (٢/١٨٦-١٨٧

رقم ٤٤٣)، والحاكم فى المستدرک (٤/١٥٧) جميعهم من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير (١٢/٨٥-٨٦ رقم ١٢٥٥٦)، والحاكم فى المستدرک (٤/١٦١) من حديث ابن

عباس رضى الله عنهما مرفوعاً بنحوه.

وقال الحاكم: عمران الرملى من زهاد المسلمين وعبادهم [فإن] كان حفظ هذا الحديث، فإنه غريب صحيح.

وقال الهيئى فى المجمع (٨/١٥٥): إسناده حسن.

وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا

وسماهم بعد البلوغ يتامى؛ لقرب عهدهم باليتيم، وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ يتيم أبى طالب لذلك.

﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ وفى قراءة شاذة: «وَلَا تَشْتَرُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ» فالخبِيث: الحرام، والطيب الحلال، ومعنى الكلام: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى حَرَامًا، وَتَدْعُوا أَمْوَالَكُمْ الْحَلَالَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: لَا تَسْتَعْجِلُوا أَكْلَ الْحَرَامِ؛ فَإِنَّ الْحَلَالَ يَأْتِيكُمْ.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ: مَعَ أَمْوَالِكُمْ، وَقَالَ غَيْرُهُ: «إِلَىٰ» لَا تَكُونُ بِمَعْنَى «مَعَ»، وَهِيَ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَمَعْنَاهُ: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ مُضَافَةً إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ فَالْحُوبُ: الْإِثْمُ، وَفِي الْخَبَرِ: «أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ أَرَادَ أَنْ يَطْلُقَ امْرَأَتَهُ أُمَ أَيُّوبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنْ طَلَّقَ أُمَ أَيُّوبَ لِحُوبٍ» (١)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أى: أَلَّا تَعْدِلُوا، يَقَالُ: أَقْسَطُ، إِذَا عَدَلَ، وَقَسَطُ، إِذَا جَارَ، وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَوْرَدَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ، وَهُوَ مَا رَوَى الزَّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ شَأْنِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَتْ: يَا ابْنَ أَخْتِي، نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي يَتِيمَةٍ تَكُونُ فِي حَجَرٍ وَلِيهَا، وَيَرْغَبُ فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا، وَلَا يَقْسُطُ فِي صَدَاقِهَا؛ فَنَهَوْا عَنْ نِكَاحِهَا، وَأَمَرُوا أَنْ يَنْكِحُوا غَيْرَهَا

فَعَلَى هَذَا تَقْدِيرُ الْآيَةِ: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا فِي نِكَاحِ الْيَتَامَى؛ ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ﴾.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَصَرَ نِكَاحُ النِّسَاءِ عَلَى الْأَرْبَعِ مِنْ أَجْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى، فَإِنْ قِيلَ:

(١) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١٢/١٩٥-١٩٦ رَقْم ١٢٨٧٦) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (٢٦٥/٩): فِيهِ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْحَمَانِيُّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ.

فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾

وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُوْتُوا

كيف يعرف هذا، وكيف يلتئم بذلك هذا؟ قيل: معناه: أن الله تعالى لما شدد فى أموال اليتامى، تخرج المسلمون عنها غاية التحرج، وشرعوا فى نكاح النساء، واستهانوا به؛ فنزلت الآية، وأراد: إنكم كما تخرجتم عن أموال اليتامى؛ خوفا من الجور، فتخرجوا عن الزيادة على الأربع أيضا؛ خوفا من الجور والميل، فهذا معنى قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾ أى: ما حل لكم ﴿من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ أى: لا تتجاوزوا الأربع.

وذهب بعض الناس إلى أن نكاح التسع جائز بظاهر هذه الآية؛ لأن الاثنين والثلاث والأربع يكون تسعا ليس بصحيح، بل فيه قولان: أحدهما: قال الزجاج: مثنى مثنى، ثلاث ثلاث، رباع رباع، يعنى: لكل الناس، وقيل: «الواو» بمعنى: «أو» يعنى: مثنى، أو ثلاث، أو رباع؛ ولأن - على التقدير الذى ذكروا - [عنى^(١)] فى الكلام؛ لأن من أراد أن يذكر التسع فيقول: مثنى وثلاث ورباع، عد ذلك عيبا فى الكلام وقد قال: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾؛ لأنه أخف مؤنة ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ لأن حقوق ملك اليمين أدنى من حقوق ملك النكاح، وهو معنى قوله: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ أى: ذلك أقرب أن لا تجوروا، يقال: عال، يعول إذا جار، وأعمال يعيل إذا كثر عياله، قال الشاعر:

إنا اتبعنا الرسولَ واطَّرحوا أمر الرسولِ وعَالُوا فى الموازين^(٢)

أى: جاروا، وروى: أن أهل الكوفة عتبوا على عثمان فى شىء، فقال: لست بقسطاء، فلا أعول، أى لست بقسطاس؛ فلا أجور.

وقال الشافعى: معناه: ذلك أدنى ألا تكثر عيالك. وحكى الأزهري عن الكسائي

(١) فى «الأصل وك»: عيًّا.

(٢) وقع البيت فى لسان العرب (مادة: عول) كما يأتى:

السُّفَهَاءُ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٩﴾
وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا

أنه حكى عن العرب: عال يعول: إذا كثر عياله، وهذا يؤيد قول الشافعى.

﴿وَاتُوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ الصدقة والصداق واحد ﴿نحلة﴾ أى: تَدِينَا، وقال ابن عباس: معناه: فريضة، والخطاب مع الأزواج - على الأصح - وقيل: هو خطاب مع الأولياء، وكان أهل الجاهلية لا يعطون المرأة صداقها، وإنما يأخذ الأولياء؛ فخطب الأولياء بإعطاء المرأة صداقها نحلة، أى: هو عطية لها من الله.

﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ أى: فَإِنْ أُعْطِيَ عَنْ طَبَنَ نَفْسٍ مِنَ الصَّدَاقِ شيئاً. و«من» للتخيير هاهنا، لا للتبعض؛ حتى يجوز للمرأة هبة كل الصداق، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ الهنىء: ما أكلت من غير تنغيص، والمرىء: هو المحمود العاقبة؛ وذلك ألا يورث تخمة. وعن على - رضى الله عنه - أنه قال: إذا مرض أحدكم، فليستقرض من امرأته ثلاثة دراهم من صداقها، وليشتري بها عسلاً، وليخلطه بماء السماء، ثم ليأكل؛ فإنه الشفاء المبارك والهنىء المرىء.

قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالسفهاء: الصبيان والنساء هاهنا، وقال الشعبي: المرأة أسفه من كل سفيه.

قال سعيد بن جبیر: معنى الآية: أن لاتجعلوا المرأة قِيَمَةَ البيت فى المعاش، بل كونوا أنتم قوامين على النساء فى المعاش، وقوله: ﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ فالقيام والقوام واحد، يعنى: أموالكم التي جعلها الله قواماً لمعاشكم، وقال الزجاج: تقديره: الأموال التي تقيمكم فتقومون به قياماً ﴿وارزقوهم فيها واکسوهم﴾ قيل: معناه: وارزقوهم منها، وقيل كلمة فى حقيقتها، ومعناه: اجعلوا وظائفهم من الرزق والكسوة فيها.

﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ قيل: معناه: تعليم الدين والشرائع، وقيل: أراد به: وعد الجميل؛ وذلك أن تقول لهم: إن سافرت وربحت، أعطيك كذا، وإن غزت

إِسْرَافًا وَيَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦٧﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

فغنمت، أعطيتكم كذا، فهذا هو القول المعروف.

قوله - تعالى - : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ يعني : واختبروا اليتامى، ثم منهم من قال : إنما نختبرهم بعد البلوغ، وسماهم يتامى؛ لقرب عهدهم باليتيم، والصحيح أنه أراد به : الاختبار قبل البلوغ، ثم اختلفوا، فأما الفقهاء قالوا : يدفع إليه شيئاً يسيراً، ويبعثه إلى السوق، حتى يستام السلعة، ثم إذا آل الأمر إلى العقد يعقد الولي، ومنهم من قال : يعقد الصبي، ويجوز ذلك في الشيء اليسير؛ لأجل الاختبار.

وأما الذى قاله المفسرون : أنه يدفع إليه مالا، ويجعل إليه نفقة البيت، ويختبره فيها، ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ أى : أو أن الحلم ﴿فإن أنستم﴾ أى : أحسستم، ووجدتم ﴿منهم رشدا﴾ قال مجاهد : عقلا، وقال سفيان الثوري : عقلاً وإصلاحاً فى المال . ومذهب الشافعى : أن الرشد : هو الصلاح فى الدين، والإصلاح فى المال .

﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ أمر الأولياء بدفع المال إليهم عند البلوغ والرشد . ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾ أى : لا تأكلوها مسرفين ﴿وبداراً أن يكبروا﴾ أى : لا تبادروا إلى أكل أموال اليتامى، خوفاً من أن يكبروا؛ فيأخذوا أموالهم .

﴿ومن كان غنيا فليستعفف﴾ أى : فليستعفف بماله عن مال اليتيم ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ قال عمر - رضى الله عنه - : إذا كان الولي فقيراً، يأكل من مال اليتيم بقدر الحاجة، وقال أيضاً : أنا فى هذا المال : كولى اليتيم، إن استغنيت استعفت، وإن احتجت أكلت . وإلى هذا ذهب قوم من العلماء، أن له أن يأكل بقدر ما يسد به الخلة، وقال بعضهم : عباءاً غليظاً، وخبز الشعير، وقال الشعبى وجماعة : يأكل من مال اليتيم على سبيل القرض، وقال مجاهد : لا يأكل أصلاً، لا قرضاً، ولا غير قرض، قال : والآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل،

وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾
وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾

إلا أن تكون تجارة عن تراض ﴿١﴾ وإلى هذا ذهب أكثر العلماء، وعليه الفتوى، أنه لا يأكل أصلاً، ومن قال: إنه يأكل، يقول: يأخذ بقدر أجرته على القيام، وقد روى أن رجلاً (جاء) ﴿٢﴾ إلى ابن عباس، وقال: [إن] ﴿٣﴾ لى يتيما وله إبل، فماذا أصيب منها؟ فقال: أتلو ط حوضها وتهنأ جرباها؟ قال: نعم، فقال ابن عباس: أصب من رسلها غير مضر بنسل، ولا ناهك فى حلب.

وفيه قول رابع: أن معنى قوله: ﴿فليأكل بالمعروف﴾ يعنى: يأكل الفقير من قوت نفسه بالمعروف، ولا يستكثر منه حتى ينفد ماله؛ فيحتاج إلى مال اليتيم.

﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ نذب إلى الإشهاد؛ كيلا يجحدوا.
﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أى: شهيدا. قوله - تعالى -: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ سبب نزول الآية أن أوس بن ثابت الأنصارى مات وخلف ثلاث بنات وامرأة - يقال لها: أم كجّة - وابنى عم: عرفجة، وسويد، فجاء ابنا عمه وأخذا جميع المال، وكان أهل الجاهلية لايورثون النساء من الميت، ويقولون: لا يرث أموالنا إلا من طاعن بالرماح، وضارب بالسيوف؛ فنزلت الآية، وهذه أول آية نزلت فى توريث النساء المال.

﴿مما قلّ منه أو كثر نصيبا مفروضا﴾ وقد بيّن الأنصبة المفروضة فى آيات الموارث.

قوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى و اليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾ يعنى: قسمة التركة فى موارث إذا حضرها من لا يرث الميت من أقاربه، أو اليتامى، والمساكين ﴿فارزقوهم منه﴾ فأعطوهم شيئا ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ أى: قولوا لهم: بورك فيكم.

(٢) فى «ك»: أتى.

(١) النساء: ٢٩.

(٣) فى «الأصل»: إنى، وما أثبتناه من «ك».

وَلَيْخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ

ثم اختلفوا، فقال بعضهم: الآية منسوخة، فيجوز أن يعطوا، ويجوز أن لا يعطوا، وقيل: هو على النذب، ويستحب أن يعطيهم شيئاً، ومنهم من قال: إن قسموا العين والورق ونحوه يوضح لهم، وإن قسموا الدور والعقار، والعبيد، والثياب، ونحوها، يقول لهم: بورك فيكم.

قوله - تعالى - : ﴿وَلَيْخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ سبب نزول الآية: أن أصحاب رسول الله ﷺ كان الرجل منهم إذا حضره الموت، يأتون إليه، ويقولون له: انظر لنفسك أيها الرجل، وأوصى بمالك، وإن ورثتك لا يغنون عنك من الله شيئاً، وربما يحملونه على أن يوصى بجميع المال فنزلت الآية ﴿وَلَيْخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أى: إن تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً ﴿أى: أولاداً صغاراً﴾ خافوا عليهم ﴿أو على أولادهم﴾ فليخافوا على أولاد الناس كما يخافون على أولادهم؛ فإن أولاد الميت أحق بماله من الأجانب، فهذا معنى قوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أى: عدلاً.

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ نزلت الآية في حنظلة ابن الشمردل، كان قد ولى يتيماً، فأكل جميع ماله، وقيل: الآية نزلت ابتداءً في حق الكافر ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ لأنه لما كان أكلهم ذلك يؤدي إلى النار، سماهم أكليين للنار، وهذا كقول النبي ﷺ: «الذى يشرب فى آتية الذهب والفضة، إِنَّمَا يَجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ». (١) وفى الحديث: «يخرج لهيب النار من جوفهم يوم القيامة». (٢) وفى رواية: «أن الملك يأتيهم، فيفتح أفواههم، ويلقمهم الجمر،

(١) متفق عليه من حديث أم سلمة، رواه البخارى (١٠/٩٨ رقم ٥٦٣٤)، ومسلم (١٤/٣٨ - ٣٩ رقم ٢٠٦٥).

(٢) رواه أبو يعلى فى مسنده (١٣/٤٣٤ رقم ٧٤٤٠)، ومن طريقه ابن حبان فى صحيحه (١٢/٣٧٧ رقم ٥٥٦٦) وابن عدى فى الكامل (٣/١٨٧) حديث أبى برزة.

قال الهيثمى فى المجمع (٥/٧): رواه أبو يعلى والطبرانى، وفيه زياد بن المنذر، وهو كذاب.

اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ

ويقول: هذا بأكلكم مال اليتيم» (١)

وقال ﷺ: «من أبكى يتيما، فحق على الله أن يبكى عينيه يوم القيامة».

﴿وسيصلون سعيرا﴾ أى: سيدخلون جهنم، وقيل: يعاينون سعيرا، والسعير: النار المستعرة، وهو اسم من أسماء جهنم.

قوله - تعالى - : ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾ معناه: يفرض الله عليكم فى أولادكم، وذلك مثل قوله - تعالى - : ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به﴾ (٢) أى: فرض عليكم ﴿للدكر مثل حظ الأنثيين﴾.

سبب نزول الآية: «أن سعد بن الربيع لما استشهد يوم أحد خلف ابنتين وامرأة وأخا، فجاء الأخ وأخذ جميع المال، فجاءت المرأة تشكو إلى رسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية». فدعا رسول الله ﷺ الأخ، وقال: اعط ابنتين الثلثين والمرأة الثمن، وخذ الباقي» (٣).

وقوله: ﴿للدكر مثل حظ الأنثيين﴾ يعنى: إذا خلف ابنا وابنة، فالمال من ثلاثة أسهم: سهمان للإبن، وسهم للبنت ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ أكثر الصحابة والعلماء على أن للابنتين، والثلاث: الثلثين.

وقال ابن عباس: للابنتين النصف، وإنما الثلثان للثلاث وما زاد؛ تمسكا بظاهر الآية. والأول أصح.

(١) رواه ابن جرير (١٨٤/٤) من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً بنحوه.

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) رواه أبو داود (١٢١/٣) رقم (٢٨٩٢)، والترمذى (٣٠٦١/٤) رقم (٢٠٩٢) وقال: حديث صحيح، وابن ماجه

(٩٠٨/٢ - ٩٠٩ رقم (٢٧٢٠)، وأحمد (٣٥٢/٣)، والدارقطنى (٧٨-٧٩/٤)، والحاكم (٣٣٣/٤).

(٣٣٤) وصححه، جميعهم من حديث جابر به.

وَوَرَّثَهُ أَبَوَاهُ فَلَأَمَّهُ الثَّلَاثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَأَمَّهُ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنِ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ

ومعنى قوله: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يعنى: كن نساء اثنتين فما فوقهما، وهذا كقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾^(١) أى: فاضربوا الأعناق فما فوقها، وقيل: «فوق» فيه صلة، وتقديره: فَإِنْ كُنْ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ، واسم الجمع ينطلق على الاثنين؛ لأن الجمع عبارة عن جمع الشيء، ويستوى فيه الاثنان والثلاث، ولأننا أجمعنا على أن الأختين ترثان الثلثين، وهما ابنتا أب الميت، فالابنتان لأن يرثا الثلثين أولى، وهما ابنتاه للصلب.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وفيه إجماع ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يعنى: للميت، ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَّثَهُ أَبَوَاهُ فَلَأَمَّهُ الثَّلَاثُ﴾ وهذا لاختلاف فيه.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَأَمَّهُ السُّدُسُ﴾ أكثر الصحابة والعلماء على أن الأخوين والثلاثة يردون الأم من الثلث إلى السدس.

وقال ابن عباس: الثلاثة يردون، فأما الأخوان فلا يردان؛ لأنه ذكر بلفظ الجمع وأقله ثلاثة.

وقد بينا أن اسم الجمع ينطلق على اثنين والثلاثة.

وقرأ حمزة والكسائي: «فلأَمَّهُ السُّدُسُ» بكسر الهمزة، وهو لغة فى الأم، والمعروف بالضم^(٢) ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ يقرأ بقرأتين «يوصى» بكسر الصاد على معنى: يوصيها الموصى، ويقرأ: يوصى «بفتح الصاد، على ما لم يسم فاعله^(٣).

(١) الأنفال: ١٢.

(٢) انظر النشر (٢/٢٤٨).

(٣) قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر: بفتح الصاد، وقرأ الباقون بكسرها. انظر المصدر السابق.

نَصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا

وعن على - رضى الله عنه - أنه قال : إنكم تقرأون الوصية قبل الدين، والدين قبل الوصية، يعنى : فى القضاء، ثم اختلفوا، منهم من قال : «أو» بمعنى «الواو» والمراد الجمع بينهما، وبيان أن الإرث مؤخر عنهما جميعا، ومنهم من قال «أو» على حقيقته، ومعناه : من بعد وصية، إن كانت وصية، أو دين إن كان دين، فالإرث مؤخر عن كل واحد منهما؛ من ذلك عرف تأخيره عنهما إذا اجتمعا بطريق الأولى .

وقوله : ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ يعنى : الذين يرثونكم آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴿لاتدرون﴾ أيهم أقرب لكم نفعا ﴿أى : لاتعلمون﴾ أيهم أنفع لكم فى الدين والدنيا .

فمنهم من يظن أن الآباء تنفع فتكون الأبناء أنفع، ومنهم من يظن أن الأبناء أنفع، فتكون الآباء أنفع، وأنتم لاتعلمون، وأنا أعلم بمن هو أنفع لكم؛ وقد دبرت أمركم على ما فيه الحكمة والمصلحة، فخذوه، واتبعوه . وفى الأخبار «أن فى الجنة يكون الأب على الدرجة العالية، والابن فى الدرجة السافلة؛ فيسأل الأب الله تعالى فيرفعه إلى درجة أبيه . ويكون الابن على الدرجة العالية، والأب فى الدرجة السافلة، فيسأل الأب الله - تعالى - فيرفعه إلى درجة الابن» ^(١) فهذا معنى الآية لاتدرون أيهم أنفع لكم فى الآخرة، وأرفع درجة، فتصلون إلى درجته .

﴿فريضة من الله﴾ يعنى : ما قدر من الموارث ﴿إن الله كان عليما﴾ بأمر العباد ﴿حكيم﴾ بنصب الأحكام .

(١) رواه الطبرانى فى الكبير (١١/ ٢٤٠-٢٤١ رقم ١٢٢٤٨)، وفى الصغير (١/ ٣٨٢ رقم ٦٤٠) من حديث ابن عباس مرفوعاً ولفظه : «إذا دخل بالرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول : يارب، قد عملت لى ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به ... الحديث .

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٧) : وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو ضعيف .

ورواه ابن جرير (٤/ ١٩٠)، وابن المنذر وابن أبي حاتم - كما فى الدر (٢/ ١٤٠) - عن ابن عباس موقوفاً مختصراً .

تَرَكْتُمْ مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ

قوله تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلکم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ هذا فى ميراث الأزواج، وفيه إجماع ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ وهذا فى ميراث الزوجات، ولا خلاف فيه.

قوله تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة﴾ يعنى: أو امرأة تورث كلاله، قال بعض العلماء: الكلاله لا يُعْلَمُ معناها، وعن عمر - رضى الله عنه - قال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يبين لنا ثلاثة: الكلاله، والخلافة، والربا.

والصحيح أنها معلومة المعنى، ثم اختلفوا، قال ابن عباس فى رواية - وهى إحدى الروایتين عن عمر -: إن الكلاله اسم لميت لا ولد له، وورث الإخوة مع الأب. وقال الحكم بن عتيبة: والكلاله: اسم لميت لا ولد له، وورث الإخوة مع الوالد، وهما قولان فى شواذ الخلاف، والصحيح فيه قولان:

أحدهما - قول لأهل المدينة والكوفة - أن الكلاله اسم لورثة ليس فيهم ولد ولا والد؛ مأخوذ من الإكليل، وهو الذى على جانبى الوجه، فالكلاله اسم لمن يحيط بجانبى الميت من الإخوة والأخوات، والأعمام، ونحوهم، ولم يكن أعلى ولا أسفل.

واستدلوا عليه بحديث جابر «كان مريضاً؛ فدخل عليه رسول الله ﷺ يعبده، فقال: إنما يرثنى كلاله». (١) ولم يكن فى ورثته ولد ولا والد، وجعل الكلاله اسماً للوارث، ويشهد لهذا ما قرئ فى الشواذ: «وإن كان رجل يورث كلاله» مشدداً بكسر الراء.

(١) متفق عليه، رواه البخارى (٢٦/١٢) رقم ٦٧٤٣ وأطرافه فى ١٩٤، ٤٥٧٧، ٥٦٥١، ٥٦٦٤، ٥٦٧٦، ٦٧٢٣، ٧٣٠٩، ومسلم (١١/٧٨-٨١) رقم (١٦١٦).

غَيْرَ مُضَارٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ

وقال البصريون: وهو قول أبى بكر، وعلى، وابن مسعود، وزيد، وفي أصح الروايتين عن ابن عباس: أن الكلالة: اسم للميت الذى ليس له ولد ولا والد، وهو ظاهر الآية، وتشهد له القراءة الأخرى فى الشواذ: «وإن كان رجل يورث كلالة» مشدداً بفتح الراء. قال الشاعر:

وإن أبا المرء أحمى له (١) ومولى الكلالة لا يغضب

فجعل الكلالة اسماً للميت .

وفيه قول آخر: أن الكلالة اسم للتركة، قاله عطاء . وقوله: ﴿وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس﴾ أجمعوا على أن المراد بالأخ والأخت ها هنا أولاد الأم، وفرض لكل واحد منهم السدس ذكرًا كان أو أنثى .

﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث﴾ وفيه إجماع، أن فرضهم الثلث إذا تعددوا، وإن كثروا ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾ يعنى: الموصى لا يضر بالورثة بمجاوزة الثلث، ونحوه ﴿وصية من الله﴾ أى: فريضة من الله ﴿والله عليم حلیم﴾ ﴿تلك حدود الله﴾ يعنى: ما ذكر من الفروض المحدودة، ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ ذكر ثواب من أطاعه، ولم يجاوز حدوده ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾ ذكر عقاب من عصاه، وجاوز حدوده .

قوله - تعالى - : ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نساءكم﴾ اللاتى، والتى،

(١) وقع هذا الشطر من البيت فى الأصل كما يأتى :

وإن أبى المرء حمى له

وما أثبتناه من لسان العرب (مادة: كلل) . وفسره بقوله: أراد أن أبا المرء أغضب له إذا ظلم، وموالى الكلالة وهم: الإخوة، والأعمام، وبنو الأعمام وسائر القرابات لا يغضبون للمرء غضب الأب .

حُدُودَهُ يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ

واللواتى : اسم لجماعة النساء، قال الشاعر:

هن اللواتى والتى واللاتى

زعمن أنى قد كبرت لداتى

ومثله: اللاتى أيضاً، قال الشاعر:

من اللاتى لم يحججن تبغين حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

وقوله: ﴿يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ أراد بالفاحشة هاهنا الزنا: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ هو خطاب للحكام، يعنى: فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود، وهذه الآية هى الحجة على أن شهود الزنا أربعة ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ وكان هذا هو الحكم فى ابتداء الإسلام، وأن المرأة إذا زنت حبست فى البيت إلى أن تموت. ثم نسخ ذلك فى حق البكر بالجلد و التغريب، وفى حق الثيب بالجلد والرجم، وهو بيان السبيل المذكور فى الآية، والحجة عليه: حديث عبادة: «خذوا عنى خذوا عنى، قد جعل الله لهن سبيلا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة»^(١).

ثم نسخ الجلد فى حق الثيب، واستقر أمرها على الرجم.

وقال بعض العلماء: الجلد مع الرجم باق على الحكم، والأول أصح.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: التغريب أيضا منسوخ فى حق البكر، والخلاف مذكور فى الفقه.

واختلفوا فى أن ذلك الإمساك فى البيت كان على سبيل الحد أم كان حبسا؛ ليظهر الحد؟ على قولين: أحدهما: أنه كان حدا، والثانى: أنه كان حبسا ليظهر الحد.

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١١ / ٢٧٠ - ٢٧٣ رقم ١٦٩٠)، وأبو داود (٤ / ١١٤ رقم ٤٤١٥، ٤٤١٦)،

والترمذى (٤ / ٣٢ رقم ١٤٣٤)، وقال: حسن صحيح، والنسائى فى الكبرى (٦ / ٣٢٠ رقم ١١٠٩٣)،

وابن ماجه (٢ / ٨٥٢ رقم ٢٥٥٠) جميعهم عن عبادة مرفوعاً.

لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ

قوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَاذُوهُمَا﴾ اختلفوا في المراد من الآيتين، قال مجاهد: الآية الأولى في النساء، وهذه الآية في الرجال إذا زنوا.

وقال غيره: الأولى في الثيب، وهذه الآية في الأبكار.

وفيه قول ثالث: أن الآية الأولى في المرأة إذا أتت المرأة سَحَقًا، والآية الثانية في الرجل إذا أتى الرجل.

وقد قال عَمَّارٌ: «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» (١).

والمراد بالإيذاء في هذه الآية: هو السب باللسان، وإسماع المكروه، والتعيير، والضرب بالنعال.

فإن قيل: ذكر الحبس في الآية الأولى، والإيذاء في الآية الثانية، فكيف وجه الجمع؟ قيل: أما على قول من قال: إن الآية الأولى في صنف، والآية الثانية في صنف آخر، يستقيم الكلام.

وقال بعضهم: أراد به: الجمع بين الإيذاء والحبس في حق الزاني فيؤذى أولاً، ثم

(١) الحديث شطره الأول: «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان». رواه الآجری فی ذم اللواط (٥١)، والبيهقي في سننه (٢٣٣/٨) من حديث أبي موسى مرفوعاً، وقال البيهقي: هو منكر بهذا الإسناد.

وقال الحافظ في التلخيص (١٠٣/٤): رواه البيهقي من حديث أبي موسى، وفيه محمد بن عبد الرحمن القشيري، كذبه أبو حاتم. ورواه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء، والطبراني من وجه آخر عن أبي موسى، وفيه بشر بن الفضل البجلي، وهو مجهول، وقد أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عنه.

وشطره الثاني جاء بلفظ: «سحاق النساء زنا بينهن» رواه أبو يعلى (٤٧٦/١٣ رقم ٧٤٩١)، والطبراني في الكبير (٦٣/٢٢ رقم ١٥٣)، والآجری فی ذم اللواط (ص ٥٤)، وابن عدى في الكامل (١٧٤/٥)، والخطيب في التاريخ (٢٩/٩ - ٣٠) جميعهم من حديث واثلة، وزاد الخطيب أنساً مع واثلة.

يحبس، والآية الثانية وإن كانت فى التلاوة متأخرة، فهى فى المعنى متقدمة، كأنه قال: واللذان يأتیان الفاحشة منكم فأذوهما وأمسكوهما فى البيت ﴿فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾ أى: أعرضوا عن الإيذاء ﴿إن الله كان توابا رحيمًا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾ قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن من عصى الله فهو جاهل، وقيل: أراد به: الجهال بكنه عقوبة الله، وقيل: الجهالة فى المعصية: أنه اختار اللذة الفانية على اللذة الباقية.

﴿ثم يتوبون من قريب﴾ يعنى: قبل الموت، قال الضحاك: كل ما بينك وبين الموت فهو قريب، وقيل: أراد به: التوبة قبل أن يعاين ملك الموت، وقيل: أراد به: ثم يتوبون قبل أن يغرغروا.

وفى الخبر: أن النبى قال: «من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه، ثم قال: إن السنة (لكثيرة)»^(١)، ثم قال: من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه، ثم قال: إن الشهر لكثير، ثم قال: من تاب قبل موته بجمعة، تاب الله عليه، ثم قال: إن الجمعة (لكثيرة)»^(١)، ثم قال: من تاب قبل موته بيوم، تاب الله عليه، ثم قال: إن اليوم لكثير، (من تاب قبل موته بنصف يوم تاب الله عليه، ثم قال: إن نصف اليوم لكثير)»^(٢) من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه، ثم قال: إن الساعة لكثيرة»^(١)، من تاب قبل أن يغرغر تاب الله عليه»^(٣). رواه عبادة بن الصامت، فهذا معنى قوله: ﴿ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيماً﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات﴾ قيل: أراد

(١) فى «ك»: لكثير.

(٢) ليس فى «ك».

(٣) رواه الطبرى (٢٠٥/٤) باختصار من حديث عبادة بن الصامت. وينحوه رواه أحمد فى مسنده (٢٠٦/٢)، والطيالسى (ص ٣٠١ رقم ٢٢٨٤)، والطبرى فى تفسيره (٢٠٦/٤)، والحاكم (٢٥٨-٢٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

وقال الهيثمى فى المجمع (٢٠٠/١٠): رواه أحمد، وفيه راوٍ لم يسم، وبقيّة رجاله ثقات. ورواه أحمد فى مسنده (٤٢٥/٣)، والحاكم (٢٥٨-٢٥٧/٤) عن نفر من الصحابة بنحوه مطولا. وقال الهيثمى فى المجمع (٢٠٠/١٠): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن، وهو ثقة.

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ

بالسيئات : الشرك، وقال ابن عباس : هو النفاق، وقيل : كل المعاصي .

﴿ حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ يعني : حالة الموت، يتوب حين يساق، ووجه ذلك : مثل توبة فرعون حين أدركه الغرق، قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، يقول الله - تعالى - : ليس لهؤلاء توبة .

﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعني : ولا الذين يموتون كفاراً لهم توبة ﴿ أولئك اعتدنا لهم ﴾ أى : أعدنا لهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ نزلت الآية في الأنصار، كان الرجل منهم إذا مات أبوه؛ ورث امرأة أبيه، ثم إن شاء أمسكها لنفسه زوجة، وإن شاء زوجها من غيره، وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها عن الأزواج، حتى تضجر [فتفدى] (١) نفسها بمال، حتى مات أبو قيس بن الأسلت الأنصارى عن امرأته كبيشة بنت معن الأنصارى، فجاء [ابنه] (٢) حصن وورث المرأة؛ فجاءت المرأة تشكو إلى النبي ﷺ فنزل قوله - تعالى - : ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ ويقراً : « كُرْها » (٣) بضم الكاف، فالكُرْه بالفتح : الإكراه، والكُرْه بالضم المشقة . ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبن ببعض ما آتيتموهن ﴾ أى : تمنعهن من الأزواج حتى يضجرن؛ فيفتدين ببعض ما لهن، فيكون خطاباً لأولياء الميت .

والصحيح أنه خطاب للأزواج، يعني : إذا لم تكن الزوجة بموافقة، فلا تمسكها

(١) ليست في «الأصل» ولا «ك» .

(٢) في «الأصل» : أبوه، وفي «ك» : أبو، وكلاهما خطأ، والصواب : ابنه، واسمه حصن، له ترجمة في الإصابة (٣٣٥/١) ، وذكر الحافظ أن الثعلبي ذكره في تفسيره بنحو ما هنا، وكذا الواقدي، لكن بلا إسناد، وصوب

أن اسمه قيس بن أبي قيس بن الأسلت، وترجم له في الإصابة (٣/٢٥١ - ٢٥٢) .

(٣) قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بضم الكاف، وقرأ الباقون بفتحها . انظر النشر (٢/٢٤٨) .

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

ضرارا؛ لتفتدى ببعض مالها ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال ابن عباس: هو النشوز، وقيل: هو الزنا، يعنى: إذا نشزت أو زنت، فحينئذ يحل أن يفاديها، ويأخذ مالها، وكان فى ابتداء الإسلام إذا زنت المرأة أخذ الزوج جميع صداقها منها ثم نسخ ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أى: الإجمال فى المبيت، والقول، والنفقة ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ أراد بالزوج هاهنا: الزوجة، وهو اسم للرجل والمرأة ﴿وآتيتم إحداهن قنطارا﴾ يعنى: من الصداق، ﴿فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتاناً﴾ أى: ظلما ﴿وإنما مبينا﴾.

﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أى: وصل بعضكم إلى بعض بالدخول، وحكى عن الزجاج: أنه الخلوة، والأول أصح.

﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ هو قول الولي: زوجتكها على أن تمسكها بمعروف، أو تسرحها بإحسان، وقيل: هو معنى ما روى: «اتقوا الله فى النساء؛ فإنهن عندكم عوان، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١) فهذا هو الميثاق الغليظ.

قوله - تعالى - : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء﴾ كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم؛ فورد الشرع بالنهاى عنه ﴿إلا ما قد سلف﴾ يعنى: بعدما سلف، وقال المبرد: ومعناه: لكن ما سلف فى الجاهلية؛ فهو مغفور.

﴿إنه كان فاحشةً ومقتاً﴾ قيل «كان»: فيه صلة، وتقديره: إنه فاحشة، وهذا كما

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٢٥٢/٨ رقم ١٢١٨)، وأبو داود (١٨٢/٢ - ١٨٧ رقم ١٩٠٥، ١٩٠٩)، وابن

ماجة (١٠٢٢/٢ رقم ٣٠٧٤) من حديث جابر فى حجة الوداع.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا

يقول الشاعر:

فكيف إذا رأيت ديار قومي^(١) وجيران لنا كانوا كرام

وقيل: «كان» في موضعه، ومعناه: أنه كان في الجاهلية يعدونه فاحشة ومقتا، وكانوا يسمون ولد امرأة الأب: مقيتا، والفاحشة: أقبح معصية، وأما المقت: قال أبو عبيدة هو المبغضة من الله، وقال ابن عباس: أراد به المقت من الملائكة ﴿وساء سبيلا﴾ أى: بئس المسلك.

قوله - تعالى - : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ قال ابن عباس: حرم الله - تعالى - سبعا بالنسب، وسبعا بالمهر، وقال الفقهاء: سبعا بالنسب، وسبعا بالسبب.

أما السبع بالنسب: منهن الأمهات: وهى كل امرأة تنسب إليها بالولادة، سواء قربت أو بعدت، سواء كان بينك وبينها ذكر أو أنثى، أو لم يكن أحد، فالكل حرام.

قال: ﴿وبناتكم﴾ ومنها البنات: وهى كل امرأة تنسب إليكم بالولادة، سواء قربت أو سفلت، سواء كان بينك وبينها ذكر أو أنثى، أو لم يكن أحد، فالكل حرام.

قال ﴿وأخواتكم﴾ ومنها الأخوات: وهى كل امرأة تنسب إلى من تنسب إليه بالولادة، فالكل حرام. قال: ﴿وعماتكم﴾ ومنها العمات، والعمة: أخت كل ذكر تنسب إليه بالولادة، فالكل حرام، قرب أم بعد، قال: ﴿وخالاتكم﴾ ومنها الخالات، والخالة: أخت كل امرأة تنسب إليها بالولادة، قربت أم بعدت.

(١) وقع هذا الشطر من البيت فى لسان العرب (مادة: كون) كما يأتى.

فكيف إذا مررت بدار قوم

وفى (مادة: كئن):

فكيف ولو مررت بدار قوم

أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَعْسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا

قال: ﴿وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ ومنها بنات الأخ وبنات الأخت: وهى بنت كل من تنسب إلى من تنسب إليه، فهذه السبعة بالنسب.

وأما السبع بالسبب: فأحداهن مذكورة قبل هذه الآية فى قوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء﴾، والثانية فى قوله: ﴿وامهاتكم اللاتى أرضعنكم﴾، والثالثة: ﴿وأخواتكم من الرضاعة﴾، ولا خلاف أن الأم والأخت من الرضاعة حرام على الرجل نكاحها، فأما ما عدا الأمهات والأخوات من الرضاعة حرام أيضا عند أكثر العلماء؛ لقوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» (١).

قال داود، وأهل الظاهر: لا يحرم ما عدا الأمهات والأخوات بالرضاع؛ تمسكا بظاهر القرآن.

قال ﴿وامهات نسائكم﴾ الرابعة: أم الزوجة، تحرم على الإطلاق بنفس العقد على قول الأكثرين، وحكى خلاص عن على - رضى الله عنه - أنه قال: «لا تحرم أم الزوجة إلا بعد الدخول بالزوجة لقوله - تعالى - : ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن﴾ قال: فقوله: ﴿من نسائكم اللاتى دخلتم بهن﴾ ينصرف إليهما جميعاً. والأول أصح.

قال ابن عباس: أبهموا ما أبهمه الله، أى: أطلقوا ما أطلقه الله؛ ولأن قوله: ﴿وامهات نسائكم﴾ مستقل بنفسه، معتد بحكمه، فيستغنى عن الإظهار؛ ولأن قوله: ﴿وامهات نسائكم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن على هذا التقدير يكون عيًّا فى الكلام، فلا يليق بكلام الله - تعالى - الذى هو أفصح أنواع الكلام.

قال: ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن﴾.

(١) متفق عليه من حديث عائشة. رواه البخارى (٤٣/٩ رقم ٥٠٩٩)، ومسلم (٢٨/١٠ - ٢٩ رقم ١٤٤٢).

النساء
أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُم إِلَىٰ بَعْضٍ وَآخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

الخامسة: الربية؛ وهى ابنة الزوجة، وسميت ربية؛ لأن الزوج يربها فى حجره على الأغلّب، فهى حرام بعد الدخول بالزوجة، وسواء كانت فى حجره، أو فى حجر غيره.

الخامسة: الربية؛ وهى ابنة الزوجة، وسميت ربية لأنها كانت فى حجره، أو فى
غلب، فهى حرام بعد الدخول بالزوجة، وسواء كانت فى حجره؛ لقوله: ﴿وربائبكم اللاتي فى
وقال داود: يختص التحريم بالتي فى حجره؛ لأن الكلام خرج على الأغلب.
حجوركم﴾. وهذا لا يصح؛ لأن الكلام على الأغلـب.
يعنى: فى نكاحهن.
السادسة: حليـلة الابن، وهى
لأنها تحل

وقال داود: يختص التحريم بهذا لأن الكلام خرج على الأعتاب
 حجوركم. وهذا لا يصح؛ لأن الكلام خرج على الأعتاب
 فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم. السابعة: حليلة
 أنثائكم الذين من أصلابكم. وقيل: واحد، وقيل: لا

[illegible]

وقال: ﴿وحلائل أبنائكم﴾ وسميت حليلة؛ لأنها مع الابن يحللان قربة له.
حرام، والابن يحلل إزارها، وقيل: سميت حليلة؛ لأنها تحل له.
والذين من أصلا بكم ﴿إنما قيد بالصلب، وإن كان حليلة ولد الولد حراما؛
ليبين أن حليلة ولد التبني حلال. وقد تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش امرأة
زيد بن حارثة، وكان قد تبني زيدا، حتى قال عبد الله بن أبي بن سلول: انظروا إلى
هذا الرجل، كيف وثب على امرأة ابنه وتزوجها: فقال الله تعالى: ﴿وحلائل أبنائك﴾
الذين من أصلا بكم ﴿بذلك السبب.

السابعة: الجمع بين الأختين إلا ما قد سلف لا يحرم الجمع بينهما وقال أهل الظاهر: لا يحرم الجمع بينهما وأحلها آية

بن حارثة، وكان كيف وثب على امرأة ابنه ولربما الرجل، كيف وثب على امرأة ابنه ولربما
بين من أصلا بكم ﴿ بذلك السبب .
﴿ وأن تجمعوا بين الأخنتين إلا ما قد سلف ﴾ السابعة: الجمع بين الأخنتين
بالنكاح، وكذلك بالطوء في ملك اليمين، وقال أهل الظاهر: لا يحرم الجمع بينهما
في النكاح؛ لأن الآية في التحريم بالنكاح، قال عثمان: حرمتها آية وأحلها آية
التحريم هذه؛ وآية التحليل قوله: ﴿ إلا ما ملكت أيما نكح ﴾ (١) إلا ما قد
أى: بعد ما سلف وقد [بيننا لك] (٢) ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ .
المحصنات من النساء ﴿ أراد به: ذوات الأزواج ﴾ إلا ما ملكت أ

نكاح؛ لأن الآية...
تريم هذه؛ وآية التحليل قوله: ﴿إلا ما ملكتم﴾
: بعدما سلف وقد [بيناً لك] (٢) ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ إلا
قوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء﴾ أراد به: ذوات الأزواج إلا
أراد به: وابن عباس: أراد به: إلا ما ملكت أ
أيمانكم﴾ اختلفوا فيه، فقال علي، وابن عباس: أراد به: إلا ما ملكت أ

وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢١﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ

سبايا أوطاس، وفيه نزلت الآية، قال أبو سعيد الخدري: «لما سبى رسول الله ﷺ سبايا أوطاس، هرب الرجال؛ فتخرج المسلمون من وطء النساء بمكان الأزواج؛ فنزلت الآية، وأذن رسول الله ﷺ في وطنهن» (١).

وقال ابن مسعود، وأبى بن كعب: إن قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هو أن يبيع الجارية المزوجة، فتقع الفقرة بينها وبين زوجها، ويحل للمشتري وطأها، ويكون بيعها طلاقاً لها.

وقيل: معنى الآية ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: ذوات الأزواج يحرم الاستمتاع بهن، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من مهرهن، فيحل الاستمتاع به، فكأنه حرم الاستمتاع ببضعهن وأباح الاستمتاع بمهرهن.

﴿كِتَابُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أى: فرض الله عليكم، ويقرأ: «كتب الله عليكم» أى: نزل الله عليكم ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ يعني: أحل الله لكم، ويقرأ: «أحل لكم» - بضم الألف - على نظم قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (٢).

أن تبتغوا بأموالكم ﴿قِيلَ: الْإِحْلَالُ: بِالِابْتِغَاءِ بِالْأَمْوَالِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لَالِ الْبُضْعِ لَا يَخْلُو عَنْ عَوْضٍ﴾ محصنين ﴿أى: متزوجين متعففين﴾ غير نكح غير زانين، مأخوذ من سفح الماء، وهو الصب، ومنه قول امرئ القيس: شفتائى عبرةٌ إن سفحتها (٣)

فهل عند رسم دارسٍ من مُعَوَّلٍ

لم (١١/٥١ - ٥٤ رقم ١٤٥٦)، وأبو داود (٢/٢٤٧ رقم ٢١٥٥) والترمذي (٣/٤٣٨ رقم: ٢١٥٥)، والنسائي (٦/١١٠ رقم ٣٣٣٣)، وأحمد (٣/٧٢، ٨٤) والطبري (٥/٢).

ر من البيت فى لسان العرب (مادة: عول، هلل) كما يأتى: وإن شفتائى عبرة مهراقة

أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً
 ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ
 تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ

أى: صبيبها ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ قيل: أراد به: فما استمتعتم به بالنكاح منهن، ﴿فآتوهن أجورهن فريضة﴾ أى: مهرهن، وقال ابن عباس: هو المتعة المعروفة.

وكانت المتعة حلالاً فى ابتداء الإسلام، وصورتها: أن يقول الرجل للمرأة: أجزتك - أو عقدت عليك - لأستمتع بك عشرة أيام بكذا، وكان هذا حلالاً، ثم نسخ، وكان ابن عباس يفتى بإباحتها، والصحيح أنه منسوخ.

وروى على، والربيع عن سبرة، عن النبى ﷺ: «أنه نهى عن نكاح المتعة» (١) وقال على لابن عباس: إنك رجل تائه نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة. وقيل: إن ابن عباس رجع عن إباحة المتعة، وتاب. وقال بعض السلف: لولا أن عمر نهى عن المتعة؛ مازنى أحد فى العالم.

﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ فمن حمل ما قبله على المتعة، قال: المراد بهذا: أن يزيد الرجل فى المهر، وتزيد المرأة فى الأجل، ومن حمل ذلك على الاستمتاع بالنكاح؛ فالمراد بقوله: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به﴾ يعنى: من الإبراء، والاعتياض عن المهر ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

قوله تعالى: ﴿و من لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ قال مجاهد: الطول: السعة، والغنى. وأصل الطول الفضل، ومنه الطول؛ لفضل القامة، ويقال: لاطائل تحته؛ أى: لاعمنى تحته.

(١) حديث على: متفق عليه، رواه البخارى فى صحيحه (٧١/٩ رقم ٥١١٥)، ومسلم (٢٦٩/٩ - ٢٧١ رقم ١٤٠٧). وحديث سبرة الجهنى، رواه مسلم (٢٦٢/٩ - ٢٦٩ رقم ١٤٠٦)، وأبو داود (٢٢٦/٢ - ٢٢٧ رقم ٢٠٧٢)، والنسائى (١٢٦/٦ - ١٢٧ رقم ٣٣٦٨)، وابن ماجه (٦٣١/١ رقم ١٩٦٢).

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ
الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ

ومعنى الآية: ومن لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة؛ فليتزوج بالأمة المؤمنة، وفيه دليل على أن نكاح الأمة الكتابية باطل.

قال الشعبي: نكاح الأمة مع القدرة على مهر الحرة حرام، كالميتة والدم، وقال عطاء: الطَّوْلُ الهوى، ومعنى الآية: ومن لم يستطع من هواه أن ينكح الحرة؛ بأن كان يهوى الأمة دون الحرة، فليتزوج بالأمة؛ فعلى هذا يجوز نكاح الأمة، وإن كان قادراً على مهر الحرة، والفتى: العبد، والفتاة الجارية، فمعنى قوله - تعالى - ﴿: مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ من فتياتكم المؤمنات ﴿: أَى: من جواريككم.

﴿: وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ﴾ أى: لا تتعرضوا للباطن فى الإيمان، وخذوا بالإيمان الظاهر؛ فإن الله أعلم بإيمانكم ﴿: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أى: كلكم من نفس واحدة؛ فلا تستنكفوا من نكاح الإماء، وقيل: معناه بعضكم أخوة لبعض.

﴿: فَانكِحُوهُنَّ ﴾ أى: الإماء ﴿: بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ أى: بإذن مواليهن ﴿: وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أى: مهورهن ﴿: بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ ﴾ يعنى: عفائف بالتزويج ﴿: غَيْرِ مَسَافِحَاتٍ ﴾ أى: غير زانيات ﴿: وَلَا مَتَخِذَاتٍ أَخْدَانٍ ﴾ فالمسافحة: هى أن تمكن منها كل أحد، قال الحسن: المسافحة: هى امرأة كل من أوى إليها تبعته، وذات الخدن: هى أن تختص بصديق، والعرب كانت تحرم الأولى وتستبيح الثانية.

قوله تعالى: ﴿: فَإِذَا أَحْصَنْ ﴾ قال ابن مسعود: فإذا أسلمن. وقال ابن عباس: فإذا تزوجن، ويقرأ فإذا «أُحْصِنَّ» بضم الألف، ومعناه: زوجن^(١).

﴿: فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ ومعنى الآية - على قول ابن عباس، وهو الأصح - : أن الإماء إذا تزوجن وصرن ثِيْبًا ﴿: فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ

(١) قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو بكر: بفتح الهمزة، والصاد، وقرأ الباقر بضم الهمزة، وكسر الصاد.

الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ

ما على المحصنات ﴿﴾ يعنى: الحرائر ﴿﴾ من العذاب ﴿﴾ أى: من عذاب الحد، وحد الحرائر: يكون بالجلد؛ ويكون بالرجم، والرجم لا ينتصف؛ فكان المراد تنصيف الجلد. وذهب بعض العلماء إلى أن الأمة البكر إذا زنت، لاحد عليها؛ لظاهر هذه الآية، وهذا لا يصح.

قال الزهرى: حد الأمة الثيب ثابت بهذه الآية، وحد الأمة البكر ثابت بالسنة، والسنة المعروفة فيه: قوله ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها» ^(١) ﴿﴾ ذلك لمن خشى العنت منكم ﴿﴾ العنت: الزنا، وقد يكون بمعنى المشقة، كما بينا ﴿﴾ وأن تصبروا ﴿﴾ يعنى: عن نكاح الإماء ﴿﴾ خير لكم ﴿﴾ كيلا يخلق الولد رقيقا ﴿﴾ والله غفور رحيم ﴿﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ يعنى: أن يبين لكم، ومثله قول الشاعر:

أريدُ لأُنسى ذِكْرَهَا فكَأَنَّمَا تَمَثَّلَ لى لىلى بكل سبيل

يعنى: أريد أن أنسى ذكرها.

قوله: ﴿ليبين لكم﴾ أى: يوضح لكم الأحكام ﴿﴾ ويهديكم ﴿﴾ أى: يرشدكم ﴿﴾ سنن الذين من قبلكم ﴿﴾ أى: طرائق الذين من قبلكم من النبيين، والصالحين، وقيل: من قوم موسى، وعيسى، الذين هدوا بالحق؛ وذلك أنه حرم عليهم ما حرم على المسلمين من المحارم المذكورات، وقيل: معناه: ويهديكم إلى ^(٢) الملة الخفيفة، ملة إبراهيم، ﴿﴾ ويتوب عليكم ﴿﴾ قال ابن عباس: بداء من الله، ومعناه: يوفقكم للتوبة، وقيل: يرشدكم إلى السبيل الذى يدعوكم إلى التوبة ﴿﴾ والله عليم ﴿﴾ بمصالح أمركم

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة وزيد بن خالد، رواه البخارى (١٦٨/١٢) رقم ٦٨٣٧ وأطرافه فى ٢١٥٣،

٢١٥٤، ٢٢٣٢، ٢٢٣٣، ٢٥٥٥، ٢٥٥٦، ٦٨٣٨)، ومسلم (١١/٣٠٣ رقم ١٧٠٤).

(٢) من «ك».

أَخَذَانِ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ

﴿حكيم﴾ فيما دبر .

قوله تعالى: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ هو ما ذكرنا. ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ قال مجاهد: هم الزناة، وقيل: أراد به: اليهود، والنصارى، قال مقاتل بن حيان: اليهود خاصة؛ لأنهم استحلوا نكاح الأخت من الأب ﴿أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ الميل العظيم: هو أن يفعل فعلاً لا يخاف الله فيه، ولا يرقب الناس، وقيل: الميل العظيم باتباع الشهوات.

قوله - تعالى - : ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أى: يسهل عليكم، وقد سهل هذا الدين؛ قال ﷺ: «بعثت بالسمة السهلة الحنيفية»، وروى: «الحنيفية السمة السهلة»^(١) وقال الله - تعالى - : ﴿يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾^(٢).

﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ قال طاوس، ومجاهد: وخلق ضعيفاً فى أمر النساء؛ لا يصبر عنهن، وقال وكيع: يذهب عقله عندهن؛ فهو ضعيف، وقال الزجاج: يستميله هواه وشهوته.

قوله - تعالى - : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ قال السدى: هو القمار، والربا، ونحوه، وقال غيره: كل العقود الباطلة ﴿إلا أن تكون تجارة﴾ يقرأ: بالضم والفتح، وقد ذكرنا وجه القراءتين فى سورة البقرة.

﴿عن تراض منكم﴾ أى: بطيبة نفس منكم ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أى: لا يقتل بعضكم بعضاً، وقرأ الحسن: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ - مشدداً - على التكرير.

(١) رواه أحمد (٢٦٦/٥) عن أبى أمامة، والخطيب فى تاريخه (٢٠٩/٧) عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.

ورواه أحمد (١٦/٦) عن عائشة، وفيه «لتعلم يهودان فى ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمة».

وقال السخاوى فى المقاصد (ص ١٨٦): وسنده حسن، وفى الباب عن أبى بن كعب، وأسعد بن عبد الله الخزاعى، وجابر، وابن عمر، وأبى هريرة وغيرهم.

وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ

وقيل: معناه: ولا تقتلوا أنفسكم بأكل المال الباطل، وقيل: أراد به: قتل الرجل نفسه على الحقيقة ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعنى: ما سبق من الحرام ﴿عَدُوَانَا وَظُلْمًا﴾ فالعدوان: مجاوزة الحد، والظلم: وضع الشيء فى غير موضعه.

﴿فَسَوْفَ نَصْلِيه نَارًا﴾: ندخله نارا، يصلى بها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أى: هيّنا، وروى عن ابن عمر أنه قال: كنا نشهد لمن ارتكب الكبائر بالنار بهذه الآيات؛ حتى نزل قوله - تعالى -: ﴿وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١) فتوقفنا.

قوله - تعالى -: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: «أى الكبائر أكبر؟ فقال: أن تدعو لله ندا وهو خلقك، قيل: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يأكل معك، قيل: ثم أى؟ قال: أن تزنى بحليلة جارك، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (٢)» (٣) وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وكان متكئا فاستوى جالسا، وقال: وشهادة الزور، وشهادة الزور، فما زال يردده حتى قلنا: ليته سكت» (٤).

وقال ابن مسعود: الكبائر: ما ذكر الله - تعالى - فى هذه السورة إلى هذه الآية: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ﴾.

(١) النساء: ٤٨، ١١٦.

(٢) الفرقان: ٦٨.

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود، فرواه البخارى (١٢/١١٦) رقم ٦٨١١ وأطرافه فى ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢، ومسلم (٢/١٠٥ - ١٠٦) رقم ١٤١.

(٤) متفق عليه من حديث أبى بكر، فرواه البخارى (١٠/٤١٩) رقم ٥٩٧٦ وأطرافه فى ٢٦٥٤، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤، ٦٩١٩، ومسلم (٢/١٠٨) رقم ١٤٣ وليس عندهما «الفرار من الزحف».

وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

وعن ابن مسعود أيضا أنه قال: الكبائر أربعة: الإِشْرَاقُ بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله.

وقال ابن عباس: الكبائر سبع: الإِشْرَاقُ بالله، وقتل النفس بغير نفس، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، و الفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، يعنى: إلى دار الحرب.

وقال ابن عمر: الكبائر تسع فذكر هذه السبع وزاد شيئين أحدهما: السحر، والثانى: الإلحاد فى الحرم بالميل والظلم.

وسئل ابن عباس، فقيل له: الكبائر سبع؟ فقال: هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، وقال المغيرة بن مقسم الضبى: شتم أبى بكر، وعمر من الكبائر.

والجملة أن الكبائر: كل جريمة أُوْعِدَ الله - تعالى - عليها النار، وقال أبو صالح: الكبيرة كل ما أوجب الحد؛ غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وقوله: ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ قال السدى: أراد بالسيئات: الصغائر ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ إن شئت؛ فالمشيئة مضمرة فيه، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس، كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»^(١).

وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يصيبه وصب، أو نصب، إلا كفر عنه خطايا حتى الشوكة يشاكها»^(٢).

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٣/ ١٤٧ - ١٤٨ رقم ٢٣٣)، والترمذى (١/ ٤١٨ / رقم ٢١٤)، وأحمد (٣٥٩/٢) من حديث أبى هريرة.

وقال الترمذى حسن صحيح، وفى الباب عن جابر، وأنس، وحنظلة الأسدى.

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد، وأبى هريرة، رواه البخارى (١٠/ ١٠٧ / رقم ٥٦٤١) ومسلم (١٦/ ١٩٦ / رقم ٢٥٧٣).

عُدُونَا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ

وقيل: باجتناب الكبائر، تقع الصغائر مكفرة، ومذهب أهل السنة: أن تكفير الصغائر معلقة بالمشيئة؛ فيجوز أن يعفو الله عن الكبائر، ويأخذ بالصغائر، ويجوز أن يجتنب الرجل الكبائر، فيؤخذ بالصغائر.

﴿وندخلكم مدخلا كريما﴾ وتقرأ: «مدخلا»^(١) - بفتح الميم - فالمدخل: الجنة والمدخل - بضم الميم -: الإدخال، يعنى: إدخالاً كريماً.

قوله - تعالى - : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ سبب نزول الآية: ماروى عن أم سلمة، قالت: يارسول الله: إن الرجال يغزون ولا يغزوا، ولهم ضعف مالنا من الميراث، فلو كنا رجالا غزونا كما غزوا، وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا؛ فنزل قوله: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ وقيل: سبب نزول الآية: أن أهل الجاهلية كانوا لأبوتهم النساء؛ فلما نزلت الآية بتوريث النساء، وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، قالت النساء: لو كنا رجالا لأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا، وقال الرجال: كما فضلنا عليكم فى الدنيا، نفضل عليكم فى الآخرة؛ فنزلت الآية.

قال الفراء: هذا نهى تأديب وتهذيب، وقال غيره: إنه نهى تحريم ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا﴾ يعنى: من الأجر ﴿وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ يعنى: من الأجر، ومعنى الآية: أن الرجال والنساء فى الأجر فى الآخرة سواء، وإن فُضِّلَ الرجال على النساء فى الدنيا، فالحسنة بعشر أمثالها يستوى فيها الرجل والمرأة، وقيل: معناه: للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد، وللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج، وحفظ الفروج، يعنى: إن كان للرجل فضل الجهاد، فللنساء فضل طاعة الأزواج، وحفظ الفروج.

(١) قرأ نافع، وأبو جعفر المدنيان: بفتح الميم، وقرأ الباقون بالضم. انظر النشر (٢/ ٢٤٩).

عَلَى بَعْضِ الرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ

﴿واسألوا الله من فضله﴾ وفى هذا دليل على أن الحسد حرام، والحسد: هو أن يتمنى زوال النعمة عن صاحبه، ويتمناها لنفسه، والغبطة: هو أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه، فالحسد حرام، والغبطة لأبأس بها، ثم اختلفوا فى معنى الفضل هاهنا، قال ابن عباس: واسألوا الله من فضله، أى: من رزقه.

وقال سعيد بن جبير: معناه: ﴿واسألوا الله من فضله﴾ أى: من عبادته، وقيل: هو سؤال التوفيق على الطاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿ولكل جعلنا موالى﴾ ولكل من الرجال والنساء جعلنا ورثة، قال مجاهد: الموالى ها هنا: بنو الأعمام، وقال الشاعر:

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنشبوا بيننا ما كان مدفونا

وقيل: هم جميع الأقارب، ومعنى الآية: ولكل جعلنا موالى يعطون ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ ﴿والذين عاقدت﴾ (١) أيما نكم فأتوهم نصيبهم ﴿عاقدت، وعقدت، وحالفت بمعنى واحد، وهو من الحلف والعهد: وهو أن يقول الرجل لصاحبه: دمي دمك، ومالى مالك، وترثنى وأرثك، وكان فى الجاهلية يورث بالحلف، وأقر عليه فى الإسلام، وكان للحليف السدس، ثم نسخ ذلك بقوله - تعالى - : ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ (٢) وقيل: هذا فى التوريث بالتبني، وكان ثابتاً، ثم نسخ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ سبب نزول الآية: أن امرأة سعد بن الربيع جاءت إلى النبى ﷺ وقالت: «إِنَّ زَوْجِي

(١) كذا بالأصل، و«ك» وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم «عقدت» بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف. انظر النشر

(٢٤٩/٢).

(٢) الانفال: ٧٥.

عَقَدَتْ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ

لطمنى على وجهى، وهذا أثره، فقال ﷺ: اذهبى فاقتصى منه؛ فنزل قوله - تعالى -: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ (١) يعنى: بالتأديب.

قال الحسن: لما قال ﷺ لها: اذهبى فاقتصى منه؛ نزل قوله: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ (٢) أى: لا تحكم قبل أن ينزل حكم الله.

والقَوَّام والقَيِّم بمعنى واحد، والقَوَّام أبلغ: وهو القائم بالمصالح والتدبير، قال الشاعر:

الله بينى وبين قيمها يفر منى وأتبع

﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ يعنى: الرجال على النساء بالعقل، والعلم، والحلم. ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ يعنى: بإعطاء المهر، والنفقة.

﴿فالصالحات قانتات﴾ يعنى: مطيعات، وقيل: مصلّيات ﴿حافظات للغيب﴾ أى: حافظات للفرج فى غيبة الأزواج ﴿بما حفظ الله﴾ يعنى: بما حفظهن الله من إيصال (٣) الأزواج بأداء حقهن من المهر والنفقة، وقيل: معناه: حافظات للغيب بحفظ الله، وقرأ أبو جعفر المدنى «بما حفظ الله» بفتح الهاء (٤) يعنى: بما حفظ الله من طاعتهن وعبادتهن.

﴿واللاتى تخافون نشوزهن﴾ النشوز: هو الشقاق ﴿فعظوهن﴾ أى: بالتخويف من الله، والوعظ بالقول، ﴿واهجروهن فى المضاجع﴾ قال ابن عباس: ومعناه: ولّوهن ظهوركم فى المضاجع؛ وذلك بأن يوليها ظهره فى الفراش، ولا يكلمها، وقيل: معناه: أن يعتزل عنها فى فراش آخر.

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ١١١).

(٢) طه: ١١٤.

(٣) فى «الأصل، وك»: إيصال، آخره لام. والصواب ما أثبتناه، انظر تفسير البغوى (١/ ٤٢٢).

(٤) انظر المصدر السابق، والنشر (٢/ ٢٤٩).

لَلْغَيْبِ بِمَا حَفَظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا

﴿واضربوهن﴾ يعنى: ضربا غير مبرح، وذلك ضرب، ليس فيه جرح ولا كسر، قال عطاء: ضرب بالسواك ونحوه.

﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ يعنى: بالتعلل، والتجنى، وقيل: فلا تكلفوهن محبتكم؛ فإن القلب ليس بأيديهن ﴿إن الله كان عليا كبيرا﴾ أى: متعاليا عن أن يكلف العباد ما لا يطيقونه، وفى الخبر: «لو جاز أن يسجد أحد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها؛ لما له عليها من الحقوق» (١).

وروى مرفوعا: «خير النساء من إذا دخلت عليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك» (٢).

﴿وإن خفتن شقاق بينهما﴾: هو النشوز، قال أبو عبيدة: أراد به: إن تيقنتن شقاق بينهما، فالخوف بمعنى: اليقين، ومنه قول الشاعر:

إذا مت فارمينى إلى جنب كرمه أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها (٣)

أى: أتيقن.

(١) رواه الترمذى (٤٦٥/٣ / رقم ١١٥٩) وقال: حسن غريب، وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (٤٧٠/٩ / رقم ٤١٦٢)، والبيهقى (٢٩١/٧) كلهم من حديث أبى هريرة.

ورواه الحاكم (١٧١-١٧٢ / ٤) بإسناد آخر، وصححه، وتعبه الذهبى فى التخليص بقوله: بل سليمان هو اليمامى، ضعفه. وفى الباب عن غير واحد من الصحابة.

(٢) رواه النسائى (٦٨/٦ / رقم ٣٢٣١)، والطيالسى (ص ٣٠٦ / رقم ٢٣٢٥)، وأحمد فى مسنده (٢٥١/٢)، والحاكم (١٦١/٢) وصححه على شرط مسلم، كلهم من حديث أبى هريرة وروى هذا الحديث من حديث ابن عباس، وأبى أمامة، وعبد الله بن سلام، وغيرهم، انظر تخريج الكشاف للزيلعى (٣١٣/١ - ٣١٥).

(٣) هذا البيت ملفق، فالشطر الثانى منه هو الشطر الثانى من البيت الذى يليه. وصواب الأبيات كما يأتى:

إذا مت فادفننى إلى جنب كرمه تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى بالغلاة فإننى أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

انظر لسان العرب (مادة: كرم، عرق)، وتفسير القرطبى (٥٤/٢).

فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ

وأنكر الزجاج ذلك عليه، وقال: إذا تيقن الشقاق، فلا معنى لبعث الحكمين، بل الخوف بمعنى الظن، يعنى: إن ظننتم شقاق بينهما ﴿فابعثوا حكما من أهله﴾ يعنى من أهل الزوج، ﴿وحكما من أهلها﴾ يعنى: من أهل الزوجة. ﴿إن يريدَا إِصْلَاحًا يوفق الله بينهما﴾ إن كان عليهما خبيرا ﴿وهل يجوز للحكمين التفريق؟ فللسلف فيه قولان: أحدهما: أنه يجوز التفريق، كما يجوز الجمع من غير رضا الزوج، وروى عن علي: أنه بعث الحكمين، فقال الزوج: أما الفرقة فلا، فقال علي: لا حتى ترضى بكتاب الله تعالى؛ فعلى هذا معنى قوله: ﴿يوفق الله بينهما﴾ يعنى: يوفق الله بين الحكمين بما فيه الصلاح من الفرقة أو الجمع، والصحيح - وعليه الفتوى - : أنه لايجوز التفريق، وهو ظاهر الآية.

قوله - تعالى - : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ روى عن معاذ أنه قال: «كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال لى: يامعاذ. فقلت: لبيك وسعديك. فقال: أتدرى ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، ثم قال: يامعاذ، قلت: لبيك وسعديك، قال: أتدرى ما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن يدخلهم الجنة، ولا يعذبهم»^(١).

﴿وبالوالدين إِحْسَانًا﴾ أى: وأحسنوا بالوالدين إِحْسَانًا، ومن الإحسان بالوالدين: لين الجانب، وألا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يجبه بالرد^(٢)، ويكون لهما كالعبد الذليل لسيده ﴿وبذى القربى﴾ أى: أحسنوا بذى القربى ﴿واليتامى والمساكين

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (١٣-٣٥٩ - ٣٦٠ رقم ٧٣٧٣) وأطرافه فى ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠) ومسلم (١/٣١٥ - ٣٢٠ رقم ٣٠).

(٢) جَبَّ الرجل يجبهه جَبًّا. أى: رده عن حاجته، واستقبله بما يكره. انظر لسان العرب (مادة: جبه).

أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

والجار ذى القربى ﴿﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الجار الذى له قرابة. والثانى: أنه الجار الذى بقرب داره، وهو الملاصق، ﴿والجار الجنب﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه الجار الغريب الأجنبى، والثانى: أنه الجار الذى يبعد داره.

وقد ورد فى حق الجار أخبار، منها: ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «ما زال جبريل يوصينى بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه» (١) وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» (٢)، وقال ﷺ لمناديه حتى نادى: «ألا إن الجيران أربعون داراً، ولم يؤمن بالله من آذى جاره» (٣).

وقالت عائشة لرسول الله ﷺ: «إن لى جارين، فإلى إيهما أهدى؟ فقال: إلى أقربهما باباً» (٤) فحق الجار القريب المسلم ثلاثة حقوق: حق القرابة، وحق الإسلام، وحق الجوار، وللجار الغريب المسلم حقان: حق الإسلام، وحق الجوار، وللجار الذمى حق واحد، وهو حق الجوار.

قوله - تعالى -: ﴿والصاحب بالجنب﴾ قال على، وابن مسعود: هى المرأة، وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وجماعة: هو الرفيق فى السفر، ﴿وابن السبيل﴾ فيه

(١) متفق عليه من حديث عائشة، فرواه البخارى (١٠/٤٥٥ / رقم ٦٠١٤)، ومسلم (١٦/٢٦٩ / رقم ٢٦٢).

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (١٠/٤٦٠ / رقم ٦٠١٨)، ومسلم (٢/٢٣ - ٢٦ / رقم ٤٧).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير (١٩/٧٣ / رقم ١٤٣) عن كعب بن مالك مرفوعاً بنحوه. وقال الهيثمى فى المجمع (٨/١٧٢): وفيه يوسف بن السفر، وهو متروك. ورواه أبو داود فى المراسيل (ص ٢٥٧ / رقم ٣٥٠) عن الزهرى مرسلًا، ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٠ / ٣٨٥ رقم ٥٩٨٢) عن أبى هريرة مرفوعاً بنحو شرطه الأول وقال الهيثمى فى المجمع (٨/١٧١): رواه أبو يعلى عن شيخه محمد بن جامع العطار، وهو ضعيف.

(٤) رواه البخارى (١٠/٤٦١ / رقم ٦٠٢٠)، وأبو داود (٤/٣٣٩ / رقم ٥١٥٥)، وأحمد فى مسنده (٦/١٧٥)، والطيالسى فى مسنده (٢١٥ رقم ١٥٢٩).

رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

قولان: أحدهما: أنه الملازم للطريق، قاله ابن عباس، وقال غيره: هو الضيف، وقال ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(١) وقال ﷺ «الضيافة ثلاثة أيام، فما زاد فهو صدقة»^(٢).

﴿وما ملكت أيمانكم﴾ يعني: أحسنوا إلى المماليك، وآخر ما حفظ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم»^(٣) أى: الزموا الصلاة، وحق ما ملكت أيمانكم.

﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ المختال: المتكبر، والفخور: الذى يفخر بنفسه تكبرا، قال الشاعر:

وإن كنت سيدنا سُدَّتْنَا وإن كنت للخالِ فاذهب فخلْ

يعنى: إن كنت للخيلاء فاذهب فخل، فإن قيل: أى معنى لهذا بعد هذه الأحكام؟ قيل: لأن آدمى قد يُقَصِّرُ فى أداء الحقوق تكبرا؛ فنهى عنه، وفى الخبر: «أن رجلا كان يتبختر فى حلة له، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٤).

قوله - تعالى - : ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ قيل: هو عام فى كل

(١) تقدم تخريجه قبل حديثين تحت حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره».

(٢) متفق عليه من حديث أبى شريح، فرواه البخارى (١٠/٤٦٠ / رقم ٦٠١٩) ومسلم (٢/٢٧ / رقم ٤٨)، و (١٢/٤٥ - ٤٧).

(٣) رواه أبو داود (٤/٣٣٩ - ٣٤٠ / رقم ٥١٥٦)، وابن ماجه (٢/٩٠١ / رقم ٦٩٨) وأحمد (١/٧٨) والبيهقى (١١/٨) كلهم من حديث على بن أبى طالب.

وروى من حديث أنس بن مالك، رواه ابن ماجه (٢/٩٠١ / رقم ٢٦٩٧) وأحمد (٣/١١٧)، وابن حبان فى صحيحه الإحسان (١٤/٥٧١ / رقم ٦٦٠٥)، والحاكم (٣/٥٧).

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (١٠/٢٦٩ / رقم ٥٧٨٩)، ومسلم (١٤/٨٩ - ٩٠ / رقم ٢٠٨٨).

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ

بخيل فى العالم، وقيل أراد به: اليهود والنصارى بخلوا بنعت محمد، وأمروا سفلتهم بذلك، ﴿﴾ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا ﴿﴾ أى: أعدنا ﴿﴾ للكافرين عذابا مهينا ﴿﴾.

قوله - تعالى - : ﴿﴾ والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴿﴾ قال إبراهيم النخعى: هم اليهود والنصارى، وقال غيره: هم المنافقون. ﴿﴾ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴿﴾ أى: فبئس القرين، قال الشاعر:

عن المرء لاتسأل وبصر قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى

قوله - تعالى - : ﴿﴾ وماذا عليهم ﴿﴾ أى: وأى شىء عليهم ﴿﴾ لو آمنوا بالله ﴿﴾ وهو مثل ما يحاسب الرجل نفسه، فينظر فيما له، وفيما عليه؛ يقول الله - تعالى - أى: شىء عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ﴿﴾ وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ﴿﴾.

قوله - تعالى - : ﴿﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿﴾ قرأ ابن مسعود: «مِثْقَالُ نَمْلَةٍ» والذرة: هى النملة الحمراء، ﴿﴾ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا ﴿﴾ وقرئ: «يَضَعُفْهَا» (١) وهما فى المعنى سواء. ﴿﴾ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿﴾.

قوله - تعالى - : ﴿﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿﴾ معناه: فكيف الحال إذا جئنا من كل أمة بشهيد؟ وأراد بالشهيد من كل أمة نبيها، وشهيد هذه الأمة: نبينا ﷺ.

واختلفوا على أن شهادتهم على ماذا؟ منهم من قال: يشهدون على تبليغ الرسالة، ومنهم من قال: يشهدون على الأمة بالأعمال.

(١) قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: بتشديد العين مع حذف الألف، وقرأ الباقر بإثبات الألف، والتخفيف. انظر النشر (٢/ ٢٢٨).

إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَعَصَوْا الرُّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

واختلفوا في أن النبي ﷺ هل يشهد على من لم يره؟ منهم من قال: إنما يشهد
على من رآه، والصحيح: أنه يشهد على الكل، على من رأى، وعلى من لم يره.

وروى عن ابن مسعود: «أن النبي ﷺ قال لي: «اقرأ على القرآن» فقلت: كيف
أقرأ عليك القرآن، وعليك أنزل؟! فقال: أريد أن أسمع من غيري. قال ابن مسعود:
فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا
بك على هؤلاء شهيدا﴾ غمزني رسول الله ﷺ بيده، وقال: حسبك، فنظرت إليه،
فإذا عيناه تذرفان»^(١)، وفي رواية: «لما قرأت هذه الآية، قرأ رسول الله ﷺ:
﴿وكنتم عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب
عليهم﴾»^(٢) وفي رواية ثالثة: «هذا يارب فيمن رأيته، فكيف بمن لم أره؟»^(٣)
وأصل الحديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿يُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرُّسُولَ لَوْ
تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ ويقرأ: «لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ»^(٤) أى: تستوى، يعني: يودون
أن يصيروا ترابا، وهذا مثل قوله - تعالى - ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ الْيَتَى كُنْتُ
تَرَابًا﴾^(٥)، وذلك حين تحشر البهائم ثم يقول الله - تعالى - لهم: كونوا ترابا،
فيكونون ترابا؛ فيود الكفار هنالك أن يصيروا مثل البهائم ترابا، وقيل: يودون أن

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (٩٨-٩٩/رقم ٤٥٨٢) ومسلم (٨/١٢٤-١٢٦/رقم ٨٠٠).

(٢) المائدة: ١١٧.

(٣) رواه الطبري (٥٩/٥) عن ابن مسعود.

(٤) عزاه السيوطي في الدر (٨٠/٢) لابن أبي حاتم، والبخارى بسند حسن، عن محمد
ابن فضالة الأنصارى، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٧): رجاله ثقات.

(٥) قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بفتح التاء، وتخفيف السين، وقرأ نافع وأبو جعفر، وابن عامر بفتح التاء
وتشديد السين، وقرأ الباقر بضم التاء وتخفيف السين. انظر النشر (٢/٢٤٩).

(٦) النبأ: ٤٠.

تَقَرَّبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً

تنخرق الأرض؛ فساخوا فيها وهلكوا، وتسوى بهم الأرض، أى: عليهم الأرض.

﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ فإن قيل: قد أخبر هاهنا أنهم لا يكتُمون الله حديثاً، وذكر فى موضع آخر قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(١) فقد كتموا، فكيف وجه الجمع؟ قيل: قال الحسن البصرى: وهذا فى موطن وذاك فى موطن، آخر، وفى القيامة موطن، وهذا جواب معروف أورده القتيبى فى مشكل القرآن. وقيل: معناه: يودون أن لا يكتُمون الله حديثاً، وذلك أنهم يقولون: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(١) ونحو ذلك، فيختم الله على أفواههم، ويُنطق جوارحهم؛ فيودون أنهم لم يكتُموا الله حديثاً فهو راجع إلى قوله: ﴿يود الذين كفروا﴾ وقيل: معناه: لا يقدرُونَ أن يكتُموا الله حديثاً.

قوله - نعالى - : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ يعنى: لا تقربوا موضع الصلاة، ﴿وأنتم سكارى﴾ فالأصح - وعليه أكثر المفسرين - أنه أراد به: السكر من الشراب، وهو قول ابن عباس.

وقال الضحاك^(٢): أراد به: السكر من النوم.

والسكر من السكر فهو أشد، فالسكر يسد العقل والمعرفة، والصحيح أنه فى السكر من الشراب.

وسبب نزول الآية ما روى: أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً، واتخذ شراباً، ودعا رهطاً من أصحاب رسول الله ﷺ، فأكلوا، وشربوا حتى ثملوا، فدخل وقت المغرب، فقاموا إلى الصلاة، وقدموا واحداً منهم، فقرأ سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وقرأ: أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد، قرأ هكذا إلى آخر السورة بطرح «لا»؛

(١) الأنعام: ٢٣.

(٢) فى «ك»: ابن عباس، وهو خطأ.

فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

فنزل قوله: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ﴿٤٣﴾ أى: حتى تميزوا، وتعرفوا ما تقولون.

فإن قيل: كيف خاطب السكارى، والسكران لا يخاطب؟ قيل: أراد به لا تتعرضوا للسكر فى أوقات الصلاة، فكانوا يشربون بعد ذلك بعد صلاة الصبح، ويصحون عند الظهر، ويشربون بعد العشاء الآخرة، ويصحون عند الصبح.

﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل﴾ يعنى: ولا تقربوا المسجد موضع الصلاة جنبا، إلا عابرى سبيل، اختلفوا فيه: قال جماعة من التابعين - وهو قول الشافعى -: إنه أراد به عبور: الجنب فى المسجد من غير أن يجلس؛ فرخص فيه، وقال بعضهم إنه يتيمم للعبور، ثم يعبر إذا لم يكن له بد من العبور، والآية فى قوم من الأنصار كانت أبواب بيوتهم فى المسجد: فرخص لهم فى العبور بالتيمم، فهذا معنى قوله: ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا﴾.

﴿وإن كنتم مرضى﴾ أراد به: المرضى من القروح والجروح، وفيه تفاصيل تذكر فى الفقه، ﴿أو على سفر﴾ وحَدُّ السفر: مسيرة يوم وليلة، وقال أصحاب الرأى: مسيرة ثلاثة أيام ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ قال الفراء: معناه: وجاء أحد منكم من الغائط؛ حتى يستقيم الكلام، و الغائط: اسم للمطمئن من الأرض؛ فلما جرت عادة العرب بإتيان الغائط للحدث؛ سمى الحدث غائطا باسم المكان.

﴿أو لمستم النساء﴾ ويقرأ: «أو لامستم النساء» ^(١) قال على، وابن عباس: أراد به الجماع، قال ابن عباس: إن الله حى كريم، يكنى بالحسن عن القبيح؛ فكنى باللمس عن الجماع، وقال ابن مسعود، وابن عمر: هو اللمس باليد، وهو قول الشافعى، فمن قال بالأول قال: إن التيمم للجنب ثابت بنص الكتاب، ومن قال

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف بغير ألف، وقرأ الباقرن بالألف. انظر النشر (٢/ ٢٥٠).

بَأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ

بالثاني قال: إن التيمم للمحدث ثابت بالكتاب، وللجنب ثابت بالسنة.

وقال عمر، وابن مسعود: ليس للجنب أن يتيمم أصلاً، وحملوا الآية على اللمس باليد، وتمسكوا بظاهر الآية.

والأصح أن اللمس والملازمة واحد، وقال بعضهم: من قرأ: ﴿أو لمستم﴾ ففيه دليل على انتقاض طهارة اللامس والملموس جميعاً. ومن قرأ: ﴿أو لمستم﴾ ففيه دلالة على انتقاض طهارة اللامس فحسب.

﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا﴾ أى: اقصدوا، وتعمدوا، والتيمم: القصد، قال الشاعر:

تيممت قيساً وكم دونه من الأرض من مَهْمَةٍ ذى شَرَنٍ

﴿صعيداً﴾ قال أبو عبيدة: الصعيد: التراب، وهو قول الشافعى، وقال ابن الأعرابى: الصعيد: ما يصعد من وجه الأرض، وهو اختيار الزجاج، وقال الزجاج: لو ضرب يده على صخرة صماء حصل التيمم، وإن لم يعلق به شيء، واستدلوا بقوله: ﴿صعيداً زلقاً﴾^(١) وأراد به: وجه الأرض، والأول أصح؛ لأنه قال فى آية أخرى: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾^(٢) يعنى: من الصعيد؛ فدل أنه التراب حتى يكون التيمم منه وقوله: ﴿طيباً﴾ أى: طاهراً، وقال بعضهم: حلالاً ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ إن الله كان عفواً غفوراً ﴿فالعفو المسهل والغفور: الساتر.

قوله - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ فإن قال قائل: كيف يسمى اليهود والنصارى: «أهل الكتاب»، وهو اسم مدح، وهم يستحقون الذم؟

قيل: قال ذلك لإلزام الحجة، وقيل: سماهم بذلك على زعمهم أنهم أهل الكتاب.

أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ

﴿يشترون الضلالة﴾ لأنهم لما استبدلوا الضلالة بالهدى، فكأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، وكل مشتر مستبدل.

﴿ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ قال الزجاج: معناه: اكتفوا بالله وليا واكتفوا به نصيرا؛ لتكون «الباء» فى موضعها، وقال غيره: الباء صلة، وتقديره: وكفى الله وليا وكفى الله نصيرا.

قوله - تعالى - : ﴿من الذين هادوا يحرفون﴾ قيل تقديره: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من الذين هادوا يحرفون، وقيل معناه: من الذين هادوا فريق يحرفون ﴿الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا﴾ لأنهم لما سمعوا ولم يطيعوا، فكأنهم قالوا: سمعنا وعصينا.

﴿واسمع غير مسمع﴾ قال ابن عباس: كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: اسمع، ثم يقولون فى أنفسهم: لاسمعت، فهذا معناه، وقال الحسن: اسمع غير مسمع منك، يعنى: اسمع منا، ولا نسمع منك ﴿وراعنا﴾ كانوا يقولون ذلك، ويريدون به: النسبة إلى الرعونة، فذلك معنى قوله: ﴿لياً بالسنتهم وطعنا فى الدين﴾؛ لأن قولهم: راعنا من المراعاة، فلما حرفوه إلى الرعونة، فذلك معنى قوله: ﴿لياً بالسنتهم﴾.

﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرن﴾ أى: انظر إلينا ﴿لكان خيرا لهم وأقوم﴾ أى: أعدل ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ فيه قولان: أحدهما فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، لا يستحقون به اسم الإيمان؛ وذلك أنهم يؤمنون بالله، والآخرة، وموسى، وقيل: معناه: فلا يؤمنون إلا نفر قليل منهم، وأراد به: عبد الله بن سلام، وقوما منهم أسلموا.

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا﴾ يعنى: من القرآن ﴿مصدقاً لما

﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ

معكم ﴿من التوراة والإنجيل﴾ من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ﴿الطمس: المحو، ومعناه: من قبل أن نطمس الوجه، ونرده إلى القفا، وقيل: معناه: نبات الشعر عليه، حتى يصير كالقردة، وقيل: يجعل عينيه على القفا ليمشى بقهقري، وروى: أن عبد الله بن سلام لما سمع هذه الآية، جاء إلى النبي ﷺ ويده على وجهه، فأسلم، وقال: خفت أن يطمس وجهي قبل أن أصل إليك، وكذلك كعب الأحرار لما سمع هذه الآية أسلم في زمن عمر رضي الله عنه .

فإن قال قائل: قد أوعد اليهود بالطمس إن لم يسلموا، ولم يطمس وجوههم، فكيف ذلك؟ قيل: هذا كان في قوم معدودين أسلموا، وذلك: عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيد، وأوس بن سعيد، والمحريق، وجماعة، ولو لم يسلموا لطمسوا.

وقيل: أراد به: الطمس في القيامة، قال مجاهد: أراد بقوله ﴿نطمس وجوها﴾ أى: نتركهم في الضلالة؛ فيكون المراد طمس القلب ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ أى: نجعلهم قردة كما جعلنا أصحاب السبت قردة ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾.

قوله - تعالى - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قيل: هذه أرجى آية في القرآن، قال ابن عمر: كنا نطلق القول فيمن ارتكب الكبائر بالخلود في النار، حتى نزلت هذه الآية، فتوقفنا ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ أى: اختلق إثما عظيما، فإن قال قائل: قد قال الله - تعالى - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (١) فكيف وجه الجمع؟

قيل أراد به: يغفر الذنوب جميعا سوى الشرك.

إِنَّمَا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا

وفى الخبر: «أنه ﷺ لما قرأ قوله - تعالى - ﴿إِنْ اللّٰهُ يَغْفِر الذّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (١) فقال رجل: والشرك يارسول الله؟ فنزل قوله - تعالى - ﴿إِنْ اللّٰهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ﴾ (٢)».

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ نزلت الآية في رجبى بن عمرو، ومرحب بن زيد، جاءا إلى النبي ﷺ بأطفالهما، وقالا: هل على هؤلاء ذنب؟ فقال: لا. فقالا: نحن مثلهم؛ ما فعلنا بالليل يكفر عنا بالنهار، وما فعلنا بالنهار يكفر عنا بالليل، فنزل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

﴿بل الله يزكى من يشاء﴾ يطهر من يشاء.

﴿ولا يظلمون فتيلًا﴾ أى: لا يُنْقَصُ من أجورهم شيء إن أسلموا، ولا من أوزارهم إن لم يسلموا. والفتيل والقطمير والنقير: ثلاثة أسماء مذكورة فى القرآن فالفتيل: اسم لما يكون فى شق النواة، والقطمير: اسم للقشرة التى تكون على النواة، والنقير: اسم للنقطة التى تكون على ظهر النواة، هذا قول ابن عباس، وقال غيره: الفتيل من الفتل، وهو اسم لما يحصل من الوسخ بين الإصبعين عند الفتل، قال الشاعر:

تجمع الجيش ذا الألوف وتغزو ثم لا ترزأ العدو فتيلًا

قاله النابغة، وأنشده الأزهرى.

قوله - تعالى -: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ﴾ أى: بالكذب ﴿إِثْمًا مُبِينًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ قال عمر - رضى الله عنه - : الجبـت: السحر والطاغوت: الشيطان، وبه قال الشعبى، وقال

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) رواه الطبري عن ابن عمر (٨٠ / ٥)، وعزاه السيوطي فى الدر (١٨٧ / ٢) لابن أبي حاتم، وابن المنذر.

نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ

قتادة: الجبت: الشيطان والطاغوت: الكاهن، وعن ابن عباس - فى رواية الكلبي عنه أنه قال: هما اسماء رجلين من اليهود، فالجبت: حبي بن أخطب والطاغوت: كعب بن الأشرف، وفى رواية أخرى عن ابن عباس: أن الجبت: الساحر بلغة الحبشة فعرب، وذكر عبد الله بن وهب، عن مالك بن أنس - رحمه الله - أنه قال: الطاغوت: كل ما يعبد من دون الله، وقرأ قوله - تعالى - ﴿واجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾^(١) فقليل له: ما «الجبت»؟، فقال: سمعت أنه الكاهن.

﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلا﴾ هذا قول جماعة من اليهود وحضروا موسم الحج، فقال لهم المشركون: نحن أحسن طريقة أم محمد وأصحابه؟ فقالوا: أنتم. وهذا دليل على شدة معاندة اليهود؛ حيث فضلوا المشركين على المسلمين، مع علمهم أنهم لم يؤمنوا بشيء من الكتب، وأن المسلمين آمنوا بالكتب المتقدمة.

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ هم اليهود ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾. قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ إِذَا لايُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ فالنقير: اسم تلك النقطة على ظهر النواة، ومنها تنبت النخلة، وفى الآية قولان: أحدهما: أنه: استفهام بمعنى الإنكار والنفي، يعنى: ليس لهم نصيب من الملك؛ إذ لو كان الملك لهم، فإذا لايؤتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا، وقد ذكرنا نزع الملك من اليهود، والقول الثانى: إنه بمعنى الإثبات، يعنى: لهم نصيب من الملك: وأراد بالملك المال، ثم هم إذا لايؤتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا، وصفهم بشدة البخل، وهذا على طريق ضرب المثل؛ إذ من اليهود من يؤتى المال.

قوله - تعالى -: ﴿أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: بل يحسدون، واختلفوا فى الناس هاهنا، من المراد به؟ قال ابن عباس، والحسن،

نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ إِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ

ومجاهد، وجماعة: أراد به: محمداً ﷺ وحده، وقال قتادة: أراد به: العرب؛ حسدهم اليهود ببعث النبي منهم، وفيه قول ثالث: أراد به: محمداً وأصحابه، وقال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: نحن الناس؛ وذلك أنهم حسدوا، فإذا قلنا بالقول الأول: أنه محمد وحده؛ فاختلفوا في الفضل المذكور في الآية ما هو؟ قال بعضهم: هو النبوة حسد الرسول بها، وقال بعضهم: هو تحليل الزوجات فيما زاد على الأربع، حسده اليهود عليه؛ فقالوا: ما بال هذا الرجل همه في النكاح، ينكح، وينكح. ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾ أراد بآل إبراهيم: داود، وسليمان، والكتاب: هو الكتاب الذي أنزل عليهم، وأما الحكمة: قيل: هي النبوة، وقيل: هي السنة.

ومعنى الآية: أنهم إن حسدوا الرسول بما أوتي من الفضل، فليحسدوا آل إبراهيم؛ فإنهم قد أوتوا الكتاب والحكمة ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ اختلفوا في الملك العظيم: فمن فسر الفضل بتحليل الزوجات، فسر الملك العظيم به أيضاً، وقد كان لدواد تسع وتسعون امرأة، ولسليمان مائة امرأة، وقيل: كان لسليمان سبعمائة امرأة، وثلاثمائة سرية، وقيل: أعطى - نبينا صلوات الله عليه - قوة سبعين شاباً في المباحضة (١).

وقيل: الملك العظيم: ملك سليمان، وقيل: المراد به: تأييدهم بالجنود من الملائكة.

قوله - تعالى - : ﴿فمنهم من آمن به﴾ يعني: بالكتاب ﴿ومنهم من صد عنه﴾ أى: أعرض عنه، وقيل: معناه: فمنهم من آمن بمحمد، ومنهم من صد عنه ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ والسعير: هي النار المسعرة.

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٤٥٠) تحت حديث أنس: «كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين» أي: في الجماع! ووقع في رواية الإسماعيلي من طريق أبو موسى، عن معاذ بن هشام «أربعين» بدل ثلاثين، وهي شاذة من هذا الوجه، لكن في مراسيل طاووس مثل ذلك، وزاد: «في الجماع». وفي صفة الجنة لأبي نعيم، من طريق مجاهد مثله، وزاد: من رجال أهل الجنة، ومن حديث عبد الله بن عمرو، ورفعته: «أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع... الخ».

وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أى نلقيهم فى النار، ويقال : صلى النار، إذا قرب منها، قال الشاعر يصف امرأة :

تجعل المسك واليَلَنُجُوجَ^(١) والذَّ

سَدَّ صِلَاءَ لَهَا عَلَى الْكَانُونِ

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قيل : قرئت هذه الآية عند عمر - رضى الله عنه - وكان عنده معاذ بن جبل، فقال : تبدل جلودهم فى كل ساعة سبعين مرة، قال عمر : كذا سمعت رسول الله ﷺ^(٢).

وقال الحسن : فى كل يوم سبعين ألف مرة.

فإن قيل : إذا بدلت جلودهم، فكيف يعذب غير الجلد الذى كان فى الدنيا؟ قيل : إنما يعذب الشخص فى الجلد دون الجلد، وقيل : يعاد الجلد الأول فى كل مرة، إلا أنه^(٣) سماه جلدا غيره، ومثله جائز، تقول العرب : صغت من خاتمي خاتما غيره، وإن كان الثانى إعادة للأول، وفى الخبر : «أَنْ بُصِّرَ جلد الكافر فى النار أربعون ذراعا - يعنى : غلظه - وضرسه مثل جبل أحد، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام»^(٤).

(١) كذا فى لسان العرب (مادة : خصر)، وفى «الأصل، وك» : والألوة.

(٢) أخرجه الطبراني فى الأوسط، كما فى مجمع البحرين (٦ / ١٥ - ١٦ / رقم ٣٣٠٧)، وابن عدي فى الكامل (٥٠ / ٧) فى ترجمة نافع السلمى مولى يوسف. كلاهما من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - وفيه : مائة مرة. وقال ابن عدي : وعامة ما يرويه غير محفوظ، والضعف على روايته بين. أي : نافع. وقال الهيثمي فى المجمع (٩ / ٧) : وفيه نافع مولى يوسف السلمى، وهو متروك وعزاه السيوطى فى الدر (٢ / ١٩٢) لابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

(٤) رواه الترمذى (٤ / ٦٠٦ رقم ٢٥٧٧)، وقال : حسن صحيح غريب. وأحمد (٢ / ٣٣٤، ٥٣٧) وابن أبى عاصم فى السنة (١ / ٢٧١ رقم ٦١٠، ٦١١)، وابن حبان فى صحيحه (١٦ / ٥٣١ رقم ٧٤٨٦) والحاكم (٤ / ٥٩٥) وقال : صحيح على شرط الشيخين، والبيهقى فى البعث (٣١٠ رقم ٦٢١) من حديث أبى هريرة بنحوه، وأعله الدارقطنى فى العلل (١٠ / ١٥٠) بالوقف وأصل الحديث عند مسلم مختصراً (١٧ / ٢٧١ رقم ٢٧٥١) و(١٧ / ٢٧٢ رقم ٢٨٥٢).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ

وفى الأخبار: «يكون عليه مائة جلد، بين كل جلدتين لون من العذاب» ﴿٥٧﴾ إن الله كان عزيزا حكيما ﴿٥٧﴾ عزيزا: غالبا. حكيما: فيما دبر، قوله: ﴿٥٧﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة ﴿٥٧﴾ وقد ذكرنا معنى الجميع، ﴿٥٧﴾ وندخلهم ظلًا ظليلاً ﴿٥٧﴾ وهو الكن الذي يقى من الحر والبرد.

قوله - تعالى - : ﴿٥٧﴾ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴿٥٧﴾ فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أن المراد منه: جميع الأمانات، وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: يجاء بالذى خان فى الأمانة يوم القيامة، فيقال له: رد الأمانة. فيقول: ذهبت الدنيا أنى لى الأمانة، فتمثل له الأمانة فى النار، ويقال له: خذ الأمانة وردها، فيأتى ليأخذ الأمانة؛ فيهوى فى النار، ثم يعود ليأخذ فيهوى فيها أبدا.

وفى الخبر أنه ﷺ قال: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» (١). وروى عن ابن عباس، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» (٢).

(١) رواه أبو داود (٢٩٠/٣ / رقم ٣٥٣٤، ٣٥٣٥) والترمذي (٥٦٤/٣ / رقم ١٢٦٤) وقال: حسن غريب، والحاكم (٢٦٤/٢) وصححه على شرط مسلم، والدارقطني (٣ / ٣٥ / رقم ١٤٢) كلهم من حديث أبي هريرة. وقد روى من حديث أنس، وأبي ابن كعب وغيرهم، انظر تلخيص الحبير (٣ / ٢٠٩ - ٢١٠ / رقم ١٤٥٤). وقال ابن الجوزي فى العلل (٢ / ٥٩٢): هذا الحديث من جميع طرقه لا يصح، ونقل عن أحمد أنه قال: هذا حديث باطل. وتعبه الذهبي فى تلخيص العلل (٢٠٧ / رقم ٥٨١) بتحقيقنا: بأن إسناده الترمذي جيد.

(٢) رواه أبو يعلى (٤ / ٣٤٣ / رقم ٢٤٥٨)، والطبراني فى الكبير (١١ / ٢١٣ / رقم ١١٥٣٢) وقال الهيثمى فى الجمع (١ / ١٧٧): وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش، وهو متروك.

وله شاهد من حديث أنس، رواه ابن أبي شيبة فى مصنفه (١١ / ١١) وأحمد فى مسنده (٣ / ٣٥، ١٥٤، ٢١٠) وأبو يعلى (٥ / ٢٤٦ - ٢٤٧ / رقم ٢٨٦٣) وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (١ / ٤٢٢ - ٤٢٣ / رقم ١٩٤)، والبيهقي (٦ / ٢٨٨) و(٩ / ٢٣١) وغيرهم.

وقال الهيثمى فى الجمع (١ / ١٠١): رواه أحمد وأبو يعلى، والبخاري فى الأوسط، وفيه أبو هلال، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره

أَهْلَهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ

والقول الثاني: أنه أراد به: تفويض الأمر إلى الولاة بالطاعة لهم، والقول الثالث - وهو قول عامة المفسرين -: أن المراد منه ردّ مفاتيح الكعبة.

وسبب نزول الآية ما روى: «أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، وفتح الباب، ودخل الكعبة، فلما خرج، قال العباس: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اجمع لى بين السدانة والسقاية فهم رسول الله ﷺ أن يدفع المفتاح إليه؛ فنزل قولہ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة، ودفع إليه المفتاح، وقال: خذوها يا بنى طلحة، خالدة تالدة، لا ينزعها عنكم إلا ظالم»^(١) وكان مع عثمان حياته، فلما توفى دفعه إلى أخيه شيبة، فهو فى بنى شيبة إلى قيام الساعة.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أى: بالقسط ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ اختلفوا فى أولى الأمر، قال ابن عباس، وجابر - وهو قول جماعة - : هم العلماء والفقهاء، وقال أبو هريرة: هم الولاة والولاة، وقيل: هم أمراء السرايا الذين بعثهم رسول الله ﷺ فى الحروب، وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من عصى أميرى فقد عصانى، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن أطاعنى فقد أطاع الله»^(٢).

(١) رواه الطبري فى التفسير (٩٢/٥) عن ابن جريج، وذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ١١٦ - ١١٧) عن مجاهد، وعزه السيوطي فى الدر (١٩٣/٢) لابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، فرواه البخاري (١٣/١١٩ رقم ٧١٣٧)، ومسلم (١٢/٣٠٨ - ٣٠٩ رقم ١٨٣٥).

فِي شَيْءٍ فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ

وقال عكرمة: أراد به: أبا بكر وعمر.

﴿فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول﴾ التنازع: هو التشاجر، سمي تنازعا؛ لأن كل واحد من الخصمين ينزع بحجة وآية.

وقوله: ﴿فردوه إلى الله﴾ يعني: إلى الكتاب، وإلى الرسول إن كان حيا، وإلى سنته إن كان ميتا.

والرد [إلى] (١) الكتاب والسنة واجب، مادام في الحادثة شئ من الكتاب والسنة، فإن لم يكن فالسبيل فيه الاجتهاد، وروى أن مسلمة بن عبد الملك قال لرجل: إنكم أمرتم أن تطيعونا، فقال الرجل: قد نزعها الله منكم؛ حيث قال: ﴿فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول﴾ وقد تنازعتم، فقال مسلمة: أين الله؟، فقال: الكتاب، وقال: أين الرسول؟ فقال: السنة.

وقيل: الرد إلى الله والرسول: أن يقول الرجل فيما لا يدري: الله ورسوله أعلم، وهذا قول حسن ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: أحسن مآل وعاقبة.

قوله - تعالى - : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

في الآية قولان: أحدهما: أنه في جماعة من المنافقين منهم خلاص بن الصامت، كانت لهم خصومة مع جماعة من المسلمين، فقال المسلمون: نتحاكم إلى الرسول، وقال المنافقون: نتحاكم إلى الكهنة.

والقول الثاني - وهو الأصح - : «أن رجلا من اليهود خاصم رجلا من المنافقين،

(١) في «الأصل» و«ك»: في.

أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ

فقال اليهودى: نتحاكم إلى أبى القاسم - إذ عرف أنه لا يأخذ الرشوة على الحكم - فيحكم بالحق، وقال المنافق: نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فتحاكما إلى النبى ﷺ فحكم لليهودى، وكان الحكم له، فقال المنافق: لا أرضى بحكمه، نتحاكم إلى أبى بكر، فتحاكما إلى أبى بكر، فحكم لليهودى بمثل ما حكم رسول الله ﷺ فقال المنافق: لا أرضى بحكمه، نتحاكم إلى عمر، فتحاكما إلى عمر، فقال عمر: هل تحاكما إلى أحد؟ فقال اليهودى: نعم إلى أبى القاسم، وإلى أبى بكر، وقد حكما لى، وهو لا يرضى، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل البيت، واشتمل على السيف، ثم خرج، وضرب عنق المنافق، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: أنت الفاروق» (١).

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ هو ما ذكرنا، أن المنافقين دعوا إلى التحاكم إلى الرسول، فأعرضوا عنه، وتحاكموا إلى الطاغوت.

قوله - تعالى - : ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل: هذا فى المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت، وقوله: ﴿أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل: هو قتل عمر - رضى الله عنه - ذلك المنافق؛ فإنهم جاءوا يطلبون دمه، وقيل: هو فى جميع المنافقين، والمصيبة: كل مصيبة تصيبهم فى الدنيا والعقبى.

يقول الله - تعالى - : فكيف الحال إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ قيل: هو إحسان بعضهم إلى بعض، وقيل أرادوا بالإحسان: تقريب الأمر من الحق، لا القضاء على مَرُّ الحكم.

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ١٢٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . والبغوى فى تفسيره (٤٤٦/١) عن الشعبى قوله .

أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ
وَقَالَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾

وأما التوفيق: موافقة الحق، وقيل: هو التأليف والجمع بين الخصمين. ومعنى الآية:
أن المنافقين يحلفون ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا إحسانا وتوفيقا.

وفى الآية قول آخر: أنها فى المنافقين، حلفوا فى المسجد الذى بنوا ضاررا - على
ما هو مذكور فى سورة التوبة - ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ (١).

قوله - تعالى - : ﴿أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم﴾ خلاف ما على
ألستهم ﴿فأعرض عنهم وعظمهم﴾ فإن قال قائل: كيف يتصور الجمع بين الإعراض
والوعظ وقد أمر الله تعالى بهما؟

قيل معناه: فأعرض عن عقوبتهم، وعظمهم.

وقيل: معناه: فأعرض عن قبول عذرهم، وعظمهم ﴿وقل لهم فى أنفسهم قولا
بليغا﴾ القول البليغ: هو ما يُبلِّغ الإنسان بلسانه كنه ما فى قلبه، وقيل: هو التخويف
بالله - تعالى - وقيل: هو أن يقول: إن رجعتم إلى هذا، فأمركم القتل.

قوله - تعالى - : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ قال أهل المعانى:
قوله ﴿إلا ليطاع﴾ كلام كافٍ مفيد بنفسه، وقوله ﴿بإذن الله﴾ كلام آخر ومعناه
بعلم الله وقضاء الله يعنى: أن طاعته تقع بإذن الله.

﴿ولو أنهم﴾ يعنى: المنافقين ﴿إذ ظلموا أنفسهم﴾ يعنى: بالتحاكم إلى
الطاغوت ﴿جاءوك فاستغفروا الله﴾ لأنهم ما جاءوا مستغفرين، وإنما جاءوا معتذرين
بالأعذار الكاذبة.

قوله: ﴿فاستغفروا الله﴾ أى: سألوا مغفرة الله، ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ أى:
دعا لهم الرسول بالاستغفار ﴿لوجدوا الله توابا رحيمًا﴾.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ

قوله - تعالى - : ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ قوله : ﴿فلا﴾ : رد لقول المنافقين وعذرهم، ثم ابتدأ بقوله : ﴿وربك لا يؤمنون﴾ والمراد به : الإيمان الكامل، أى : لا يكمل إيمانهم، ﴿حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ أى : اختلف، والاشتجار : الاختلاف، ومنه الشجر لالتفاف أغصانه بعضها على بعض، قال الشاعر :

هم الحكماء أرباب الندى وسراة الناس إذ الأمر شجر

أى : اختلف، ﴿ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت﴾ أى : ضيقا، ومنه الحرجة، روى أن عمر - رضى الله عنه - قال لبعض العرب : ما الحرجة عندكم؟ قال : هى شجرة ملتفة، لا يصل الماء إليها.

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿يجعل صدره ضيقا حرجا﴾^(١) أى : يضيق مسلكه بحيث لا تصل إليه الهداية ﴿ويسلموا تسليما﴾ ومعنى الآية : لا يكمل إيمانهم حتى يرضوا بحكمك، وينقادوا لك، قيل : هذه أبلغ آية فى كتاب الله - تعالى - فى الوعيد .

واختلفوا فى سبب نزول الآية، قال عطاء، ومجاهد : الآية فى المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت، وقال عبد الله بن الزبير، وعروة بن الزبير، وجماعة : «الآية نزلت فى رجل من الأنصار يقال له : حاطب بن أبى بلتعة - وكان من أهل بدر - خاصم الزبير بن العوام فى ماء أرض عند النبى ﷺ، فقال - عليه الصلاة والسلام - للزبير : اسق أرضك الماء ثم أرسله إلى جارك، وكانت أرض الأنصارى دون أرضه؛ فقال الأنصارى : أن كان ابن عمك، فتلّون وجه النبى ﷺ، وقال للزبير : اسق أرضك، واحبس الماء حتى يبلغ الجدر» - وفى رواية - حتى يبلغ الكعبين ثم سرحه يمر»^(٢)

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(٢) متفق عليه فرواه البخاري (٤٢/٥ - ٤٣ / رقم ٢٣٥٩ وأطرافه فى ٢٣٦٩، ٢٦٧٢، ٢٧١٢، ٧٤٤٦)، ومسلم (١٥ /

١٥٧ / رقم ٥٤١٦)، وليس فيهما ولا فى السنن تسمية هذا الأنصارى، وإنما جاء هذا عن سعيد ابن المسيب مرسلا .

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَاَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

كأن النبي ﷺ ساهل في حق الزبير في ابتداء الأمر، فلما أغضبه الأنصارى استوعب جميع حقه، وكلا الحكمين كان حقاً، وفي الخبر: قال الزبير: «احسب أن قوله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ نزل في هذا.

وروى أن اليهود لما بلغهم ذلك، قالوا: انظروا إلى أصحاب محمد كيف يخالفونه، وإن موسى عتب علينا، فأمرنا بقتل أنفسنا، فقتلنا أنفسنا حتى بلغ القتل سبعين ألفاً.

قوله - تعالى - : ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ معناه: لو كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم، أو اخرجوا من دياركم، بدل ما أمرناهم به من طاعة الرسول، والانقياد لحكمه ﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ قال ثابت بن قيس بن شماس: لو أمرني رسول الله ﷺ بقتل نفسي لقتلت، وفي الخبر: أن ابن مسعود وعمار بن ياسر، وثابت بن قيس بن شماس، من ذلك القليل، وروى أن النبي ﷺ أشار إلى عبد الله بن رواحة، فقال له: «أنت من ذلك القليل»^(١).

ويقرأ «إلا قليلاً منهم»^(٢) فمن قرأ بالرفع؛ فلائنه معطوف على قوله: ﴿ما فعلوه﴾ وذلك في محل الرفع، وتقديره: ما فعلوه إلا نفر قليل منهم فعلوه. ومن قرأ بالنصب، فعلى الاستثناء.

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ يعنى: من طاعة الرسول، والرضا لحكمه ﴿لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً﴾ أى: تصديقاً ﴿وإذا لاآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ هو الجنة ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ قيل: هو القرآن، وقيل: الإسلام.

(١) عزاه السيوطي في الدر (٢ / ٢٠٠) لابن أبي حاتم، عن شريح بن عبيد.

(٢) وهى قراءة ابن عامر، وأهل الشام انظر النشر (٢ / ٢٥٠).

وَالرُّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

قوله - تعالى - : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ سبب نزول الآية، ما روى: أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يارسول الله، كيف يكون الحال في الجنة، وأنت في الدرجات العلى، ونحن أسفل منك، وكيف نراك؟ فنزلت الآية. وذكر النقاش في تفسيره: أن ذلك القائل كان عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى.

وروى: أن رجلا قال: لرسول الله ﷺ: أنت أحب إلي من أهلى ومالى وولدى، وإذا غبت عنى يصيبنى شبه الجنون، حبا لك، فكيف حالى معك فى الجنة؟ فنزلت الآية ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ قيل: ذلك بأن ينزل إليهم النبيون؛ حتى يروهم، لا أن يرفعوا إلى درجاتهم، وقيل: معناه: أنهم لا يفوتهم رؤية النبيين ومجالستهم، وقوله: ﴿والصديقين﴾ يعنى: أصحاب رسول الله ﷺ، والصديق المبالغ فى الصدق، ﴿والشهداء﴾ الذين استشهدوا يوم أحد.

واختلفوا فى (١) أنهم لم سموا شهداء؟ قال بعضهم: لأنهم قاموا بشهادة الحق حتى قتلوا، وقيل: لأن أرواحهم تشهد الجنة عقيب القتل، ﴿والصالحين﴾ الصالح: من استوت (٢) سريرته وعلانيته ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾ الرفيق: الواحد، وهو بمعنى الجمع هاهنا ﴿ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم﴾ أى: عدتكم، والحذر: ما يتقى به من العدو، نحو العدة والسلاح، ﴿فانفروا ثبات﴾ جمع «ثبة» قال ابن عباس: «الثبة»: ما فوق العشرة، وقال أبو عمرو بن العلاء: «الثبة» النفر، ومعناه: انفروا جماعات، نفرا نفرا ﴿أو انفروا جميعا﴾.

وهذا دليل على أن الجهاد فرض على الكفاية، وقيل إن الآية صارت منسوخة؛

(١) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

(٢) فى «الأصل»، وك: استوى.

خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَانْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ

لقوله - تعالى - : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ (١).

قوله - تعالى - : ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ أى : ليتأخرن، والبطء : التأخير.

وقيل : هذا فى عبد الله بن أبى بن سلول ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ يعنى : بالقتل والجرح فى الجهاد ﴿قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا﴾ أى : حاضرا ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أى : الغنيمة ﴿ليقولن﴾ - بنصب اللام - ويقرأ فى الشواذ : برفع اللام والمعنى واحد ﴿كان لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ قيل : فى الآية تقديم وتأخير، وتقديره : فإن أصابتكم مصيبة، قال : قد أنعم الله على ؛ إذ لم أكن معهم شهيدا، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة، أى : معاقدة ومعاهدة على الجهاد، وقيل : أراد به : مودة الصحبة. ثم ابتدأ ﴿ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما﴾.

قوله - تعالى - : ﴿فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا﴾ أى : يبيعون ﴿بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ وهو معنى قوله فى سورة التوبة : ﴿فيقتلون ويقتلون﴾ (٢).

قوله - تعالى - : ﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله﴾ عتب على أصحاب رسول الله ﷺ بترك القتال ﴿والمستضعفين﴾ وهم الذين أسلموا بمكة وسكنوا بأعذار، وبعضهم منعوا من الهجرة، قال ابن عباس : كنت أنا وأمى من المستضعفين.

قال الأزهري : معنى الآية : لاتقاتلون فى سبيل الله، وفى سبيل المستضعفين؛ بتخليصهم من أيدي المشركين ﴿من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾ وهى مكة باتفاق المفسرين ﴿الظالم أهلها﴾ أى : المشرك أهلها ﴿واجعل لنا من لدنك وليا﴾ أى : من يلى أمرنا ﴿واجعل لنا من لدنك

(٢) التوبة : ١١١.

(١) التوبة : ١٢٢.

لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ

نصيراً ﴿٧٤﴾ أى: من يمنع العدو عنا؛ فاستجاب الله دعوتهم، حتى فتح رسول الله ﷺ مكة، ووَلَّى عليها عتَّاب بن أسيد، فكان ينصف المظلوم، وينتصف من الظالم.

قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ قد بينا معنى الطاغوت ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ أى: الكفار ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ قيل كان ضعيفاً بمعنى: أنه لا يرد أحداً عن الإسلام والهداية، وقيل: أراد به أن كيده كان ضعيفاً يوم بدر، حين رأى الملائكة، وخاف أن يأخذه، فهرب؛ فكيده ضعيف بأحد هذين المعنيين.

قوله - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ قيل: هذا فى قوم أسلموا بمكة فأذاهم المشركون؛ «فقالوا: يا رسول الله، ائذن لنا نقاتلهم، فقال لهم: ﴿كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾؛ فإننى لم أؤمر بالقتال، ثم لما هاجر إلى المدينة، فأمر بالقتال، فكرهوا القتال» (١) قيل: أولئك الذين أسلموا وقالوا ذلك، منهم: عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وقدامة بن مظعون، والمقداد بن الأسود الكندى، وجماعة.

﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ يعنى: بعد الهجرة ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ أى: يخشون الناس كخشيتهم من الله، أو أشد خشية، قال الحسن البصرى: ما كانوا يخشون أمر الله بالقتال، وإنما ذلك: خشية طبع البشرية.

﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أى: هلا أخرتنا إلى أجل قريب؛ فموت بآجالنا، قيل: هذا قول المنافقين، وقيل: كان ذلك قول بعض

(١) رواه النسائي (٦/٣ / رقم ٣٠٨٦) والطبري في التفسير (٥/١٠٨)، والحاكم (٢/٦٦، ٣٠٧) وصححه على شرط البخاري، والواحدى في أسباب النزول (ص ١٢٤). كلهم من حديث ابن عباس.

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ

أصحاب رسول الله ﷺ: قالوا ذلك خوفاً و(جنباً) (١) لا اعتقاداً. وقال بعضهم: هو قول طلحة بن عبيد الله؛ قال ذلك خوفاً ثم تاب عنه.

﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ يعنى: أن ما تستمتعون به من الدنيا فهو قليل، وفى الخبر المعروف: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم الخيط فى البحر، فليُنظر بم يرجع؟» (٢) ﴿والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا﴾ أى: لا ينقص من أجرهم شىء، ولا مقدار الفتيل.

قوله - تعالى - : ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ معناه: أينما كنتم يأتىكم الموت، وإن كنتم فى بروج مشيدة، والبروج: الحصون، قال السدى: وهى قصور بيض فى السماء، قوله: ﴿مشيدة﴾ قال ابن عباس - فى القول المعروف - : هى المعروفة المطولة، وقال عكرمة: المشيدة: المخصصة، والشيد: الجص. وقال بعضهم: المشيد: المخصص، والمشيدة: المرفوعة، وفيه قول آخر عن ابن عباس: أنه أراد: فى بروج من حديد.

﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ فالحسنة: الخصب، والسيئة: الجذب، وقيل الحسنة: النصر، والظفر يوم بدر، والسيئة: الهزيمة والقتل يوم أحد، ومعنى الآية: أن المسلمين إذا أصابتهم حسنة، فقال الكفار: هذا من عند الله وإن تصبهم سيئة قالوا هذا من عندك أى: بشؤمك؛ وذلك أن النبى ﷺ لما قدم المدينة أصاب أهلها نوع سوء؛ فقالت اليهود: ما رأينا أشأم

(١) فى «ك»: حنقا.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (١٧ / ٢٧٩ - ٢٨٠ رقم ٢٨٥٨)، والترمذى (٤ / ٤٨٦ رقم ٢٣٢٣)، وابن ماجه

(٢ / ١٣٧٦ رقم ٤١٠٨)، وأحمد (٤ / ٢٢٨ - ٢٢٩، ٢٣٠)، وابن المبارك فى زهده (ص ١٧٠ رقم ٤٩٦)

والطبرانى فى الكبير (٢٠ / ٣٠١ - ٣٠٢ رقم ٧١٣ - ٧١٧) وابن حبان فى صحيحه (١٠ / ١٧٣ رقم

٤٣٣٠)، والحاكم (٣ / ٥٩٢)، و(٤ / ٣١٩) كلهم من حديث المستورد بن شداد - رضى الله عنه - .

وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ

من هذا الرجل؛ منذ دخل ديارنا، قد غلت أسعارنا، ونقصت ثمارنا؛ وذلك بلية للمسلمين، وهذا نحو ما قالوا لصالح - عليه السلام - ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾^(١) وفى قصة موسى: ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾^(٢) وفى سورة «يس»: ﴿إنا تطيرنا بكم﴾^(٣).

﴿قل كل من عند الله﴾ أى: الخصب، والجذب، والنصر، والهزيمة، كل من عند الله، ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ أى: ما لهم لا يعلمون حديثا. والحديث: القرآن ها هنا، أى: لا يعلمون معانى القرآن.

قوله - تعالى -: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ يعنى: ما أصابك من خصب، فمن فضل الله، ﴿وما أصابك من سيئة﴾ أى: من جذب ﴿فمن نفسك﴾ أى: بذنبك.

والخطاب وإن كان مع الرسول، فالمراد به: الأمة؛ وذلك معنى قوله - تعالى -: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾^(٤) قيل معناه: وما أصابك من حسنة أيها الإنسان فمن الله، وما أصابك من سيئة، فمن نفسك؛ فيكون الخطاب مع كل أحد من الناس، وقيل: معناه: ﴿ما أصابك من حسنة﴾ أى: من النصر، والظفر فمن فضل الله ﴿وما أصابك من سيئة﴾ أى: من هزيمة، وقتل يوم أحد ﴿فمن نفسك﴾ أى: بذنب نفسك من مخالفة النبي ﷺ كما سبق.

فإن قيل: كيف وجه الجمع بين الآيتين، فإنه قد قال - فى الآية الأولى -: ﴿قل كل من عند الله﴾ قيل: معنى الآية الأولى: أن الخصب والجذب والنصر والهزيمة

(١) النمل: ٤٧.

(٢) الأعراف: ١٣١.

(٣) يس: ١٨.

(٤) الشورى: ٣٠.

إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا

كلها تقع من عند الله، ومعنى الآية الثانية ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أى: ما أصابك من سيئة من الله؛ فبذنب نفسك؛ عقوبة لك.

واعلم أنه ليس فى الآية متعلق لأهل القدر أصلاً؛ فإن الآية فيما يصيب الناس من النعم والحنن، لافى الطاعات والمعاصى؛ إذ لو كان المراد ما توهّموا، لقال: ما أصبت من حسنة، فمن الله وما أصبت من سيئة؛ فلما قال: ما أصابك من حسنة وما أصابك من سيئة؛ دل أنه أراد: ما يصيب العباد من النعم والحنن، لا فى الطاعات والمعاصى، وحكى عبد الوهاب بن مجاهد، عن مجاهد، أن ابن عباس قرأ: «وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك» وكذا حكى عن ابن مسعود أنه قرأ كذلك، وهو معروف عن ابن عباس، وهو يؤيد قولنا: إن المراد: بذنب نفسك.

وفى الآية قول آخر: مضمّر فيه، وتقديره: فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؛ يقولون: ما أصابك من حسنة، فمن الله، وما أصابك من سيئة، فمن نفسك [فيكون] ^(١) حكاية لقول الكفار ﴿وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ روى: «أن النبى ﷺ قال: «من أطاعنى فقد أطاع الله - تعالى - ومن أحبنى فقد أحب الله، فقالت اليهود: إن هذا الرجل يريد أن نتخذه ربا وحنّانا، كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم؛ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية على وفاق قول الرسول» ^(٢) ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ أى: كل أمره إلى.

قوله - تعالى - : ﴿ويقولون طاعة﴾ يعنى: المنافقين يقولون باللسان: مرنا، فإن أمرك طاعة ﴿فإذا برزوا﴾ أى: خرجوا ﴿من عندك بيت طائفة منهم غير الذى

(١) فى «الأصل وك»: فيقول.

(٢) قال الزيلعي فى تخريج الكشاف (٣٣٦/١): غريب جداً. وقال الحافظ فى تلخيص الكشاف: لم أجدّه.

أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْمَئُونَ فِتْنًا ﴿٧٧﴾

تقول ﴿ قال أبو رزين : بَيَّتَ أَى : أَلْف . وقال غيره : بيت ، أَى : بدل ؛ والأصح أنه من التبييت ، وهو فعل الشيء ليلاً ، يقال : هذا أمرٌ بَيَّتَ ليلاً ، قيل : أَى : فعل بالليل ، ويجوز أن يقال لما فعل بالنهار : تبييتاً ؛ لأن الفعل بالليل إنما سُمي تبييتاً ؛ لأن الإنسان بالليل يكون أفرغ لتدبير أمره ، فعلى هذا المعنى يجوز أن يقال لما فعل بالنهار : تبييتاً ، قال الشاعر :

بَيَّتُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلَ فُلَمَا أَصْبَحُوا أَصْبَحُوا عَلَيَّ ^(١) ضَوْضَاءَ ^(٢)

ومعنى ﴿بيت طائفة منهم غير الذى تقول﴾ أى: خالفوا بالليل ما قالوا بالنهار ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أى: يحصى ويحفظ؛ ليجازى عليه، وقيل: يأمر الكتابة حتى يكتبوا ﴿فأعرض عنهم﴾ قال الضحاك: معناه: لاتخبر بأسمائهم، وكان - عليه الصلاة والسلام - يعرف المنافقين، وما كان يخبر بأسمائهم ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا﴾ أى: اتخذه وكيلًا.

قوله - تعالى - : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ التدبر: النظر في الأمر إلى آخره، وهو من دبر الشيء: آخره، وفي الخبر: «من أشرط الساعة: ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا» (٣) أى: آخرًا ومنه قوله ﷺ: «لا تدأبروا» (٤) أى: لا يولّ بعضكم ظهره إلى بعض عدواة.

(١) ليست في «ك».

(٢) وقع هذا البيت في لسان العرب (مادة: ضوا)

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا
أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضُورَاءُ

وعزاه ابن منظور للحارث بن حلزة.

(٣) لم أجده مرفوعاً بهذا اللفظ، وروى أبو داود، وابن ماجه وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يقبل الله تعالى منهم صلاة - وذكر فيهم - والرجل لا يأتي الصلاة إلا دبراً» وروى عن ابن مسعود أنه قال: «ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبراً» انظر الزهد لأبي داود بتحقيقنا (رقم ١٦١). وقال ابن الأثير في النهاية (٩٧/٢): «ومنه الحديث: «لا يأتي الجمعة إلا دبراً».

(٤) متفق عليه من حديث أنس بن مالك، رواه البخاري (٥٠٧/١٠) رقم ٦٠٧٦ وطرفه في (٦٠٦٥)، ومسلم

(١٦ / ١٧٤ - ١٧٥ / رقم ٢٥٥٩).

عند الله وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ

فقوله ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ أى: أفلا يتفكرون فى القرآن ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ قال ابن عباس: ليس فى القرآن تناقض ولا تفاوت؛ فهذا معنى الآية.

وقال الزجاج: ما أخبر عن الغيب فكله صدق، ليس بعضه صدقا، وبعضه كذبا، وقيل: معناه: أن كله بليغ صحيح، ليس فيه مردول ولا فاسد.

قوله - تعالى - : ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ يعنى: المنافقين إذا جاءهم أمر وخبر من أمر السرايا الذين بعثهم رسول الله ﷺ، فإن كان بالأمن والنصر، كتموا، وقصروا فى الأخبار، وإن كان بالخوف والهزيمة أذاعوا به، وزادوا.

وفى الآية إضمار، وتقديرها: وإذا جاءهم أمر من الأمن قصروا فى الإخبار به، وكتموا، [وإذا] ^(١) جاءهم أمر من الخوف أذاعوا به ﴿ولو روده إلى الرسول﴾ قيل أراد بقوله ﴿ولو روده﴾ يعنى: ضعفة المسلمين الذين سمعوا تلك الأخبار من المنافقين قالوا مثل قولهم؛ فقال الله - تعالى - : ﴿ولو روده إلى الرسول﴾ ويحتمل أن يكون المراد به فى الكلام المؤمنين والمنافقين، لو ^(٢) روده إلى الرسول.

﴿وإلى أولى الأمر منهم﴾ يعنى: إلى أمراء السرايا ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ يعنى: لو طلبوا تلك الأخبار من عند أمراء السرايا، ووكلا الإخبار بها إليهم؛ لعلمه الذين يحبون أن يعلموه على حقيقته كما هو، والاستنباط: هو استخراج العلم ومنه النبط، وهم قوم يستخرجون الماء، وقيل: أراد به العلماء، يعنى: ولو روده إلى الرسول، وإلى أولى الأمر منهم لعلم الذين يستنبطونه منهم ما ينبغى أن

(١) فى «الأصل وك»: إذ.

(٢) فى «الأصل وك»: أو، تحريف.

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ

يكنتم، ويعلمون ما ينبغي أن يفشى، يعنى: العلماء.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾ فإن قال قائل: كيف استثنى القليل، ولولا فضله لاتبع الكل الشيطان؟ قيل: اختلفوا فيه، قال الفراء: هذا الاستثناء راجع إلى قوله: ﴿أذاعوا به﴾ إلا قليلا، وقوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان﴾، كلام تام، وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ ثم قال: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان﴾ وقيل: هو على نظمه، ومعناه: ولولا ما تفضل الله عليكم به من البيان لما ينبغي أن يفعل وما ينبغي أن يجتنب ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾.

وفيه قول رابع: أنه أراد بالقليل: قوما اهتموا بالحق قبل بعث الرسول، وإنزال القرآن، وأقروا بالتوحيد، وذلك مثل: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وجماعة، وقد قال ﷺ فى زيد بن عمرو بن نفيل: «إنه يبعث أمة على حدة»^(١).

قوله - تعالى - : ﴿فقاتل فى سبيل الله﴾ كذا يتصل بما سبق من قوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون﴾ لما عاتبهم على ترك القتال، قال للرسول: إن لم يقاتل هؤلاء، فقاتل أنت وحدك ﴿لاتكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ يعنى: عذاب الذين كفروا، وعسى من الله واجب، والمراد به: تطميع المؤمنين، ﴿والله أشد بأسا﴾ أى: أشد عذابا ﴿وأشد تنكيلا﴾ التنكيل من النكل، وهو المنع، ومنه النكال: وهو ما يفعل بالإنسان، فيمنع غيره عن فعله.

قوله - تعالى - : ﴿من يشفع شفاعا حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده (١٨٩/١ - ١٩٠)، والحاكم فى المستدرک (٤٣٩/٣ - ٤٤٠)، والطبرانى فى

الكبير (١٥١/١ - ١٥٢/١ رقم ٣٥٠)، والبيهقى فى الدلائل (٤٧٥/١ - ٤٧٦) كلهم من حديث سعيد

ابن زيد بن عمرو، وقال الهيثمى فى المجمع (٤٢٠/٩): وفيه المسعودى، وقد اختلط، وبقيّة رجاله ثقات.

الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾
أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ

شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴿٨١﴾ قال ابن عباس: الشفاعة الحسنة: هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة: هي المشى بالنميمة بين الناس، وقيل: هو في كل الشفاعات، فالشفاعة الحسنة: هي أن يقول قولاً حسناً؛ ينال به الخير، والشفاعة السيئة: هي أن يقول قولاً قبيحاً؛ يلحق به سوء.

قوله: ﴿٨١﴾ يكن له نصيب منها ﴿٨١﴾ أى: من أجرها، وقوله: ﴿٨٢﴾ يكن له كفل منها ﴿٨٢﴾ أى: من وزرها، والكفل: النصيب، قال الله - تعالى - : ﴿يؤتكم^(١) كفلين من رحمته﴾^(٢) أى: نصيبين.

واعلم أن الإنسان يؤجر على الشفاعة، وإن لم يُشَفَّعْ؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿من يشفع﴾، ولم يقل: من يُشَفَّعْ، وقد روى أبو موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء»^(٣).

واعلم أن الشفاعة مستحبة في كل الحقوق إلا في حدود الله - تعالى -؛ فإنه لا يجوز فيها الشفاعة لترك الحد، وقد قال ﷺ: «من شفع في حد من حدود من الله - تعالى - فقد ضاد الله في ملكه»^(٤) أى: نازعه في ملكه.

﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ قال ابن عباس: المقبى: المقتدر، قال الشاعر:

وذى ضغن كفت النفس عنه وكنت على مساءته مقبلاً

والقول الثانى عن ابن عباس: المقبى: الحافظ، وفى الخبر: «كفى بالمرء إثماً أن

(١) في «ك»: يكن لكم، وهو خطأ.

(٢) الحديد: ٢٨.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٣/٣٥١ / رقم ١٤٣٢)، ومسلم (١٦/ ١٧٢ / رقم ٢٦٢٧).

(٤) رواه أبو داود (٣/٣٠٥ / رقم ٣٥٩٧)، وأحمد (٢/٧٠)، والحاكم (٢/٢٧) والطبراني فى الكبير

(١٢/ ٢٧٠ - ٢٧١ / رقم ١٣٠٨٤)، والبيهقى (٦/ ٨٢) وصحح الحاكم إسناده.

أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ

يضيع من يقوته»^(١) أى: من قوته، وفى رواية: «من يقيت» أى: من فى حفظه، وفيه قول ثالث: أن الله - تعالى - على كل حيوان مقيت، أى: يوصل القوت إليه؛ فهذا معنى قوله: ﴿وكان الله على كل شيء﴾ أى: حيوان ﴿مقيتا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحِيَةٍ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالتحية هاهنا: السلام، وأصل التحية: هو دعاء بالحياة، وهو فى الشريعة عبارة عن السلام، والسلام: دعاء السلامة، وقد تكون التحية بمعنى: الملك والبقاء، ومنه: التحيات لله، وقال الشاعر:

ولكل ما نال الفتى قد نلته إلا التحية

يعنى: إلا الملك، وعلى معنى السلام أنشدوا قول الشاعر:

إنا محيوك ياسلمى فحيينا وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أراد به: رد السلام بأحسن مما سلم، أو ترد كما سلم، فإذا قال: السلام عليك، فالمستحب أن تقول: وعليك السلام ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليك ورحمة الله، تقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وهو الأحسن.

وفى الخبر: «أن رجلا جاء، فسلم على النبي ﷺ، فقال: وعليكم السلام ورحمة الله، فدخل آخر وقال: السلام عليك ورحمة الله، فقال: وعليكم السلام ورحمة الله

(١) رواه أبو داود (١٣٢/٢ / رقم ١٦٩٢)، والنسائي فى الكبرى (٣٧٤/٥ / رقم ٩١٧٦، ٩١٧٧)،

والحميدي فى مسنده (٢٧٣/٢ / رقم ٥٩٩)، وأحمد (١٩٣/٢، ١٩٥)، والطيالسي (ص ٣٠ / رقم ٢٢٨١)،

وابن حبان - الإحسان - (١٠/٥١ - ٥٢ / رقم ٤٢٤٠)، والحاكم (٤ / ٥٠٠) وقال صحيح الإسناد،

والبيهقي فى الكبرى (٧/٤٦٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٧/١٣٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

ورواه مسلم (٧/١١٤ / رقم ٩٩٦) بلفظ «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته».

أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً

وبركاته، فدخل ثالث، وقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليكم؛ فقليل له في ذلك، فقال - عليه السلام - إن الأول والثاني تركا من التحية شيئا؛ فأجبت بأحسن، وإن الثالث لم يترك من التحية شيئا فرددت عليه^(١).

واعلم أن السلام، سنة وردّ السلام فريضة، لكنه فرض على الكفاية، حتى إذا سلّم على جماعة فرد أحدهم؛ سقط الفرض عن الباقيين، وكذلك السلام سنة على الكفاية، حتى إذا كانت جماعة، فسلّم أحدهم كفى في السنة.

وروى الحسن مرسلًا عن النبي ﷺ أنه قال: «السلام سنة ورده فريضة»^(٢).

وقال بعض المفسرين: أراد بالتحية: الهبات والهدايا، وقوله: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أراد به: الثواب على الهدية، وهو سنة، «وكان - عليه السلام - يقبل الهدية، ويثيب عليها»^(٣)، والأصح هو القول الأول.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أى: محاسبًا، وقيل كافيًا، ومنه قوله - تعالى -: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾^(٤) أى: كافيًا.

(١) رواه الطبري في التفسير (٥ / ١٢٠) والطبراني في الكبير (٦ / ٢٤٦ - ٢٤٧ / رقم ٦١١٤) من حديث سلمان الفارسي، وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٣٦١): وفيه هشام بن لاحق، قواه النسائي، وترك أحمد حديثه. وعزه السيوطي في الدرر (٢ / ٢٠٧) لأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم وابن المنذر، وابن مردويه بسند حسن.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٥ / ١٢٠) عن الحسن مرسلًا. وعزه في كنز العمال (٩ / ٢١٥) رقم (٢٥٧١٧) للدليمي في الفردوس من حديث الحسن مرسلًا.

وفي مسند الفردوس (٢ / ٣٤٠ / رقم ٣٥٣٨) جعله من مسند علي.

وقال العجلوني في كشف الخفاء (١ / ٥٤٨ / رقم ١٤٧٦): رواه الدليمي بسند ضعيف عن علي. قلت: ولفظه: «السلام تطوع، والرّد فريضة».

(٣) رواه البخاري (٥ / ٢٤٩)، وأبو داود (٣ / ٢٩٠ / رقم ٣٥٣٦)، والترمذي (٤ / ٢٩٨ / رقم ١٩٥٣)، وأحمد (٦ / ٩٠)، والبيهقي (٦ / ١٨٠)، والخطيب في تاريخه (٤ / ٢٢٣)، وابن عدي في الكامل (٢ / ٢٨١)

كلهم من طريق عيسى بن يونس، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة.

ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه من طريق وكيع، عن هشام بن عروة من قوله.

وقال البخاري: لم يذكر وكيع، ومحاضر: عن هشام عن أبيه عن عائشة.

(٤) النبأ: ٣٦.

سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ

قوله - تعالى - : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾
«اللام» لام القسم، وتقديره: والله ليجمعنكم الله إلى يوم القيامة، واختلفوا: أنه فيم يجمعهم؟ قال بعضهم: يجمعهم في الإهلاك والموت إلى القيامة، وقال بعضهم: يجمعهم في القبور إلى القيامة.

واختلفوا: لِمَ سُمِّيتِ القيامة قيامة؟ قال بعضهم: لأن الناس يقومون فيها إلى رب العالمين، كما قال الله - تعالى - : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) وقيل: إن الناس يقومون فيها إلى الحساب. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أى: قولاً وخبراً.

قوله - تعالى - : ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ اختلفوا في سبب نزول الآية على ثلاثة أقوال: قال زيد بن ثابت: هذا في الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فقال بعض الصحابة لرسول الله: اعف عنهم؛ فإنهم تكلموا بالإسلام. وقال بعضهم: اقتلهم؛ فإنهم منافقون؛ فنزلت الآية ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾^(٢) أى: مالكم افترقتم فيهم فرقتين؟ عتب عليهم بالاختلاف بينهم، وحكم بنفاقهم.

وقال مجاهد: الآية في جماعة من أهل مكة هاجروا إلى المدينة، وأسلموا، ثم استأذنوا رسول الله ﷺ في الرجوع إلى مكة، بَعْلَةً أَنْ لَهُمْ بِهَا بَضَائِعُ؛ فرجعوا، وارتدوا فقال بعض أصحابه: هم مسلمون؛ لأنهم تكلموا بالإسلام، وقال بعضهم: هم قد نافقوا؛ فنزل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ وحكى مجاهد هذا عن ابن عباس.

والقول الثالث - وهو الرواية الثانية عن ابن عباس - : أن الآية في قوم من المشركين أسلموا بمكة، وكانوا يعاونون المشركين، ويظاهرونهم؛ فاختلف الصحابة فيهم

(١) المطففين: ٦.

(٢) متفق عليه من حديث زيد بن ثابت، فرواه البخاري (١٠٤/١٠٥ - ١٠٥/١٠٥) رقم ٤٥٨٩) ومسلم (١٧/١٨٠) رقم ٢٧٧٦).

الْقِيَامَةَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

فرقتين؛ فنزل قوله - تعالى - : ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ أركسهم وركسهم بمعنى واحد .

وقرأ ابن مسعود ﴿والله ركَسَهُمْ﴾ قال الزجاج: معناه: نكسهم، وقال النضر بن شميل: معناه: أعادهم، يعنى: إلى الكفر بما كسبوا، ومنه: الركنس؛ لأنه كان طعاما، فصار رجيعا .

﴿أتريدون أن تهّدوا من أضلّ الله﴾ يعنى: أتريدون أن ترشدوا من أضله الله ﴿ومن يضلّل الله﴾ يعنى: ومن يضلّله ﴿فلن تجد له سبيلا﴾ أى: طريقا إلى الحق . قوله - تعالى - : ﴿ودوا لو تكفّروا كما كفروا﴾ يعنى: الذين عادوا إلى الكفر ودوا أن تعودوا إلى الكفر ﴿فتكونون سواء﴾ يعنى: فى الكفر .

﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ منعهم من الموالاة معهم ﴿حتى يهاجروا فى سبيل الله﴾ أى: حتى يسلموا ﴿فإن تولّوا﴾ يعنى: فى الكفر ﴿فخذوهم﴾ أى: فأسروهم، والأخذ هاهنا: الأسر، ويقال للأسير: أخيد ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ قال أبو عبيدة: معناه إلا الذين ينتسبون إلى قوم، وأنشد فيه قول الشاعر:

إذا اتصلت قالت لبكر بن وائل وبكرٌ سبأها^(١) والأنوف رواغم

يعنى: إذا انتسبت تلك القبيلة .

وأنكر أهل المعانى هذا على أبى عبيدة، وقالوا: هذا لا يستقيم فى معنى هذا الاستثناء المنع من القتل، وما كان المنع لأجل النسبة، فإن النبى ﷺ كان يقاتل المشركين من قريش، وإن كانوا من نسبه، بل معنى قوله: ﴿إلا الذين يصلون﴾ أى:

(١) فى لسان العرب (مادة: وصل): سبتها .

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

يخالطون، ويتصلون بقوم كان بينهم وبين النبي ﷺ مودة وعهد.

وذلك هلال بن عويمر الأسلمي، وقومه، وكان الله - تعالى - منع من قتل أولئك ممن اتصل بهم، وفي ذمامهم ﴿أو جاءوكم﴾ أو يصلون بقوم جاءوكم للمعاهدة والمودة، ﴿حصرت صدورهم﴾ ضاقت، فضاقت صدورهم من القتال معكم، ومن معاونتكم على القتال مع قومهم؛ لأجل الرعب الذي ألقى الله - تعالى - في قلوبهم، وقرأ الحسن - وهو قراءة يعقوب وسهل - «حَصْرَةٌ صدورهم»^(١) على الحال، أى: ضيقة صدورهم، قال المبرد: حصرت صدورهم على سبيل الدعاء، كقوله: ﴿قاتلهم الله﴾^(٢) كأن الله - تعالى - يقول: ﴿حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ على سبيل الدعاء.

﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم﴾ معنى هذا: أن الله - تعالى - هو الذى ألقى الرعب فى قلوبهم، وكفهم عن قتالكم، حتى جاءوا معاهدين، ولو شاء الله لسلطهم عليكم ﴿فلقاتلوكم﴾؛ فإذا لاتقاتلوهم ومن اتصل بهم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم﴾ يعنى: الصلح فانقادوا، واستسلموا ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أى: طريقاً عليهم بالقتل والقتال.

قوله - تعالى - : ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ قال ابن عباس: أراد به: أسد وغطفان، جاءوا إلى النبي ﷺ وأسلموا؛ فلما رجعوا إلى قومهم قالوا: إنا آمنة بالعقرب والخنفساء ورجعوا إلى الكفر.

وقال قتادة: أراد به: سراقه بن مالك بن جعشم، لما جاء إلى النبي ﷺ، وقال: أنا منكم، ثم رجع إلى قومه، فقال: أنا منكم.

(١) انظر النشر (٢/٢٥١).

(٢) التوبة: ٣٠، والمنافقون: ٤.

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يِقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا

﴿يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ أى: يريدون أن يأمنوا منكم، ومن قومهم. ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أى كلما دعوا إلى الشرك دخلوا فيه. ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم﴾ يعنى: القيادة والاستسلام ﴿ويكفوا أيديهم فخذوهم﴾ أى: فأسروهم ﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ وجدتموهم، ﴿وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ حجة بينة بالقتل والقتال.

قوله - تعالى - : ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ سبب نزول الآية: ماروى أن عياش بن أبى ربيعة قتل الحارث بن يزيد، وكان الحارث يؤذى عياشا فى الجاهلية، حتى أسلم عياش؛ فنذر أن يقتله متى ظفر به، فظفر بالحارث وقد أسلم الحارث، ولم يعلم هو بإسلامه؛ فنزلت الآية: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً﴾ وهذا نهى عن قتل المؤمن على الإطلاق، وقوله: ﴿إلا خطأ﴾ استثناء منقطع، ومعناه: لكن إن وقع خطأ. وقال بعضهم: «إلا» بمعنى «ولا» يعنى: ولا خطأ، ولا يعرف فى كلام العرب «إلا» بمعنى «ولا»؛ ولأنه يقتضى النهى عن قتل الخطأ، والخطأ لا يدخل تحت النهى والأمر، والأول أصح، ثم ذكر حكم القتل الخطأ، فقال: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ فتحرير رقبة مؤمنة ﴿أى: فاعتقوا رقبة مؤمنة، ثم اختلف العلماء، فقال الحسن، والشعبي، والنخعي: أراد به: رقبة بالغة ولا تجزئ الرقبة الصغيرة، وإن كانت مؤمنة، وقال عطاء - وهو الذى أخذ به الفقهاء-: إنه تجزئ الصغيرة.

﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ يعنى: سلموا الدية إلى أهله، وظاهر الآية يقتضى أن تكون الدية فى قتل الخطأ فى مال القاتل، كال كفارة، لكن عرفنا بالسنة أن الكفارة فى مال القاتل والدية على العاقلة.

وقوله: ﴿إلا أن يصدقوا﴾ يعنى: أن يتصدقوا، وقرأ أبى بن كعب كذلك، ومعنى التصديق: العفو عن الدية ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتححرير رقبة

إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ

مؤمنة ﴿ أكثر المفسرين - وهو قول الحسن، وقتادة، ومجاهد، وجماعة - : أن المراد به : وإن كان من [نَسَب] ^(١) قوم عدو لكم وهو مؤمن، ومعناه المؤمن يكون في دار الإسلام، وقربته في دار الحرب، فيقتل خطأ، فالواجب بقتله الكفارة، ولا دية؛ لأنها إذا سلمت إلى قربته يقووا بها على المسلمين، والأصح والذي عرفه الفقهاء أن المراد به : المؤمن الذي أسلم في دار الحرب، فيقتله من لم يعلم إسلامه، فالواجب فيه الكفارة، دون الدية.

﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ هذا في أهل الذمة والمعاهدين ﴿ فدية مسلمة إلى أهله ﴾ يعنى : على القدر الذى اختلف فيه ﴿ وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ﴾ يعنى : ليتوبوا إلى الله ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ﴾ نزلت الآية في مقيس بن ضبابة الليثي، أسلم وأخوه هشام، ثم وجد أخاه مقتولا في بنى النجار؛ فجاء إلى النبي ﷺ في ذلك، فبعث معه رجلا فهدى إلى بنى النجار، وأمرهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه، أو يسلموا الدية، فجاء إليهم، وبلغا الرسالة، فقالوا : سمعنا وطاعة لرسول الله، والله ما نعرف القاتل، وساقوا الدية إليه مائة من الإبل؛ فلما رجعا أقبل مقيس وقتل الفهري، واستاق الإبل، ولحق بمكة وارتد، وقال الشعر:

قتلتُ به فهرا وحملت عقله سرأة بنى النجار أربابَ فارع

فأدركت ثأرى واضطجعت موسرا ^(٢) وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت الآية فيه، وهو الذى أمر النبي ﷺ بقتله؛ فجاء الجماعة الذين عينهم

(١) فى «الأصل وك» : سبب، وهو تصحيف.

(٢) كذا «بالأصل»، و«ك»، وفى لسان العرب (مادة: فرع): مُوسِدًا، آخره دال.

﴿٩١﴾ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَيَذَرُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ

للمقتل يوم فتح مكة؛ فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة فقوله: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ فالقتل المتعمد عند أكثر العلماء: هو الذى يحصل بكل ما يقصد به القتل، وقال سعيد بن المسيب، وطاوس: القتل العمد لا يكون إلا بالحديد ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه﴾ أى: طرده عن الرحمة ﴿وأعد له عذاباً عظيماً﴾ وقال ابن عباس: الآية مدنية لم ينسخها شيء؛ فكان يقول: ليس لقاتل المؤمن توبة، وسئل عن توبته؛ فقال: أنى تكون له التوبة، فقليل له: أليس قد قال الله - تعالى - : ﴿ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب﴾، ^(١) فقال ابن عباس: تلك آية مكية، وهذه آية مدنية لم تنسخ بشيء حتى قبض رسول الله ﷺ.

وقال زيد بن ثابت: الشديدة بعد الهينة بستة أشهر، يعنى بالهينة آية الفرقان، وبالشديدة هذه الآية.

وروى حميد، عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال: «أبى الله - تعالى - أن يكون لقاتل المؤمن توبة» ^(٢) وفى الخبر عن النبى ﷺ: «لقتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» ^(٣).

والأصح، والذى عليه الأكثرون - وهو مذهب أهل السنة - : أن لقاتل المؤمن عمداً توبة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن﴾ ^(٤) وقوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ^(٥) ولأن القتل العمد ليس بأشد من الكفر، ومن

(١) الفرقان: ٦٨ - ٧٠.

(٢) الحديث صححه الشيخ الألبانى كما فى الصحيحة رقم [٦٨٩] وعزاه للواحدى فى الوسيط والضياء فى المختارة، وغيرهما.

(٣) روى من حديث بريدة، والبراء، وعبد الله بن عمرو، انظر تلخيص الحبير بتحقيقنا (٤/٢٨/رقم ١٨٦٩).

(٥) النساء: ٤٨.

(٤) طه: ٨٢.

مُسْلِمَةً إِلَىٰ أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ

الكفر توبة؛ فمن القتل أولى، وأما الذى روى عن ابن عباس، فعلى سبيل التشديد والمبالغة فى الزجر عن القتل، وهو مثل ما روى عن سفیان بن عیینة أنه قال: إن لم يقتل يقال له: لا توبة لك، منعاً له عن القتل، وإن قتل يقال له: لك توبة، حتى يتوب. وروى أن رجلاً جاء إلى ابن عباس وسأله: هل لقاتل المؤمن توبة، قال: لا، فجاءه آخر، وسأله عن ذلك، فقال: نعم، له توبة، فقيل له فى ذلك، فقال: إن الأول لم يكن قتل؛ فمنعته عن القتل، وإن الثانى قتل؛ فأرشدته إلى التوبة.

واعلم أن لا متعلق فى هذه الآية لمن يقول بالتخليد فى النار لأهل الكبائر من المسلمين؛ لأننا إن نظرنا إلى سبب نزول الآية، فالآية نزلت فى قاتلٍ كافرٍ كما بينا، وقيل: إنه فيمن يقتل مستحلاً، والأولى أن نقول فيه ما قاله أبو صالح: إن معنى قوله: ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ إن جازى، وبه نقول: إن الله تعالى إن جازاه ذلك خالداً، فهو جزاؤه، ولكنه ربما لا يجازى، وقد وعد أن لا يجازى ويغفر لمن يشاء، وهو لا يخلف الميعاد، وحكى عن قريش بن أنس - رحمه الله - أنه قال: كنت فى مجلس فيه عمرو بن عبيد، فقال: لو قال الله لى يوم القيامة: لم قلت بتخليد القاتل المتعمد فى النار؟ فأقول له: أنت الذى قلت: ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ قال قريش: وكنت أصغر القوم، فقلت له: أرايت لو قال الله - تعالى - لك: ألسنت قلت ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾^(١) فمن أين علمت أنى لم أشأ مغفرة القاتل؟ فسكت ولم يستطع الجواب.

وحكى أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبى عمرو بن العلاء - رحمه الله - وقال له: هل يخلف الله وعده؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله - تعالى - : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ فأنأ على هذا؛ لأنه لا يخلف وعده، فقال أبو عمرو: ومن العجمة أتيت يا أبا عثمان؛ إن العرب لاتعد الإخلاف فى الوعيد خلفاً

فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

وذما، وإنما ذلك فى الخلف فى الوعد، وأنشد له قول القائل فيه:

وإني إذا أوعدته (و) ^(١) وعدته خلف إيعادى ومنجز موعدى

فقد تمدح بالخلف فى الوعيد، وقال آخر:

وإذا وعد السراء أنجز وعده وإن وعد الضراء فالعفو مانعه

فالله - تعالى - يجوز أن يخلف فى الوعيد، وإنما لا يخلف الميعاد.

قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : سافرتم فى سبيل الله، يعنى : الغزو، ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ يقرأ : « فتثبتوا » ^(٢) ومعناها : ترك العجلة.

وفى الخبر : « التأنى من الله، والعجلة من الشيطان » ^(٣) ﴿ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا ﴾ يقرأ : « إليكم السلام » ويقرأ : « إليكم السلم » ^(٤)، فالسلام : هو التسليم المعهود، والسلم : المقادة والاستسلام، والسلم : الصلح، وقرأ أبو جعفر المدنى يزيد بن القعقاع : « لست مؤمنا » ^(٥) من الأمان ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى : تبتغون الدنيا، وفى الآثار : « الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق، يقضى فيها ملك قادر » ^(٦).

(١) فى « ك » : أو.

(٢) وهى قراءة حمزة، والكسائى، وخلف. انظر النشر (٢/٢٥١).

(٣) رواه أبو يعلى (٧/٢٤٨ رقم ٤٢٥٦)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/١٠٤)، من حديث أنس به.

وقال المنذرى فى الترغيب (٢/٢٥١)، والهيثمى فى المجمع (٨/٢٢) : رجاله رجال الصحيح.

(٤) قرأ نافع، وأبو جعفر، وحمزة، وابن عامر، وخلف : بحذف الألف، وقرأ الباقون بإثباتها.

(٥) انظر المصدر السابق.

(٦) رواه الشافعى فى مسنده (٢/١٨٨ - ١٨٩ / رقم ٦٧٢) من طريق إبراهيم بن محمد قال أخبرنى عمرو « أن النبى ﷺ خطب ... وعزاه فى كنز العمال رقم [٤٣٦٠ / ٢] للشافعى، والبيهقى فى المعرفة، عن عمرو مرسلًا. ورواه الطبرانى فى الكبير (٧/٢٨٨ / رقم ٧١٥٨)، وعنه أبو نعيم فى الحلية (١/٢٦٤ - ٢٦٥)، عن شداد بن أوس مرفوعًا.

وقال الهيثمى فى المجمع (٢/١٩٢) : وفيه أبو مهدى سعيد بن سنان وهو ضعيف جدًا.

آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ

﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ أى : غنائم كثيرة . ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ﴾ أى : تفضل الله عليكم ، وفيه قولان : قال سعيد بن جبير : معناه كذلك كنتم من قبل تكتُمون الإيمان ، فمن الله عليكم بالإظهار ، وقال قتادة : معناه : كذلك كنتم من قبل ضلالا ، فمن الله عليكم بالهداية ﴿ فتبينوا ﴾ إعادة تأكيد ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ وسبب نزول الآية ما روى : « أن النبي ﷺ بعث سرية ، فلحقوا رجلا يقال له : مرداس بن عمرو من فذك ، له غنيمات ، فأنحاز بها إلى الجبل لما أحس بالسرية ، ثم تقدم إليهم ، فقال : السلام عليكم أنا مؤمن ، فبادر إليه أسامة بن زيد وهو يقول : لا إله إلا الله ، وقتله ، وأخذ سلبه ، والغنيمات التى له ، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ قال لأسامة : أقتلت رجلا يقول : لا إله إلا الله ، فقال : إنه إنما أسلم متعوذا ، وقال : إنما أسلم ، ليحرز نفسه وماله ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : هلاً شققت عن قلبه ؟ فقال أسامة : استغفر لى يارسول الله ، فقال : كيف لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ ، فقال : استغفر لى يارسول الله ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : كيف بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ هكذا حتى أعاده ثلاثا - فنزلت الآية فيه . ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام ﴾ ^(١) ولأن ذلك الرجل كان قد سلم عليهم ، وأسلم لهم ﴿ لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ يعنى : تبتغون بقتله غنيمات كانت له .

وفى رواية أن النبي ﷺ استغفر لأسامة ، وأمره بإعتاق رقبة وكان أسامة من عليّة الصحابة ، وعاش إلى زمان على - رضى الله عنه - فدعاه على إلى المقاتلة معه فى الحروب ، فقال لعلى : أنت أعز على من كل أحد ، ولو قاتلت المسلمين مع أحد لقاتلت معك ، ولكنى منذ سمعت رسول الله ﷺ قال لى : كيف بلا إله إلا الله يوم القيامة ، امتنعت من القتال ، فإن أعطيتنى سيفاً يميز المسلم من الكافر حتى أقاتل فتركه على .

(١) هذه الحادثة ثابتة فى الصحيحين ، رواها البخارى فى صحيحه (٧/٥٩٠ رقم ٤٢٦٩) ومسلم (٢/١٣١ -

١٣٢ رقم ٩٦) من حديث أسامة . وليس فيهما أن هذه الحادثة هى سبب نزول الآية .

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى

وكان ممن اعتزل الفريقين هو وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن
عمر رضى الله عنهم أجمعين.

وقيل: إن قَاتِلَ صاحب الغنيمات، كان المقداد بن عمرو الكندى - هو ابن
الأسود (١) - هذا هو القول المعروف فى سبب نزول الآية، وفى الآية قول آخر: «أنها
نزلت فى محلم بن جثامة الليثى، قتل رجلا وهو يقول: لا إله إلا الله، ثم جاء إلى
النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، استغفر لى، فقال: لا غفر الله لك، فقام يبكى،
وانصرف، فلما مات دفن فى الأرض، فلفظته الأرض، ثم دفن فلفظته الأرض، ثم دفن
فلفظته الأرض - هكذا ثلاثا - فأمر النبي ﷺ حتى ألقى عليه الحجارة، وقال: إن
الأرض لتنطبق على من هو شر منه - يعنى من محلم -، ولكن الله - تعالى - أراد
أن يريكم آية» (٢).

قوله - تعالى - : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ اعلم أن
الذى نزل فى الابتداء من هذه الآية قوله: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» قال زيد بن ثابت: «كان النبي ﷺ يملأ على هذه
الآية، وفخذه على فخذى، فدخل عبد الله بن أم مكتوم، وقال: يا رسول الله، أنا
رجل ضريب، ولو استطعت أن أقاتل لقاتلت معك؛ فتغشى رسول الله ﷺ الوحي؛
فثقل فخذه على فخذى حتى كاد يرضه؛ فلما سرى عنه، قال لى: اكتب ﴿غَيْرُ أُولِي
الضَّرَرِ﴾» (٣) فنزل هذا القدر فى ابن أم مكتوم، وكان ضريباً من أُولِي الضَّرَرِ، وقوله:

(١) رواه الطبرانى فى الكبير (١٢/٣٠ / رقم ١٢٣٧٩)، والبخارى - مختصر الزوائد - (٢/٧٨ / رقم ١٤٥٨)
كلاهما من حديث ابن عباس.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٢/٧): وإسناده جيد.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٥/١٤٠) عن ابن عمر.

(٣) رواه البخارى (٨/١٠٨ / رقم ٤٥٩٢)، وأبو داود (٣/١١ / رقم ٢٥٠٧)، والترمذى (٥/٢٢٦ / رقم

٣٠٣٣)، والنسائى (٦/٩-١٠ / رقم ٣٠٩٩، ٣١٠٠). وأحمد (٥/١٨٤، ١٩١) وغيرهم.

القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ

﴿غير أولى الضرر﴾ يقرأ على وجوه: «غير» - برفع الراء - وتقديره: لا يستوى القاعدون الذين هم غير أولى الضرر، ويقرأ: بفتح الراء، على الاستثناء^(١)، يعنى: إلا أولى الضرر، وقيل: هو نصب على الحال، يعنى: فى حال الصحة، وانتفاء الضرر، كأنه قال: لا يستوى القاعدون من المؤمنين أصحاباء، وهذا أشهر القراءتين، وكذلك قرأ النبى ﷺ «غير أولى الضرر» - بكسر الراء يعنى -، من المؤمنين غير أولى الضرر، ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة﴾ أراد بالقاعدین هاهنا: أولى الضرر، فضل المجاهدين عليهم بدرجة؛ لأن المجاهدين باشرُوا الجهاد مع النية، وأولو الضرر كانت لهم نية الجهاد، ولكن لم يباشروا؛ فنزلوا عنهم بدرجة ﴿وكلا وعد الله الحسنی﴾ يعنى: الجنة ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجرا عظيما﴾ وأراد بالقاعدین هنا: غير أولى الضرر، فضل الله المجاهدين عليهم أجرا عظيما ﴿درجات منه ومغفرة ورحمة﴾ قال ابن محيريز: هى سبعون درجة، ما بين كل درجتین حُضْرُ الفرس المُضْمَرُ سبعين سنة، وفى الخبر: «فى الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتین ما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله»^(٢)، وقيل: أراد بالدرجات: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والشهادة فى الجهاد، وفاز بتلك الدرجات المجاهدون ﴿وكان الله غفورا رحیما﴾.

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ عيسى بن عمر النحوى: «تتوفاهم» - بالتائين - والمعروف «توفاهم» وأصله: تتوفاهم، فادغمت إحدى التائين تخفيفا، على القراءة المشهورة، فإن قال قائل: لم قال: تتوفاهم الملائكة والمتوفى ملك واحد، كما قال: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾؟^(٣) قيل: ذكره بلفظ

(١) قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، والكسائى، وخلف، بنصب الراء، وقرأ الباقون برفعها. انظر النشر (٢٥١/٢).

(٢) رواه البخارى (١٤/٦) رقم ٢٧٩٠، وأحمد (٣٣٩ ٣٣٥/٢)، والحاكم (٨٠/١)، وابن أبى عاصم فى

الجهاد (٥٤٤/٢) رقم ٢١٢، وابن حبان - الاحسان - (٤٧١/١٠ - ٤٧٢)، والبيهقى فى الكبرى (١٥/٩)

- (١٦). وأبو نعيم فى صفة الجنة (ص ٧٩ رقم ٢٢٤).

(٣) السجدة: ١١

ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

الجمع، والمراد به الواحد، ومثله شائع في كلام العرب، وقيل: إن لملك الموت أعوانا، فلعله أراده مع أعوانه؛ فلذلك ذكر بلفظ الجمع.

قال عكرمة والضحاك: الآية في قوم أسلموا بمكة قبل الهجرة، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، تخلفوا عن الهجرة، فلما كان يوم بدر حملهم الكفار مع أنفسهم إلى بدر كرها، فقتلوا بين الكفار.

وقوله ﴿ظالمى أنفسهم﴾ يعنى: بالشرك؛ فإنهم قتلوا مشركين؛ إذ ما كان يقبل الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلا بالهجرة، ثم أُبيح ذلك بقوله - عليه الصلاة والسلام: «لا هجرة بعد الفتح»^(١).

﴿قالوا فيم كنتم﴾ يعنى: الملائكة قالوا لأولئك الذين أسلموا ولم يهاجروا: ﴿فيم كنتم﴾ يعنى: فى أى الفريقين كنتم، فى المسلمين أم المشركين؟ وهذا سؤال توبيخ، لاسؤال استعلام ﴿قالوا كنا مستضعفين فى الأرض﴾ يعنى: كنا بمكة مستضعفين بين المشركين ﴿قالوا﴾ يعنى: الملائكة ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ يعنى: إلى المدينة ﴿فأولئك مأواههم جهنم وساءت مصيرا﴾ حكم لهم بالنار؛ لأنهم ماتوا مشركين ﴿إلا المستضعفين﴾ وهم أصحاب الأعدار ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾ منهم الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة.

قال ابن عباس: كنت أنا وأمى من المستضعفين بمكة. وهم الذين دعا لهم النبي ﷺ فى القنوت، فقال: «اللهم انج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة، واشدد وطأتك على مضر، هكذا كان يدعو لهم

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (٥٦/٤ / رقم ١٨٣٤)، ومسلم (١٧٥/٩ / رقم ١٣٥٣) من حديث ابن عباس ورواه البخارى (٢٢٠/٦ / رقم ٣٠٨٠)، ومسلم (١٣/١٣ / رقم ١٨٦٤) من حديث عائشة.

وَالنِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا

شهرا، حتى نجوا، وقدموا؛ فترك ذلك الدعاء، فقليل له في ذلك فقال: ألا ترونهم قد قدموا» (١).

﴿لا يستطيعون حيلة﴾ يعنى: للخروج ﴿ولا يهتدون سبيلا﴾ أى: طريقا إلى المدينة ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ «وعسى» من الله واجب؛ لأنه للإطماع، والله – تعالى – إذا أطمع عبدا أوجب له وأوصله إليه.

﴿وكان الله عفوا غفورا﴾ روى: أنه لما نزلت هذه الآية، كتب بها أصحاب رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة، وكان فيهم شيخ كبير يقال له: جندع بن ضمرة – ويقال له حبيب بن ضمرة – فقال: لست من المستضعفين، وأنا أعرف طريق المدينة، وقال لبنيه: احملوني إلى المدينة، فحملوه يأتون به، فلما بلغ التنعيم؛ أدركه الموت، فبلغ ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: لو وصل إلى المدينة، لأتم الله أجره؛ فنزل قوله – تعالى –: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ يعنى: تم أجره.

وقوله: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة﴾ المراغم: المهاجر، والمراغمة: المهاجرة، قال أبو عمر بن العلاء: وإنما سميت المهاجرة مراغمة؛ لأنه من هاجر مراغم قومه وقربته، وقال الشاعر:

كطود يلوذ^(٢) بأركانه عزيز المراغم والمهرب

وقال ابن عباس: مراغما، أى: متحولا يتحول إليه، وقال مجاهد: مراغما، أى: متزحزحا، وقوله: ﴿وسعة﴾ قال ابن عباس: معناه: وسعة في الرزق، قال قتادة:

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، فرواه البخارى (٣٣٩/٢) رقم ٨٠٤، وأطرافه فى ٧٩٧، ١٠٠٦، ٢٩٣٣،

٣٣٨٦، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣، ٦٩٤٠) ومسلم (٥/٢٤٧ – ٢٥٠ رقم ٦٧٥).

(٢) فى لسان العرب: يلاذ، مادة (رغم).

وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ

ومعناه: وسعة من الضلالة إلى الهدى.

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ قد ذكرنا أنه فيم نزل ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: سافرتُم ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قصر الصلاة في السفر لاختلاف في جوازه في حال الخوف، وأما في حال الأمن: قال سعد بن أبي وقاص: إنه لا يجوز، وبه قال داود، وأهل الظاهر؛ تمسكاً بظاهر القرآن، وقال جمهور العلماء وهو قول أكثر الأمة - : إنه يجوز القصر في حال الأمن؛ لما روى عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر - رضى الله عنه - : «ما بالناس نقصر، وقد أمنا، والله - تعالى - يقول في كتابه: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ قال عمر: عجبت مما تعجبت أنت، فسألت النبي ﷺ، فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» (١) وروى «أن رسول الله ﷺ سافر من مكة إلى المدينة - لا يخاف إلا الله - وقصر الصلاة» (٢) وكان - عليه السلام - يقصر الصلاة في جميع أسفاره، ولم ينقل أنه أتم في سفر ما؛ ولذلك قال الشافعي: القصر أولى؛ وإن جاز الإتمام.

وروى عن جابر، والحسن - وهو قول ابن عباس - : أن صلاة الحضر أربع ركعات، وصلاة السفر ركعتان، وصلاة الخوف ركعة، وروى عن ابن عباس أنه قال: «فرض الله - تعالى - الصلاة على لسان نبيه في الحضر أربع ركعات، وفي السفر ركعتين، وفي

(١) رواه مسلم (٥/ ٢٧٣ - ٢٧٤ / رقم ٦٨٦)، وأبو داود (٣/ ٢ / رقم ١١٩٩)، والترمذي (٥/ ٢٢٧ / رقم ٣٠٣٤)، والنسائي (٣/ ١١٦ - ١١٧ / رقم ١٤٣٣)، وابن ماجه (١/ ٣٣٩ / رقم ١٠٦٥) وأحمد (١/ ٢٥٠، ٣٦).

(٢) رواه الترمذي (٢/ ٤٣١ / رقم ٤٥٧) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٣/ ١١٧ - ١١٨ / رقم ١٤٣٦)، وأحمد (١/ ٢١٥) كلهم من حديث ابن عباس.

الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا

الخوف ركعة»^(١) وأكثر الأئمة على أن القصر في الخوف ركعتان، مثل قصر السفر، ثم اختلفوا في القصر على قولين: أنه إباحة، أم واجب، قال بعضهم: هو إباحة، وهو اختيار الشافعي، وهو أصح؛ لقوله عز ذكره: ﴿فليس عليكم جناح﴾ وهو مثل قوله: ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾^(٢).

وقال بعضهم: هو واجب. والخلاف بين السلف مشهور فيه.

وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: يقتلكم، والفتنة بمعنى: القتل هاهنا، وقرأ أبى بن كعب: «أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا» - من غير قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ - ويروى عن أبى أيوب الأنصارى أنه قال: نزل قوله: ﴿فليس عليكم جناح أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ هذا القدر فحسب، ثم مضى حول، ولم ينزل شىء؛ فسئل رسول الله ﷺ عن صلاة الخوف، ثم نزل قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ فأشار إلى أنه راجع إلى صلاة الخوف، لا إلى صلاة السفر.

قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَيْفِيَةَ صَلَاةِ الْخَوْفِ، وَاعْلَمْ أَنَّ صَلَاةَ الْخَوْفِ جَائِزَةٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَوْلِ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: صَلَاةُ الْخَوْفِ لَا تَجُوزُ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي يُوسُفَ؛ تَمَسَّكَ بِظَاهِرِ الْآيَةِ، قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فَشَرَطَ كَوْنَهُ فِيهِمْ، وَالْأَصَحُّ هُوَ الْأَوَّلُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ﴾ لَيْسَ عَلَيَّ سَبِيلُ الشَّرْطِ، وَإِنَّمَا خَرَجَ الْكَلَامُ عَلَى وَفْقِ الْحَالِ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَّوْا بَعْدَهُ صَلَاةَ الْخَوْفِ.

(١) رواه مسلم (٢٧٥/٥) رقم (٦٨٧)، وأبو داود (١٧/٢) رقم (١٢٤٧)، والنسائي (٢٢٦/١) رقم (٤٥٦)،

وابن ماجه (٣٣٩/١) رقم (١٠٦٨).

(٢) البقرة: ٢٣٠.

مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

﴿فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم﴾ وسبب نزول الآية: ما روى أبو عياش الزرقى: «أن رسول الله ﷺ نزل بعسفان، وكان على خيل المشركين خالد بن الوليد، فصلى النبي ﷺ مع أصحابه صلاة الظهر، فقال المشركون: قد وجدنا منهم غرة إن قصدناهم، وحملنا عليهم، فقال بعضهم: ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من أولادهم، وأهاليهم - يعنون صلاة العصر - فنزل جبريل، وأخبره بمقالتهم، وأمر بصلاة الخوف» (١).

وقد روى عن رسول الله ﷺ صلاة الخوف بروايات شتى، وأخذ الشافعى برواية صالح بن خوات بن جبير عن أبيه عن النبي ﷺ: «أنه صلى صلاة الخوف، فجعل أصحابه فرقتين، وصلى بإحدى الطائفتين ركعة، فقاموا، وأتموا ركعتين، وذهبوا إلى وجه العدو، وجاءت الطائفة الثانية والنبي ﷺ ينتظرهم، فصلى بهم الركعة الثانية وانتظرهم جالساً حتى قاموا وأتموا ركعتين، ثم سلم بهم» (٢) فهذا معنى قوله: ﴿فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم﴾.

واختلفوا فى أنهم متى يأخذون أسلحتهم؟ قال بعضهم: يأخذونه فى الصلاة؛ ليكونوا أهيب فى عين العدو؛ فعلى هذا يأخذون من السلاح ما لا يمنعهم من الإتيان بأركان الصلاة، وقال آخرون: يأخذون السلاح إذا ذهبوا إلى وجه العدو.

﴿فإذا سجدوا﴾ يعنى: فإذا صلوا ﴿فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم

(١) رواه أبو داود (١١/٢ - ١٢ / رقم ١٢٣٦)، والنسائي (٣/١٧٦ - ١٧٧ / رقم ١٥٤٩)، وأحمد (٤/٥٩ - ٦٠) وابن حبان - الإحسان (٧/١٢٨ - ١٢٩ / رقم ٢٨٧٦)، والحاكم فى المستدرک (١/٣٣٧ - ٣٣٨) وصححه على شرط الشيخين، والبيهقى (٣/٢٥٤ - ٢٥٥)، والدارقطنى وصححه (٢/٥٩ - ٦٠)، والواحدى فى أسباب النزول ص ١٣٣.

(٢) متفق عليه، فرواه البخارى (٧/٤٨٦ / رقم ٤١٢٩)، ومسلم (٦/١٨٣ / رقم ٨٤٢). عن صالح عن شهد مع رسول الله ﷺ غزوة ذات الرقاع، ب ورجع الحافظ فى الفتح (٧/٤٨٧) أنه عن صالح بن خوات عن أبيه خوات بن جبير

إِنْ كَانَ بَكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا

يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴿١٠١﴾ والحذر: ما يتقى به للحذر من العدو ﴿١٠٢﴾ ود الذين كفروا لو تغفلون ﴿١٠٣﴾ لو وجدوكم غافلين ﴿١٠٤﴾ عن أسلحتكم وأمتعتكم ﴿١٠٥﴾ يعنى: بالصلاة ﴿١٠٦﴾ فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴿١٠٧﴾ أى: فيحملون عليكم حملة واحدة.

﴿١٠٨﴾ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم ﴿١٠٩﴾ رخص لهم فى وضع السلاح فى حال المطر، والمرض؛ لأن السلاح يثقل حملة فى هاتين الحالتين. ﴿١١٠﴾ وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا.

قوله - تعالى - : ﴿١٠١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴿١٠٢﴾ يعنى: صلاة الخوف، ﴿١٠٣﴾ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴿١٠٤﴾ يعنى: الذكر بالتسبيح والتهليل، والتحميد، والتمجيد. ﴿١٠٥﴾ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ ﴿١٠٦﴾ يعنى: فإذا سكنتم وأقمتم وأمنتم ﴿١٠٧﴾ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿١٠٨﴾ يعنى على أركانها وهيئتها كما عرفتم ﴿١٠٩﴾ إِنْ الصَّلَاةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١١٠﴾ قال مجاهد: أى: فرضا مؤقتا يؤدى (فى) (١) أوقاته، وقال زيد بن أسلم: أراد به: فرضا مُنْجِماً يأتى نجم بعد نجم.

قوله - تعالى - : ﴿١١١﴾ وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ﴿١١٢﴾ سبب نزول الآية: «أن الكفار يوم أحد لما انهزموا، بعث النبي ﷺ طائفة من أصحابه على إثرهم، فشكوا ألم الجراحات؛ فنزلت الآية» (٢) ﴿١١٣﴾ وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴿١١٤﴾ أى: لاتضعفوا فى طلب القوم. ﴿١١٥﴾ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ ﴿١١٦﴾ أى: توجعون وتشكون الألم، فإنهم يألمون، أى: يوجعون ويشكون الألم كما تألمون، قال الشاعر فى معناه:

قاتل القوم يا خزاع ولا يدخلنكم

(١) فى «ك»: إلى.

(٢) رواه بنحوه الطبري فى التفسير (١٦٩/٥) عن عكرمة.

اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ

من قتالهم، فشد القوم أمثالكم لهم شعر في الرأس لا ينشرون إن قتلوا (١)

﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ أى: وتأملون من الله ما لا يأملون، من الظفر فى الدنيا، والثواب فى الآخرة، وقال الفراء والكسائى: الرجاء بمعنى الخوف، وكل راج خائف؛ لأنه يخاف ألا يدرك المأمول، ومنه قوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا﴾ (٢) وأجمعوا على أن معناه: لا تخافون لله عظمة، قال الشاعر:

لا تترجى إذا تلاقى الزائد
أسبعة تلقى معاً أم واحدا (٣)

﴿وكان الله عليما حكيما﴾

قوله - تعالى - : ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ سبب نزول الآية: ما روى «أن طعمة بن أبيرق - من بنى ظفر بن الحارث - سرق درعا، فلما أتاهم به ألقاه فى دار يهودى، وقال: إنه سرق - وفى رواية: أودعه عند يهودى - فلما ظهر، قال: إن اليهودى سرقه؛ فجاء قومه إلى النبى ﷺ وهم بنو ظفر بن الحارث؛ ليدافعوا عنه، وهم النبى ﷺ بدفع السرقة عنه، وقطع يد اليهودى، وكان عند قومه أنه السارق؛ فنزل قوله: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ (٤) أى: لتحكم بالحق. ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أى: بما علمك، وحكى عن ابن عباس أنه قال: إياك والرأى فإن

(١) كذا وقعت هذه الأبيات «بالأصل، وك». (٢) نوح: ١٣.

(٣) وقع هذا الرجز فى لسان العرب مادة: (رجا) كما يأتى:

لا تترجى حين تلاقى الذائد
أسبعة لاقت معاً أو واحدا

(٤) رواه الترمذى (٥/ ٢٢٨ - ٢٣٠ / رقم ٣٠٣٦)، وقال: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً أسنده غير محمد ابن سلمة الحراني، وروى يونس بن بكير، وغير واحد هذا الحديث، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر ابن قتادة مرسل، لم يذكروا فيه عن أبيه، عن جده.

ورواه الحاكم (٤/ ٣٨٥ - ٣٨٨) وصححه على شرط مسلم، والطبري فى التفسير (٥/ ١٦٩ - ١٧١)

كلهم من حديث قتادة بن النعمان.

وزاد السيوطي فى الدر (٢/ ٢٣٧) فعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبى الشيخ.

اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا

الله - تعالى - يقول: ﴿بما أراك الله﴾ ولم يقل: بما رأيت، ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ يعنى: طعمة من الخائنين، فلا تكن مدافعا عنه ﴿واستغفر الله﴾ أمره بالاستغفار؛ لأنه كان قد هم أن يدافع عنه ﴿إن الله كان غفورا رحيمًا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أى: يخونون أنفسهم والاختيان: افتعال من الخيانة ﴿إن الله لا يحب﴾ قال أهل التفسير: معناه: إن الله لا يقرب ﴿من كان خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ الخوان: الخائن والأثيم: ذو الإثم.

قوله - تعالى - : ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم﴾ بشكوى بنى ظفر بن الحارث، معناه: يستترون من الناس، ولا يستترون من الله، وهو معهم ﴿إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ قد بينا أن التبييت: تدبير الفعل ليلا؛ وذلك التبييت منهم أن قوم طعمة قالوا: ندفع أمره إلى النبي ﷺ؛ فإنه يسمع يمينه، وقوله؛ لأنه مسلم، ولا يسمع من اليهودى؛ لأنه كافر، فلم يرض الله - تعالى - قولهم ﴿وكان الله بما تعملون محيطة﴾.

قوله - تعالى - : ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يعنى: أنتم يا هؤلاء، قال الزجاج: معناه: ها أنتم الذين ﴿جادلتهم عنهم فى الحياة الدنيا﴾ أى: خاصمتهم، وأصل الجدل: الجدل، وهو الفتل، ويقال: شخص أجدل، إذا كان وثيق الخلق، ويقال للصقر: أجدل؛ لأنه أقوى الطيور على الصيد.

﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا﴾ يعنى: من الذى يتولى أمرهم، ويذب عنهم يوم القيامة؟

قوله - تعالى - : ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا﴾ عرض التوبة على طعمة وقومه فى هذه الآية، وأمرهم بالاستغفار.

﴿١٠٨﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

قوله - تعالى - : ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾ سبب هذا أن قومه قالوا له : تب إلى الله ، فحلف أنى ما سرقته ، وإنما سرقه اليهودى ؛ فذلك الذى يقول الله - تعالى - ومن كسبه الإثم ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ هو سرقته التى ذكرنا ، ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ هو نسبته السرقه إلى اليهودى الذى كان بريئاً عنها ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ فالبهتان : الكذب الذى يتحير منه الإنسان ، وهو البهت ، وأراد بالإثم المبين : اليمين الفاجرة .

قوله - تعالى - : ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ هذا خطاب للرسول ﷺ ﴿لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ يعنى : قوم طعمة ، هموا أن يلبسوا عليك ؛ لتدافع عنه ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أى : يرجع وباله عليهم ﴿وما يضرونك من شئ﴾ يعنى : ضرره عائد عليهم ، ولا يضرك ؛ لأنك معصوم ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ قيل : أراد به : وأنزل الله عليك الكتاب بالحكمة ، وقيل : أراد بالكتاب : القرآن ، وبالحكمة : السنة ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ يعنى : من أحكام القرآن ، وقيل : من علم الغيب ، وقيل : علمك قدرك ، ولم تكن تعلمه ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة﴾ . النجوى : السرائر فى التدبير ، قال الزجاج : كل ما انفرد بتدبيره قوم يخوضون فيه ؛ فهو نجوى : سرا كان أو علانية ، وأراد ها هنا : نجوى قوم طعمة وتدبيرهم ، وقيل : هو فى جميع الحوادث .

﴿إلا من أمر بصدقة﴾ قيل : أراد به إلا نجوى من أمر بصدقة ، وقيل : هو استثناء منقطع ، يعنى : لكن من أمر بصدقة ﴿أو معروف﴾ وهو كل ما عرفه الشرع ﴿أو

عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ ﴿﴾ وَفِي الْخَبَرِ: « كل كلام ابن آدم عليه إلا ثلاثة: أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكر الله » (١) وقيل لسفيان بن عيينة - حين روى هذا الحديث؛ فقالوا -: ما أشد هذا الحديث؟! فقال: اقرءوا قوله - تعالى -: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة ﴾ الآية.

وروى: أن رسول الله ﷺ قال لأبي أيوب الأنصاري: « ألا أدلك على صدقة هي خير لك من حمر النعم - أي: من الصدقة بحمر النعم؟ - قال: بلى يا رسول الله، فقال ﷺ: أن تصلح بين الناس إذا تفاسدوا، وأن تقرب بينهم إذا تباعدوا » (٢). ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ أراد به: طعمة، جادل النبي ﷺ، ثم لحق بمكة، وارتد حين ظهر عليه الحكم بالقطع.

قال سعيد بن جبير: إنه لما لحق بمكة سرق هنالك، فوجد في نقب يسرق؛ فقتل.

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٢٥ - ٥٢٦ / رقم ٣٩٧٤)، وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد ابن خنيس، وابن ماجه (٢/ ١٣١٥ / رقم ١٩٧٤)، وأحمد في الزهد (ص ٢٢-٢٣)، وأبو يعلى (١٣/ ٥٦ رقم ٧١٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٤٣ رقم ٤٨٤)، والحاكم (٢/ ٥١٢ - ٥١٣)، وأبو يعلى (١٣/ ٥٦ رقم ٧١٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٤٣ رقم ٤٨٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ١٢ - ١٣ / رقم ٥) من حديث أم حبيبة.

(٢) رواه البزار - مختصر الزوائد - (٢/ ٢٢٢ رقم ١٧٤١)، وقال: لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه، ولا نعلم حدث به عن حميد إلا عبد الله بن عمر، ولا عنه إلا ابنه عبد الرحمن، وهو لين الحديث، حدث بإحاديث لم يتابع عليها.

قلت: ولفظه: « ألا أدلك على تجارة... ».

وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٨٣): وفيه عبد الرحمن بن عبد الله العمري، وهو متروك.

مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
 بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ

وفى بعض القصص: أنه حين لحق بمكة نزل على الحجاج بن غلاط الأسلمى، فقام فى بعض الليل يسرق، فأحسوا به، فأخذوه، واجتمعوا عليه، وقالوا: إنه ضيف، وتركوه؛ فلحق بحرة بنى سليم، وكان يعبد الأصنام، ومات عليه؛ ففيه نزلت الآية ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ لأنه لما ارتد، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين.

واستدل أهل العلم بهذه الآية على أن الإجماع حجة.

قوله: ﴿نوله ما تولى﴾ أى: نوله ما اختاره، وقيل: نَكَلَهُ إِلَى (من) (١) تولاه ﴿ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقد ذكرنا معنى الآية فيما سبق ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ روى أبو عيسى الترمذى بإسناده عن على - رضى الله عنه - أنه قال: هذه أحب آية إلى فى القرآن.

قوله - تعالى - : ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى: ما يدعون من دونه ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ قيل: معناه: الأوثان، وإنما سميت الأوثان إناثا؛ لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللات، والعزى، ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أنثى بنى فلان، قال أبى بن كعب: كان مع كل صنم جنية من الشياطين، وقيل: معناه: الموات وإنما سمي الموات إناثا؛ لأن الإناث أرذل الجنسين، وأدونهما، فكذلك الموات أرذل من الحيوان، وكانت أصنامهم من الموات والجماد.

قال الضحاك: أراد به: الملائكة، وكانوا يقولون: الملائكة إناث، وكان بعضهم

(١) فى «ك»: ما.

لَا تَتَّخِذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا أَمْنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَتَّكِنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا

يعبدون الملائكة، ويصورون الأصنام على صور الملائكة، وقرأ ابن عباس: «إِلَّا أَنْتَا» جمع الأوثان، وقرئ في الشواذ أيضا «إِلَّا أَنْتَا» جمع الإناث؛ فيكون على جمع الجمع كالمثل. ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾؛ لأنهم إذا عبدوا الأصنام، فقد أطاعوا الشيطان، وأراد به: إبليس، والمريد العاتى المتمرد، وحقيقته: العارى من كل خير، ومنه الأمرد، ويقال: شجرة مرداء، إذا تساقطت أغصانها.

﴿لعنه الله﴾ أى: أبعد الله من الرحمة؛ معاقبة، ولذلك لا يجوز لعن البهائم؛ لأنها لا تستوجب العقوبة، والطرده عن الرحمة. ﴿وقال لا تتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ أى: مقدارا معلوما، قيل فى التفسير: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للشيطان وواحد لله. وأصل الفرض: الحز والقطع، ومنه فرض القوس: وهو الشق الذى يجعل فيه الوتر. ومنه فرض السواك: وهو الموضع الذى يجعل فيه الخيط، ومنه فُرْضة البحر: وهو المشرع الذى توقف إليه السفينة، والفرض: نوع من التمر يكون بعمان، قال الشاعر:

إذا أكلت سمكا وفرضا ذهب طولاً وذهبت عرضاً

قوله - تعالى - : ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا أَمْنِيَّتْهُمْ﴾ أى: لأغوينهم، فإن قال قائل: كيف نسب إليه الإضلال، وليس إليه الضلالة؟ قلنا: معناه: التزيين والدعوة إلى الضلالة، وقد قال ﷺ: «بعثت داعيا، وليس إلى من الهداية شيء، وبعث الشيطان مزيئا، وليس إليه من الضلالة شيء» (١). ﴿وَلَا أَمْنِيَّتْهُمْ﴾ قيل: معناه: أمنيتهم ركوب الأهواء، وقيل

(١) رواه العقيلي (٢/ ٨ - ٩) في ترجمة خالد بن عبد الرحمن أبي الهيثم وقال: ليس بمعروف بالنقل، وحديثه غير محفوظ، ولا يعرف له أصل.

ورواه ابن عدي في الكامل (٣/ ٣٩)، وابن حبان في المجروحين (١/ ٢٧٧)، والدولابي في الكنى (٢/ ١٥٧)، والسهمي في تاريخ جرجان (ص ٣٩٥)، وابن بطة في الإبانة - كتاب القدر - (٢/ ١/ ٧١ رقم ١٢٨٣)، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٧٢-٢٧٣).

وقال الدارقطني في تعليقه على المجروحين (ص ٨٨) عن خالد بن عبد الرحمن العبدى أبي الهيثم، رجل مجهول، لا أعلمه روى شيئا من الحديث غير هذا الحديث الباطل.

مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعْذِبُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْذِبُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

معناه: أمنيئهم طول العمر في النعيم؛ ليؤثروا الدنيا على الآخرة، وقال الزجاج: معناه: أمنيئهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصي.

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أراد به: البهيرة التي تأتي في سورة المائدة، والْبَتْكُ: القطع، والمراد به: شق الآذان، ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس - في إحدى الروايتين، وهو قول مجاهد - معناه: فليغير دين الله، أى: وضع الله في الدين: بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، ونحو ذلك، والرواية الثانية عن ابن عباس - وهو قول أنس، وعكرمة - أراد به: إخصاء الأنعام، وكان أنس يكره إخصاء البهائم من أجل هذا، وكان يجيزه الحسن، وقال ابن مسعود: أراد به الوشم، ويحتمل أن يكون المراد به تغيير الأنساب؛ وذلك أن ينتقل من نسب إلى نسب، ويحتمل أن يكون المراد به: الخضاب بالسواد، وهو منهى عنه، وإنما الخضاب المباح بالحمرة، والصفرة ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: يواليه باتباعه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خَسْرَانًا مُبِينًا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يَعْذِبُهُمْ﴾ وعده قد يكون بالتحذيف^(١) كما قال الله - تعالى - ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾^(٢) وقيل: إنه يتمثل في صورة آدمي، فيعد، ويمنى، وكان قد ظهر يوم بدر في صورة سراقبة بن مالك بن جعشم وظهر في اليوم الذي اجتمعت فيه قريش، وتشاوروا في إخراج النبي ﷺ، في صورة شيخ من نجد.

وقوله ﴿وَيَمْنِيهِمْ﴾ قد ذكرنا، ومن ذلك تمنى الإنسان قضاء الشهوات.

واعلم أن الإنسان لا يؤاخذ بغلبة الشهوة، واشتهاء الشهوات؛ لأن ذلك شئ جَبِلَ عليه، ويؤاخذ بالتمنى، وذلك أن يتمنى خمراً ليشربه، أو امرأة؛ ليزنى بها، فذلك من المعصية، ويؤاخذ به ﴿وَمَا يَعْذِبُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الغرور: إيهام الوصول إلى النفع من موضع الضرر ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أى: معدلاً.

(١) في «ك» بالتحريف خطأ.

(٢) البقرة: ٢٦٨.

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ

قوله - تعالى - : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا﴾ فإن قيل : ما الفائدة في تكرار الوعد والوعيد في القرآن ؟ قيل : فائدته : التوكيد ، قطعاً من سواء التأويل ، وقيل : إنما كرر الوعد على تفاصيل الإيمان ، وكرر الوعيد على تفاصيل الكفر ، ﴿ومن أصدق من الله قِيلاً﴾ أى : قولاً .

قوله - تعالى - : ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾ قال مسروق - هو أبو عائشة مسروق بن الأجدع الهمداني - : أراد به : ليس بأمانيتكم أيها المسلمون ، ولا أمانى أهل الكتاب ، وهم اليهود ، والنصارى .

وقال مجاهد : أراد بقوله : ﴿ليس بأمانيتكم﴾ مشركى العرب ، ﴿ولا أمانى أهل الكتاب﴾ يعنى : اليهود ، والنصارى ، فعلى القول الأول معنى الآية : أن اليهود قالوا : نحن أولى ؛ لأن ديننا أقدم وكتابنا أقدم .

وقالت النصارى : نحن أولى ؛ لأننا على دين عيسى ، وهو روح الله ، وكلمته ، وكان يحيى الموتى .

وقال المسلمون : نحن أولى ؛ لأن نبينا خاتم النبيين ، وكتابنا ناسخ للكتب ، وقد آمنا بكتابكم ، ولم تؤمنوا بكتابنا ؛ قال الله - تعالى - : ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾ يعنى : ليس الأمر بالأمانى ، وإنما الأمر بالعمل الصالح ، وقد قال ﷺ : « ليس الدين بالتمنى ، ولا بالتحلى .. (١) » الخبر .

وأما على القول الثانى : معنى الآية : أن اليهود والنصارى قالوا : نحن أهل الجنة ،

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٤٥٠) ، وابن النجار في الذيل (١٧/ ٤٨) ، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٨٨ - ٢٨٩) وحكم عليه الشيخ الألباني في الضعيفة رقم [١٠٩٨] بالوضع ، وانظر كلام الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف في كتابه « تبيض الصحيفة » (ص ٩٩ - ١٠٢ / رقم ٣٣) ، وهو عندهم بلفظ : « ليس الإيمان ... » .

وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾
وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

وذلك قول الله - تعالى - : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ (١) وقال المشركون: لاجنة، ولا نار، ولا بعث؛ قال الله - تعالى - : ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ أي: ليس كما قال المشركون، ولا كما قال اليهود والنصارى.

﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتاده، وجماعة المفسرين: إن الآية على العموم في حق كل عامل. وقال الحسن: أراد به: أهل الشرك. وفي حديث أبي هريرة: «أن هذه الآية لما نزلت، قالت الصحابة: أينما لم يعمل سوءاً؟! وشقت عليهم الآية، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ في ذلك، فقال: ما منكم من أحد تصيبه مصيبة، إلا كفر عنه، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها» (٢).

وروى: «أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا أقرئك آية أنزلت علي؟ قال: بلى (٣) فقراً: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ قال أبو بكر: فوجدت انقصاماً في ظهري، فقال - عليه السلام - : مالك يا أبا بكر؟ فقلت: كيف النجاة بعد هذه الآية، هلكننا، وأينما لم يعمل سوءاً؟! فقال ﷺ: أما أنت يا أبا بكر، والمؤمنون تجزون به في الدنيا، فتلقون الله - تعالى - وما عليكم ذنب، وأما الكافرون يجمع عليهم، ثم يجزون به في الآخرة» (٤) وفي رواية قال له - عليه السلام - :

(١) البقرة: ١١١.

(٢) رواه مسلم (١٦/١٩٦ - ١٩٧ / رقم ٢٥٧٤)، والترمذي (٥/٢٣١ / رقم ٣٠٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٨ / رقم ١١١٢٢).

(٣) في «الأصل وك»: نعم، وله وجه انظر مغنى اللبيب (٢/٣٤٦) وما أثبتناه من مصادر تخريج الحديث، وهو الأشهر.

(٤) رواه الترمذي (٥/٢٣١ - ٢٣٢ / رقم ٣٠٣٩)، وعبد بن حميد - المنتخب - (ص ٣١ / رقم ٧)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وفي إسناده مقال، موسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد، وأحمد بن حنبل، ابن سباع مجهول، وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي بكر، وليس له إسناده صحيح أيضاً.

نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

«ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تمرض؟ أليس تصيبك اللأواء؟ فذلك الذي تجزون به»^(١) فهذا معنى قوله - تعالى - : ﴿من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ أي : مقدرا النكير، وذلك أن الله - تعالى - لما أحال الخلق على العمل بيّن العمل في هذه الآيات، وجزاء العمل .

قوله - تعالى - : ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ أي : أخلص عبادته لله، وقيل : توجه بعبادته إلى الله، والوجه يذكر بمعنى : الدين والعبادة، ومنه قول المصلي : وجهت وجهي، أي : ديني وهو الصلاة .

﴿وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ وإنما خص إبراهيم؛ لأنه كان مقبول الأمم أجمع، وقيل : لأنه ﷺ بُعثَ على ملة إبراهيم، وزيد له أشياء .

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ يعني : حبيباً، لا خلل في حبه، والخلّة : صفاوة المودة، فمعناه : أنه اتخذهُ حبيباً، وجعله صفيه، وخاص نفسه، كما يكون الحبيب مع الحبيب، قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

وقيل : المحتاج من الخلّة، وهي الحاجة، يعني : جعل حاجته إلى نفسه دون غيره، وقال الشاعر :

وإن أتاه خليل يوم مسألة فقال (٢) لا غائب مالي ولا حرم

(١) رواه أحمد (١١/١)، والطبري (١٨٩/٥)، وأبو يعلى (٩٧/١ - ٩٨ / رقم ٩٧ - ١٠١)، وهناد في زهده (٢٤٨/١ / رقم ٤٢٩)، وابن حبان - الإحسان - (٧ / ١٧٠ - ١٧١ / رقم ٢٩١٠)، والحاكم (٣ / ٧٤ - ٧٥) وصححه، والبيهقي (٣ / ٣٧٣) .

(٢) في لسان العرب (مادة : حرم) : يقول، وانظر (مادة : خلل) .

مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ

يعنى: وإن أتاه محتاج، والأول أصح؛ لأن قوله ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ يقتضى الخلّة من الجانبين، ولا يتصور الحاجة من الجانبين. وفى الخبر قال ﷺ: «إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً خليلاً، لاتخذت أبا بكر؛ ولكن ود وإخاء إيمان، وإن صاحبكم خليل الله» (١).

قوله - تعالى - : ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطاً﴾ المحيط: هو العالم بالشىء بجميع ما يتصور العلم به.

قوله - تعالى - : ﴿ويستفتونك فى النساء﴾ أى: يطلبون فتواك فى النساء، قيل: هذا فى أم كُجّة وقد بينا قصتها، وأن أهل الجاهلية كانوا لا يرثون النساء والصبيان.

﴿قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب﴾ قال الزجاج: يعنى: ويفتيكم كما يتلى عليكم فى الكتاب ﴿فى يتامى النساء﴾ هذا إضافة الشىء إلى نفسه؛ لأنه أراد باليتامى: النساء ﴿اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ قال الحسن، وجماعة: أراد به: لا تؤتونهن حقهن من الميراث ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ به، بمعنى: عن أن تنكحوهن لدمامتهن، وحملوا الآية على الميراث.

وقالت عائشة: أراد به: لا تؤتونهن ما كتب لهن من الصداق. وقوله: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ يعنى: فى أن تنكحوهن، ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ يعنى:

(١) رواه الترمذى (٥٦٧/٥ - ٥٦٨ رقم ٣٦٥٩)، وقال حسن غريب، وأحمد (٤٧٨/٣)، والطبرانى فى الكبير (٣٢٨/١٢ رقم ٨٢٥)، والدولابى فى الكنى (٥٦-٥٥/١)، والبيهقى فى الدلائل (١٧٥/٧) كلهم من حديث أبى المعلى الأنصارى.

ورواه بنحوه مسلم فى صحيحه (١٨/٦ - ١٩ رقم ٥٣٢)، والنسائى فى الكبرى (٣٢٨/٦) رقم (١١١٢٣)، وأبو عوانة فى صحيحه (٤٠١/١) كلهم من حديث جندب - رضى الله عنه -.

وأخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٣٦) من طريق عبد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، وقد تقدم أن هذا الإسناد تالف.

امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ

ويفتيككم في المستضعفين من الوالدان، وهم الصغار ﴿﴾ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴿﴾ أي: بالعدل ﴿﴾ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما ﴿﴾.

قوله - تعالى - : ﴿﴾ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا ﴿﴾ النشوز: هو الارتفاع، والمراد به، ارتفاع الزوج، والتكبر بنفسه على الزوجة، ومنه النشز. ﴿﴾ أو إعراضا ﴿﴾ يعنى: أو خافت إعراضا من الزوج ﴿﴾ فلا جناح عليهما أن يصلحا ﴿﴾ وقرئ: «أن يصالحا»^(١) بينهما صلحا يعنى: بين الزوجين، واختلفوا فيمن نزلت الآية، قال بعضهم: نزلت في امرأة رافع بن خديج؛ فإنها كبرت، وتزوج رافع عليها شابة وخافت أن يعرض عنها؛ فنزلت الآية.

وقوله: ﴿﴾ أن يصالحا بينهما صلحا ﴿﴾ يعنى: أن يترك شيئا من القسم، وترضى بأن يكون القسم للشابة أكثر، وقيل: هو الصلح عن المهر بالإبراء، ونحوه، والقول الثانى: أن الآية نزلت في سودة بنت زمعة؛ أراد النبى ﷺ أن يطلقها؛ فقالت: لا تطلقنى، قد وهبت ليلتى لعائشة، فلا تطلقنى حتى^(٢) أحشر يوم القيامة فى زمرة نسائك^(٣).

﴿﴾ والصلح خير ﴿﴾ قيل: أراد به: الصلح خير من الفرقة، وقيل: أراد به: الصلح خير من النشوز، والإعراض ﴿﴾ وأحضرت الأنفس الشح ﴿﴾ والشح: البخل، وقيل: هو أقبح البخل، وحقيقته: الحرص على منع الخير، وأراد به: شح الزوجين على حقيهما ﴿﴾ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿﴾.

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: يُصْلِحَا، بضم الباء، وإسكان الصاد وكسر اللام من غير ألف.

وقرأ الباقر: يفتح الباء، والصاد واللام، وتشديد الصاد، وألف بعدها: انظر النشر (٢/٣٥٢).

(٢) فى «الأصل»: فلما تطلقنى حتى، وفى «ك»: لأجل أن.

(٣) رواه الترمذى (٥/٢٣٢ / رقم ٣٠٤٠)، وقال: حسن غريب، والطبري فى التفسير (٥/١٩٩)، وأبو داود

الطيالسي (ص ٣٤٩ / رقم ٢٦٨٣)، والطبراني فى الكبير (١١/٢٨٤ / رقم ١١٧٤٦)، والبيهقي

(٧/٢٩٧) كلهم من حديث ابن عباس.

وروي من حديث عائشة، رواه أبو داود (٢/٢٤٣ / رقم ٢١٣٥)، والحاكم (٢/١٨٢) وصحح إسناده.

تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

قوله - تعالى - : ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ قال عمر، وعلى، وابن عباس، أراد بالعدل: المحبة في القلب ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ يعني: إن ملتم في المحبة، فلا تميلوا في القسَم، وقد قال ﷺ: «اللهم هذا قَسَمِي فيما أملك، فلا تؤخذاني فيما لا أملك» (١) ﴿فتدروها كالمعلقة﴾ يعني لا أيماً ولا ذات بعل، وقيل: كالحبوسة ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾ يعني: الزوجين إذا تفرقا، فالزوج يجد الزوجة، والزوجة تجد الزوج ﴿وكان الله واسعا حكيما﴾ أى: واسع الفضل والرحمة والقدرة.

قوله - تعالى - : ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ هذه وصية الله العباد بالتقوى، ﴿وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا﴾.

﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ فإن قيل: أى فائدة فى تكرار قوله: ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ قيل: لكل واحد منها وجه:

أما الأول: فمعناه: ولله ما فى السموات وما فى الأرض، وهو يوصيكم بالتقوى، فاتقوه، واقبلوا وصيته.

(١) رواه أبو داود (٢٤٢/٢ / رقم ٢١٣٤)، والترمذي (٤٤٦/٣ / رقم ١١٤٠)، والنسائي (٦٤/٧ / رقم ٣٩٤٣)، وابن ماجه (٦٣٤/١ / رقم ١٩٧١)، وأحمد (١٤٤/٦)، والدارمي (٢٢٠٧/١٩٣/٢) والحاكم (١٨٧/٢) وصححه على شرط مسلم، وابن حبان - الإحسان (١٠/٥ / رقم ٤٢٠٥)، وابن أبي حاتم في العلل (١/٤٢٥ / رقم ١٢٧٩) وقال سمعت أبا زرعة يقول: لا أعلم أحداً تابع حماداً على هذا. قلت: روى ابن علية، عن أيوب، عن أبي قلابة، قال: «كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه... الحديث مرسل. وكذا قال النسائي: أرسله حماد بن زيد. ورجح الترمذي رواية حماد بن زيد المرسلة على رواية حماد بن سلمة المتصلة.

مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ

وأما الثانى : يقول : فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وكان الله غنيا حميدا ؛ فاطلبوا منه ما تطلبون .

وأما الثالث يقول : ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ، أى : اتخذوه وكيلا ولا تتكلوا على غيره .

قوله - تعالى - : ﴿ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ روى : « أن النبى ﷺ كان يضرب بيده كتف سلمان ، ويقول : ﴿ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ ويقول : سلمان وأصحابه » (١) ﴿ وكان الله على ذلك قديرا ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أراد به : الكفار ؛ فإنهم يعملون (٢) ابتغاء ثواب الدنيا ، وطلبوا لنعيمها ، ولا يطلبون ثواب الآخرة ، ولا يؤمنون بها ؛ فقال الله - تعالى - : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ القوَّام : مبالغة من القائم ، والقسط : العدل ، ومعناه : كونوا قائلين بالعدل ﴿ شهداء لله ﴾ لأنهم إذا شهدوا بالحق وقاموا بالعدل ، كانوا شهداء لله ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ فإن قيل : كيف يشهد على نفسه ؟ قيل : شهادته على نفسه : هو الإقرار ، وهو معنى ما روى عن ابن عباس : « قولوا الحق ولو على أنفسكم » .

﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أى : قولوا الحق ، ولو على الوالدين والأقربين ، قيل : نزلت الآية فى رجل كانت عنده شهادة على أبيه ، فهم أن يمتنع عنها ؛ فنزل قوله :

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢٠٥/٥) من حديث أبى هريرة ، وقال الزيلعى فى تخريج الكشاف

(١/٣٦٤ / رقم ٣٨٠) : وفيه انقطاع ؛ فإن الطبرى لم يسمع من شيخه .

(٢) فى « الأصل ، وك » : يعلمون ، وهو تصحيف .

الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

﴿أو الوالدين والأقربين﴾، ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ قال السدى: نزل ذلك فى رجلين اختصما إلى النبى ﷺ، أحدهما غنى، والآخر فقير، وكان ضلع النبى - عليه السلام - إلى الفقير، وكان عنده أن الفقير لا يخاصم بالباطل، وكان الحق للغنى فى الباطن؛ فنزلت الآية ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ (١).

قال ابن عباس: معناه: لا تحابوا الغنى لغناه، ولا ترحموا الفقير لفقره، وقال عطاء: لا تحيفوا على الفقير، ولا تعظموا الغنى؛ فهذا معنى الآية، وحقيقة المعنى: قوموا بالشهادة، سواء كان المشهود عليه غنيا أو فقيرا، وسواء كان المشهود له غنيا أو فقيرا، ولا تمتنعوا عن الشهادة للغنى لغناه، ولا عن الشهادة على الفقير لفقره.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾: يعنى: إِنْ يَكُنْ المشهود عليه غنيا، أو فقيرا ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى: كلوا أمرهما إلى الله، قال الحسن: معناه: فالله أعلم بهما. ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ قيل: معناه: فلا تتبعوا الهوى بأن تعدلوا، أى: لتكونوا عادلين، كما يقال: لا تعص فتراضى ربك، وقيل: معناه: لا تتبعوا الهوى لتميلوا من الحق إلى الباطل ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾ وهى من اللَّى قال الشاعر:

وكنـت داينت به حسانا مخافة الإفلاس والليانا

وفى معناه قولان: أحدهما: أنه خطاب للحكام، ومعنى ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾ أى: تميلوا إلى أحد الخصمين، أو تعرضوا عنه.

والثانى - وهو قول أكثر المفسرين - أنه خطاب للشهود، واللَّى منهم: تحريف الشهادة» والإعراض: كتمان الشهادة والأول: قول ابن عباس، وأما القراءة الثانية: «وَإِنْ تَلَوْا» (٢) فيه قولان: أحدهما: أن أصله: «وَإِنْ تَلَوْا» فإدخلت إحدى الواوين

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (ص ١٣٨)

والضَّلَعُ: الميل. انظر لسان العرب (مادة: ضلع).

(٢) هى قراءة: ابن عامر، وحزمة، بضم اللام، وووا ساكنة بعدها انظر النشر (٢/ ٣٥٢).

﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا
﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

فى الأخرى تخفيفاً، والمعنى ما بينا، والثانى: أنه من الولاية، يعنى: وإن تلوا القيام
بأداء الشهادة ﴿أو تعرضوا﴾ فتركوا أداء الشهادة ﴿فإن الله كان بما تعملون
خبيراً﴾.

قول - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ أكثر المفسرين على أنه
فى المؤمنين، ومعناه: يا أيها الذين آمنوا آمنوا، أى: اثبتوا على الإيمان، كما يقال:
قف حتى أرجع إليك - للرجل الواقف - أى: اثبت واقفاً.

وقال مجاهد: هو خطاب للمنافقين، ومعناه: يا أيها الذين آمنوا باللسان آمنوا
بالقلب، وقال الضحاك - وهو رواية الكلبي عن ابن عباس -: هو خطاب لأهل
الكتاب، ومعناه: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿والكتاب الذى
نزل على رسوله﴾ يعنى: القرآن ﴿والكتاب الذى أنزل من قبل﴾ يعنى: الكتب
المنزلة من قبل القرآن.

﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾
أى: بعيداً عن الحق.

قوله - تعالى -: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً﴾
قال قتادة: هذا فى اليهود، آمنوا بموسى، ثم كفروا به بعبادة العجل، ثم آمنوا بموسى
بالتوبة، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد، وقيل: هو فى جميع أهل الكتاب
من اليهود والنصارى؛ آمنوا بنبيهم، ثم كفروا به، وآمنوا بكتابهم، ثم كفروا به ثم
ازدادوا كفراً بمحمد. وقال مجاهد: هو فى قوم مرتدين آمنوا، ثم ارتدوا، ثم آمنوا،
ثم ارتدوا.

ومثل هذا هل تقبل توبته؟

قال على: لا تقبل توبته؛ فإنه إذا آمن، ثم كفر، ثم آمن، ثم كفر، فلو أراد أن يؤمن

وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

لا يقبل منه، ويقتل؛ لقوله - تعالى - ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ .

وأكثر أهل العلم على أنه: تقبل توبته، ويحتمل أن تكون الآية في المنافقين، وقوم
من أهل الكتاب، كانوا يؤمنون باللسان، ثم يرجعون إلى الكفر، ثم يأتون، فيؤمنون،
ثم يرجعون إلى الكفر.

﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ فإن قيل: أيش معنى قوله - تعالى - ﴿لم يكن الله
ليغفر لهم﴾، ومعلوم أن الله لا يغفر الكفر؟ قيل: أجاب النقاش في تفسيره أن معناه:
أن الكافر إذا أسلم، يغفر له كفره السابق، فهذا الذي أسلم، ثم كفر ثم أسلم، ثم
كفر، لا يغفر كفره السابق الذي كان يغفر لو ثبت على الإسلام ﴿ولا ليهديهم
سبيلاً﴾ أى: طريقاً إلى الحق.

قوله - تعالى - ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ فإن قيل: ما معنى البشارة
بالعذاب الأليم؟ قيل: أصل البشارة: كل خبر تتغير به بشرة الوجه، ساراً كان أم
مكروهاً، لكنه في الغالب إنما يستعمل في الخبر السار، فإذا استعمل في الخبر السيئ
كان على الأصل، وقيل: أراد به: ضع هذا موضع البشارة، كما تقول العرب: تحيتك
السوط، وعقابك السيف.

يعنى: وضعت السوط مع التحية، قال الشاعر:

وخيل قد دلفت بها خيل تحية بينهم ضربٌ وجيعٌ

قوله - تعالى - ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ هذا في
المنافقين، كانوا يوالون الكفار، ويظنون أن النصر والغلبة لهم ﴿أبیتون عندهم
العزة﴾ يعنى: يطلبون عندهم القوة والغلبة ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ أى: القوة
والغلبة كلها لله - تعالى - .

الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قد نرى في (١) بعض الأحوال الغلبة للكفار؛ فما معنى قوله: ﴿فَإِنْ الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؟ قيل: معناه: أن المقوى هو الله - تعالى - في الأحوال كلها. وقيل: معناه: الغلبة بالحجة لله جميعاً (٢).

قوله - تعالى -: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾.

هذا إشارة إلى ما أنزل في سورة الأنعام ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ...﴾ (٣) الآية. نهى عن القعود معهم، وما حكم القعود معهم؟ أما إذا قعد معهم... ورضى بما يخوضون فيه، فهو كافر مثلهم، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾. وإن قعد، ولم يرض بما يخوضون فيه، فالأولى أن لا يقعد، ولكن لو قعد كارهاً، فلا يكفر، وهذا هو الحكم في كل بدعة يخاض فيها، فلو تركوا الخوض فيه وخاضوا في حديث غيره، فلا بأس بالقعود معهم وإن كره؛ لقوله ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ قال الحسن: وإن خاضوا في حديث غيره لا يجوز القعود معهم؛ لقوله في سورة الأنعام: ﴿وَمَا يَنْسِينِكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣) والأكثرون على أنه يجوز، وآية الأنعام مكية وهذه الآية مدنية، والمتأخر أولى.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ الذين يتربصون بكم ﴿يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ يَنْتَظِرُونَ أَمْرَكُمْ﴾ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: ظفر ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يعني: كنا معكم، فاجعلوا لنا نصيباً من الغنيمة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يعني: وإن كانت القوة للكافرين ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾

(١) في «الأصل وك»: عن.

(٢) في «ك»: تعالى.

(٣) الأنعام: ٦٨.

أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى

ونمنعكم من المؤمنين ﴿١٤١﴾ الاستحواذ: الاستيلاء والغلبة ومنه قوله - تعالى - : ﴿١٤٢﴾ استحوذ عليهم الشيطان ﴿١﴾ قال المبرد: معنى هذا: قالوا: ألم نغلبكم على رأيكم، ونمنعكم من المؤمنين، والدخول في جملتهم، وتخذيل المؤمنين عنكم.

وقال غيره: معناه: ألم نستول عليكم بالنصرة لكم من جهة مراسلتنا إياكم بأخبار المؤمنين، وأمورهم، وتخذيلنا إياهم عنكم. ﴿١٤٢﴾ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴿١٤٢﴾.

﴿١٤١﴾ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴿١٤١﴾ قال على، وابن عباس: أراد به: في القيامة، وقيل: هو سبيل الحجة، أى: لا تكون الحجة للكافرين على المؤمنين أبداً.

قوله - تعالى - : ﴿١٤٢﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾ يخادعون الله، أى: يعاملون الله معاملة المخادعين حيث أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، وهو خادعهم، أى: يعاملهم معاملة المخادعين، وذلك على وجهين: أحدهما: أنه حكم بإيمانهم فى الظاهر، وكفرهم فى الباطن، كما فعلوا هم والثانى: أنه فى القيامة يعطيهم نورا، كما يعطى المؤمنين، ثم إذا كانوا على الصراط طُفئ نورهم، وذهب المؤمنون بنورهم، وهذا معنى قوله: ﴿١٤٢﴾ وهو خادعهم ﴿١٤٢﴾ وقيل: معناه: يخادعون رسول الله، وهو خادعهم، أى: يجازيهم على مخادعتهم الرسول، وسمى الثانى خادعا على الأزواج، كما قال: ﴿١٤٢﴾ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴿١٤٢﴾ وفى حديث عدى بن حاتم أن النبى ﷺ قال: «يؤتى بناس من الناس يوم القيامة إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها، واستنشقوا رائحتها، ورأوا فيها من النعيم، يأمر الله - تعالى - بصرفهم عنها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها، فيقولون: يارب، لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا كان أهون علينا، فيقول الله - تعالى - : ذاك أردت لكم،

(١) المجادلة: ١٠٩.

(٢) الشورى: ٤٠.

هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ

وكنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم الناس، لقيتموهم مخبتين، هبتم الناس ولم تهابوني، أجللتهم الناس، ولم تجلوني، تركتم للناس، ولم تتركوا لي؛ فاليوم أذيقكم العذاب، مع ما حرمتهم من الثواب»^(١).

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ يعني: متثاقلين، وهذا دأب المنافقين؛ لقلة الدواعي لهم، وأما المؤمنون ينشطون إلى القيام إلى الصلاة؛ لكثرة الدواعي لهم، ﴿يَرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أى: يعملون ما يعملون، مراعاة للناس، لا اتباعاً لأمر الله.

واعلم أن الرياء لا يوجب الكفر، وهو عيب عظيم، وأما النفاق كفر محض.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الحسن: لأنه لما لم يتقبل عملهم، كان قليلاً ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أى: متذبذبين وكذلك قرأ أبى بن كعب، ومعناه: مضطربين متحيرين ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾، يعني: لا إلى الكفار بالتصريح بالشرك، ولا إلى المؤمنين باعتقاد الإيمان.

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين ربيضين، إن جاءت إلى هذه، نطحتها، وإن جاءت إلى هذه نطحتها»^(٢) ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أى: ومن يضلله الله، فلن تجد له طريقاً إلى الحق.

قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٧/٨٦ / رقم ١٩٩، ٢٠٠)، وفي الأوسط - مجمع البحرين - (٨/١٩٣ - ١٩٤ / رقم ٤٩٤٧) وابن حبان في المجروحين (٣/١٥٥ - ١٥٦)، والبيهقي في البعث (ص ٣١٦ / رقم ٦٥٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٢٤ - ١٢٥) وابن الجوزي في الموضوعات (٣/١٦٢).

وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٢٣): وفيه أبو جنادة وهو ضعيف.

(٢) رواه مسلم (١٧/١٨٧ رقم ٢٧٨٤)، والنسائي (٨/١٢٤ / رقم ٥٠٣٧)، وأحمد (٢/٣٢) والطبري (٥/٢١٥) والطيالسي (ص ٢٤٩) / رقم ١٨٠٢ كلهم من حديث ابن عمر.

الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا

المؤمنين ﴿﴾ فى الآية نهى عن موالاته المؤمنين مع الكفار ﴿﴾ أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ﴿﴾ السلطان: الحجة، ومنه يقال: للأمير سلطان؛ لأنه ذو الحجة، ومعناه: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة فى عذابكم، بحيث لا يبقى لكم عذر عنده؟!.

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ويقرأ: «فى الدرك» بجزم الراء - (٢) قال أبو عبيدة، والأخفش: النار دركات، والجنة درجات، قال أهل العلم: يجوز أن يكون فرعون وهامان أشد عذابا من المنافقين، وإن كان المنافقون فى الدرك الأسفل. قال ابن مسعود: الدرك الأسفل: تابوت من حديد مقفل عليهم، وقيل: تابوت من النار. قال أبو هريرة: والدرك الأسفل: بيت مطبق عليهم، تتوقد النار فيه من فوقهم، ومن تحتهم ﴿﴾ ولن تجد لهم نصيرا ﴿﴾ مانعا من العذاب.

قوله - تعالى - : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أى: أسلموا ﴿﴾ وأصلحوا ﴿﴾ أى: داموا على التوبة ﴿﴾ واعتصموا بالله ﴿﴾ الاعتصام: هو الامتناع بالشئ مما يخاف، فالاعتصام بالله: هو الامتناع بطاعته من كل ما يخاف عاجلا، وآجلا ﴿﴾ وأخلصوا دينهم لله ﴿﴾ شرط الإخلاص بالقلب؛ لأن الآية فى المنافقين، والنفاق: كفر القلب، فزواله بالإخلاص ﴿﴾ فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴿﴾، وإنما لم يقل: فأولئك هم المؤمنون، وسوف يؤتيهم الله أجرا عظيما؛ غيظا على المنافقين.

قوله - تعالى - : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ هذا استفهام بمعنى التقرير، ومعناه: لا يعذب الله [المؤمن] (٢) الشاكر، وتقدير قوله: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ أى: إن آمنتم وشكرتم، والشكر ضد الكفر، والكفر: ستر النعمة والشكر: إظهار النعمة ﴿﴾ وكان الله شاكراً عليماً ﴿﴾ الشكر من الله قبول العمل، ومعناه: وكان

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وعاصم: بإسكان الراء، وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (٢/٢٥٣).

(٢) فى «الأصل»: المؤمنين.

عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ

الله قابلاً للطاعات، عليماً بالنيات .

قوله - تعالى - : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾ قال ابن عباس : معناه : إلا من ظلم، فيجوز له أن يجهر بالسوء بالإخبار عن ظلم الظالم، والدعاء عليه، قال الحسن : دعاؤه عليه : أن يقول : اللهم اعني عليه، اللهم استخرج حقي منه .

وقيل : يجوز له أن يشتم، ولكن بمثل ما شتم، لا يزيد عليه، بما لم يكن قذفاً، وقد ورد في الحديث : « السبتان بالسبة ربا » قال مجاهد : هو في الضيف يأتي قوماً، فلم يقره، ولم يحسنوا ضيافته، يجوز له أن يجهر بالسوء لهم .

ويقرأ : «إِلا من ظَلَمَ» بفتح الظاء واللام .

قال الزجاج : معناه : إلا من ظلم، فأجهر قوله بالسوء، وقيل : هو راجع إلى الآية المتقدمة، وتقديره : ما يفعل الله بعذابكم إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ إِلَّا من ظلم وقيل : هو استثناء منقطع، يعنى : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، لكن يجهر بالسوء من ظلم ﴿ وكان الله سميعاً عليماً ﴾ سميعاً لأقوالكم : عليماً بنياتكم .

قوله - تعالى - : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ ﴾ معناه : إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا من الصّدقات؛ ليقْتدَى بكم، أَوْ تَخَفَوْهُ؛ مخافة الرياء ﴿ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ ﴾ تصابون به ﴿ فَإِنْ أَلَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أراد به اليهود لما كفروا بمحمد ﷺ فكأنهم كفروا بالله ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ يريدون أن يؤمنوا بالله، ويكفروا بالرسول ﴿ وَيَقُولُونَ نُوْمنَ بَعْضٌ وَنَكْفُرُ بَعْضٌ ﴾ يؤمنون بموسى، ويكفرون بعبسى، ومحمد ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أى : مذهباً يذهبون إليه .

تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ
يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا
﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
أُجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ إنما حقق كفرهم، ليعلم أنهم كفار [مطلقاً] ^(١) لئلا
يظن ظان أنهم لما آمنوا بالله وبعض الرسل لا يكون كفرهم مطلقاً ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ
سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورُهُمْ﴾ إنما سماه أجرا مجازا؛ لأنه ذكره بإزاء العمل؛ لأن العمل
يوجب، وهذا نحو قوله - تعالى - في قصة موسى : ﴿إِنْ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
سَقَيْتَ لَنَا﴾ ^(٢) سماه أجرا على مقابلة العمل؛ لأن موسى عمل؛ ليؤجر عليه ﴿وكان
الله غفورا رحيمًا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ هم
اليهود، قالوا للنبي ﷺ لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء جملة، كما
أنزلت التوراة على موسى جملة.

قال الحسن: ولم يكن ذلك سؤال انقياد، وإنما ذلك سؤال تحكم، واقتراح؛ فإنهم
لو أنزل عليهم الكتاب جملة، كما سألوا؛ لم يؤمنوا، والله - تعالى - لا ينزل الآيات
على اقتراح العباد، وإنما ينزلها على مشيئته ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ أي:
أعظم من ذلك ﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾ أي: عيانا، وذلك أن العرب كانت تعد
العلم بالقلب رؤية؛ فقال: ﴿جهرة﴾ ليعلم أنه أراد العيان، وقال أبو عبيدة: معناه:

(١) في «الأصل وك»: مطلق.

(٢) القصص: ٢٥.

السَّمَاءَ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا

فقالوا جهرة: أرنا الله ﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾، ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ يعنى: إلها ﴿من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك﴾ فيه استدعاء للتوبة، ومعناه: أن أولئك الذين اجترموا [ذلك] ^(١) الإجماع، عفونا عنهم؛ فتوبوا أنتم، حتى نغفو عنكم ﴿وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾ حجة بينة من المعجزات.

قوله - تعالى -: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ الطور: جبل الطور، وقيل: كل جبل ينبت شيئا، فهو طور، فإن لم ينبت، لا يسمى طورا، والميثاق: العهد المؤكد باليمين.

﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا﴾ قيل: إنهم سجدوا على أنصاف وجوههم، حتى دخلوا الباب، وفي القصة: أنهم قالوا: بهذا السجود رفع العذاب عنا، فلا نترك هذا السجود، وكانوا يسجدون بعد ذلك على أنصاف وجوههم.

﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ وقرأ نافع - برواية قالوا -: ﴿لا تعدوا﴾ - بجزم العين، مشددة الدال وفي رواية ورش عنه ﴿لا تعدوا﴾ - بفتح العين مشددة الدال ^(٢) ومعنى الكل: لا يعتدوا في السبت ﴿وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾.

قوله - تعالى -: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ و«ما» للصلة، وإنما تدخل في الكلام؛ لتفخيمه، وتجزيله ﴿وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف﴾ قد ذكرنا كل هذا ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ الطبع: الختم، وقال

(١) في «الأصل وك»: تلك.

(٢) انظر النشر (٢/٢٥٣).

اَقْلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ

لزجاج: جعل قلوبهم، كالمطبوع لايفلح، ولا يصلح أبدا، ولا يدخلها خير؛ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴿١٥٥﴾ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴿١٥٦﴾ أراد به: نسبتهم مريم إلى الزنا.

قوله تعالى: ﴿١٥٥﴾ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴿١٥٦﴾.

قيل: إن الله - تعالى - ألقى شبه عيسى على الذى دلهم عليه؛ فقتلوه، وقيل: إنهم كانوا حبسوا عيسى فى بيت، وجعلوا عليه رقبيا، فألقى الله تعالى شبه عيسى على الرقيب؛ فقتلوه، وقيل: إنهم ما كانوا يعرفون عيسى بعينه، وكانوا يعرفونه باسمه، وكانوا يطلبونه؛ فقال لهم يهوذا - وهو واحد من أصحاب عيسى - : أعطونى شيئا، أدلكم على عيسى؛ فأعطوه ثلاثين درهما؛ فدلهم على غيره، فقتلوا ذلك الغير؛ فهذا قوله: ﴿١٥٦﴾ ولكن شبه لهم ﴿١٥٧﴾، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ﴿١٥٨﴾ وذلك أن الرجل الذى قتلوه على ظن أنه عيسى، كان يشبهه بوجهه، ولا يشبهه بجسده، فوقع فيهم الاختلاف، فقال بعضهم: الذى قتلناه كان عيسى، وقال بعضهم: لم يكن عيسى. وقيل: هو الاختلاف بين علمائهم، واغتامهم^(١)؛ فإن علماءهم كانوا يعلمون أنهم لم يصلبوا عيسى وكان عند جهالهم واغتامهم أنهم قتلوا عيسى، ﴿١٥٩﴾ وما لهم به من علم ﴿١٦٠﴾ يعنى: من حقيقة علم ﴿١٦١﴾ إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ﴿١٦٢﴾ قال ابن الأنبارى: قوله: ﴿١٦٣﴾ وما قتلوه ﴿١٦٤﴾ كلام تام، وقوله: ﴿١٦٥﴾ يقينا ﴿١٦٦﴾ راجع إلى ما بعد، وتقديره: «بل رفعه الله إليه يقينا، قال الفراء: معناه: وما قتلوا

(١) الغتمة: عجمة فى المنطق، ورجل اغتم: أى لايفصح شيئا، انظر لسان العرب (مادة: غتم).

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ

الذى ظنوا أنه عيسى يقينا أنه عيسى، وقيل: «الهاء» كناية عن عيسى، أى: وما قتلوا عيسى يقينا ﴿بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ معناه: وإن من أهل الكتاب أحدا إلا ليؤمن به، وهو مثل قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (١) أى: وإن منكم أحد.

واختلفوا فى قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال الحسن - وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس - : إنه كناية عن الكتابى، وقال: ما من كتابى من اليهود، إلا وهو يؤمن بعيسى قبل موته فى وقت اليأس، حين لا ينفعه، حتى قيل لابن عباس: وإن مات حرقا أو غرقا أو هدم؟ قال: نعم.

وقال قتادة - وهو رواية أخرى عن ابن عباس - : إن «الهاء» كناية عن عيسى، يعنى: ما من كتابى إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل من السماء، وقال عكرمة: هذا فى محمد ﷺ ما من كتابى إلا ويؤمن به قبل الموت، وهذا قول ضعيف؛ لأنه لم يجر ذكر محمد فى الآية ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يعنى: عيسى.

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ يعنى: ما ذكر من إجرامهم ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ هو ما ذكرنا فى سورة الأنعام ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا

بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ
وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا

كل ذى ظفر... ﴿١﴾ الآية على ما سيأتى ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم
الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ يعنى : الرشا ﴿وأعتدنا للكافرين
منهم عذابا أليما﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿لكن الراسخون فى العلم منهم﴾ «لكن» للإضراب عن كلام،
والدخول فى كلام آخر، ﴿والراسخون﴾ : المبالغون فى العلم أولو البصائر فيه، وأراد
به : الذين أسلموا من علماء اليهود : مثل عبد الله بن سلام، ويمين بن يمين، وأسد
وأسيد ابنى كعب، وجماعة ﴿والمؤمنون﴾ أراد به : المهاجرين، والأنصار ﴿يؤمنون﴾
بما أنزل إليك ﴿يعنى : القرآن﴾ وما أنزل من قبلك ﴿يعنى : سائر الكتب المنزلة﴾
﴿والمقيمين الصلاة﴾ فى هذا إشكال من حيث النحو، قيل : إن هذا ذكر لعائشة،
وأبان بن عثمان، فادعيا الغلط على الكاتب، وقالوا : ينبغى أن يكتب : «والمقيمون
الصلاة» وليس هكذا؛ بل هو صحيح فى النحو، وهو نصب على المدح، وتقديره :
واذكروا المقيمين الصلاة، أو أعنى : المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة، ومثله قول
الشاعر :

النازليين بكل معترك والطيبون [معاقد] (٢) الأزر

أى : أعنى النازليين بكل معترك، وهم الطيبون معاقد الأزر؛ فيكون نصبا على
المدح، وقيل تقديره : وما أنزل على المقيمين الصلاة، قوله : ﴿والمؤتون الزكاة﴾ رجوع
إلى نسق الأول ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ .

(١) الأنعام : ١٤٦ .

(٢) فى «الأصل وك» : معاقد . وهو تصحيف .

إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ هذا بناء على ما [سبق] ^(١) من قوله ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ يقول الله - تعالى - : قد جعلناك رسولا بالطريق الذي [قد] ^(٢) جعلنا سائر الأنبياء رسلا، وهو الوحي، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ذكر عدة من الرسل الذين أوحى إليهم.

فإن قال قائل: لم قدم ذكر عيسى، وهو متأخر؟ قيل: «الواو» لا توجب الترتيب، وإنما هي للجمع، وقيل: ذكره اهتماما بأمره، وكان أمر عيسى أهم ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ قرأ حمزة: «زُبوراً» - بضم الزاي - ^(٣) فالزبور: فعول بمعنى المفعول، وهو الكتاب الذي أنزل الله - تعالى - على داود، فيه التحميد، والتمجيد، وثناء الله - تعالى -، والزبور: الكتابة، والزبرة قطعة الحديد، ويقال: ماله زبرٌ أى: ماله عقل، وأما الزبور: جمع الزبر.

قوله - تعالى - : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وأرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ إنما كلمه بنفسه من غير واسطة، ولا وحى، وفيه دليل على من قال: إن الله خلق كلاما فى الشجرة؛ فسمعه موسى؛ وذلك لأنه قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾

(١) فى «الأصل» نسق.

(٢) من «ك».

(٣) وهى قراءة خلف أيضاً. انظر النشر (٢/٢٥٣).

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ

قال الفراء، وثعلب: إن العرب تسمى ماتوصل إلى الإنسان: كلاما، بأى طريق وصل إليه، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حقق الكلام بالمصدر، لم تكن إلا حقيقة الكلام، وهذا كالإرادة، يقال: أراد فلان إرادة، فيكون حقيقة الإرادة، ولا يقال: أراد الجدار أن يسقط إرادة، وإنما يقال: أراد الجدار، من غير ذكر المصدر؛ لأنه مجاز، فلما حقق الله كلامه موسى بالتكليم، عُرف أنه حقيقة الكلام من غير واسطة، قال ثعلب: وهذا دليل من قول الفراء أنه ما كان يقول بخلق القرآن.

فإن قال قائل: بأى شىء عرف موسى أنه كلام الله؟ قيل: بتعريف الله - تعالى - إياه، وإنزال آية عرف موسى بتلك الآية أنه كلام الله - تعالى -، وهذا مذهب أهل السنة أنه سمع كلام الله حقيقة، بلا كيف، وقال وائل بن داود: معنى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أى: مرارا، كلاما بعد كلام.

قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أى: أرسلنا رسلا ﴿لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وهذا دليل على أن الله - تعالى - لا يعذب الخلق قبل بعثه الرسل، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١) وقال - تعالى - ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُنَّاهُمْ بَعْدَازٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾^(٢).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أى: مقتدرا على معاونه الخلق ﴿حَكِيمًا﴾ ببعث الرسل. وفى حديث أبى الدرداء أنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن عدد الأنبياء فقال: مائة وأربعة وعشرون ألفا، فقلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر [جما غفيرا]»^(٣)»^(٤).

(١) الإسراء: ١٥. (٢) طه: ١٣٤. (٣) فى «الأصل، ك»: جم غفير، وهو خلاف الجادة.

(٤) المشهور أنه من حديث أبى ذر رضى الله عنه، فرواه ابن حبان فى المجروحين (٣/ ١٢٩ - ١٣٠)، وفى صحيحه - الإحسان (٢/ ٧٦ - ٧٩ / رقم ٣٦١)، والحاكم (٢/ ٥٩٧) وسكت عليه؛ فتعقبه الذهبى فقال: السعدى ليس بثقة. وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٦٦ - ١٦٨)، والبيهقى فى السنن (٩/ ٤)، وابن عدى فى الكامل (٧/ ٢٤٤) وقال ابن عدى: هذا حديث منكرو. ورواه أحمد مختصراً (٥/ ١٧٨، ١٧٩).

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ

قوله - تعالى - ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ سبب نزول الآية: أن قوما من علماء اليهود حضروا عند النبي ﷺ، فقال لهم: «أنتم تعلمون أنى رسول الله؟ فقالوا: لانعلم ذلك؛ فنزل قوله: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾» (١) أى: مع علمه، كما يقال: جاءنى فلان بسيفه، أى: مع سيفه، وفيه دليل على أن لله علما، هو صفته، خلاف قول المعتزلة خذلهم الله.

﴿والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا﴾ فإن قيل: إذا شهد الله له بالرسالة، فأى حاجة إلى شهادة الملائكة؟ قيل: لأن الذين حضروا عند النبي ﷺ، كان عندهم أنهم علماء الأرض؛ فقالوا: نحن علماء الأرض، ونحن ننكر رسالتك، فقال الله تعالى: إن أنكره علماء الأرض، يشهد به علماء السماء، وهم الملائكة، على مقابلة زعمهم وظنهم؛ لا للحاجة إلى شهادتهم؛ فإنه قال: ﴿وكفى بالله شهيدا﴾

قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كان بكتمان نعت محمد ﴿قد ضلوا ضلالا بعيدا﴾ أى: هلكوا، والضللال: الهلاك.

قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ فإن قال قائل: أى معنى لقوله: ﴿وظلموا﴾ وقد قال: ﴿كفروا﴾ وظلمهم كفرهم؟ قيل: معناه: كفروا بالله، وظلموا محمدا بكتمان نعت.

وقيل: ذكره تأكيدا ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ فى هذا إشارة إلى أن الله - تعالى - لو غفر للكافرين أجمع، كان يسع ذلك رحمته، لكنه قطع القول بأن لا يغفر لهم،

(١) رواه الطبرى فى التفسير (٢٢/٦) عن ابن عباس، وعزاه السيوطى فى الدر (٢٧٢/٢) لابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقى فى الدلائل.

الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا

﴿ولا ليهدىهم طريقا﴾ يعنى: الإسلام ﴿إلا طريق جهنم﴾ يعنى: اليهودية
﴿خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا
لكم﴾ تقديره: يكن الإيمان خيرا لكم ﴿وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات
والأرض وكان الله عليما حكيما﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم﴾ الغلو: مجاوزة الحد، والآية
فى النصارى، قال الحسن: يجوز أن تكون فى اليهود والنصارى؛ فإنهم غلوا فى أمر
عيسى، أما اليهود بالتقصير فى حقه، وأما النصارى بمجاوزة الحد فيه.

والغلو غير محمود فى الدين، روى ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال: «إياكم
والغلو فى الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو». (١)

﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته﴾
وقد بينا أقوال العلماء فى كونه «كلمة» وجملته (٢) ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه
بكلمته، وهى قوله: كن، فكان، والثانى: أنه يهتدى به، كما يهتدى بكلمة الله،
الثالث: كلمته: بشارته التى بشر بها فى الكتب «يكون عيسى» فهذا معنى قوله:
﴿وكلمته﴾ ﴿ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ وفى تسميته «روحا» ثلاثة أقاويل:

(١) أخرجه النسائى (٥/٢٦٨ / رقم ٣٠٥٧)، وابن ماجه (٢/١٠٠٨ / رقم ٣٠٢٩)، وأحمد (١/٢١٥)،
(٣٤٧)، وأبو يعلى (٤/٣١٦، ٣٥٧ / رقم ٢٤٢٧) وابن خزيمة (٤/٢٧٤ / رقم ٢٨٦٧، ٢٨٦٨)، وابن
حبان - الإحسان (٩/١٨٣ - ١٨٤ / رقم ٣٨٧١)، وابن الجارود (ص ١٩٣ - ١٩٤ / رقم ٤٧٣)، والحاكم
(١/٤٦٦) وصححه على شرط الشيخين والطبرانى فى الكبير (١٢/١٥٦ / رقم ١٢٧٤٧) والبيهقى فى
الكبرى (٥/١٢٧) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٢٣).

(٢) فى «ك»: وجملتها.

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

أحدها: أنه كان له روح كسائر الأرواح، إلا أن الله - تعالى - أضافه إلى نفسه تشريفا.

والثاني: أنه تحيا به القلوب، كما تحيا الأبدان بالروح.

الثالث: أن الروح: هو النفخ الذى نفخ فى مريم جبريل بإذن الله؛ فسمى ذلك النفخ روحا.

﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ وكانت النصارى يقولون بالثلاثة، كانوا يقولون: ابن، وآب، وروح القدس، وهذا معنى قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾^(١) وقوله: ﴿انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ﴾ تقديره: يكن الانتهاء خيرا لكم.

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ واعلم أن الله - تعالى - كما لا يجوز له أن يتخذ ولداً، لا يجوز عليه التبني؛ فإن التبني إنما يكون حيث يكون به الولد، فإذا لم يتصور لله ولد لم يجز عليه التبني ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ الاستنكاف: التكبر مع الأنفة، ومعناه: لن يأنف المسيح أن يكون عبدا ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ واستدل بهذه الآية من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر؛ لأن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة، وليس فى الآية مستدل، وإنما قال: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ [لا]^(٢) لامتناع مكانهم ومقامهم على مقام البشر، وإنما قال ذلك على ما عند النصارى،

(٢) ليست فى «الأصل، ولا ك»، والسياق يقتضيها.

(١) المائدة: ٧٣.

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ
لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ
مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ
إِنْ أَمْرُهُ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ

ولعله كان عندهم أن الملائكة أفضل من البشر، فقال ذلك على ما في زعمهم.

وقوله: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾ الفرق بين الاستنكاف والاستكبار: أن الاستنكاف هو التكبر مع الأنفة، والاستكبار: هو الغلو، والتكبر من غير أنفة.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ قيل: زيادة فضله: ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقيل: هو الشفاعة، وفي الحديث: «يشفع الصالحون يوم القيامة لمن يعرفون». ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ قيل: هو محمد ﷺ، على هذا أكثر المفسرين. وقيل: هو القرآن.

والبرهان في اللغة: هو الحجة ﴿وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ هو القرآن.

قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ يعني الجنة ﴿ويهديهم إليه صراطا مستقيما﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله﴾ روى عن البراء بن عازب أنه قال: آخر سورة أنزلت كاملة: سورة براءة، وآخر آية أنزلت هذه الآية.

فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ

وسبب نزول الآية ما روى: «أن النبي ﷺ دخل على جابر وهو مريض، وكان قد أغشى عليه، فدعا بماء وتوضأ، ثم رشه عليه، فأفاق، فقال جابر: يارسول الله، ماذا أصنع في مالي، وإنما ترثني كلاله؟ فنزلت الآية» (١)، وقد سبق الكلام في الكلاله.

وتلك الآية في توريث الإخوة والأخوات من الأم، وهذه الآية في توريث الإخوة والأخوات من الأب والأم، ومن (الأب) (٢) ﴿إِنْ أَمْرُ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تقديره: ليس له ولد، ولا والد، وعلى هذا أكثر العلماء، أن الكلاله: هذا، وأن الأخوة والأخوات لا يرثون مع الأب، إلا ما يحكى عن عمر - رضى الله عنه - : أنه ورثهم مع الأب، وقد سبق.

قوله - تعالى - : ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أراد به: الذكر، وعلى هذا أكثر العلماء: أن الإخوة والأخوات إنما لا يرثون مع الابن، ويرثون مع البنت، وحكى عن ابن عباس، وبه قال داود وأهل الظاهر - : أن الإخوة والأخوات لا يرثون مع البنت، تمسكا بظاهر الآية، وقد بينا أن المراد به: الإبن، والآية في نفى الفرض مع الولد وعندنا: إنما يرثون بالتعصيب، فإن الأخوات مع البنات عصبه.

قوله - تعالى - : ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ يبين الله لكم أن تضلوا.

قال الفراء: معناه: يبين الله لكم أن لاتضلوا، وهو قول أبى (٣) عبيدة، قال أبو عبيدة: وذكر الكسائي حديثا في معناه؛ فأعجبه ذلك، وذلك ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدعون أحدكم على ابنه أن يوافق قدرا» (٤) أى: أن لا يوافق قدرا.

(١) تقدم تخريجه في أول السورة تحت آية الكلاله.

(٢) في «ك»: أبو، وهو خلاف الجادة.

(٣) رواه مسلم (١٨/١٨٦-١٨٧/رقم ٣٠٠٩)، وأبو داود (٢/٨٨/رقم ١٥٣٢) وابن حبان - (الاحسان -

(١٣/٥١ - ٥٢ / رقم ٥٧٤٢) من حديث جابر.

الْأَنْثَىٰ يَبِيْنُ اللّٰهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوْا وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴿١٧٦﴾

وقال البصريون : معناه : يبين الله لكم كراهية أن تضلوا ﴿١٧٦﴾ والله بكل شيء عليم ﴿١٧٦﴾ .

والله أعلم، صدق الله وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين .

تم بحمد الله تعالى **المجلد الأول**
من تفسير أبي المظفر السمعاني
ويتلوه المجلد الثاني إن شاء الله تعالى
وأوله تفسير
سورة المائدة

